www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

للمولى

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي

الخوئي قدس سره

الجزء الثالث عشر

من منشورات

المكتبة الإسلامية

طهران - شارع ناصر خسرو

بسم الله الرحمن الرحیم

منهاج البراعه في شرح نهج البلاغه

نويسنده:

حبيب الله خوئى

ناشر چاپي:

المكتبة الاسلامية

ناشر ديجيتالي:

مركز تحقيقات رايانه‌اي قائميه اصفهان

فهرست

فهرست ----- ۵

منهاج البراعه فی شرح نهج البلاغه (عربی - فارسی) جلد ۱۳ ----- ۱۱

مشخصات کتاب ----- ۱۱

تتمة باب المختار من خطب أمیر المؤمنین علیه السلام و أوامره ----- ۱۱

اشارة ----- ۱۲

و من کلام له علیه السّلام عند دفن ----- ۱۳

اشارة ----- ۱۳

اللغة ----- ۱۴

الاعراب ----- ۱۵

المعنی ----- ۱۵

اشارة ----- ۱۵

تذنیب ----- ۲۷

خاتمة ----- ۴۲

تکملة ----- ۴۷

بیان ----- ۴۸

الترجمة ----- ۵۱

و من کلام له علیه السّلام و هو ----- ۵۲

اشارة ----- ۵۲

اللغة ----- ۵۲

الاعراب ----- ۵۲

المعنی ----- ۵۳

اشارة ----- ۵۳

تکملة ----- ۵۹

الترجمة ----- ۵۹

و من کلام له علیه السّلام کان کثیرا ما ینادی به ---- ۶۰
اشارة ---- ۶۰
اللغة ---- ۶۱
الاعراب ---- ۶۲
المعنی ---- ۶۲
اشارة ---- ۶۲
تکملة ---- ۶۷
الترجمة ---- ۶۸
و من کلام له علیه السّلام و هو المأتان ---- ۶۸
اشارة ---- ۶۸
اللغة ---- ۶۹
الاعراب ---- ۷۰
المعنی ---- ۷۱
اشارة ---- ۷۱
تکملة و تبصرة ---- ۸۰
الترجمة ---- ۹۲
و من کلام له علیه السّلام و هو المأتان ---- ۹۳
اشارة ---- ۹۳
اللغة ---- ۹۴
الاعراب ---- ۹۴
المعنی ---- ۹۵
اشارة ---- ۹۵
تکملة ---- ۱۰۶
الترجمة ---- ۱۰۷
و من کلام له علیه السّلام فی بعض ایام صفین و هو ---- ۱۰۷
اشارة ---- ۱۰۷

اللغة ---------- ۱۰۷
الاعراب ---------- ۱۰۸
المعنی ---------- ۱۰۹
اشارة ---------- ۱۰۹
تنبیه ---------- ۱۱۰
اشارة ---------- ۱۱۰
و هنا قصة لطیفة ---------- ۱۱۶
تکمیل ---------- ۱۱۷
الترجمة ---------- ۱۲۸
و من کلام له علیه السّلام و هو ---------- ۱۲۹
اشارة ---------- ۱۲۹
اللغة ---------- ۱۲۹
الاعراب ---------- ۱۳۰
المعنی ---------- ۱۳۰
الترجمة ---------- ۱۳۲
و من کلام له علیه السّلام بالبصرة و هو ---------- ۱۳۲
اشارة ---------- ۱۳۲
اللغة ---------- ۱۳۳
الاعراب ---------- ۱۳۴
المعنی ---------- ۱۳۵
اشارة ---------- ۱۳۵
تکملة ---------- ۱۴۲
تنبیه ---------- ۱۴۴
اشارة ---------- ۱۴۴
المقام الاول فی وجه تسمیتهم بالصوفیة ---------- ۱۴۷
المقام الثانی ---------- ۱۵۰

المقام الثالث ---------- ۱۵۳
أما العقائد ---------- ۱۵۳
فمنها ---------- ۱۵۳
اما الدليل العقلی علی بطلانه ---------- ۱۶۶
الاول ---------- ۱۶۶
الثانی ---------- ۱۶۷
الثالث ---------- ۱۷۰
و أما الدليل النقلی ---------- ۱۸۳
فمنه قوله عليه السّلام: فی الفصل السادس من المختار الأوّل: ---------- ۱۸۳
و منه قوله عليه السّلام فی المختار الرابع و الستين: ---------- ۱۸۴
و منه قوله عليه السّلام فی الفصل الثانی من المختار التّسعين: ---------- ۱۸۴
و منه ---------- ۱۹۰
أولها قوله: لا تحجبه السواتر اه ---------- ۱۹۱
الوجه الثانی من وجوه الدّلالة قوله عليه السّلام: الظاهر لا برؤية و الباطن لا بلطافة ---------- ۱۹۹
الوجه الثالث من وجوه الدلالة قوله عليه السّلام: بان من الأشياء بالقهر لها و القدرة ---------- ۲۰۳
الوجه الرابع قوله عليه السّلام: من وصفه فقد حدّه إلی قوله: فقد أبطل أزله ---------- ۲۰۳
و منه ---------- ۲۰۳
فمنها قوله عليه السّلام فيها: حدّ الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها ---------- ۲۰۳
و منها قوله عليه السّلام فی الخطبة المذكورة أيضا: لا تقدّره الأوهام بالحدود ---------- ۲۲۱
و منها قوله عليه السّلام فی الخطبة المذكورة أيضا: الظّاهر لا يقال متا و الباطن ---------- ۲۲۳
و منه ---------- ۲۲۳
و منه ---------- ۲۲۵
و منه ---------- ۲۲۷
فمن جملة هذه الفقرات قوله عليه السّلام: و لا حقيقته أصاب من مثله و لا ايّاه عنی ---------- ۲۲۷
و منها قوله عليه السّلام: كلّ معروف بنفسه مصنوع و كلّ قائم فی سواه معلول ---------- ۲۲۷
و منها قوله عليه السّلام: غنیّ لا باستفادة ---------- ۲۲۸

و منها قوله علیه السّلام: یخبر لا بلسان و لهوات، و یسمع لا بخروق و أدوات، یقول ---- ۲۳۳
بیان ---- ۲۴۰
و منها ---- ۲۵۴
و منها ---- ۲۷۱
و منها ---- ۲۷۳
و أما الافعال و الاعمال ---- ۲۷۹
منها ---- ۲۷۹
و منها ---- ۲۸۱
و منها ---- ۲۸۹
تذییل ---- ۳۰۶
الاول ---- ۳۰۶
الثانی من اغلاط الغزالی ---- ۳۱۳
و منها ---- ۳۲۹
المقام الرابع ---- ۳۳۵
اشارة ---- ۳۳۵
فمنها ---- ۳۳۵
الواقعة الاولی ---- ۳۳۵
الواقعة الثانیة ---- ۳۳۷
الواقعة الثالثة ---- ۳۴۳
المقام الخامس ---- ۳۴۴
المقام السادس - فی منشا الکرامات و خوارق ---- ۳۶۷
اشارة ---- ۳۶۷
منها الشعبدة ---- ۳۶۸
و منها التنجیم ---- ۳۶۸
و منها الکهانة ---- ۳۶۹
و منها السحر ---- ۳۶۹

و منها استخدام الجن و الشياطين ----- ۳۷۰
الاول سحر الكذابين ----- ۳۷۱
الاولى ----- ۳۷۱
و الثانيۀ ----- ۳۷۱
الفرقۀ الثالثۀ ----- ۳۷۱
القسم الثانى سحر أصحاب الأوهام و النفوس القوّيۀ ----- ۳۷۱
الثالث الاستعانۀ بالأرواح الأرضيّۀ و هى الجنّ ----- ۳۷۱
المقام السابع - فى مطاعن الصوفيۀ ----- ۳۷۷
اشارۀ ----- ۳۷۷
الفرقۀ الاولى الوحدتيّۀ ----- ۴۰۳
الفرقۀ الثانيۀ الواصليۀ ----- ۴۰۷
الفرقۀ الثالثۀ العشاقيۀ ----- ۴۰۸
الفرقۀ الرّابعۀ التلقيّۀ ----- ۴۰۹
الفرقۀ الخامسۀ الزّراقيّۀ ----- ۴۱۰
تنبيه و هدايۀ ----- ۴۲۶
درباره مركز ----- ۴۳۴

منهاج البراعه فی شرح نهج البلاغه (عربی - فارسی) جلد 13

مشخصات کتاب

سرشناسه:خوئی، حبیب الله بن محمدهاشم، 1268 - 1324ق.

عنوان و نام پدیدآور:منهاج البراعه فی شرح نهج البلاغه/ لمولفه حبیب الله الهاشمی الخوئی؛ بتصحیحه و تهذیبه ابراهیم المیانجی.

مشخصات نشر:تهران: مکتبه الاسلامیه؛ قم: انتشارات دار العلم، 13 -

مشخصات ظاهری:20 ج.

شابک:150 ریال (ج. 8)

یادداشت:عربی.

یادداشت:فهرستنویسی براساس جلد هشتم، 1386 ق.= 1344.

یادداشت:چاپ دوم.

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق. -- کلمات قصار

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق -- خطبه ها

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق. -- نامه ها

موضوع:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق . نهج البلاغه -- نقد و تفسیر

شناسه افزوده:میانجی، ابراهیم، 1292 - 1370.، مصحح

شناسه افزوده:علی بن ابی طالب (ع)، امام اول، 23 قبل از هجرت - 40ق . نهج البلاغه. شرح

رده بندی کنگره:BP38/02 /خ9 1300ی

رده بندی دیویی:297/9515

شماره کتابشناسی ملی:199206

ص:1

تتمة باب المختار من خطب أمیر المؤمنین علیه السلام و أوامره

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

و من كلام له عليه السّلام عند دفن

اشارة

الزهراء سلام اللّه عليها و هو

المأتان و الواحد من المختار

فى باب الخطب

و هو مروى فى الكافى و فى كشف الغمة و فى البحار من أمالى الشيخ و مجالس المفيد باختلاف و زيادة تطلع عليه انشاء اللّه ألسّلام عليک يا رسول اللّه عنّى و عن ابنتک النّازلة فى جوارک، و السّريعة اللّحاق بک، قلّ يا رسول اللّه عن صفيّتک صبرى، و رقّ عنها تجلّدى، إلاّ أنّ لى فى التّأسّى بعظيم فرقتک، و فادح مصيبتک، موضع تعزّ، فلقد وسّدتک فى ملحودة قبرک، و فاضت بين نحرى و صدرى نفسک. إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعة، و أخذت الرّهينة، أمّا حزنى فسرمد، و أمّا ليلى فمسّهد، إلى أن يختار اللّه لى

دارک الّتی أنت بها مقیم، و ستنبّئک ابنتک بتظافر أمّتک علی هضمها، فأحفها السّؤال، و استخبرها الحال، هذا و لم یطل العهد، و لم یخل منک الذّکر، و السّلام علیکما سلام مودّع، لا قال و لا سئم، فإن أنصرف فلا عن ملالة، و إن أقم فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصّابرین.

اللغة

(التجلّد)تکلّف الجلادة، و هی القوّة و الشدّة کما فی القاموس و الکنز قال الشاعر:

بتجلّدی للشامتین اریهم إنّی لریب الدّهر لا أتضعضع

أو تکلّف الجلد، و هو الصبر قال الشاعر:

ما الاصطبار لسلمی أم لها جلد إذا الاقی الّذی لاقاه أمثالی

و أصل الجلد کما فی القاموس جلد البوء تحشی تماما و یخیّل للنّاقة فتعطف بذلک علی ولد غیرها أو جلد حوار یلبس حوارا آخر لترامه امّ المسلوخة، و علی ذلک فاطلاقه علی الصّبر مجاز لعلاقة السّببیّة.

و (الفرقة) بالضّم اسم من الافتراق و (عزّیته) تعزیة قلت له: أحسن اللّه عزاک أی رزقک الصّبر الحسن، و العزاء اسم من ذلک مثل سلّم سلاما و کلّم کلاما، و تعزّی هو تصبّر و شعاره أن یقول: إنا للّه و إنّا إلیه راجعون.

و (استرجعت) و (اخذت) بالبناء علی المجهول و (السهد) بالضّم الأرق و قد سهد سهدا من باب فرح، و السّهد بضمّتین القلیل النّوم، و سهّدته فهو مسهّد أی مورق و هو ذو سهدة یقظة و (هضمه) هضما من باب ضرب دفعه عن موضعه فانهضم، و قیل: هضمه کسره و هضمه حقّه نقصه هکذا فی المصباح، و قال فی القاموس: هضم فلانا ظلمه و غصبه کاهتضمه و تهضّمه فهو هضیم.

و (الاحفاء) فی السؤال المبالغة فیه و الاستقصاء و (قلیت) الرّجل أقلیه من باب

رمى قلّى بالكسر و القصر و مقلية ابغضه فأنا قال و (سئم) الشيء ساما و سأما و سامة ملّ منه فهو سؤم و سئم و (أقام) بالبلد إقامة اتّخذه وطنا فهو مقيم.

الاعراب

قوله: إلاّ أنّ لى استثناء منقطع، و موضع تعزّ بالنصب اسم أنّ و قدّم خبرها للتوسّع، و قوله، فى ملحودة قبرك، إضافة الملحودة إلى القبر من إضافة الصّفة إلى الموصوف لا بيانيّة كما توهّم، و التّأنيث باعتبار الخطّة و الحفرة،و قوله:و أمّا ليلى فمسهّد، من المجاز العقلى من باب الاسناد إلى الزّمان كما فى قول الشاعر رحمه اللّه:

و بات و باتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد

و قوله: إلى أن يختار، ظرف لغو متعلّق بقوله مسهّد، و قوله: استخبرها الحال، قال الشّارح المعتزلى: أى عن الحال فحذف الجار، اه، و الأظهر أن يجعل الحال مفعولا به و الجار مخذوفا قبل الضّمير أى استخبر عنها الحال، و قوله: هذا و لم يطل العهد، خبر هذا محذوف على أنّه مبتدأ أو فاعل لفعل محذوف، و جملة و لم يطل فى محلّ النّصب على الحال، و قوله: لا قال و لا سئم، صفة لمودّع.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الكلام كما قال السيّد «ره» قد روى عنه عليه السّلام أنّه قاله عند دفن سيّدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام إظهارا للتّفجّع بمصابها و التّوجع من ألم فراقها كالمناجى به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله عند قبره، و ينبغى قبل الشروع فى شرح كلامه أن نذكر طرفا من الأخبار الواردة فى تسميتها سلام اللّه عليها بفاطمة و فى تلقّبها بسيّدة النساء و بالزّهراء.

أما تسميتها بفاطمة.

ففى البحار من العيون بالاسناد إلى دارم قال: حدّثنا علىّ بن موسى الرّضا و محمّد بن علىّ عليهما السّلام قالا: سمعنا المأمون يحدّث عن الرّشيد عن المهدى عن المنصور عن أبيه عن جدّه قال: قال ابن عبّاس لمعاوية: أ تدرى لم سمّيت فاطمة فاطمة؟ قال: لا، قال: لأنّها فطمت هى و شيعتها من النّار، سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقوله.

و من العيون بالأسانيد الثلاثة عن الرّضا عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إنّى سمّيت ابنتى فاطمة لأنّ اللّه عزّ و جلّ فطمها و فطم من أحبّها من النّار.

و من علل الشرائع بسنده عن يزيد بن عبد الملک عن أبى جعفر عليه السّلام قال: لمّا ولدت فاطمة سلام اللّه عليها أوحى اللّه عزّ و جلّ إلى ملک فانطق به لسان محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسمّاها فاطمة ثمّ قال: إنّى فطمتک بالعلم و فطمتک عن الطمث، ثمّ قال أبو جعفر عليه السّلام: و اللّه لقد فطمها اللّه تبارک و تعالى بالعلم و عن الطّمث فى الميثاق.

قال المحدّث العلامة المجلسى «قد» بعد نقله: فطمتک بالعلم أى أرضعتک بالعلم حتّى استغنيت و فطمت، أو قطعتک عن الجهل بسبب العلم، أو جعلت فطامک من اللبن مقرونا بالعلم كناية عن كونها فى بدء فطرتها عالمة بالعلوم الرّبانيّة، و على التقادير كان الفاعل بمعنى المفعول كالدّافق بمعنى المدفوق، و يقرأ على بناء التفعيل أى جعلتک قاطعة النّاس من الجهل، أو المعنى لما فطمها من الجهل فهى تفطم النّاس منه، و الوجهان الأخيران يشكل إجراؤهما فى قوله فطمتک عن الطمث إلاّ بتكلف بأن يجعل الطمث كناية عن الاخلاق و الأفعال الذّميمة.

و فى البحار من المناقب عن الصادق عليه السّلام قال: تدرى أىّ شىء تفسير فاطمة؟ قال: فطمت من الشرّ، و يقال إنّما سمّيت فاطمة لأنّها فطمت عن الطّمث.

و أما تلقّبها بسيّدة النساء.

فقد روى فى البحار من مناقب ابن شهر آشوب عن حذيفة أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أتانى ملک فبشّرنى أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة أو نساء امّتى.

و عن جابر بن سمرة عن النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى خبر أما أنها سيدة النساء يوم القيامة.

و من الامالى بسنده عن الحسن بن زيد العطار قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة أسيّدة نساء عالمها، قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: تاک مريم و فاطمة سيّدة نساء الجنّة من الأوّلين و الاخرين فقلت: فقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الحسن و الحسين سيدا شباب أهل الجنة؟ قال: و اللّه هما سيدا شباب أهل الجنة من الأولين

و الاخرين.

و من معانى الأخبار باسناده عن المفضل قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: أخبرنى عن قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى فاطمة: انها سيّدة نساء العالمين أهى سيّدة نساء عالمها؟ فقال: ذاک لمريم كانت سيّدة نساء عالمها و فاطمة سيّدة نساء العالمين من الأوّلين و الاخرين.

و من الأمالى بسنده عن سعيد بن المسيّب عن ابن عبّاس قال: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان جالسا ذات يوم و عنده علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين فقال: اللّهم إنک تعلم أنّ هؤلاء أهل بيتى و أكرم النّاس علىّ فاحبب من أحبّهم، و ابغض من أبغضهم، و وال من والاهم، و عاد من عاداهم، و أعن من أعانهم، و اجعلهم مطهّرين من كلّ دنس، معصومين من كلّ ذنب، و أيّدهم بروح القدس منک.

ثمّ قال: يا على أنت امام امّتى و خليفتى عليها بعدى، و أنت قائد المؤمنين إلى الجنّة، و كأنّى أنظر إلى ابنتى فاطمة قد أقبلت يوم القيامة على نجيب من نور عن يمينها سبعون ألف ملک، و بين يديها سبعون ألف ملک، و عن يسارها سبعون ألف ملک، و خلفها سبعون ألف ملک، تقود مؤمنات امّتى إلى الجنّة فأيما امرأة صلّت فى اليوم و اللّيلة خمس صلاة، و صامت شهر رمضان، و حجّت بيت اللّه الحرام، و زكت مالها، و أطاعت زوجها، و والت عليّا بعدى دخلت الجنّة بشفاعة ابنتى فاطمة، و انّها لسيّدة نساء العالمين من الأوّلين و الاخرين، و أنّها لتقوم فى محرابها فيسلّم عليها سبعون ألف ملک من الملائكة المقرّبين، و ينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة إنّ اللّه اصطفيک و طهّرک و اصطفيک على نساء العالمين.

ثمّ التفت إلى علىّ عليه السّلام و قال: يا على إنّ فاطمة بضعة منّى و هى نور عينى و ثمرة فؤادى يسوؤنى من «ما» ساءها و يسرّنى من «ما» يسرّها، و أنّها أوّل من يلحقنى من أهل بيتى فأحسن إليها بعدى، و أما الحسن و الحسين فهما ابناى و ريحانتاى و هما سيّدا شباب أهل الجنّة فليكونا عليک كسمعک و بصرک.

ثمّ رفع يده إلى السّماء فقال: اللّهمّ إنّى اشهدک أنّى محبّ لمن أحبّهم،

و مبغض لمن أبغضهم، و سلم لمن سالمهم، و حرب لمن حاربهم، و عدوّ لمن عاداهم و وليّ لمن والاهم.

و أما تلقّبها بالزّهراء.

فقد روى فى البحار من معانى الأخبار، و علل الشرائع عن الطالقانى عن الجلودى عن الجوهرى عن ابن عمارة عن أبيه قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن فاطمة لم سمّيت زهراء؟ قال: لأنها كانت إذا قامت فى محرابها ظهر نورها لأهل السّماء كما يظهر نور الكواكب لأهل الأرض.

و من العلل بسنده عن جابر عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قلت: لم سمّيت فاطمة الزهراء زهراء؟ فقال: لأنّ اللّه عزّ و جلّ خلقها من نور عظمته، فلّما أشرقت أضاءت السّماوات و الأرض بنورها، و غشيت أبصار الملائكة و خرّت الملائكة ساجدين للّه و قالوا: إلهنا و سيّدنا ما هذا النّور؟ فأوحى اللّه إليهم: هذا نور من نورى أسكنته فى سمائى خلقته من عظمتى اخرجه من صلب نبىّ من أنبيائى أفضّله على جميع الأنبياء و اخرج من ذلک النّور أئمّة يقومون بأمرى يهدون إلى حقّى «خلقى» و أجعلهم خلفائى فى أرضى بعد انقضاء وحيى.

و من المناقب عن أبى هاشم العسكر قال: سألت صاحب العسكر لم سمّيت فاطمة الزّهراء؟ فقال: كان وجهها يزهر لأمير المؤمنين عليه السّلام من أوّل النّهار كالشمس الضّاحية، و عند الزّوال كالقمر المنير، و عند غروب الشّمس كالكوكب الدّرّى.

و من العلل بسنده عن أبان بن تغلب قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: يا ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم سمّيت الزّهراء زهراء؟ قال: لأنّها تزهر لأمير المؤمنين فى النهار ثلاث مرّات بالنّور:

كان يزهر نور وجهها صلاة الغداة و النّاس فى فراشهم فيدخل بياض ذلک النور إلى حجراتهم بالمدينة فتبيض حيطانهم فيعجبون من ذلک فيأتون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيسألونه عمّار أوا، فيرسلهم إلى منزل فاطمة فيأتون منزلها فيرونها قاعدة فى محرابها تصلّى

و النّور يسطع من محرابها و من وجهها فيعلمون أن الّذى رأوه كان من نور فاطمة فاذا انتصف النّهار و ترتّبت(1) للصلاة زهر نور وجها بالصّفرة فتدخل الصّفرة فى حجرات الناس فتصفر ثيابهم و ألوانهم فيأتون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيسألونه عمّار أوا، فيرسلهم إلى منزل فاطمة عليها السلام فيرونها قائمة فى محرابها و ظهر نور وجهها صلوات اللّه عليها و على أبيها و بعلها و بنيها بالصّفرة، فيعلمون أنّ الّذى رأوا كان من نور وجهها.

فاذا كان آخر النّهار و غربت الشمس احمرّ وجه فاطمة عليها السّلام و أشرق وجهها بالحمرة فرحا و شكرا للّه عزّ و جلّ فكان تدخل حمرة وجهها حجرات القوم و تحمرّ حيطانهم فيعجبون ذلک و يأتون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسألونه عن ذلک فيرسلهم إلى منزل فاطمة فيرونها جالسة تسبّح اللّه و تمجّده و تحمده و نور وجهها يزهر بالحمرة فيعلمون أنّ الّذى رأوا كان من نور وجه فاطمة.

فلم يزل ذلک النّور فى وجهها حتّى ولد الحسين فهو يتقلّب فى وجوهنا إلى يوم القيامة فى الأئمّة منّا أهل البيت إمام بعد إمام.

إذا عرفت ذلک فلنشرع فى شرح كلامه عليه السّلام فأقول:

بدء عليه السّلام بالسلام قبل الكلام رعاية لرسم الأدب و مواظبة على النّدب فقال:

(السلام عليک يا رسول اللّه عنّى و عن ابنتک النازلة فى جوارک) أى فى البقيع كما روى عن ابن عباس فى حديث وفاتها قال: فلما أرادوا أن يدفنوها نودوا من بقعة من البقيع إلىّ إلىّ فقد رفع تربتها منّى، فنظر فاذا هى بقبر محفور، فحملوا السرير إليها فدفنوها، أو فى بيتها و هو المشهور.

روى فى البحار من المناقب قال: قال أبو جعفر الطوسى: الأصوب أنّها مدفونة فى دارها أو فى الرّوضة يؤيّد قوله قول النبّى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ بين قبرى و منبرى روضة من رياض الجنّة، و فى البخارى بين بيتى و منبرى، قالوا: حدّ الروضة

1- (1) - اى ثبتت فى محرابها كما فى اللغة أو تهيأت من الترتيب العرفى بمعنى جعل كلّ شىء فى مرتبته، و يحتمل أن يكون تصحيف تزينت، بحار.

ما بين القبر إلى المنبر إلى الاساطين الّتى تلى صحن المسجد.

و عن أحمد بن محمّد بن أبى نصر قال: سألت أبا الحسن الرّضا عليه السّلام عن قبر فاطمة، فقال: دفنت فى بيتها فلمّا زادت بنو اميّة فى المسجد صارت فى المسجد و رواه أيضا فى الكافى عن علىّ بن محمّد و غيره عن سرى بن زياد عن أحمد بن محمّد بن أبى نصر عن الرّضا عليه السّلام مثله.

(و السريعة اللحاق بک) واردة فى مقام التفجّع و التشكىّ من تواتر المحن و المصائب الموجبة لقصر عمرها و المعدّة لسرعة لحاقها به سلام اللّه عليها و على أبيها.

و روى فى البحار من المناقب عن البخارى و مسلم و الحلية و مسند أحمد بن حنبل عن عايشة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعا فاطمة فى شكواه الّذى قبض فيه فسارّها بشىء فبكت، ثم دعاها «سارّها ظ» فضحكت، فسألت عن ذلک فقالت: أخبرنى النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله سلّم أنّه مقبوض فبكيت، ثمّ أخبرنى أنّى أول أهله لحوقا به فضحكت.

و من المناقب من كتاب ابن شاهين قالت امّ سلمة و عايشة: إنّها لمّا سئلت عن بكائها و ضحكها فقالت أخبرنى النّبى صلّى اللّه عليه و آله سلّم أنّه مقبوض فبكيت، ثمّ أخبر أنّ بنيه سيصيبهم بعدى شدّة فبكيت، ثمّ أخبرنى أنّى أوّل أهله لحوقا به.

و قد اختلف الأخبار جدّا فى مدّة بقائها بعد أبيها.

قال أبو الفرج فى مقاتل الطالبيّين: كانت وفاة فاطمة بعد وفاة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله سلّم بمدّة يختلف فى مبلغها، فالمكثر يقول: ثمانية أشهر، و المقلّل يقول: أربعين يوما إلاّ أنّ الثبت فى ذلک ما روى عن أبى جعفر محمّد بن علىّ عليهما السّلام أنّها توفّيت بعده بثلاثة أشهر، حدّثنى بذلک الحسن بن علىّ عن الحرث عن ابن سعد عن الواقدى عن عمرو بن دينار عن أبى جعفر محمّد بن علىّ.

و فى كشف الغمّة و نقلت من كتاب الذّريّة الطاهرة للدّولابى فى وفاتها ما نقله عن رجاله قال: لبثت فاطمة عليها السلام بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله سلّم ثلاثة أشهر.

و قال ابن شهاب ستّة أشهر و قال الزّهرى ستّة أشهر و مثله عن عايشة و مثله عن عروة بن الزّبير.

و عن أبی جعفر محمّد بن علیّ علیهما السّلام خمسا و تسعین لیلة فی سنة إحدی عشرة و قال ابن قتیبة فی معارفه مأئة یوم و قیل ماتت فی سنة إحدی عشرة لیلة الثلثا لثلاث لیال من شهر رمضان المبارک و هی بنت تسع و عشرین سنة أو نحوها.

و فی البحار عن الکفعمی فی الثالث من جمادی الاخرة.

و فی الکافی بسنده عن أبی عبیدة عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: إنّ فاطمة مکثت بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله سلّم خمسة و سبعین یوما و کان دخلها حزن شدید علی أبیها و کان یأتیها جبرئیل فیحسن عزاها علی أبیها و یطیب نفسها و یخبرها عن أبیها و مکانه و یخبرها بما یکون بعدها فی ذرّیتها، و کان علیّ علیه السّلام یکتب ذلک.

کانت وفاة الصّدیقة سنة إحدی عشرة.

قال فی البحار بعد نقله الأخبار علی کثرة اختلافها:

أقول: لا یمکن التطبیق بین أکثر تواریخ الولادة و الوفاة و مدّة عمرها الشّریف، و لا بین تواریخ الوفاة و بین ما مرّ فی الخبر الصحیح أنّها عاشت بعد أبیها خمسة و سبعین یوما، إذ لو کان وفاة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله سلّم فی الثامن و العشرین من صفر کان علی هذا وفاتها فی أواسط جمادی الاولی، و لو کان فی ثانی عشر ربیع الأوّل کما ترویه العامة کان وفاتها فی أواخر جمادی الاولی، و ما رواه أبو الفرج عن الباقر علیه السّلام من کون مکثها بعده ثلاثة أشهر یمکن تطبیقه علی ما هو المشهور من کون وفاتها فی ثالث جمادی الاخرة هذا.

و أما مدّة عمرها فالأخبار فیه أیضا مختلفة.

ففی الکافی ولدت فاطمة بعد مبعث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بخمس سنین، و توفّیت و لها ثمان عشرة سنة و خمسة و سبعون یوما، و بقیت بعد أبیها خمسة و سبعین یوما.

و نحوه فی البحار من عیون المعجزات للسید المرتضی قال: روی أنّ فاطمة علیها السّلام توفّت و لها ثمان عشرة سنة و شهران و أقامت بعد النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خمسة و سبعین یوما و روی أربعین یوما.

و فی البحار من بعض کتب المناقب القدیمة عن سیّد الحفاظ أبی منصور الدیلمی

باسناده انّ عبد اللّه بن الحسن دخل على هشام بن عبد الملک و عنده الکلبی فقال هشام لعبد اللّه بن الحسن: یا أبا محمّد کم بلغت فاطمة بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من السّن؟ فقال: بلغت ثلاثین، فقال للکلبی: ما تقول؟ قال: بلغت خمسا و ثلاثین، فقال هشام لعبد اللّه: ألا تسمع ما یقول الکلبی؟ فقال عبد اللّه: یا أمیر المؤمنین سلنی عن امّی فأنا أعلم بها و سل الکلبی عن امّها فهو أعلم بها.

و عن العاصمی باسناده عن محمّد بن عمر قال: توفّیت فاطمة بنت محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لثلاث لیال خلون من شهر رمضان و هی بنت تسع و عشرین أو نحوها و قال محمّد بن اسحاق توفّیت و لها ثمان و عشرون سنة و قیل: سبع و عشرون سنة.

و فی روایة أنّها ولدت علی رأس سنة إحدی و أربعین من مولد النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیکون سنّها علی هذا ثلاثا و عشرین، و الأکثر علی أنّها کانت بنت تسع و عشرین أو ثلاثین، و اللّه العالم بحقایق الوقایع.

ثمّ إنّه علیه السّلام بعد السلام علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شرع فی اظهار التفجّع و الأسف فقال:

(قلّ یا رسول اللّه عن صفیّتک صبری) قال الشّارح المعتزلی اجلّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن أن یقول عن ابنتک فقال عن صفیّتک و هذا من لطایف عبارته و محاسن کنایته علیه السّلام أقول: و فیه مضافا إلی ذلک الاشارة إلی کونها صفیّة له مختارة عنده کما أنّها کانت صفیّة للّه حسبما عرفت فی روایة الامالی المتقدّمة فی وجه تسمیتها بسیّدة النّساء من أنّ الملائکة یسلّمون علیها و ینادونها بما نادت به الملائکة مریم فیقولون: یا فاطمة إنّ اللّه اصطفیک و طهّرک و اصطفیک علی نساء العالمین.

و فی البحار من الخصال فیما أوصی به النّبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی علیّ علیه السّلام یا علیّ إنّ اللّه عزّ و جلّ أشرف علی الدّنیا فاختارنی منها علی رجال العالمین، ثمّ اطلع الثانیة فاختارک علی رجال العالمین بعدی، ثمّ اطلع الثالثة فاختار الأئمة من ولدک علی رجال العالمین بعدک، ثمّ اطلع الرّابعة فاختار فاطمة علی نساء العالمین و فیه الاشارة أیضا إلی ما کان له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حقّها من التبجیل و المحبّة

و الاعظام ما لم يكن فى حقّ غيره حتّى روى عن القرطبى فى كتاب إكمال الاكمال أنّ فاطمة «رض» أحبّ بناته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أكرمهنّ عنده و سيّدة نساء الجنّة و كان إذا قدم من سفره بدء بالمسجد فيصلّى ركعتين ثمّ ببيت فاطمة «رض» فيسأل عنها ثمّ يدور على نسائه إكراما لفاطمة و اعتناء بها.

و فى البحار من الامالى بسنده عن عايشة بنت طلحة عن عايشة قالت:

ما رأيت أحدا من النّاس أشبه كلاما و حديثا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من فاطمة كانت إذا دخلت عليه رحّب بها و قبّل يديها و أجلسها فى مجلسه، فاذا دخل عليها قامت إليه فرحّبت به و قبّلت يديه، الخبر.

و من المناقب من جامع الترمدى و ابانة العكبرى و اخبار فاطمة عن أبى علىّ الصّولى و تاريخ خراسان عن السّلامى مسندا أنّ جميعا التميمى قال: دخلت مع عمّتى على عايشة فقالت لها عمّتى: ما حملك على الخروج على علىّ؟ فقالت عايشة:

دعينا فو اللّه ما كان أحد من الرّجال أحبّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من علىّ، و لا من النساء أحبّ إليه من فاطمة و قوله (و رقّ عنها تجلّدى) أى ضعف عن فراقها تحملى للجلد و الصبر من عظم الرّزية و شدّة المصيبة.

(إلاّ أنّ لى فى التأسّى) و الاقتداء (بعظيم فرقتک و فادح مصيبتک موضع تعزّ) و هو وارد مورد التسلية لنفسه القدسيّة، فانّه لمّا ذكر عظم وجده فى افتقاد الصديقة سلام اللّه عليها و شدّة تأثيره فيه استدرک ذلک بأنّى قد اصبت قبل ذلک بعظيم فراقک و ثقيل مصابک فصبرت عليه مع كونه أعظم رزء و أشدّ تأثيرا فينبغى لى أن أقتدى فى الصّبر على تلک المصيبة الحادثة بالصبر على هذه المصيبة الماضية لكونها سهلا عندها.

و بعبارة أوضح فكأنّه يقول: إنّ صفيّتک و ان عظم بفراقها المصاب و قلّ عنها الصبر و التحمل إلاّ أنّ فراقک قد كان أعظم و أجلّ، و مصابک أشدّ و أثقل فكما صبرت فى تلک الرّزيّة العظمى فلئن أصبر فى هذه المصيبة كان أولى و أحرى

ثمّ أكّد شدّة تأثّره بفراقه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشرح بعض حالاته معه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين موته المفيدة لمزيد اختصاصه به فانّ الاختصاص كلّما كان أزيد كان تأثير الفراق أشدّ فقال (فلقد وسّدتک فی ملحودة قبرک)أی اتّخذت لک وسادة فیقبرکالمعمولة فیها اللّحد و هو كناية عن دفنه له فيها بيده.

(و فاضت بين نحری و صدری نفسک) و قد مضی تحقيق معنى هذه الفقرة و تفصيل الكلام فيها و فی سابقتها فی شرح الخطبة المأة و السادسة و التّسعين فليراجع هناک.

و المراد بهاتين الفقرتين حسبما أشرنا إليه إظهار مزيد تفجّعه بمصيبته به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تجرّعه بغصص الفراق، فانّ أعظم المصائب و أشدّ الالام أن يخرج روح أحبّ الخلق إلى الرّجل و رأسه فی صدره و أن يدفنه بيده فی قبره.

ثمّ لمّا كان الاسترجاع موجبا للسّلوة و لجبران المصيبة مضافا إلى ما فيه من عظيم الأجر و الاستبشار بالنعمة الدّائمة استرجع و قال:

(إنّا للّه و إنّا إليه راجعون) أمّا الاستبشار فلقوله تعالى «وَ بَشِّرِ الصّابِرِينَ اَلَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ أُولئِکَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » و أمّا السّلوة و الأجر العظيم:

فلما رواه فی الصّافی من مجمع البيان عن النّبیّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من استرجع عند المصيبة جبر اللّه مصيبته و أحسن عقباه، و جعل له خلفا صالحا يرضيه قال: و قال:

من اصيب بمصيبة فأحدث استرجاعا و إن تقادم عهدها كتب اللّه له من الأجر مثله يوم أصيب.

و فيه من الكافی عن الباقر عليه السّلام ما من عبد يصاب بمصيبة فيسترجع عند ذكر المصيبة إلاّ غفر اللّه له كلّ ذنب فيما بينهما.

و عن الصّادق عليه السّلام من ذكر مصيبة و لو بعد حين فقال: إنّا للّه و إنّا إليه راجعون و الحمد للّه ربّ العالمين اللّهمّ أجرنی على مصيبتی و اخلف علیّ أفضل منها، كان له من الأجر مثل ما كان له عند أوّل صدمته.

و قوله عليه السّلام(فلقد استرجعت الوديعة و أخذت الرّهينة)استعار عليه السّلام لفظ الوديعة و الرّهينة لتلک النفس الكريمة لأنّ الأرواح كالوديعة و الرّهن فى الأبدان أو لأنّ النّساء كالودايع و الرّهاين عند الأزواج يجب عليهم مراقبتهنّ و محافظتهنّ كما يجب على المستودع و المرتهن حفظ الودايع و الرّهاين.

ثمّ ذكر ما ناله من تلک المصيبة فقال:(أمّا حزنى فسرمد و أمّا ليلى فمسهّد إلى أن يختار اللّه لى دارک الّتى أنت بها مقيم)يريد أنّ حزنه دائم و أنّه يسهر ليله إلى انتقاله إلى الدّار الاخرة و التحاقه برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مجلس القدس و محفل الانس.

و هذا كما قال الشّارح المعتزلى من باب المبالغة الّتى يستعملها الفصحاء و الشّعراء فى كلامهم و هو من محاسن البلاغة قال الشاعر:

قال لى كيف أنت قلت عليل سهر دائم و حزن طويل

و إنما قلنا: إنه من باب المبالغة لأنه ما سهر منذ ماتت فاطمة عليها السّلام إلى أن قتل و انما أسهر ليلة أو شهرا أو سنة نعم دوام الحزن فهو على حقيقته فانه لم يزل حزينا اذا ذكرت فاطمة عليها السلام عنده.

ثمّ ساق الكلام مساق التشكّى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من سوء فعل الامة بعده فقال(و ستنبئک ابنتک بتظافر امّتک على هضمها)لا يخفى ما فى هذه العبارة من حسن البيان مع بديع الايجاز فانّ التظافر بمادّته التى هى الظفر و هو الفوز على المطلوب يدلّ على أنّ هضمها كان مطلوبا لهم لكنهم لم يكونوا متمكّنين من الفوز به ما دام كونه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيا بين أظهرهم، فلما وجدوا العرصة خالية من وجوده الشريف فازوا به.

و ان كان مأخوذا من أظفر الصقر الطائر من باب افتعل و تظافر أى أعلق عليه ظفره و أخذه برأسه فيدلّ على أنهم علقوا أظفارهم على هضمها قاصدين بذلک قتلها و إهلاكها.

ثمّ إنّ المعانى الخمسة المذكورة للهضم كلّها مناسبة للمقام.

ص:14

أما المعنى الأوّل فلأنهم قد تظافروا على رفعها عن محلّها و مقامها الذى كان لها و حطّوها عن مرتبتها المقرّرة و لم يراعوا فى حقّها ما كان لازما عليهم من التبجيل و الاعظام و التعظيم و الاكرام، بل عاملوا معها معاملة الرّعية و السوقة حتى ألجئوها إلى الخروج إلى مجامع الرّجال فى أمر فدک و غيره مثل ساير النسوة البرزة.

و على المعنى الثانى فيكون إشارة إلى ما صدر عنهم من كسر ضلعها و اسقاط جنينها يوم اخراجه عليه السّلام من البيت ملببا للبيعة.

و على الثالث فيكون إشارة إلى اجتماعهم على نقص حقّها المقرّر لها بقوله تعالى: «وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ ».

و مثله المعنى الخامس فيكون إشارة إلى غصب فدک.

و أما المعنى الرّابع فهو أولى بالارادة لشموله جميع مظالمها و ما وقع فى حقّها من الظلم و الجور، فالى اللّه المشتكى من سوء عمل الامة و شنيع فعلهم بالعترة و ما أدرى

ما ذا يقولون إذ قال النبىّ لهمما ذا فعلتم و أنتم آخر الامم

بعترتى و بأهلى بعد مفتقديمنهم اسارى و منهم ضرّجوا بدم

ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكمأن تخلفونى بسوء فى ذوى رحم

(فاحفها السّؤال) أى بالغ فى سؤالها و استقص فى مسألتها (و استخبرها الحال) أى حالها و حالى بعد ارتحالک و افتقادک.

(هذا) أى تظافر الامّة على الهضم كائن (و) الحال انّه (لم يطل العهد) أى عهدهم بک أو ما عاهدتهم عليه من المودّة فى القربى و المواظبة بالثّقلين (و لم يخل منک الذّكر) أى لم يرتفع ذكرک الجميل عن أفواههم.

و محصّله انه لم يطل المدّة من موتک حتى ينسوا وصاياک المتأكدة فى حقّ العترة أو يغفلوا من صنايعک العظيمة فى حقّهم فيقابلوها بهذا الكفران العظيم.

و لما أراد الوداع ختم كلامه بالسلام كما بدء به جريا على مجارى عادة

ص:15

الأحباب عند وداع بعضهم لبعض فقال (و السلام عليكما سلام مودّع) محبّ مشتاق مشفق (لا قال و لا سئم) أى لا مبغض لكما و لا ملول من طول صحبتكما و أوضح ذلک بقوله (فان أنصرف) عن زيارتكما (فلا عن ملالة و ان اقم) أى أقمت عند ضريحكما (فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصابرين) بقوله: «أُولئِکَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ».

تذنيب

ينبغى لنا أن نذكر شطرا من الأخبار فيما وقع عليها من الظلم و بكائها و حزنها و شكايتها فى مرضها و كيفيّة وفاتها و دفنها صلوات اللّه عليها و لعنة اللّه على غاصبى حقّها و ظالميها فأقول:

روى فى كشف الغمة عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: البكّاؤون خمسة: آدم، و يعقوب و يوسف، و فاطمة بنت محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و علىّ بن الحسين عليهم السّلام.

فأما آدم فبكى على الجنة حتى صار فى خدّيه مثل الأودية.

و أما يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره و حتى قيل له: تاللّه تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين.

و أما يوسف فبكى على يعقوب حتّى تأذّى به أهل السّجن فقالوا: إمّا أن تبكى بالنهار و تسكت باللّيل، و إمّا أن تبكى اللّيل و تسكت النّهار فصالحهم على واحد منهما.

و أمّا فاطمة فبكت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى تأذى بها أهل المدينة فقالوا لها قد آذيتنا بكثرة بكائک فكانت تخرج إلى مقابر الشهداء فتبكى حتّى تقضى حاجتها و تنصرف.

و أمّا علىّ بن الحسين فبكى على الحسين عليه السّلام عشرين سنة أو أربعين و ما وضع بين يديه طعام قطّ إلاّ بكى حتّى قال له عليه السّلام مولى له: جعلت فداک يا ابن رسول اللّه إنّى أخاف عليک أن تكون من الهالكين قال: انّما أشكو بثّى و حزنى إلى اللّه و أعلم من اللّه ما لا تعلمون، إنّى لم أذكر مصرع بنى فاطمة إلاّ خنقتنى

لذلک العبرة.

و فی البحـار من الأمـالی عن الـدّقاق عن الأسـدی عن النخعی عن النوفلی عن البطـائی عن أبیه عن ابن جبیر عن ابن عباس فی خبر طویل أخبر فیه النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بظلم أهل البیت قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

و أما ابنتی فاطمة فانها سـیّدة نساء العالمین من الأوّلین و الاخرین، و هی بضعة منی، و هی نور عینی، و هی ثمرة فؤادی، و هی روحی التی بین جنبی، و هی الحوراء الانسـیة متی مـا قامت فی محرابها بین یـدی ربّها جلّ جلاله زهر نورها لملائکـة السـماء کما یزهر نور الکواکب لأهل الأرض و یقول اللّه عزّ و جلّ لملائکته: یا ملائکتی انظروا إلی أمتی فاطمة سـیدة إمائی قائمة بین یدی ترتعد فرائصـها من خیفتی و قد أقبلت بقلبها علی عبادتی اشهدکم أنی قد امنت شیعتها من النار.

و انی لما رأیتها ذکرت ما یصـنع بها بعدی کأنّی بها و قد دخل الذّلّ بیتها و انتهکت حرمتها و غصـبت حقها و منعت ارثها و کسـر جنبها و اسـقطت جنینها و هی تنادی یا محمّداه فلا تجاب و تستغیث فلا تغاث، فلا تزال بعدی محزونة مکروبة باکیة تتذکّر انقطاع الوحی عن بیتها مرّة و تتـذکّر فراقی اخری و تسـتوحش إذا جنّها اللّیل لفقد صوتی الذی کانت تسـتمع إلیه إذا تهجّدت بالقرآن، ثمّ تری نفسـها ذلیلة بعد أن کانت أیام أبیها عزیزة، فعند ذلک یونسـها اللّه تعالی ذکره بالملائکة فنادتها بما نادت به مریم بنت عمران فتقول یا فاطمة إنّ اللّه اصـطفیک و طهّرک و اصطفیک علی نساء العالمین یا فاطمة اقنتی لربک و اسجدی و ارکعی مع الراکعین.

ثمّ یبتدء بها الوجع فتمرض فیبعث اللّه عزّ و جلّ إلیها مریم بنت عمران تمرّضـها و تونسـها فی علّتها فتقول عند ذلک: یا ربّ إنّی قد سئمت الحیاة و تبرّمت بأهل الـدّنیا فألحقنی بأبی فتکون أوّل من یلحقنی من أهل بیتی، فتقـدم علیّ محزونـة مکروبة مغمومة مغصوبة مقتولة فأقول عند ذلک: اللهمّ العن من ظلمها و عاقب من غصـبها و ذلّل من أذلّها، و خلّد فی نارک من ضرب جنبیها حتّی ألقت ولدها فتقول الملائکة عند ذلک: آمین.

ص:17

و من كتاب دلائل الامامة للطبرى بالاسناد عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قبضت فاطمة فى جمادى الاخرة يوم الثلثاء لثلاث خلون منه سنة إحدى عشر من الهجرة، و كان سبب وفاتها أنّ قنفذ مولى عمر لكزها بنعل السيف بأمره فأسقطت محسنا و مرضت من ذلک مرضا شديدا و لم تدع أحدا ممّن أذاها يدخل عليها.

و كان الرّجلان من أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سألا أمير المؤمنين أن يشفع لهما إليها فسألها أمير المؤمنين عليه السّلام فلما دخلا عليها قالا لها: كيف أنت يا بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ قالت: بخير بحمد اللّه، ثمّ قالت لهما: ما سمعتما النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: فاطمة بضعة منّى من آذاها فقد آذانى و من آذانى فقد آذى اللّه، قالا: بلى، قالت: فو اللّه لقد آذيتمانى، قال: فخرجا من عندها و هى ساخطة عليهما أقول: و قد تقدّم فى المقدّمة الثالثة من مقدّمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية برواية سليم بن قيس الهلالى تفصيل كيفية دخول قنفذ اللعين بيت فاطمة و إحراق بابها و بعض مظالمها، و اورد هنا بعض ما تقدّم من رواية سليم ملخصا و نضيف إليه ما لم يتقدّم هناک بحسب اقتضاء المقام و ما اورده هنا أنقله من المجلد العاشر من البحار على ما لخصّه أيضا فأقول:

قال المحدّث العلامة المجلسىّ: وجدت فى كتاب سليم بن قيس الهلالى برواية أبان بن أبى عياش عنه عن سلمان و عبد اللّه بن العبّاس قالا: توفّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوم توفّى فلم يوضع فى حفرته حتّى نكث النّاس و ارتدّوا و أجمعوا على الخلاف و اشتغل علىّ عليه السّلام برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى فرغ من غسله و تكفينه و تحنيطه و وضعه فى حفرته، ثمّ أقبل على تأليف القرآن و شغل عنهم بوصيّة رسول اللّه فقال عمر لأبى بكر: يا هذا إنّ النّاس أجمعين قد بايعوک ما خلا هذا الرّجل و أهل بيته فابعث إليه، فبعث إليه ابن عمّ لعمر يقال له: قنفذ، فقال: يا قنفذ انطلق إلى علىّ فقل له أجب خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبعثا مرارا و أبى علىّ عليه السّلام أن يأتيهم فوثب عمر غضبانا و نادى خالد بن الوليد و قنفذا فأمرهم أن يحملا حطبا و نارا

ثم أقبل حتّى انتهى إلى باب علىّ عليه السّلام و فاطمة عليها السلام قاعدة خلف الباب قد عصبت رأسها و نحل جسمها فى وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأقبل عمر حتّى ضرب الباب ثمّ نادى يا ابن أبى طالب افتح الباب. فقالت فاطمة عليها السلام خلف الباب: يا عمر ما لنا و لک لا تدعنا و ما نحن فيه، قال: افتحى الباب و إلاّ أحرقنا عليكم، فقالت يا عمر، أما تتّقى اللّه تدخل على بيتى و تهجم على دارى بغير اذنى فأبى أن ينصرف.

ثمّ دعا عمر بالنار فأضرمها فى الباب فأحرق الباب ثمّ دفعه عمر فدخل فاستقبلته فاطمة و صاحت يا أبتاه يا رسول اللّه، فرفع عمر السّيف و هو فى غمده فوجى به جنبها فصرخت يا أبتاه، فرفع السّوط فضرب به ذراعها و نادت يا رسول اللّه بئس ما خلفک أبو بكر و عمر.

فوثب علىّ بن أبى طالب عليه السّلام فأخذ بتلابيب عمر فصرعه و وجى أنفه و رقبته و همّ بقتله فذكر قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما أوصاه به من الصبر و الطّاعة فقال: و الذى أكرم محمّدا بالنّبوة يا ابن صحاک لو لا كتاب من اللّه سبق لعلمت أنّک لا تدخل بيتى فأرسل عمر يستغيث فأقبل النّاس حتّى دخلوا الدّار فكاثروه و ألقوا فى عنقه حبلا فحالت بينهم و بينه فاطمة عند باب البيت فضربها قنفذ الملعون بالسوط فماتت حين ماتت و أن فى عضدها كمثل الدّملج من ضربته لعنه اللّه، فألجأها إلى عضادة بيتها و دفعها فكسر ضلعها من جنبها فألقت جنينا من بطنها، فلم تزل صاحبة فراش حتى ماتت صلّى اللّه عليها من ذلک شهيدة - و ساق الحديث إلى أن قال - قال ابن عباس: ثمّ إنّ فاطمة بلغها أنّ أبا بكر قبض فدكا فخرجت فى نساء بنى هاشم حتى دخلت على أبى بكر فقال: يا أبا بكر أ تريد أن تأخذ منى أرضا جعلها لى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فدعا أبو بكر بدواة ليكتب به لها فدخل عمر لعنه اللّه فقال:

يا خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا تكتب لها حتى تقيم البينة بما تدّعى، فقالت فاطمة:

علىّ و امّ أيمن يشهدان بذلک فقال عمر: لا نقبل شهادة امرأة أعجميّة لا تفصح و أما علىّ فيجرّ النار إلى قرصته، فرجعت فاطمة عليها السّلام مغتاظة فمرضت و كان علىّ عليه السّلام يصلّى فى المسجد الصلوات الخمس، فلمّا صلّى قال له أبو بكر و عمر

كيف بنت رسول اللّه إلى أن ثقلت فسألا عنها و قالا و قد كان بيننا و بينها ما قد علمت فان رأيت أن تأذن لنا لنعتذر إليها من ذنبنا، قال: ذاک إليكما، فقام فجلسا فى الباب.

فـدخل علىّ على فاطمة فقال: أيّتها الحرّة فلان و فلان فى الباب يريدان أن يسـلّما عليک فما تريدين؟ قالت: البيت بيتک و الحرّة زوجتک و افعل ما تشاء، فقال: سدّى قناعک فسدّت قنّاعها و حوّلت وجهها إلى الحائط، فدخلا و سـلّما و قالا ارضـى عنا رضى اللّه عنک، فقالت: ما دعا إلى هـذا فقالا اعترفنا بالاساءة و رجونا أن تعفى عنا، فقالت إن كنتما صادقين فأخبرانى عما أسألكما عنه فانى لا أسألكما عن أمر إلاّ و أنا عارفـة بأنكما تعلمانه، فان صـدقتما علمت أنكما صادقان فى مجيئكما قالا: سل عما بدا لک، قالت: نشدتكما باللّه هل سـمعتما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:

فاطمـة بضـعة منى فمن آذاها فقـد آذانى؟ قالا: نعم، قال: فرفعت يدها إلى السـماء فقالت: اللهم إنهما قد اذيانى فأنا أشـكوهما إليک و إلى رسولک لا و اللّه لا أرضـى عنكما أبـدا حتى ألقى أبى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و اخبره بما صـنعتما فيكون هو الحاكم فيكما قال: فعند ذلک دعى أبو بكر بالويل و الثبور و جزع جزعا شديدا فقال عمر له:

تجزع يا خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قول امرأة؟!.

قال: فبقيت فاطمة بعد وفاة أبيها أربعين ليلة فلما اشتدّ بها الأمر دعت عليها السّلام عليا و قالت: يا ابن عمّ ما أرانى إلاّ لما بى و إنى اوصيک أن تتزوّج بامامـة بنت اختى زينب يكون لولـدى مثلى، و اتّخـذ لى نعشا فانّى رأيت الملائكة يصـفونه لى، و أن لا يشـهد أحد من أعداء اللّه جنازتى و لا دفنى و لا الصلاة علىّ.

قال ابن عباس: فقبضت فاطمـة عليها السـلام من يومها، فارتجّت المدينـة بالبكاء من الرّجال و النساء، و دهش الناس كيوم قبض فيه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأقبل أبو بكر و عمر يعزّيان عليا عليه السّلام و يقولان له: يا أبا الحسن لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فلما كان الليل دعا علىّ عليه السّلام العباس و الفضل و المقداد و سلمان و أبا ذر و عمارا

فقدّم العباس و صلّى عليها و دفنوها ليلا.

فلما أصبح الناس أقبل أبو بكر و عمر و الناس يريدون الصلاة على فاطمة عليها السّلام فقال المقداد: قد دفنّا فاطمة البارحة، فالتفت عمر إلى أبى بكر فقال: ألم أقل لک إنهم سيفعلون فقال العباس: إنها أوصت أن لا تصلّيا عليها، فقال عمر: لا تتركون يا بنى هاشم حسدكم القديم لنا أبدا إن هذه الضغائن الذى فى صدوركم لن تذهب و اللّه لقد هممت أن انبشها فأصلّى عليها، فقال علىّ عليه السّلام: و اللّه لو رمت ذلک يا ابن صهاک لا رجعت إليک يمينک، لئن سللت سيفى لاغمدته دون إزهاق نفسک، فانكسر عمر و سكت و علم أنّ عليا عليه السّلام إذا حلف صدق.

ثمّ قال علىّ عليه السّلام يا عمر أ لست الذى همّ بک رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أرسل إلىّ فجئت متقلّدا سيفى ثمّ أقبلت نحوک لأقتلک فأنزل اللّه عزّ و جلّ «فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ».

و فى كشف الغمة روى أنها عليها السلام أوصت عليا و أسماء بنت عميس أن يغسلاها.

و عن ابن عباس قال: مرضت فاطمة مرضا شديدا فقالت لأسماء بنت عميس ألا ترين إلى ما بلغت(1) فلا تحملينى على سرير ظاهر فقالت: لا لعمرى و لكن أصنع نعشا كما رأيت يصنع بالحبشة قالت: فأرنيها، فأرسلت إلى جرايد رطبة فقطعت من الأسواق ثمّ جعلت على السرير نعشا و هو أوّل ما كان النعش، فتبسّمت و ما رأيت متبسّمة إلاّ يومئذ ثمّ حملناها و دفناها ليلا و صلّى عليها العباس بن عبد المطلب و نزل فى حفرتها هو و علىّ و الفضل بن العباس.

و عن أسماء بنت عميس أنّ فاطمة عليها السلام بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قالت انى قد استقبحت ما يصنع بالنساء إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها لمن رأى فقالت أسماء: يا بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنى أريک شيئا رأيته بأرض الحبشة قال:

فدعت بجريدة رطبة فحسنتها ثمّ طرحت عليها ثوبا فقالت فاطمة: ما أحسن هذا و أجمله لا تعرف به المرأة من الرجل، قال: قالت فاطمة: فاذا متّ فاغسلينى أنت و لا يدخلنّ

1- (1) - اى من نحول الجسم و الضعف كما صرّح به فى رواية اخرى، منه.

علیّ أحد، فلما توفیت فاطمة جاءت عایشة تدخل علیها فقالت أسـماء: لا تدخل فکلّمت عایشة أبا بکر فقالت: إن هذه الخثعمیّة تحول بیننا و بین ابنة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد جعلت لها مثل هودج العروس، فقالت أسماء: أمرتنی أن لا یدخل علیها أحد و أریتها هذا الذی صنعت و هی حیّة فأمرتنی أن أصنع لها ذلک فقال أبو بکر: اصنعی ما أمرتک، فانصرف و غسلها علیّ و أسماء.

و قیل: قالت فاطمة لأسماء حین توضأت وضوءها للصلاة: هاتی طیبی الذی أ تطیّب به، و هاتی ثیابی الّتی اصلّی فیها، فتوضأت ثمّ وضعت رأسها فقالت لها:

اجلسـی عند رأسـی فاذا جاء وقت الصـلاة فأقیمینی فان قمت و إلاّ فأرسلی إلی علیّ فلما جاء وقت الصلاة قالت: الصلاة یا بنت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، فاذا هی قد قبضت فجاء علیّ علیه السّلام فقالت له: قد قبضت ابنة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال علیّ: متی؟ قالت: حین أرسـلت إلیک، قال: فأمر أسـماء فغسلتها و أمر الحسن و الحسین یدخلان الماء، و دفنها لیلا و سوّی قبرها فعوتب علی ذلک فقال: بذلک أمرتنی.

و فی البحار من مناقب ابن شهر آشوب عن ابن جبیر عن ابن عباس قال:

أوصت فاطمة علیها السلام أن لا یعلم إذا ماتت أبو بکر و لا عمر، و لا یصلّیا علیها قال: فدفنها علیّ لیلا و لم یعلمهما بذلک.

و عن الأصبغ بن نباتة أنّه سأل أمیر المؤمنین علیه السّلام عن دفنها لیلا، فقال:

إنّها کانت ساخطة علی قوم کرهت حضورهم جنازتها و حرام علی من یتولاّهم أن یصلّی علی أحد من ولدها.

و روی أنّه علیه السّلام سوّی قبرها مع الأرض مستویا و قالوا سوّی حوالیها قبورا مزورة مقدار سبعة حتّی لا یعرف قبر لها.

و روی انّه رشّ أربعین قبرا حتی لا یبین قبرها من غیره من القبور، فیصلّوا علیها.

و فی البحار وجدت فی بعض الکتب خبرا فی وفاتها علیها السلام فأحببت ایراده و إن لم آخذه من أصل یعوّل علیه.

ص:22

روى ورقـة بن عبد اللّه الازدى قال: خرجت حاجّا إلى بيت اللّه الحرام راجيا لثواب اللّه ربّ العالمين فبينما أنا أطوف و إذا أنا بجارية سـمراء مليحة الوجه عذبة الكلام و هى تنادى بفصاحة منطقها و تقول:

اللهمّ ربّ الكعبـة الحرام و الحفظـة الكرام و زمزم و المقام و المشاعر العظام و ربّ محمّد خير الأنام البررة الكرام أن تحشـرنى مع ساداتى الطّاهرين و أبنائهم الغرّ المحجلين الميامين، ألا فاشـهدوا يا جماعة الحجّاج و المعتمرين إنّ موالىّ خيرة الأخيار و صفوة الأبرار الذين علا قدرهم على الأقدار و ارتفع ذكرهم فى ساير الأمصار المرتدين بالفخار.

قال ورقـة بن عبد اللّه فقلت: يا جارية إنى لأظنک من موالى أهل البيت، فقالت أجل قلت: و من أنت من مواليهم؟ قالت: أنا فضّة أمة فاطمة الزّهراء ابنـة محمّـد المصـطفى صـلّى اللّه عليهـا و على أبيها و بعلها و بنيها، فقلت لها: مرحبا بک و أهلا و سـهلا فلقـد كنت مشـتاقا إلى كلامک و منطقک فاريـد منک الساعـة أن تجيبنى من مسألة أسألک فاذا أنت فرغت من الطواف قفى لى عند سوق الطعام حتى آتيک و أنت مثابة مأجورة فافترقنا فى الطواف.

فلمـا فرغت من الطواف و أردت الرجوع إلى منزلى جعلت طريقى على سوق الطعـام و إذا بهـا جالسـة فى معزل عن الناس، فأقبلت إليها و اعتزلت بها و أهديت إليها هدية و لم أعتقد أنها صدقة ثمّ قلت لها: يا فضّة أخبرينى عن مولاتک فاطمة الزّهراء عليها السلام و ما الذى رأيت منها عند وفاتها بعد موت أبيها محمّد صلّى اللّه عليه و آله سلّم.

قال ورقـة: فلما سـمعت كلامى تغرغرت عيناه بالـدّموع ثمّ انتحبت نادبة و قالت: يا ورقة بن عبد اللّه هيّجت علىّ حزنا ساكنا و أشـجانا فى فؤادى كانت كامنة فاسمع الان ما شاهدت منها.

اعلم أنه لما قبض رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم افتجع له الصغير و الكبير و كثر عليه البكاء و قلّ العزاء و عظم رزؤه على الأقرباء و الأصحاب و الأولياء و الأحباب و الغرباء و الأنساب، و لم تلق إلاّ كلّ باک و باكية و نادب و نادبة، و لم يكن فى أهل الأرض

و الأصحاب و الأقرباء أشدّ حزنا و أعظم بكاء و انتحابا من مولاتی فاطمة الزهراء، و كان حزنها يتجدّد و يزيد، و بكاؤها يشتدّ فجلست سبعة أيام لا يهدى لها أنين و لا يسكن منها حنين، و كلّ يوم جاء كان بكاؤها أكثر من اليوم الأول.

فلما كان فی اليوم الثامن أبدت ما كتمت من الحزن فلم تطق صبرا إذ خرجت و صرخت فكأنها من فم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنطق، فتبادرت النسوان و خرجت الولايد و الولدان، و ضجّ الناس بالبكاء و النحيب، و جاء الناس من كلّ مكان، و اطفيت المصابيح لكيلا تتبيّن صفحات النساء، و خيّل إلى النسوان أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد قام من قبره، و صار الناس فی دهشة و حيرة لما قد رهقهم، و هی تنادی و تندب أباه وا أبتاه وا صفيّاه وا محمّداه وا أبا القاسماه و اربيع الأرامل و اليتامی اه من للقبلة و المصلّی، و من لابنتک الوالهة الثكلی.

ثمّ أقبلت تعثر فی أذيالها و هی لا تبصر شيئا من عبرتها و من تواتر دمعتها حتی دنت من قبر أبيها محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلمّا نظرت إلى الحجرة وقع طرفها على المأذنة فقصر خطاها و دام نحيبها و بكاها إلى أن اغمی عليها، فتبادرت النسوان إليها فنضحن الماء عليها و على صدرها و جبينها حتّى أفاقت و هی تقول:

رفعت قوّتی، و خاننی جلدی، و شمت بی عدوّی، و الكمد قاتلی، يا أبتاه بقيت و الهة وحيدة و حيرانة فريدة فقد انخمد صوتی، و انقطع ظهری، و تنغّص عيشی، و تكدّر دهری، فما أجد يا أبتاه بعدک أنيسا لوحشتی، و لا رادا لدمعتی و لا معينا لضعفی، فقد فنی بعدک محكم التنزيل، و مهبط جبرئيل، و محلّ ميكائيل انقلبت بعدک يا أبتاه الأسباب، و تغلّقت دونی الأبواب، فأنا للدّنيا بعدک قالية، و عليک ما ترددت أنفاسی باكية، لا ينفد شوقی إليک، و لا حزنی عليک.

ثمّ نادت: يا أبتاه و البّاه ثمّ قالت:

إنّ حزنی عليک حزن جديد و فؤادی و اللّه صبّ عنيد

كلّ يوم يزيد فيه شجونی وا كتئا بی عليک ليس يبيد

جلّ خطبی فبان عنّی عزائی فبكائی كلّ وقت جديد

إنّ قلبا عليک يألف صبرا أو عزاء فانّه لجليد

ثمّ نادت: يا أبتاه انقطعت بک الدّنيا بأنوارها، و زوت زهرتها و كانت ببهجتک زاهرة فقد اسودّ نهارها، فكان يحكى حنادسها رطبها و يابسها، يا أبتاه لا زالت آسفة عليک إلى التّلاق، يا أبتاه زال غمصى منذ حقّ الفراق، يا أبتاه من للأرامل و المساكين، و من للأمّة إلى يوم الدّين، يا أبتاه أمسينا بعدک من المستضعفين، يا أبتاه أصبحت النّاس عنّا معرضين، و لقد كنّا بک معظّمين فى النّاس غير مستضعفين فأىّ دمعة لفراقک لا تنهمل، و أىّ حزن بعدک عليک لا يتّصل، و أىّ جفن بعدک بالنّوم يكتحل، و أنت ربيع الدين، و نور النبيين، فكيف للجبال لا تمور، و للبحار بعدک لا تغور، و الأرض كيف لم تتزلزل، رميت يا أبتاه بالخطب الجليل، و لم يكن الرزيّة بالقليل، و طرقت يا أبتاه بالمصاب العظيم، و بالفادح المهول، بكتک يا أبتاه الأملاک، و وقفت الأفلاک فمنبرک بعدک مستوحش، و محرابک خال من مناجاتک، و قبرک فرح بمواراتک، و الجنّة مشتاقة إليک و إلى دعائک و صلاتک، يا أبتاه ما أعظم ظلمة مجالسک، فوا أسفا عليک إلى أن أقدم عاجلا عليک و اثكل أبو الحسن المؤتمن أبو ولديک الحسن و الحسين و أخوک و وليک و حبيبک و من ربّيته صغيرا و آخيته كبيرا و أحلى أحبابک و أصحابک من كان منهم سابقا و مهاجرا و ناصرا، و الثكل شاملنا، و البكاء قاتلنا، و الأسى لازمنا.

ثمّ زفرت زفرة و أنّت أنّة كادت روحها أن تخرج ثمّ قالت:

قلّ صبرى و بان عنّى عزائى بعد فقدى لخاتم الأنبياء

عين يا عين اسكبى الدّمع سحّا ويک لا تبخلى بفيض الدّماء

يا رسول الا له يا خيرة اللّه و كهف الأيتام و الضّعفاء

قد بكتک الجبال و الوحش جمعا و الطير و الأرض بعد بكى السماء

و بكاک الحجون و الركن و المشعر يا سيدى مع البطحاء

و بكاک المحراب و الدّرس للقرآن فى الصّبح معلنا و المساء

و بكاک الاسلام اذ صار فى النّاس غريبا من ساير الغرباء

لو ترى المنبر الذى كنت تعلوه علاه الظلام بعد الضّياء

يا إلهى عجّل وفاتى سريعا قد نغصت الحياة يا مولائى

قالت: ثمّ رجعت إلى منزلها و أخذت بالبكاء و العويل ليلها و نهارها و هى لا ترقى دمعتها، و لا تهدى زفرتها.

و اجتمع شيوخ أهل المدينة و اقبلوا إلى أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام فقالوا له يا أبا الحسن إنّ فاطمة تبكى اللّيل و النّهار فلا أحد منّا يتهنأ بالنّوم فى اللّيل على فراشنا و لا بالنّهار قرار على أشغالنا و طلب معايشنا، و إنّا نخيّرک أن تسألها إمّا أن تبكى ليلا أو نهارا، فقال حبّا و كرامة.

فأقبل أمير المؤمنين حتّى دخل على فاطمة عليها السّلام و هى لا تفيق من البكاء، و لا ينفع فيها العزاء، فلمّا رأته سكتت هيمنة له فقال لها: يا بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّ شيوخ المدينة يسألونى أن أسألک إمّا أن تبكين أباک ليلا و إمّا نهارا فقالت يا أبا الحسن ما أقلّ مكثى بينهم و ما أقرب مغيبتى من بين أظهرهم، فو اللّه لا أسكت ليلا و لا نهارا أو ألحق بأبى رسول اللّه، فقال لها علىّ: افعلى يا بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما بدا لک ثمّ إنّه عليه السّلام بنى لها بيتا فى البقيع نازحا من المدينة يسمّى بيت الأحزان و كانت إذا أصبحت قدّمت الحسن و الحسين أمامها و خرجت إلى البقيع باكية فلا تزال بين القبور باكية، فاذا جاء اللّيل أقبل أمير المؤمنين إليها و ساقها بين يديه إلى منزلها.

و لم تزل على ذلک إلى أن مضى لها بعد أبيها سبعة و عشرون يوما و اعتلّت العلّة الّتى توفّيت فيها فبقيت إلى يوم الأربعين و قد صلّى أمير المؤمنين صلاة الظهر و أقبل يريد المنزل إذ استقبلته الجوارى باكيات حزينات فقال لهنّ: ما الخبر و ما لى أراكنّ متغيّرات الوجوه و الصّور، فقلن: يا أمير المؤمنين أدرک ابنة عمک الزّهراء و ما نظنّک تدركها.

فأقبل أمير المؤمنين مسرعا حتّى دخل عليها و إذا بها ملقاة على فراشها و هو

من قباطی مصر و هی تقبض یمینا و تمدّ شمالا، فألقی الرّداء عن عاتقه و العمامة عن رأسه و حل أزراره.

و أقبل حتّی أخذ رأسها و ترکه فی حجره و ناداها: یا زهراء، فلم تکلّمه، فنادها: یا بنت محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فلم تکلّمه، فناداها: یا بنت من حمل الزّکاة فی أطراف ردائه و بذلها علی الفقراء، فلم تکلّمه، فناداها: یا ابنة من صلّی بالملائکة فی السّماء مثنی مثنی، فلم تکلّمه فناداها: یا فاطمة کلّمینی فأنا ابن عمّک علیّ ابن أبی طالب.

قالت: ففتحت عینیها فی وجهه و نظرت إلیه و بکت و بکی، و قال: ما الّذی تجدینه فأنا ابن عمّک علیّ بن أبی طالب، فقالت: یا ابن العمّ إنّی أجد الموت الذی لا بدّ منه و لا محیص عنه و أنا أعلم أنّک بعدی لا تصبر علی قلّة التزویج، فان أنت تزوّجت امرأة اجعل لها یوما و لیلة و اجعل لأولادی یوما و لیلة، و لا تصح فی وجوههما فیصبحان یتیمین غریبین منکسرین فانّهما بالأمس فقد اجدّهما: و الیوم یفقدان امّهما، فالویل لامة تقتلهما و تبغضهما ثمّ أنشأت تقول:

ابکنی إن بکیت یا خیر هادی و اسبل الدّمع فهو یوم الفراق

یا قرین البتول اوصیک بالنّسل فقد أصبحا حلیف الاشتیاق

ابکنی و ابک للیتامی و لا تنس قتیل العدی بطفّ العراق

فارقوا فاصبحوا یتامی حیاری یخلف اللّه فهو یوم الفراق

قالت فقال علیّ: من أین لک یا بنت رسول اللّه هذا الخبر و الوحی قد انقطع عنّا؟ فقالت: یا أبا الحسن رقدت السّاعة فرأیت حبیبی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی قصر من الدّرّ الأبیض فلمّا رآنی قال: هلمّی إلیّ یا بنیّة فانّی إلیک مشتاق، فقلت:

و اللّه إنّی لأشدّ شوقا منک إلی لقائک، فقال: أنت اللّیلة عندی و هو الصّادق لما وعد و الموفی لما عاهد فاذا أنت قرأت یس فاعلم أنّی قد قضیت نحبی، فغسّلنی و لا تکشف عنّی فانّی طاهرة مطهّرة، و لیصلّ علیّ معک من أهلی الأدنی فالأدنی و من رزق اجری و ادفنّی لیلا فی قبری، بهذا أخبرنی حبیبی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

فقال علیّ علیه السّلام و اللّه لقد أخذت فی أمرها و غسلتها فی قمیصها و لم اکشفه عنها فو اللّه لقد کانت میمونة طاهرة مطهّرة، ثمّ حنّطتها من فضلة حنوط رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کفنتها و أدرجتها فی أکفانها.

فلمّا هممت أن أعقد الرّداء ناديت يا امّ كلثوم يا زينب يا سكينة يا فضّة يا حسن يا حسين هلمّوا تزوّدوا من امّكم فهذا الفراق و اللّقاء فی الجنّة، فأقبل الحسن و الحسين و هما يناديان وا حسرتاه لا ننطفی أبدا من فقد جدّنا محمّد المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و امّنا فاطمة الزّهراء، يا امّ الحسن يا امّ الحسين إذا لقيت جدّنا محمّد المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فاقرئيه منّا السّلام و قولی له: إنّا قد بقينا بعدک يتيمين فی دار الدّنيا.

فقال أمير المؤمنين علیّ علیه السّلام: إنی اشهد اللّه أنّها قد حنّت و أنّت و مدّت يديها و ضمّتهما إلی صدرها مليا و إذا بهاتف من السماء ينادی يا أبا الحسن ارفعهما عنها فلقد أبكيا و اللّه ملائكة السماوات، فقد اشتاق الحبيب إلی المحبوب.

قال: فرفعتهما من صدرها و جعلت أعقد الرداء و أنا انشد بهذه الأبيات:

فراقک أعظم الأشياء عندی و فقدک فاطم أدهی الثكول

سأبكی حسرة و أنوح شجوا علی خلّ مضی أسنا سبيل

ثمّ حملها علی يده و أقبل بها إلی قبر أبيها و نادی:

السلام عليک يا رسول اللّه، السلام عليک يا حبيب اللّه، السلام عليک يا نور اللّه السلام عليک يا صفوة اللّه منّی السلام عليک و التحية منّی واصلة إليک و لديک، و من ابنتک النازلة عليک بفنائک، و إنّ الوديعة قد استردّت، و الرهينة قد اخذت، فوا حزناه علی الرّسول، ثمّ من بعده علی البتول، و لقد اسودّت علیّ الغبراء، و بعدت عنّی الخضراء، فوا حزناه ثمّ وا أسفاه.

ثمّ عدل بها علی الرّوضة فصلّی عليها فی أهله و أصحابه و مواليه و أحبّائه و طائفة من المهاجرين و الأنصار، فلما واراها و ألحدها فی لحدها أنشأ بهذه الأبيات يقوله:

أرى علل الدّنيا علىّ كثيرة و صاحبها حتى الممات عليل

لكل اجتماع من خليلين فرقة و إنّ بقائى عندكم لقليل

و انّ افتقادى فاطما بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

أقول: و فى الدّيوان المنسوب إليه عليه الصلاة و السلام أنه أنشد عند وفاة فاطمة صلوات اللّه و سلامه عليها بهذه الأبيات:

ألا هل إلى طول الحيات سبيل و أنّى و هذا الموت ليس يحول

و إنّى و إن أصبحت بالموت موقنا فلا أمل من دون ذاک طويل

و للدّهر ألوان تروح و تغتدى و إنّ نفوسا بينهنّ تسيل

و منزل حقّ لا معرّج دونه لكلّ امرء منها إليه سبيل

قطعت بأيّام التعزّز ذكره و كلّ عزيز ما هناک ذليل

أرى علل الدّنيا علىّ كثيرة و صاحبها حتّى الممات عليل

و انّى لمشتاق إلى من أحبّه فهل لى إلى من قد هويت سبيل

و انّى و إن شطت بى الدّهر نازحا و قد مات قبلى بالفراق جميل

فقد قال فى الأمثال فى البين قائل أضرّ به يوم الفراق رحيل

لكلّ اجتماع من خليلين فرقة و كلّ الذى دون الفراق قليل

و انّ افتقادى فاطما بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليل

و كيف هناک العيش من بعد فقدهم لعمرک شىء ما إليه سبيل

سيعرض عن ذكرى و تنسى مودّتى و يظهر بعدى للخليل عديل

و ليس خليلى بالملول و لا الذى إذا غبت يرضاه سواى بديل

و لكن خليلى من يدوم وصاله و يحفظ سرّى قلبه و دخيل

إذا انقطعت يوما من العيش مدّتى فانّ بكاء الباكيات قليل

يريد الفتى أن لا يموت حبيبه و ليس إلى ما يبتغيه سبيل

و ليس جليلا رزء مال و فقده و لكنّ رزء الأكرمين جليل

ص:29

لذلک جنبی لا یواتیه مضجع و فی القلب من حرّ الفراق غلیل(1)

خاتمة

نذکر فیها بعض الأخبار الواردة فی کیفیّة مجیئها سلام اللّه علیها إلی المحشر و تظلّمها یوم القیامة و عقاب ظالمیها.

و إنّما أوردت هذه الأخبار لأنّ الأخبار السّالفة المتضـمّنة لما جری علیها بعد وفاة أبیها سلام اللّه علیه و علیها من البغی و العدوان و الظلم و الطغیان لا سـیّما ما تضـمّنت أنینها و حنینها و بکائها و مظلومیّتها و وحدتها و غربتها حالة وفاتها، قد ملأت قلبی قیحا و شحنت صدری قرحة، و جرّعتنی نعب التّهمام أنفاسا، فسرت عند روایتها لا أضبط دمعتی، و لا أملک کمدی و لوعتی، و کانت الدّمعات من عظم مصیبتها جاریة، و حرقات القلب مشتعلة.

فأحببت ایراد هـذه الأخبار تسـلیة لبعض همومی و هموم ساير الموالین، لعن اللّه ظالمیها و ظالمی بعلها و بنیها فلقـد أوغلوا فی العـداوة و الطغیان، و بالغوا فی التعدیة و العدوان، و شـمّروا فی استیصال أهل البیت الشّریف بالفعل و اللّسان، و أبانوا عن دناءة أصلهم بقبح فعلهم و فعل الأعوان، و رکبوا مرکبا وعرا أجابوا فیه دعوة ولیّهم الشّیطان.

فلیتهم أخزاهم اللّه إذ لم یکفّوا عن غصب فدک و الخلافة، کفّوا عن إحراق باب بیت العصـمة و الطهارة، و لیتهم قنعوا بتلبیب سیّد الأولیاء، و أمسکوا عن ضرب السّوط و اسقاط جنین سیّدة النساء.

نعم نسبهم الخبیث و أصلهم الدنیّ قد نفی عنهم الغیرة و المروّة و أقامهم علی

1- (1) - قوله (علیه السلام): و أنی، اسم استفهام خبره محذوف أی کیف سبیل إلی طول الحیاة و منزل عطف علی ألوان، و المعرج محل الاقامة، و شـطت الدار و نزحت بعدت و الباء للتعدیة و التضـریب مبالغة فی الضـرب، و البین الفراق أی أضرب المثل الذی قاله القائل فی یوم الفراق الـذی هو رحیل، و المثل قوله: لکلّ اجتماع، و فاطم مرخم فاطمـة، و البـدیل البـدل، و دخیل الرجل الـذی یـداخل فی اموره و یختصّ به، لا یواتیه ای لا یوافقه و الغلیل العطش منه «».

دعوى الجاهليّة لأنّ الاناء ينضح بما فيه، و الولد سرّ أبيه.

روى فى البحار من تفسير العيّاشى عن أبى بصير قال: يؤتى بجهنم لها سبعة أبواب: الأوّل للظالم و هو زريق، و بابها الثّانى لحبتر، و الباب الثالث للثالث و الباب الرّابع لمعاوية، و الباب الخامس لعبد الملک، و الباب السّادس لعسکر بن هوسر، و الباب السابع لأبى سلامة، فهم أبواب لمن اتّبعهم.

قال المحدّث العلامة المجلسى: عسکر اسم جمل عايشة فيکون کناية عن عايشة و صاحبيها، و يحتمل کناية عن بعض ولاة بنى اميّة کأبى سلامة، و يحتمل أن يکون أبو سلامة کناية عن أبى مسلم إشارة إلى من سلّطهم من بنى العبّاس.

و من العيّاشى عن أبى بصير، عن أبى عبد اللّه عليه السّلام أنّه إذا کان يوم القيامة يؤتى بابليس فى سبعين غلا و سبعين کبلا(1)، فينظر الأوّل إلى زفر فى عشرين و مأئة کبل و عشرين و مأئة غلّ فينظر إبليس فيقول: من هذا الذى أضعفه اللّه العذاب و أنا أغويت هذا و الخلق جميعا؟ فيقال: هذا زفر، فيقول: بما جدّد له هذا العذب؟ فيقال: ببغيه على علىّ عليه السّلام فيقول له إبليس: ويل لک و ثبور لک أما علمت أنّ اللّه أمرنى بالسجود لادم فعصيته و سألته أن يجعل لى سلطانا على محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام و شيعته فلم يجبنى إلى ذلک، و قال «إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِينَ » و ما عرفتهم حين استثناهم إذ قلت «وَ لا تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شاکِرِينَ » فمنيت به نفسک غرورا.

فيوقف بين يدى الخلايق فيقال له: ما الذى کان منک إلى علىّ و إلى الخلق الذين اتّبعوک على الخلاف؟ فيقول الشّيطان و هو زفر لابليس: أنت أمرتنى بذلک فيقول له إبليس: فلم عصيت ربّک و أطعتنى؟ فيردّ عليه زفر ما قال اللّه «إِنَّ اللّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُکُمْ فَأَخْلَفْتُکُمْ وَ ما کانَ لِي عَلَيْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ » إلى آخر الاية.

قال العلاّمة المجلسىّ «قد»: قوله عليه السّلام: فيردّ زفر عليه ظاهر السياق أن يکون قوله: انّ اللّه وعدکم، کلام إبليس فيکون کلام زفر ما ذکر

1- (1) - الکبل القيد الضخم يقال کبلت الاسير و کبلته اذا قيدته فهو مکبول و مکبل، الصحاح

قبل تلک الاية من قوله «إِنّا كُنّا لَكُمْ تَبَعاً » و ترک اختصارا.

و من كتاب سليم بن قيس الهلالى عن أبان بن أبى عيّاش عن سليم قال:

سمعت سلمان الفارسى يقول: إذا كان يوم القيامة يؤتى إبليس مزموما بزمام من نار و يؤتى بزفر مزموما بزمامين من نار، فينطلق إليه إبليس فيصرخ و يقول: ثكلتک امّک من أنت أنا الذى فتنت الأوّلين و الاخرين و أنا مزموم بزمام واحد و أنت مزموم بزمامين، فيقول: أنا الذى امرت فاطعت و أمر اللّه فعصى.

و فى عقاب الأعمال عن حنان بن سدير قال: حدثنى رجل من أصحاب أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: سمعته يقول: إنّ أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة لسبعة نفر:

أوّلهم ابن آدم الذى قتل أخاه، و نمرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه، و اثنان فى بنى إسرائيل هوّدا قومهما و نصّراهما، و فرعون الذى قال: أنا ربّكم الأعلى، و اثنان من هذه الامّة أحدهما شرّهما فى تابوت من قوارير تحت الفلق فى بحار من نار.

و فيه عن أبى الجارود قال: قلت لأبى جعفر عليه السّلام «أخبرنى ظ» بأوّل من يدخل النّار قال: إبليس، و رجل عن يمينه، و رجل عن يساره.

و فيه عن إسحاق بن عمّار الصّيرفى عن أبى الحسن الماضى عليه السّلام قال: قلت جعلت فداک حدّثنى فيهما بحديث فقد سمعت عن أبيک فيهما أحاديث عدّة، قال فقال لى: يا إسحاق الأوّل بمنزلة العجل، و الثّانى بمنزلة السّامرى.

قال: قلت: جعلت فداک زدنى فيهما، قال: هما و اللّه هوّدا و نصّرا و مجّسا فلا غفر اللّه ذلک لهما.

قال: قلت: جعلت فداک زدنى فيهما، قال، ثلاثة لا ينظر اللّه إليهم و لا يزكّيهم و لهم عذاب أليم، قال: قلت: جعلت فداک فمن هم؟ قال رجل ادّعى إماما من غير اللّه، و آخر طغى فى إمام من اللّه، و آخر زعم أنّ لهما نصيبا فى الاسلام.

قال: قلت: جعلت فداک زدنى فيهما، قال: ما ابالى يا إسحاق محوت المحكم من كتاب، أو جحدت محمّدا النّبوة، أو زعمت أن ليس فى السّماء إلها، أو

تقدّمت على عليّ بن أبى طالب عليه السّلام.

قال: قلت: جعلت فداک زدنى، قال عليه السّلام: إنّ فى النّار لواديا يقال له:

محيط لو طلع منها شرارة لأحرق من على وجه الأرض و إنّ أهل النّار يتعوّذون أهل ذلک الوادى من حرّ ذلک الجبل و نتنه و قذره و ما أعدّ اللّه فيه لأهله، و انّ فى ذلک الجبل لشعبا يتعوّذ جميع أهل ذلک الجبل من حرّ ذلک الشّعب و نتنه و قذره و ما أعدّ اللّه فيه لأهله، و إنّ فى ذلک الشّعب لقليبا يتعوّذ «أهل ظ» ذلک الشّعب من حرّ ذلک القليب و نتنه و قذره و ما أعدّ اللّه فيه لأهله، و إنّ فى ذلک القليب لحيّة يتعوّذ جميع أهل ذلک القليب من خبث تلک الحيّة و نتنها و قذرها و ما أعدّ اللّه عزّ و جلّ فى أنيابها من السمّ لأهلها، و إنّ فى جوف تلک الحيّة لسبع صناديق فيها خمسة من الامم السّالفة و اثنان من هذه الامّة.

قال: قلت: جعلت فداک و من الخمسة؟ و من الاثنان؟ قال: أمّا الخمسة فقابيل الّذى قتل هابيل، و نمرود الّذى حاجّ إبراهيم فى ربّه قال أنا احيى و اميت و فرعون الذى قال أنا ربّكم الأعلى، و يهود الذى هوّد اليهود، و يولس الّذى نصّر النّصارى، و من هذه الامة الأعرابيان.

أقول: الأعرابيان أبو بكر و عمر عبّر عنهما بذلک إشارة إلى كفرهما كما قال تعالى: «اَلْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً ».

و فيه عن أبى خديجة عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: يؤتى يوم القيامة بابليس مع مضلّ هذه الامّة فى زمامين غلظهما مثل جبل أحد، فيسحبان على وجوههما فيسدّ بهما باب من أبواب النّار.

و فيه عن شريک يرفعه قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا كان يوم القيامة جاءت فاطمة فى لمة(1) من نسائها فيقال لها: ادخلى الجنّة، فتقول: لا أدخل حتّى أعلم ما صنع بولدى من بعدى، فيقال لها: انظرى فى قلب القيامة، فتنظر إلى الحسين عليه السّلام قائما و ليس عليه رأس فتصرخ صرخة و أصرخ لصراخها و تصرخ الملائكة

1- (1) - لمة بضم اللام و فتح الميم المخففة الجماعة (منه)

لصـراخنا، فيغضب اللّه لنا عند ذلک فيأمر نارا يقال لها هبهب قد أوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت لا يدخلها روح أبدا و لا يخرج منها غمّ أبدا، فيقال لها: التقطى قتلة الحسـين و حملة القرآن(1) ، فتلقطهم فاذا صاروا فى حوصـلتها صـهلت و صـهلوا بها و شهقت و شهقوا بها و زفرت و زفروا بها، فينطقون بألسـنة زلقـة طلقـة: يا ربّنا بما أوجبت النّار لنا قبل عبـدة الأوثان؟ فيأتيهم الجواب عن اللّه عزّ و جلّ إنّ من علم ليس كمن لا يعلم.

و فيه عن محمّد بن سـنان عن بعض أصـحابه عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا كان يوم القيامة نصب لفاطمة قبّة من نور و أقبل الحسين عليه السّلام رأسه على يده، فاذا رأته شهقت شهقة لا يبقى فى الجمع ملک مقرّب و لا نبىّ مرسل و لا عبد مؤمن إلاّ بكى لها، فيمثل اللّه عزّ و جلّ رجلا لها فى أحسن صورة و هو يخاصم قتلته بلا رأس، فيجمع اللّه قتلته و المجهّزين عليه و من شـرک فى قتله فيقتلهم حتّى اتى على آخرهم، ثمّ ينشـرون فيقتلهم أمير المؤمنين عليه السّلام، ثمّ ينشرون فيقتلهم الحسن عليه السّلام، ثمّ ينشرون فيقتلهم الحسين عليه السّلام، ثمّ ينشرون فلا يبقى من ذرّيتنا أحد إلاّ فيقتلهم قتلة، فعند ذلک يكشف اللّه الغيظ و ينسى الحزن، ثمّ قال أبو عبد اللّه عليه السّلام رحم اللّه شيعتنا، شيعتنا و اللّه هم المؤمنون فقد و اللّه شركونا فى المصيبة بطول الحزن و الحسرة.

و فى البحار من مجالس الشيخ عن أبان بن عثمان عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال:

إذا كان يوم القيامة جمع اللّه الأوّلين و الاخرين فى صعيد واحد فينادى مناد:

غضّوا أبصاركم و نكسّوا رؤوسكم حتّى تجوز فاطمة بنت محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الصّراط.

قال: فتغضّ الخلايق أبصارهم فتأتى فاطمة سـلام اللّه عليها على نجيب من نجب الجنّة يشـيّعها سـبعون ألف ملک، فتقف موقفا شريفا من مواقف القيامة، ثمّ تنزل من نجيبها فتأخذ قميص الحسـين بن علىّ عليهما الصّلاة و السّلام بيدها مضمخا بدمه، و تقول: يا ربّ هذا قميص ولدى الحسين و قد علمت ما صنع به، فيأتيها النّداء من قبل اللّه عزّ و جلّ: يا فاطمة لک عندى الرّضا، فتقول: يا ربّ انتصر لى

1- (1) - المراد بحملة القرآن الذين ضـيّعوه و حرقوه (منه) أقول تفسير حملة القرآن على الذين ضيوه و حرقوه عجيب بل الظاهر أن المراد: التقطى قتله الحسين و قتله حملة القرآن. المصحح.

عن قـاتله، فيـأمر اللّه تعـالى عنقا من النار فتخرج من جهنّم، فتلتقط قتلـة الحسـين بن علىّ صـلوات اللّه و سـلامه عليهما كما يلتقط الطّير الحبّ، ثمّ يعود العنق بهم إلى النّار، فيعذّبون فيها بأنواع العذاب.

ثمّ تركب فاطمـة سـلام اللّه عليها نجيبها حتّى تـدخل الجنّـة و معها الملائكـة المشـيّعون لها و ذرّيتها بين يديها و أولياؤهم من النّاس عن يمينها و شمالها.

أقول: و لقد أجاد من قال مضمنا لمضمون هذه الأخبار:

كأنّنى بالبتول الطّهر واقفة فى الحشر تشكو إلى الرّحمن باريها

تأتى و قد ضمخت ثوب الحسين دما فيض النحور البحارى ويل مجريها

تدعو ألا أين مسمومى و يا أسفا على ذبيحى و اسرى من ذراريها

تقول و احزنى بل آه وا حسنى هذا حسينى قتيل فى فيا فيها

هذا حسينى رضيض الجسم منجدلا تسفى على جسمه العارى سوا فيها

آه على جثث بالطف قد قطعت رؤوسها و هجير السّيف يصليها

آه على جثث فيها القنى لعبت و اركضت ماضيات فى تراقيها

يا فتية ذبحت فى كربلا و ثوت على الوجوه عرايا فى صحاريها

بنتم فبان لكم سلوان فاطمة و لا عج الوجد بالوجدان يشجيها

ألا لعنة اللّه على القوم الظالمين، و سيعلم الذين ظلموا آل محمّد صلى اللّه عليه و عليهم حقّهم أىّ منقلب ينقلبون.

تكملة

قد أشرنا إلى أنّ هذا الكلام مروىّ فى عدّة من اصول معتمدة على اختلاف و زيادة أحببت رواية ما فيها على مجرى عادتنا فأقول:

روى ثقـة الاسـلام محمّـد بن يعقوب الكلينى عن أحمـد بن مهران و عن أحمد بن إدريس عن محمّد بن عبد الجبّار الشّـيبانى قال: حدّثنى القاسم بن محمّد الرّازى قال:

حدّثنى علىّ بن محمّد الهرمزانى عن أبى عبد اللّه الحسين بن علىّ عليهما السّلام قال:

لمّا قبضت فاطمة سلام اللّه عليها دفنها أمير المؤمنين عليه السّلام سرّا و عفى على موضع

قبر ها ثمّ قام فحوّل وجهه إلى قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:

السّلام عليک يا رسول اللّه عنّى و السلام عليک عن ابنتک و زائرتک و البائتة فى الثّرى ببقعتک، و المختار اللّه لها سرعة اللّحاق بک، قلّ يا رسول اللّه عن صفيّتک صبرى، و عفى عن سيّدة نساء العالمين تجلّدى، إلاّ أنّ فى التّأسّى لى بسنّتک فى فرقتک موضع تعزّ فلقد وسّدتک فى ملحودة قبرک، و فاضت نفسک بين نحرى و صدرى، بلى و فى كتاب اللّه لى انعم القبول إنّا للّه و إنّا اليه راجعون، قد استرجعت الوديعة و اخذت الرّهينة، و اخلست «اختلست» الزّهراء، فما أقبح الخضراء و الغبراء يا رسول اللّه أمّا حزنى فسرمد و أمّا ليلى فمسهّد، و همّ لا يبرح من قلبى أو يختار اللّه لى دارک الّتى أنت فيها مقيم، كمد مقيّح، و همّ مهيّج، سرعان ما فرق بيننا، و الى اللّه أشكو، و ستنبئک ابنتک بتظافر امّتک على هضمها، فأحفها السؤال، و استخبرها الحال، فكم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلى بثّه سبيلا و ستقول و يحكم اللّه و هو خير الحاكمين سلام مودّع لا قال و لا سئم فان أنصرف فلا عن ملالة، و ان اقم فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصابرين واه واها و الصبر أيمن و أجمل، و لو لا غلبة المستولين لجعلت المقام و اللّبث لزاما معكوفا، و لأعولت إعوال الثكلى على جليل الرّزية، فبعين اللّه تدفن ابنتک سرّا و تهضم حقّها و تمنع إرثها، و لم يتباعد العهد و لم يخلق منک الذكر، و إلى اللّه يا رسول اللّه المشتكى، و فيک يا رسول اللّه أحسن العزاء، صلّى اللّه عليک، و عليها السلام و الرّضوان.

بيان

«العفو» المحو و الانمحاء و «المختار اللّه» من إضافة الصفة إلى فاعلها و «سرعة اللّحاق» مفعوله أى التى اختار اللّه لها سرعة لحاقها بک.

قوله «و فى كتاب اللّه لى أنعم القبول» أى فيه ما يصير سببا لقبول المصائب أحسن القبول و أطيبه و «أخلسته» و اختلسته استلبته، و الخلسة ما يؤخذ سلبا و مكابرة.

قوله «و كمد مقيّح» الكمد محرّكة و بالفتح الحزن الشّديد و مرض القلب

و المقيّح بتشديد الياء من القيح أى حزنى حزن شديد يورث فى القلب قيحا و «سرعان» اسم فعل مبنىّ على الفتح بمعنى سرع و قرب مع تعجّب أى ما أسرع ما فرق و «ما» كناية عن الموت و «ستنبئک» من باب الافعال و التّفعيل من النبأ و هو الخبر و «الغليل» حرارة الجوف و «اعتلجت» الأمواج التطمت.

و قوله «سلام مودّع» منصوب على المصدر محذوف العامل مطردا و قوله «واه واها» و فى بعض النّسخ واها واها يقال: واها لک و يترک تنوينه كلمة تعجّب من طيب شىء و كلمة ملهف و التكرير للتّأكيد كما قال الشّاعر:

واها لريّا ثمّ واها واها هى المنا لو أنّنا نلناها

و «معكوفا» أى محبوسا و «العويل» رفع الصّوت بالبكاء و الصّياح و قوله «فبعين اللّه» آه أى تدفن ابنتک سرّا بحفظ اللّه أو بحضوره و شهوده «و لم يخلق» من الخلق و هو البالى أى لم يبل و لم يندرس ذكرک و قوله «و فيک» أى فى اطاعة أمرک «أحسن العزاء» و فى البحار من المجالس و أمالى المفيد عن الصّدوق عن أبيه عن أحمد ابن إدريس عن محمّد بن عبد الجبّار عن القاسم بن محمّد الرّازى عن علىّ بن محمّد الهروى عن علىّ بن الحسين عن أبيه الحسين عليه السّلام قال:

لمّا مرضت فاطمة بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وصّت إلى علىّ بن أبى طالب أن يكتم أمرها و يخفى خبرها و لا يؤذن أحدا بمرضها، ففعل ذلک و كان يمرّضها بنفسه و تعينه على ذلک أسماء بنت عميس على استسرار بذلک كما وصّت به.

فلمّا حضرتها الوفاة وصّت أمير المؤمنين عليه السّلام أن يتولّى أمرها و يدفنها ليلا و يعفى قبرها. فتولّى ذلک أمير المؤمنين عليه السّلام و دفنها و عفى موضع قبرها، فلما نفض يده من تراب القبر هاج به الحزن فأرسل دموعه على خدّيه و حوّل وجهه إلى قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:

السلام عليک يا رسول اللّه، السلام عليک من ابنتک و حبيبتک و قرّة عينک و زائرتک و البائتة فى الثرى ببقيعک، المختار اللّه لها سرعة اللحاق بک، قلّ يا

رسول اللّه عن صفيّتک صبری، و ضعف عن سيدة النساء تجلّدی، إلاّ أنّ فی التأسّی لی بسنتک و الحزن الذی حلّ بی لفراقک موضع التعزّی، و لقد وسّدتک فی ملحود قبرک بعد أن فاضت نفسک علی صدری، و غمضتک بيدی، و تولّيت أمرک بنفسی نعم و فی کتاب اللّه أنعم القبول إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، قد استرجعت الوديعة، و أخذت الرّهينة، و اختلست الزّهراء، فما أقبح الخضراء و الغبراء يا رسول اللّه أما حزنی فسرمد، و أما ليلی فمسهّد، لا يبرح الحزن من قلبی أو يختار اللّه لی دارک التی فيها أنت مقيم، کمد مقيّح، و حزن مهيّج، سرعان ما فرّق اللّه بيننا، و إلی اللّه أشکو، و ستنبئک ابنتک بتظاهر امتک علیّ و علی هضمها حقّها فاستخبرها الحال فکم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلی بثّه سبيلا، و ستقول و يحکم اللّه و هو خير الحاکمين، سلام عليک يا رسول اللّه سلام مودّع، لا سام و لا قال، فان أنصرف فلا عن ملالة و إن اقم فلا عن سوء ظنی بما وعد اللّه الصابرين، الصبر أيمن و أجمل و لو لا غلبة المستولين علينا لجعلت المقام عند قبرک لزاما، و التلبّث عنده معکوفا و لأعولت إعوال الثکلی علی جليل الرّزية، فبعين اللّه تدفن بنتک سرّا، و يهتضم حقها قهرا و يمنع إرثها جهرا و لم يطل العهد و لم يخلق منک الذکر، فالی اللّه يا رسول اللّه المشتکی، و فيک أجمل العزاء فصلوات اللّه عليها و عليک و رحمة اللّه و برکاته.

و رواه فی کشف الغمة مثل ما رواه السيّد فی المتن إلی قوله: بما وعد اللّه الصابرين، ثمّ قال: و فی رواية اخری زيادة علی قول علیّ عليه السّلام عند موتها:

أمّا حزنی فسرمد، و أمّا ليلی فمسهّد، و لا نبرح أو يختار اللّه لی دارک التی أنت فيها مقيم، سرعان ما فرّق بيننا، و إلی اللّه أشکو، و ستنبئک ابنتک بتظافر امتک علی هضمها حقّها، فأحفها السؤال، و استخبرها الحال، فکم من غليل معتلج بصدرها لم تجد إلی بثّه سبيلا، فستقول و يحکم اللّه و هو خير الحاکمين، و السلام عليکما سلام مودّع، لا قال و لا سئم، فان أنصرف فلا عن ملالة، و إن اقم فلا عن سوء ظنّ بما وعد اللّه الصابرين، فالصبر أيمن و أجمل، فبعين اللّه تدفن ابنتک صبرا، و تهتضم

حقّها، و تمنع إرثها، و لم يبعد العهد، فالى اللّه المشتكى يا رسول اللّه و فيک يا رسول اللّه أحسن العزاء صلوات اللّه عليک و عليها معک.

الترجمة

از جملهٔ کلام آن امام است که روایت کرده اند از او که گفته این کلام را در وقت دفن کردن حضرت سیّدهٔ زنان فاطمهٔ زهرا سلام اللّه علیها گویا مناجات می نمود با این کلام با حضرت رسالتماب صلوات اللّه علیه و آله و عرض می نمود:

السّلام علیک یا رسول اللّه سلام باد بر تو أی پیغمبر خدا أز طرف من و از طرف دخترت که نازل شد در همسایگی تو، و زود لاحق شد بتو، کم شد یا رسول اللّه از دختر پسندیدهٔ تو صبر من، و ضعیف شد از فراق او تحمّل و قوّت من، لکن مراست در پیروی نمودن جدائی بزرگ تو و مصیبت سنگین تو محلّ تسلی، پس بتحقیق خواباندم ترا در قبر لحد دار تو، و سیلان نمود میان گلو و سینه من روح تو.

و إنّا للّه و إنّا إلیه راجعون، پس بتحقیق که باز یافت شد أمانت، و پس گرفته شد گرو - کنایه است از حضرت فاطمه که بمنزله أمانت و رهن بود در نزد شوهرش -.

أمّا حزن و اندوه من پس همیشگی است، و أمّا شب من پس بی خوابیست تا آنکه اختیار نماید خدای تعالی از برای من خانهٔ را که تو در آنجا اقامت کردهٔ و بزودی خبر می دهد ترا دختر تو باجتماع امّت ستمکار تو بر ظلم و ستم آن مظلومه پس درست سؤال کن از آن، و بپرس از آن حال من و او را.

بود این ظلم ظالمان در حالتی که عهد ایشان با تو طول نیافته بود، و ذکر خیر تو از زبان خلق نرفته بود، و سلام باد بر تو یا رسول اللّه و بر دختر تو، مانند سلام وداع کنندهٔ مهربان که صاحب خشم و ملال نباشد أز صحبت شما، پس اگر مراجعت نمایم از نزد شما نه از جهت ملالست، و اگر اقامت کنم در نزد قبر شمانه از جهت سوء ظنّ و بدگمانیست به آن چه که وعده فرموده است خداوند تبارک و تعالی در حق صبر کنندگان.

ص:39

و من كلام له عليه السّلام و هو

اشارة

المأتان و الثانى من المختار

فى باب الخطب

و رواه فى الارشاد و فى البحار من أمالى الصّدوق بتفاوت يسير مع زيادة حسبما تعرفه فى التكملة الاتية إنشاء اللّه.

أيّها النّاس إنّما الدّنيا دار مجاز، و الاخرة دار قرار، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، و لا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم و أخرجوا من الدّنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها اختبرتم، و لغيرها خلقتم، إنّ المرء إذا هلک قال النّاس ما ترک، و قالت الملائكة ما قدّم، للّه آباءكم فقدّموا بعضا يكن لكم، و لا تخلّفوا كلاّ فيكون عليكم.

اللغة

(المجاز) مصدر ميمىّ من جاز المكان يجوزه جوزا و جوازا إذا سار فيه و عبره و (القرار) اسم من قرّ الشىء قرّا من باب ضرب استقرّ بالمكان و (لا تخلّفوا كلاّ) مضارع خلّف الرّجل الشىء بالتّشديد تركه بعده.

الاعراب

من فى قوله: من ممرّكم نشوية و قوله: للّه آباءكم، جملة اسميّة تستعمل فى مقام التعجّب و الاستعظام كقولهم: للّه أبوک و للّه درّک و تسمّى هذه اللاّم بلام التّعجب.

ص:40

قال نجم الأئمّة: أمّا معنى قولهم: للّه درّک، فالـدّر فی الأصل ما یدرّ أی ینزل من الضّرع من اللبن و من الغیم من المطر، و هو ههنا کنایة عن فعل الممدوح الصّادر عنه، و إنّما نسب فعله إلیه تعالی قصدا للتّعجب، لأنّ اللّه منشـیء العجائب، فکلّ شـیء عظیم یریدون التعجّب منه ینسبون إلیه تعالی و یضیفونه نحو قولهم: للّه أبوک و للّه أنت فمعنی للّه درّه ما أعجب فعله، و قد تقدّم مزید تفصیل فیه فی شرح المختار المأة و التّاسع و السبعین

المعنی

اشارة

اعلم أنّ الغرض من هذا الکلام التّنفیر من الدّنیا و الترغیب فی الاخرة و الأمر بأخذ الزاد لیوم المعاد و بالاستعداد للموت قبل حلول الفوت، و صدّر الکلام بحرف النّداء و التنبیه ایقاظا للمخاطبین من نوم الغفلة فقال:

(أیّها النّاس إنّما الـدّنیا دار مجاز و الاخرة دار قرار) یعنی أنّ الاولی دار عبور و الاخری دار اسـتقرار، و الاتیان بکلمـة إنّما المفیـدة للحصـر تأکیـدا للغرض المسوق له الکلام، و تنبیها علی أنّ وجود الـدّنیا نفس حدوثها و بقاءها عین زوالها، فلا صـلاحیّة لها إلاّ لأن تکون مجازا و معبرا بمنزلة قنطرة یتجاوز منها إلی المقرّ و المأوی، فمن نوی البقاء فیها و القرار فقد جهل و ضلّ و خبط خبطا عظیما و خسـر خسرانا مبینا، و إذا کان شأنها ذلک:

(فخذوا من ممرّکم لمقرّکم) أی خذوا فی الدّنیا من الخیرات و الحسنات و الباقیات الصّالحات الّتی هی زاد الاخرة، لتنالوا بها حسن الثواب فیها و تحصّلوا النّعمة الدّائمة.

(و لا تهتکوا أستارکم عند من یعلم أسراکم) أی لا تجاهروا بالمعصیة و العدوان عند من لا یخفی علیه شیء من السّرّ و الاعلان، بل یعلم ما أنتم مقترفون فی لیلکم و نهارکم، لطف به خبرا و أحاط به علما، أعضاؤکم شهوده، و الحفظة جنوده، و ضمائرکم عیونه، و خلواتکم عیانه کما قال عزّ من قائل «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَیْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِیـدِ إِذْ یَتَلَقَّی الْمُتَلَقِّیانِ عَنِ الْیَمِینِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِیدٌ ما یَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَیْهِ رَقِیبٌ عَتِیدٌ ».

(و اخرجوا من الـدّنيا قلوبكم من قبل أن يخرج منها أبدانكم) و هو أمر بالزهد فى الدّنيا و الاعراض عنها و حذف محبّتها عن ساحة القلب و الاستعداد للموت قبل حلوله، لأنّ من كانت الدّنيا همّته و أشرب محبّتها قلبه اشتدّت عند مفارقتها حسرته.

روى فى البحار من الأمالى قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السّلام ما الاسـتعداد للموت؟ قال: أداء الفرائض و اجتناب المحارم و الاشتمال على المكارم ثمّ لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، و اللّه ما يبالى ابن أبى طالب أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

و فيه من الخصال و معانى الأخبار بسـنده عن عبـد اللّه بن بكر المرادى عن موسـى بن جعفر عن أبيه عن جدّه عن علىّ بن الحسـين عليهم السّلام قـال: بينـا أمير المؤمنين عليه السّلام ذات يوم جـالس مع أصـحابه يعبيهم للحرب إذ أتـاه شـيخ عليه شـجّة السّفر فقـال: أين أمير المؤمنين؟ فقيل: هو ذا، فسـلّم ثمّ قال: يا أمير المؤمنين إنّى أتيتک من ناحية الشّام و أنا شيخ كبير قد سمعت فيک من الفضل ما لا احصى، و أنّى أظنّک ستقتال فعلّمنى ممّا علّمک اللّه.

قال: نعم يا شـيخ من اعتدل يوماه فهو مغبون، و من كانت الدّنيا همّته اشـتدّت حسرته عند فراقها، و من كانت غده شرّ يوميه فهو محروم، و ساق الرّواية إلى أن قال:

فقال: يا شـيخ إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق خلقا ضيّق الدّنيا عليهم نظرا لهم فزهدهم فيها و فى حطامها، فرغبوا فى دار السلام الذى دعاهم إليه و صبروا على ضـيق المعيشـة و صبروا على المكروه و اشـتاقوا إلى ما عنـد اللّه من الكرامة، و بذلوا أنفسـهم ابتغاء رضوان اللّه و كانت خاتمة أعمـالهم الشّهادة، فلقوا اللّه و هو عنهم راض و علموا أنّ الموت سبيـل من مضـى و بقى فتزوّدوا لاـخرتهم غير الـذّهب و الفضّة و لبسوا الخشن و صبروا على القوت، و قدّموا الفضل و أحبّوا فى اللّه و أبغضوا فى اللّه عزّ و جلّ اولئک المصابيح و أهل النّعيم فى الاخرة و السّلام.

ص:42

(ففيها اختبرتم و لغيرها خلقتم) يعنى أنّه سبحانه خلقكم فى الدّنيا لا لأجل الدّنيا و البقاء فيها و الرّكون إليها، بل لأجل الاخرة و تحصيل النّعمة الدّائمة، و إنّما خلقكم فى الدّنيا لمحض الابتلاء و الامتحان كما قال تعالى:

«وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ ».

و قد مضى تحقيق معنى الابتلاء فى شرح الخطبة الثّانية و السّتين، و بيّنا هناك أنّ اللاّزم على الانسان قصر همّته فى محصّلات السّعادة الاخروية ليخلص من قالب الامتحان، و ليستحقّ القرار فى غرفات الجنان، و يدرک مرتبة الرّضوان الذى هو أعظم السّعادات و أشرف اللذات و أكبر البهجات.

(انّ المرء إذا هلک قال النّاس ما ترک و قالت الملائكة ما قدّم) و هو تأكيد لما سبق فانّه عليه السّلام لمّا أمر بالأخذ من الممرّ للمقرّ و بالزّهد فى الدّنيا و الاعراض عن قنياتها و زخارفها، و نبّه على أنّ الغرض الأصلى من الخلقة هو العبادة و الطاعة و تحصيل السّعادة الاخروية.

أكّده بأنّ المرء إذا مات قال أبناء الدّنيا من عشاير الميّت و الأقرباء و الاخوان و القرناء المصروف هممهم بها و المشغولين بها عن التّوجّه إلى الاخرى:

ما ترک، أى يسأل بعضهم بعضا عمّا خلّفه الميّت من متاع الدّنيا و ما تركه من الأولاد و الأموال.

و قالت الملائكة الّذين نظرهم إلى محصلات القرب و الزّلفى لديه تعالى فقط:

ما قدّم الميّت لنفسه و ادّخره ليوم فاقته و مقام حاجته، فينبغى على ذلک ترجيح مسئول الملائكة على مسئول النّاس، و تقديم محصّلات الزّلفى على قنيات الدّنيا قال الشّارح البحرانى: و فى لفظ ما ترک و ما قدّم لطف تنبيه على أنّ متاع الدّنيا مفارق متروک و الأعمال الصّالحة مقدّمة باقية نافعة للمرء فى معاده، فينبغى أن تكون العناية بها دون المفارق المتروک.

(للّه آبائكم) استعظمهم بنسبة آبائهم إلى اللّه حيث ولدوا مثل هؤلاء الأولاد و قوله:(فقدّموا بعضا يكن لكم و لا تخلّفوا كلاّ فيكون عليكم)تفريع على

ما تقدّم، فانه لما صدّر الكلام بالأمر بالأخذ من الممرّ للمقرّ و أكّده بأنّ سؤال الملائكة و فحصهم عن المقدّم دون المؤخّر، رتب عليه هذه الجملة تنبيها على مقدار ما يؤخذ و يقدّم.

و لا يخفى ما فى هاتين القرينتين من حسن المقابلـة، و هو مقابلـة الأربعة بالأربعة حيث جعل القرينة الأولى موجبة و الثانية سالبة، ثمّ قابل بين التقديم و التخليف و بين البعض و الكلّ و بين لكم و عليكم.

و فى بعض النسخ فقدّموا بعضا يكن لكم قرضا، و لا تخلّفوا كلاّ فيكون عليكم كلاّ فتكون من مقابلة الخمسة بالخمسة.

أى خـذوا من ممرّكم لمقرّكم بعض أموالكم، و قـدّموه و أنفقوه فى سبيل اللّه يكن لكم قرضا على اللّه تسـتحقّون بأخذ مثله من اللّه فى مقام الحاجة و موطن الفاقة بل يضاعفه لكم أضـعافا مضاعفة كما قال تعالى «مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » «و قـد مرّ معناه فى شـرح الخطبـة المأة و الثانيـة و الثمانين و قال أيضا: «وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً ».

و لا ـ تتركوا جميع أموالكم فيكون عليكم كلاّ ـ أى ثقيلا ـ لا ـ خير فيه أو وزرا و ثقلا أى يكون عبؤه لكم و مهناؤه لغيركم روى فى الوسائل عن الصدوق فى قول اللّه عزّ و جل «كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ » قال: هو الرجل يدع ماله لا ينفقه فى طاعة اللّه عزّ و جلّ بخلا ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة اللّه أو بمعصـية اللّه، فان عمل فيه بطاعة اللّه رآه فى ميزان غيره فرآه حسرة و قد كان المال له، و ان كان عمل به فى معصية اللّه قويه بذلک المال حتى عمل به فى معصية اللّه عزّ و جلّ.

قال: و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما محق الاسلام محق الشحّ شىء، ثمّ قال:

إنّ لهذا الشحّ دبيبا كدبيب النمل و شعبا كشعب الشرک.

و فى الكافى باسناده عن هشام بن سالم عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: ليس يتبع

الرجل بعد موته من الأجر إلاّ ثلاث خصال: صدقة أجراها فی حیاته فهی تجری بعد موته، و سنة هدی سنّها فهی یعمل بها بعد موته، و ولد صالح یدعو له.

و فیه عن أبی کهمس عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: ستة یلحق المؤمن بعد وفاته:

ولد یستغفر له، و مصحف یخلفه، و غرس یغرسه، و قلیب یحفره، و صدقة یجریها، و سنّة یؤخذ من بعده.

ثمّ إنّ قوله علیه السّلام: فقدّموا بعضا آه یدلّ بمنطوقه علی مطلوبیّة تقدیم البعض و بمفهومه علی عدم مطلوبیة تقدیم الکلّ کما أنّ قوله: و لا تخلّفوا کلاّ آه یدلّ بمنطوقه علی مبغوضیّة تخلیف الکلّ و بمفهومه علی عدم مبغوضیّة تخلیف البعض، فیکون محصّل مفاد القضیتین تقدیم البعض و تخلیف البعض و علی ذلک:

فان ارید بالأمر أعنی قوله: قدّموا معناه الحقیقی الذی هو الوجوب، فالمراد بالبعض الذی یجب تقدیمه هو الحقوق المالیة الواجبة من الخمس و الزکاة و مصارف الحجّ و نفقة من یجب نفقته علیه و نحوها.

و إن ارید به الأعمّ من معنی الحقیقی أی الرّجحان المطلق فیعمّ البعض حینئذ للحقوق الواجبة و المندوبة من وجوه البرّ و صنایع المعروف و الحقّ المعلوم للسّائل و المحروم و نحوها، و هذا هو الأظهر.

فینبغی علی الانسان أن یقدّم البعض لنفسه و یخلّف البعض لوارثه و لا یجوز أن یخلّف الکلّ فیحرم و لا أن یقدّم الکلّ فیحرم الوارث و یظلم.

و یدلّ علی ذلک ما رواه فی الکافی مرسلا قال: و قد روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لرجل من الانصار اعتق ممالک له لم یکن له غیرهم فعابه النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال:

ترک صبیة صغارا یتکفّفون النّاس، و رواه فی الوسایل عن الصدوق باسناده عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمّد عن أبیه علیهما السّلام.

و یدلّ علیه أیضا الأخبار الدالة علی عدم جواز الجور فی الوصیّة و الحیف فیها بتجاوز الثلث و وجوب ردّها إلی العدل و المعروف.

مثل ما رواه فی الوسائل عن الشیخ باسناده عن علیّ بن إبراهیم عن أبیه عن ابن أبی نجران عن عاصم بن حمید عن محمّد بن قیس عن أبی جعفر علیه السّلام قال: قضی أمیر المؤمنین علیه السّلام فی رجل توفّی و أوصی بماله کلّه أو أکثره فقال: إنّ الوصیّة تردّ إلی المعروف و یترک لأهل المیراث میراثهم.

و فی الوسائل عن الشیخ باسناده عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمّد عن أبیه علیهما السّلام قال: من عدل فی وصیّته کان کمن تصدّق بها فی حیاته و من جار فی وصیّته لقی اللّه عزّ و جلّ یوم القیامة و هو عنه معرض.

و فیه عن الشّیخ باسناده عن علیّ بن یقطین قال: سألت أبا الحسن علیه السّلام ما للرّجل من ماله عند موته؟ قال: الثلث و الثلث کثیر.

و فیه من مجمع البیان قال: جاء فی الحدیث إنّ الضرار فی الوصیّة من الکبایر و فیه عن الصدوق باسناده عن السّکونی عن جعفر بن محمّد عن أبیه عن آبائه علیهم السّلام قال: قال علیّ علیه السّلام: الوصیّة بالخمس لأنّ اللّه عزّ و جلّ قد رضی لنفسه بالخمس و قال: الخمس اقتصاد، و الرّبع جهد، و الثلث حیف.

و فیه من قرب الاسناد عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن أبی جعفر عن أبیه عن علیّ علیهم السّلام قال: لئن اوصی بالخمس أحبّ إلیّ من أن اوصی بالرّبع و لئن اوصی بالرّبع أحبّ إلیّ من أن اوصی بالثّلث، و من اوصی بالثلث فلم یترک شیئا.

و رواه فی الکافی باسناده عن محمّد بن قیس عن أبی جعفر علیه السّلام قال: کان أمیر المؤمنین علیه السّلام یقول: لئن اوصی بخمس مالی أحبّ إلیّ من أن اوصی بالرّبع و لئن اوصی بالرّبع أحبّ إلیّ من أن اوصی بالثلث، و من اوصی بالثلث فلم یترک و قد بالغ الغایة إلی أن قال: و یترک لأهل المیراث میراثهم، و قال: من اوصی بثلث ماله فلم یترک و قد بلغ المدی، ثمّ قال: لئن اوصی بخمس مالی أحبّ إلیّ من أن اوصی بالرّبع و الأخبار فی هذا المعنی کثیرة و لا حاجة إلی الاطالة، و لنختم بما هو أحری بأن یختم به المقام.

و هو ما رواه فی الوسائل عن الصّدوق باسناده عن جابر عن أبی عبد اللّه علیه السّلام

قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: من ختم له بلا إله إلاّ اللّه دخل الجنّة، و من ختم له بصـيام يوم دخل الجنّة، و من ختم له بصدقة يريد بها وجه اللّه دخل الجنّة.

و من اللّه أسأل أن يجعل خاتمة امورنا خيرا بجاه محمّد و آله و سلّم الأبرار، سلام اللّه عليهم ما تعاقب اللّيل و النّهار.

تكملة

روى فى البحار من الأمالى للصّدوق قال: قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى بعض خطبه:

أيّها النّاس إنّ الـدّنيا دار فناء، و الاخرة دار بقاء، فخذوا من ممرّكم لمقرّكم، و لا تهتكوا أسـتاركم عند من لا يخفى عليه أسـراركم، و اخرجوا من الـدّنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففى الدّنيا حييتم، و للاخرة خلقتم، إنّما الدّنيا كالسّم يأكله من لا يعرفه، إنّ العبد إذا مات قالت الملائكـة ما قـدّم، و قال النّاس ما أخّر، فقدّموا فضـلا لكم يكن لكم، و لا تؤخّروا كلاّ يكن عليكم فانّ المحروم من حرم خير ماله، و المغبوط من ثقل بالصّدقات و الخيرات موازينه، و أحسن فى الجنّة بها مهاده، و طيب على الصّراط بها مسـلكه و فى الارشاد من كلام أمير المؤمنين عليه السّلام فى الحكمة و الموعظة:

خذوا رحمكم اللّه من ممرّكم لمقرّكم، و لا تهتكوا أسـتاركم عند من لا يخفى عليه أسراركم، و اخرجوا من الدّنيا قلوبكم قبل أن يخرج منها أبـدانكم فللاخرة خلقتم، و فى الـدّنيا حبسـتم إنّ المرء إذا هلك قالت الملائكة ما قدّم، و قال النّاس ما خلّف، فللّه آباؤكم قدّموا بعضا يكن لكم، و لا تخلّفوا كلاّ فيكون عليكم، فانّما مثل الدّنيا مثل السّمّ يأكله من لا يعرفه.

الترجمة

از جملهٔ كلام حكمت نظام آن امام است در تنفير از دنياى فانى مى فرمايد:

ص:47

أی مردمان بـدرستی که دنیا خانـهٔ تجاوز و عبور است و آخرت خانـهٔ برقراری پس أخـذ نمائید از گذرگاه خودتان برای قرارگاه خودتان، و بر ندریـد پردهای خودتان را در نزد خداونـدی که می داند سـرّهای شـما را، و بیرون کنید از دنیا قلبهای خود پیش از این که خارج شود از آن بدنهای شما، پس در دنیا امتحان شده اید، و از برای غیر دنیا یعنی آخرت خلق شده اید، بدرستی که مرد هر گاه هلاک شود و بمیرد گویند مردمان که ترکهٔ آن مرده چه بوده است، و گویند ملائکه که او از برای خود چه پیش فرسـتاده است، از برای خداست پدران شـما یعنی خدا رحمت کند پدران شما را، پس پیش بفرستید بعض مال خود را تا آنکه دریابید منفعت آنرا، و باقی نگذارید همه را پس برسد بشما ضرر آن.

و من کلام له علیه السّلام کان کثیرا ما ینادی به

اشارة

أصحابه و هو المأتان و الثالث من

المختار فی باب الخطب

و هو مرویّ فی البحـار من أمـالی الصّـدوق باختلاـف کثیر تطلع علیه تجهّزوا رحمکم اللّه فقـد نودی فیکم بالرّحیـل، و أقلّوا العرجـة علی الـدّنیا، و انقلبوا بصالـح ما بحضـرتکم من الزّاد، فإنّ أمامکم عقبـة کئودا، و منازل مخوفة مهولة، لا بدّ من الورود علیها، و الوقوف عندها، و اعلموا أنّ ملاحظ المنیّـة نحوکم دائبـة، و کأنّکم بمخالبها و قـد نشـبت فیکم، و قد دهمتکم منها مفظعات الأمور، و معضـلات المحذور، فقطّعوا علایق الدّنیا، و استظهروا بزاد التّقوی

ص:48

قال السّيّد «ره»: و قد مضـى شـىء من هذا الكلام فيما تقدّم بخلاف هذه الرّواية أقول: الأشبه أن يكون مراده به ما تقدّم فى الخطبة الرّابعة و الثّمانين.

اللغة

(جهاز) المسافر ما يحتاج إليه فى قطع المسافـة و هو بالفتح و به قرء السّبعة فى قوله تعالى «فَلَمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ » و الكسـر لغة قليلة، و جهـاز العروس و الميّت بـاللغتين أيضا ما يحتاجان إليه و جهّزته تجهيزا هيّأت جهازه فتجهّزو (العرجـة) بالضمّ الاقامـة من عرّج تعريجا و تعرّج تعرّجـا أى أقام و حبس المطيّـة على المنزل و (عقبـة كئود) ككفور و كأداء أى صـعبة شاقّـة من تكأدّنى الأمر شقّ علىّ و (هاله) الأمر هولا أفزعه، و الهول المخافـة و الجمع أهوال و هول هائل و مهول كمصون تاكيـد و (الملاحظ) جمع الملحظ مصدر ميمىّ بمعنى اللحظ يقال لحظه و إليه لحظا من باب منع و لحظانا بالتّحريک نظر بمؤخّر عينيه قال الشّاعر:

و أسرار الملاحظ أين تخفى و قد يقرأ بذى اللّحظ الظّنون

قال الفيروزآبادى: اللّحظ أشدّ التفاتا من الشّزر و (دئب) فى الأمر دئبا جدّ و تعب، و فى بعض النسخ دانية بدل دائبة من الدنوّ بمعنى القرب و (المخلب) من السّباع كالظّفر من غيرها و (نشب) نشبا من باب تعب علق و (المعضلات) الشّدايد من أعضل به الأمر اشتدّ.

و فى نسخة الشارح المعتزلى مضلعات المحذور و فسّرها بالخطوب التى تضلع أى تجعل الانسان ضلعا أى معوجا.

أقول: لعلّه أخذه من ضـلع السـيف ضـلعا من باب فرح اعوجّ، و لا قيمنّ ضـلعک بالتحريک و بالسـكون أيضا و هو الاعوجاج خلقة و لكن الأظهر أن يكون مأخوذا من أضـلعه الدّين أثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء و حمل مضلع وزان محسن أى ثقيل و ان كان مرجعه أيضا إلى الأول.

و روى مظلعـات المحـذور بالظـاء المشالـة، قال الشارح المعتزلى: أراد الامور التى تجعل الانسان ظالعا أى يغمر فى مشـيه لثقلها عليه و الماضى ظلع بالفتح يظلع

ظلعا فهو ظالع، و فی القاموس ظلع البعیر کمنع غمز فی مشیه، و الظالع المائل و الظلاع کغراب داء فی قوائم الدابة لا من سیر و لا تعب

الاعراب

قول السید: کثیرا ما ینادی، کثیرا منصوب علی الظرفیة المجازیة مفعول لقوله ینادی قدّم علیه لتضمّنه معنی الظرف أی ینادی حینا کثیرا أی فی کثیر من الأوقات، و نحوکم منصوب بنزع الخافض متعلّق بقوله دائبة،و قوله:و کأنکم بمخالبها،کأنّ للتشبیه و الظرف متعلق بفعل محذوف بقرینة المقام أی کأنکم تبصرون بمخالبها علی حدّ قوله تعالی «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ » و الجملة خبر کأنّ و جملة و قد نشبت فی محلّ النّصب حال من مخالبها لکونه مفعولا بالواسطة و قوله و قد دهمتکم جملة مستأنفه، و الفاء فی قوله: فقطعوا فصیحة.

المعنی

اشارة

اعلم أنّ هذا الکلام حسبما أشار إلیه السیّد کان علیه السّلام کثیرا ما ینادی به أصحابه بعد صلاة العشاء الاخرة کما صرح به فی روایة الامالی الاتیة ایقاظا لهم عن نوم الغفلة و إزعاجا من الاغترار بالدّنیا ینادیهم بحیث یسمع من فی المسجد.

(تجهّزوا رحمکم اللّه) أی خذوا جهاز الموت و هیئوا ما تحتاجون إلیه فی طیّ منازل الاخرة و الوصول إلی حضرت ربّ العزّة.

(فقد نودی فیکم بالرّحیل) أی بالارتحال و المسافرة إلی العقبی، و المراد بالمنادی إما توارد الالام و الأسقام و تراکم الأسباب المعدّة للمزاج للفساد، أو الملک المأمور من اللّه تبارک و تعالی بالنداء یقول: لدوا للموت و ابنوا للخراب أو طروّ المشیب و الهرم کما قال علیه السّلام فی الدّیوان المنسوب إلیه:

الشیب عنوان المنیّة و هو تاریخ الکبر

و بیاض شعرک موت شعرک ثم أنت علی الاثر

و إذا رأیت الشیب عمّ الرأس فالحذر الحذر

و یحتمل أن یکون المراد بالرّحیل الازعاج من الدّنیا و التوجّه إلی الاخرة

و السفر إلى اللّه بالرّياضيات الكاملة، فالمراد بالنداء حينئذ ما نطق به الكتاب العزيز و جرى على ألسنة الأنبياء و الرّسل و الأئمة من الأوامر الواردة بالزّهد كما قال عليه السّلام موتوا قبل أن تموتوا، أو أنّ المراد به اخبارهم بأنهم يرتحلون و لا يبقون كما قال تعالى «إِنَّکَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » و «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ » و نحو ذلک، و قد مرّ نظير هذه الفقرة فى الخطبة الثالثة و الستّين و هو قوله: ترحّلوا فقد جدّ بكم، فليراجع ثمّة.

(و أقلّوا العرجة على الدّنيا) أى الاقامة عليها و حبّ البقاء فيها، و المراد به الأمر بقصر الأمل و عدم تطويله، لأنّ طول الأمل ينسى الاخرة.

كما قال عليه السّلام فى المختار الثانى و الأربعين: إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان اتّباع الهوى و طول الأمل، فأما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أما طول الأمل فينسى الاخرة، و مضى فى شرحه مطالب نافعة و أخبار نفيسة.

و قال عليه السّلام فى المختار الثامن و العشرين: ألا و إنكم قد امرتم بالظعن و دللتم على الزاد، و إنّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى و طول الأمل، و مضى فى شرحه أيضا مطالب و أخبار شريفة و روينا هناک عن أبى يعفور قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول: من تعلّق قلبه بالدّنيا تعلّق بثلاث خصال: همّ لا يفنى، و أمل لا يدرک، و رجاء لا تنال.

و محصّل المراد من إقلال الاقامة على الدّنيا الزّهد فيها و القناعة على القدر الضرورى من العيش و ارتقاب الموت و لنعم ما قال عليه السّلام فى الدّيوان المنسوب إليه

إنما الدّنيا فناء ليس للدّنيا ثبوتإنما الدّنيا كبيت نسجته العنكبوت

و لقد يكفيک منها أيها الطالب قوتو لعمرى عن قليل كلّ من فيها يموت

و قال أيضا:

أ لم تر أنّ الدّهر يوم و ليلة يكرّان من سبت جديد إلى سبت

فقل لجديد الثوب لابدّ من بلى و قل لاجتماع الشمل لا بدّ من شتّ

و قال أيضا:

بيت و يوم و قوت يوم يكفى لمن فى غد يموت

و ربما مات نصف يوم و النصف من قوته يفوت

و فيه أيضا

بيت يوارى الفتى و ثوبيستر من عورة و قوت

هذا بلاغ لمن تحسيو ذا كثير لمن يموت

(و انقلبوا بصالح ما بحضـرتكم من الزاد) أى انصرفوا إلى وطنكم الأصلى الّذى منه خرجتم و هو الدّار الاخرة و الجنّة و ذلک باعتبار كونهم ذرّا فى صـلب أبيهم آدم منه خرج و إليه عاد أو المراد انصرافهم إلى الحقّ الأوّل عزّ و جلّ فانّه تعالى منه البداء و إليه الانتهاء، و هو غاية مراد المريدين، و منتهى سير السّايرين، و مرجع الرّاجعين كما قال تعالى «ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » و قال «إِنّا لِلّهِ وَ إِنّا إِلَيْهِ راجِعُونَ ».

و على أىّ تقدير فلا يخفى ما فى التعبير بلفظ الانقلاب من حسن التّقرير و بديع الصّناعة، و محصّل المراد الأمر بتحصيل صالح الزاد ليوم المعاد و أراد به التقوى كما قال عزّ و علا «وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى ».

و علّل شدّة الحاجة إلى أخذ الزاد بقوله (فانّ أمامكم عقبة كئودا) أى صعبة شاقّة المصاعد.

(و منازل مخوفـة مهولة لابدّ من الورود عليها و الوقوف عندها) أشار بها إلى شدايد الموت و مشاق البرزخ و منازل الاخرة و مواقف القيامة و أهاويلهـا و أخاويفها و أفزاعها «يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللّهِ شَدِيدٌ ».

روى فى البحار من أمالى المفيـد عن حفص بن غياث قال: قال أبو عبد اللّه جعفر ابن محمّد عليهما السّلام: ألا فحاسـبوا أنفسـكم قبل أن تحاسبوا فانّ فى القيامة خمسين موقفا كلّ موقف كألف سنة ممّا تعدّون ثمّ تلا هذه الاية «فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ».

و من تفسير علىّ بن إبراهيم فى هذه الاية قال عليه السّلام: إنّ فى القيامة خمسين

موقفا لكلّ موقف ألف سنة.

و قال الصّدوق فى عقايده، اعتقادنا فى العقبات التى على طريق المحشر أنّ كلّ عقبة منها اسم فرض و أمر و نهى، فمتى انتهى الانسان إلى عقبة اسمها فرض و كان قد قصر فى ذلک الفرض حبس عندها و طولب بحقّ اللّه فيها.

فان خرج منه بعمل صالح قدّمه أو برحمة تداركه نجى منها إلى عقبة اخرى فلا يزال من عقبة إلى عقبة و يحبس عند كلّ عقبة فيسأل عمّا قصر فيه من معنى اسمها فان سلم من جميعها انتهى إلى دار البقاء فيحيى حياة لا موت فيها أبدا و سعد سعادة لا شقاوة معها أبدا و سكن فى جوار اللّه مع أنبيائه و حججه و الصّديقين و الشهداء و الصالحين من عباده.

و إن حبس على عقبة فطولب بحقّ قصّر فيه و لم ينجه عمل صالح قدّمه و لا أدركته من اللّه عزّ و جلّ رحمة زلّت به قدمه عن العقبة فهوى فى جهنّم، نعوذ باللّه منها.

و هذه العقبات كلّها على الصّراط اسم عقبة منها الولاية يوقف جميع الخلايق عندها فيسألون عن ولاية أمير المؤمنين عليه السّلام و الأئمة من بعده فمن أتى بها نجا و جاز و من لم يأت بها بقى فهوى و ذلک قول اللّه عزّ و جلّ «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ ».

و أهمّ عقبة منها المرصاد و هو قول اللّه عزّ و جلّ «إِنَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرْصادِ » و يقول اللّه عزّ و جلّ: و عزّتى و جلالى لا يجوزنى ظلم ظالم، و اسم عقبة منها الرّحم، و اسم عقبة منها الأمانة، و اسم عقبة منها الصّلاة و باسم كلّ فرض و أمر و نهى عقبة و يحبس عندها العبد فيسأل.

و قال الشّيخ المفيد فى شرحه: العقبات عبارة عن الأعمال الواجبة و المسائلة عنها و المواقفة عليها، و ليس المراد بها جبال فى الأرض يقطع، و إنّما هى الأعمال شبّهت بالعقبات، و جعل الوصف لما يلحق الانسان فى تخلّصه من تقصيره فى طاعة اللّه تعالى، كالعقبة الّتى يجهده صعودها و قطعها قال اللّه تعالى «فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ »

. «وَ ما أَدْراکَ مَا الْعَقَبَةُ فَکُّ رَقَبَةٍ » فسمّى اللّه سبحانه الأعمال التى كلّفها العبد عقبات تشبيها بالعقبات و الجبال لما يلحق الانسان فى أدائها من المشاق كما يلحقه فى صعود العقبات و قطعها.

و قال أمير المؤمنين عليه السّلام انّ أمامكم عقبة كئودا و منازل مهولة لا بدّ من الممرّ بها و الوقوف عليها، فاما برحمة اللّه نجوتم و إما بهلكة ليس بعدها انجبار.

أراد عليه السّلام بالعقبة تخلص الانسان من العقبات التى عليه، و ليس كما ظنّه الحشوية من أنّ فى الاخرة جبالا و عقبات يحتاج الانسان إلى قطعها ماشيا و راكبا و ذلک لا معنى له فيما توجبه الحكمة من الجزاء و لا وجه لخلق عقبات تسمّى بالصلاة و الزكاة و الصيام و الحجّ و غيرها من الفرائض يلزم الانسان أن يصعدها فان كان مقصّرا فى طاعة اللّه حال ذلک بينه و بين صعودها.

إذ كان الغرض فى القيامة المواقفة على الأعمال و الجزاء عليها بالثواب و العقاب و ذلک غير مفتقر إلى تسميته عقبات و خلق جبال و تكليف قطع ذلک و تصعيبه و تسهيله مع أنه لم يرد خبر صحيح بذلک على التفصيل فيعتمد عليه و تخرج له الوجوه، و إذا لم يثبت بذلک خبر كان الأمر فيه ما ذكرناه، انتهى كلامه رفع مقامه.

و اعترض عليه المحدّث العلامة المجلسىّ فى البحار بعد نقله له بقوله: إن تأويل ظواهر الاخبار بمحض الاستبعاد بعيد عن الرّشاد، و للّه الخيرة فى معاقبة العاصين من عباده بأىّ وجه أراد، و قد مضى الأخبار فى ذلک و سيأتى بعضها و اللّه الموفّق للخير و السّداد، هذا.

و لمّا حذّر من عقبات الاخرة و مواقفها المهولة المقتضية لأخذ الزّاد لها، عقّبه بالاشارة إلى قرب الموت المعقّب لهذه الأهاويل و العقبات و كونه بالرّصد و التّرقّب و الاخترام تنبيها به على وجوب المبادرة بأخذ الزّاد لقرب الحاجة إليه و على عدم التّوانى و التّسويف فيه بتوهّم بعد زمان الاحتياج فقال:

(و اعلموا أنّ ملاحظ المنيّة نحوكم دائبة) أى مجدّة يعنى أنّها تنظر اليكم باللّحظ و الشّزر أى بمؤخّر عينها نظر الغضبان مجدّة فيه قصدا لاخترامكم.

(و كأنّكم بمخالبها و قد نشبت فيكم) شبّهها بالسّبع الفتاک الضّارى على طريق الاستعارة المكنيّة و أثبت لها المخالب و النّشوب تخييلا و ترشيحا، يريد قرب أخذها لهم و انتشاب مخالبها فيهم و الى هذا ينظر قوله عليه السّلام فى الدّيوان المنسوب إليه:

يا مؤثر الدّنيا على دينه و التائه الحيران عن قصده

أصبحت ترجو الخلد فيها و قد أبرز ناب الموت عن حدّه

هيهات إنّ الموت ذو أسهم من يرمه يوما بها يرده

(و قدد همتكم منها مفظعات الامور) أى غشيتكم من المنيّة الامور الشّنيعة البالغة فى الشّناعة الغاية (و معضلات المحذور) أى الافزاع و الدّواهى الشّديدة الّتى تحذر منها و تحترز، و على رواية مضلعات المحذور فالمراد المحاذير الّتى توجب انحناء ظهر الانسان لثقلها و شدّتها من سكرة ملهثة و غمرة كارثة و جذبة متعبة و سوقة مكربة و نحوها من أفزاع الموت.

(فقطّعوا علايق الدّنيا) و أميطوا محبّتها عن قلوبكم (و استظهروا ب) خير الزّاد (زاد التقوى) لتقووا به إلى قطع منازل الاخرة و الوصول إلى حضرت الرّب الأعلى.

نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا من المستظهرين به، و الواصلين إلى مقام القرب و الزّلفى لديه بمحمّد و آله سلام اللّه عليه و عليهم.

تكملة

روى فى البحار من الأمالى عن أبيه عن سعد عن ابن هاشم عن ابن أبى نجران عن ابن حميد عن محمّد بن قيس عن أبى جعفر قال: كان أمير المؤمنين عليه السّلام بالكوفة إذا صلّى العشاء الاخرة ينادى النّاس ثلاث مرّات حتّى يسمع أهل المسجد:

أيّها الناس تجهّزوا رحمكم اللّه فقد نودى فيكم بالرّحيل فما التّعرّج على الدّنيا بعد النّداء فيها بالرّحيل، تجهّزوا رحمكم اللّه و انتقلوا بأفضل ما بحضرتكم من الزّاد و هو التقوى، و اعلموا أنّ طريقكم إلى المعاد، و ممرّكم على الصراط

و الهول الأعظم أمامكم على طريقكم عقبة كئودة، و منازل مهولة مخوفة، لا بدّ لكم من الممرّ عليها، و الوقوف بها فإمّا برحمة من اللّه فنجاة من هولها و عظم خطرها و فظاعة منظرها و شدّة مختبرها، و إمّا بهلكة ليس بعدها انجبار.

الترجمة

از جمله كلام بلاغت نظام آن امام است كه اكثر أوقات ندا ميكرد بان اصحاب خود را مى فرمود:

ضروريات سفر آخرت را مهيا نمائيد خدا رحمت كند بشما، پس بتحقيق ندا كرده شد در ميان شما به كوچ كردن، و كم نمائيد اقامت در دنيا را، و رجوع نمائيد بسوى آخرت با بهترين چيزى كه نزد شماست از توشهٔ آخرت، پس بدرستى كه پيش شماست عقبهٔ سخت و منزلهاى خوفناك و خطرناك لابد هستيد از آمدن آن منزلها و از توقف نمودن در نزد آنها، و بدانيد كه نظرهاى تند و غضبناك مرگ بسوى شما متوجه است، و گويا مى بينيد كه چنگال هاى آن سبع قتال بشما بند شده، و بتحقيق كه احاطه كرده شما را از آن مرگ امورات قبيحهٔ بى نهايت، و محذورات شديده بغايت شدت، پس ببرّيد علايق دنيا را، و طلب اعانت نمائيد با توشهٔ تقوى و پرهيزكارى.

و من كلام له عليه السّلام و هو المأتان

اشارة

و الرابع من المختار فى باب الخطب

و رواه الشارح المعتزلى فى شرح المختار الحادى و التّسعين من كتاب نقض كتاب العثمانية لأبى جعفر الاسكافى باختلاف كثير تعرفه إن شاء اللّه.

قال السيد: كلّم به طلحة و الزّبير بعد بيعته بالخلافة و قد عتبا عليه من ترك مشورتهما و الاستعانة فى الامور بهما.

لقد نقمتما يسيرا، و أرجأتما كثيرا، أ لا تخبرانى أىّ شىء لكما

فيه حقّ دفعتكما عنه، و أىّ قسم استأثرت عليكما به، أم أىّ حقّ رفعه إلىّ أحد من المسلمين ضعفت عنه، أمّ جهلته أم أخطأت بابه، و اللّه ما كانت لى فى الخلافة رغبة، و لا فى الولاية إربة، و لكنّكم دعوتمونى إليها، و حملتمونى عليها، فلمّا أفضت إلىّ نظرت إلى كتاب اللّه و ما وضع لنا و أمرنا بالحكم به فاتّبعته، و ما استسنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاقتديته، فلم أحتج فى ذلک إلى رأيكما، و لا رأى غيركما، و لا وقع حكم جهلته فأستشيركما و إخوانى من المسلمين، و لو كان ذلک لم أرغب عنكما و لا عن غيركما. و أمّا ما ذكرتما من أمر الاسوة فإنّ ذلک أمر لم أحكم أنا فيه برأيى، و لا ولّيته هوى منّى، بل وجدت أنا و أنتما ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ اللّه من قسمه، و أمضى فيه حكمه، فليس لكما و اللّه عندى و لا لغيركما فى هذا عتبى، أخذ اللّه بقلوبنا و قلوبكم إلى الحقّ، و ألهمنا و إيّاكم الصّبر. ثمّ قال عليه السّلام: رحم اللّه رجلا رأى حقّا فأعان عليه، أو رأى جورا فردّه، و كان عونا بالحقّ على صاحبه.

اللغة

(نقمت) عليه أمره و نقمت منه نقما من باب ضرب و نقمت أنقم من باب

ص:57

تعب لغـة إذا عبته و كرهته أشـدّ الكراهـة بسوء فعله و اللغة الأولى هى الفصـيحة و بهما قرء قوله تعالى «وَ ما تَنْقِمُ مِنّا » أى و ما تطعن فينا و تقدح، و قيل: ليس لنا عندک ذنب و لا ركبنا مكروها و (أرجأته) بالهمزة أخّرته (و قسـمته) قسما من باب ضرب فرزته أجزاء فانقسم و القسم بالكسر اسم منه، ثمّ اطلق على الحصّة و النّصيب فيقال: هذا قسمى و الجمع أقسام مثل حمل و أحمال.

و (اسـتأثر) بالشـىء اسـتبدّ به أى انفرد به من غير مشـارک له فيه و (حمله) على الأـمر يحمله فانحمـل أغراه به و (الاسوة) بالضمّ و الكسـر القـدوة (و لا وليّته هوى منّى) فى أكثر النسخ بتشديد اللاّم يقال ولّيته تولية أى جعلته واليا، و فى بعضـها بالتّخفيف و هو الأظهر من وليه إذا قام به و منه وليّ الصـغير أى القائم بأمره و (عتب) عليه عتبا من باب ضرب و قتل لامه فى تسخّط، و أعتبنى الهمزة للسلب أى أزال الشكوى و العتاب، و العتبى وزان فعلى اسم من الاعتاب.

الاعراب

قوله: بعـد بيعته بالخلافة من إضافة المصدر إلى المفعول، و يسـيرا و كثيرا منصوبان على المفعول به، و قوله: ألا تخبرانى أىّ شـىء لكما فيه حقّ دفعتكما عنه أىّ اسم اسـتفهام مرفوع على الابتـداء و جملـة دفعتكما عنه خبره، و جملـة لكما فيه حقّ صـفة لشـىء، و لكما ظرف لغو متعلّق بحقّ، و فيه ظرف مسـتقرّ متعلّق بمقدّر خبر مقدّم، و حقّ مبتدأ و يحتمل أن يجعل الأوّل ظرف مستقرّ و الثانى ظرف لغو، و جملة أىّ شىء اه منصوبة المحلّ مفعول لتخبرانى اه.

و قوله: أم أىّ قسم فى بعض النسـخ أو بـدل أم و كـذلک فى قوله أم جهلته و قوله: و لاوليّته هوى منّى، على رواية وليّته بالتشديد يكون هوى مفعولا به أى لم أجعل هواى واليا فى هذا الأمر. و على رواية التخفيف فهو مفعول له أى ما قمت به لأجل هوى نفسـى، و جملة قد فرغ منه بالبناء على الفاعل حال من رسول اللّه، و فى بعض النسخ بالبناء على المفعول فتكون حالا من ما جاء به، و الفاء فى قوله:

فليس فصيحة، و جملة رحم اللّه رجلا اه، دعائيّة لا محلّ لها من الاعراب.

ص:58

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الكلام حسبما أشار إليه الرّضىّ رضى اللّه عنه:(كلّم به طلحة و الزّبير بعد بيعتهما له بالخلافة و قد عتبا من ترک مشورتهما و الاستعانة فى الامور بهما) و من ترک تفضيلهما فى العطاء على غيرهما.

قال الشّارح المعتزلى إنّهما قالا: ما نراه يستشيرنا فى أمر و لا يفاوضنا فى رأى و يقطع الأمر دوننا و كانا يرجوان غير ذلک، و أراد طلحة أن يوليّه البصرة و أراد الزّبير أن يوليّه الكوفة.

فلمّا شاهدا صلابته فى الدّين و قوّته فى العزم، و هجره الادهان و المراقبة و رفضه المدالسة و المواربة، و سلوكه فى جميع مسالكه منهج الكتاب و السّنّة، و قد كانا يعلمان ذلک قديما من طبعه و سجيّته، و كان عمر قال لهما و لغيرهما: إنّ الأجلح أى الأنزع إن وليها ليحملنّكم على المحجّة البيضاء و الصراط المستقيم، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال من قبل: و إن تولّوها عليّا تجدوه هاديا مهدّيا، إلاّ انّه ليس الخبر كالعيان، و لا القول كالفعل، و لا الوعد كالانجاز حالا(1) عنه و تنكّرا له، و وقعا فيه، و عاباه تطلّبا له العلل و التأويلات، و تنقما عليه الاستبداد و ترک المشاورة، و انتقلا من ذلک إلى الوقيعة فيه بمساوات الناس فى قسمة الأموال، و أثنيا على عمر و حمدا سيرته و صوّبا رأيه، و قالا: إنّه كان يفضّل أهل السوابق، و ضلّلا عليّا فيما رآه و قالا: إنّه أخطاء، و إنّه خالف سيرة عمر، و استنجدا عليه بالرّؤساء من المسلمين كان عمر يفضّلهم فى القسم على غيرهم.

و الناس أبناء الدّنيا و يحبّون المال حبّا جمّا فتنكّرت على أمير المؤمنين بتنكّرهما قلوب كثيرة.

و كان عمر منع قريشا و المهاجرين و ذوى السوابق من الخروج من المدينة و نهاهم عن مخالطة الناس، و نهى الناس عن مخالطتهم و رأى أنّ ذلک اسّ

1- (1) - حالا عنه أى تغيّرا من الاستواء الى العوج، منه.

الفساد فی الأرض، و أنّ الفتوح و الغنایم قد أبطرت المسلمین، و متی بعد الرءوس و الکبراء منهم عن دار الهجرة و انفردوا بأنفسهم و خالطهم الناس فی البلاد البعیدة لم یؤمن أن یحسنوا لهم الوثوب و طلب الامارة و مفارقة الجماعة و حلّ نظام الالفة و لکنّه نقض هذا الرّای السّدید بما فعله بعد طعن أبی لؤلؤة له من الشّوری فانّ ذلک کان سبب کلّ فتنة وقع و یقع إلی أن تنقضی الدّنیا.

قال: و قد قدّمنا ذکّر ذلک و شرحنا ما أدّی إلیه أمر الشوری من الفساد بما حصل فی نفس کلّ من الستة من ترشیحه للخلافة إلی أن قال: إنّ طلحة و الزبیر لما آیسا من جهة علیّ علیه السّلام و من حصول الدّنیا من قبله قلبا له ظهر المجنّ، فکاشفاه و عاتباه قبل المفارقة عتابا لاذعا(1) قال: روی أبو عثمان الجاحظ قال:

أرسل طلحة و الزّبیر إلی علیّ علیه السّلام قبل خروجهما إلی مکّة محمّد بن طلحة و قالا:

لا تقل له یا أمیر المؤمنین و لکن قل له: یا أبا الحسن لقد فال «أی اخطأ» فیک رأینا و خاب ظننا أصلحنا لک الأمر و وطدنا لک الامرة و أجلبنا علی عثمان حتّی قتل فلما طلبک الناس لأمرهم أسرعنا إلیک و بایعناک و قدنا إلیک أعناق العرب و وطأ المهاجرون و الأنصار أعقابنا فی بیعتک حتّی إذا ملکت عنانک استبددت برأیک عنّا و رفضتنا رفض التّریکة(2) و أذلتنا إذالة الاماء(3) و ملکت أمرک الاشتر و حکیم بن جبلة و غیرهما من الأعراب فلما جاء محمّد بن طلحة أبلغه ذاک فقال: اذهب إلیهما فقل لهما فما الذی یرضیکما؟ فذهب و جاء و قال: إنّهما یقولان ولّ أحدنا البصرة و آخرنا الکوفة.

فقال: لا هاء اللّه إذا یحلم(4) الأدیم، و یستشری الفساد، و تنتقض علیّ

1- (1) - لذع النار الشیء لفحه، منه.

2- (2) - التریکة کسفینة امرأة تترک لا تتزوّج، منه.

3- (3) - ای أهنتا إهانة الاماء یقال أذلته أهنته و لم أحسن القیام علیه، منه.

4- (4) - حلم الجلد من باب فرح وقع منه الحلم و هی دودة تقع فی الجلد فتأکله منه.

البلاد من أقطارها، و اللّه انّی لا آمنهما و هما عندی بالمدینة فکیف آمنهما و قد ولّیتهما العراقین اذهب إلیهما فقل أیّها الشیخان احذرا من اللّه و نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی امّته و لا تبغی(1) المسلمین غایلة و کیدا و قد سمعتما قول اللّه تعالی «تِلْکَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لا یُرِیدُونَ عُلُوًّا فِی الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ ».

فقام محمّد بن طلحة فأتا إلیهما و لم یعدا له و تأخّرا عنه أیّاما ثمّ جاءاه فاستأذنا فی الخروج إلی مکّة للعمرة فأذن لهما بعد أن أحلفهما أن لا ینقضا بیعته و لا یغدرا به و لا یشقّا عصا المسلمین و لا یوقعا الفرقة بینهم و أن یعودا بعد العمرة إلی بیوتهما بالمدینة، فحلفا علی ذلک کلّه ثمّ خرجا ففعلا ما فعلا قال: و روی الطبری فی التاریخ قال: لمّا بایع الناس علیّا و تمّ الأمر له قال طلحة للزّبیر: ما أری أنّ لنا من هذا الأمر إلاّ ککشحة أنف الکلب فقد ظهر لک من ذلک و یظهر أیضا ممّا نرویه من الاسکافی أنّ علّة نقم طلحة و الزّبیر منه علیه السّلام إنّما کانت ترک استشارتهما و مداخلتهما فی أمر الخلافة و عدم بذل مأمولهما فی تولیة العراقین و التسویة بینهما و بین غیرهما فی القسم و لمّا نقما علیه بذلک أجاب لهما بقوله:

(لقد نقمتما یسیرا و أرجأتما کثیرا) أی طعنتما و عتبتما علیّ شیئا یسیرا و هو ترک الاستشارة و أمر التسویة حسبما عرفت مع عدم کونهما مورد طعن و عیب فی الحقیقة و أخرتما شیئا کثیرا من رعایة حقوقی الواجبة و السعی فیما یعود إلی صلاح حال المسلمین و انتظام أمر الدّین و اتّساق حبل الالفة و الجماعة.

و قال الشّارح المعتزلی: أی نقمتما من أحوالی الیسیر، و ترکتما الکثیر الّذی لیس لکما و لا لغیرکما فیه طعن فلم تذکراه فهلا اغتفرتما الیسیر الکثیر.

و قال الشّارح البحرانی: یحتمل أن یریدان الّذی أبدیاه و نقماه بعض ممّا فی أنفسهما و قد دلّ ذلک علی أنّ فی أنفسهما أشیاء کثیرة وراء ما ذکراه.

أقول: یعنی قد بدت البغضاء من أفواههم و ما تخفی صدورهم أکبر،

1- (1) - هکذا فی النسخة و الظاهر أنها تصحیف و الصحیح لا تبغیا بصیغة التثنیة، منه.

و الأظهر ما قلناه.

ثمّ استخبر عمّا نقماه و استفهم عن وجوه النّقم المتصوّرة فی المقام استفهاما انکاریا إبطالیّا تنبیها به علی بطلان تلک الوجوه جمیعا و علی کذب مدّعیها فقال:

(ألا تخبرانی أیّ شیء لکما فیه حقّ) مالیّ أو غیر مالیّ (دفعتکما عنه) و ظلمتکما فیه.

و بطلان هذا الوجه مع کونه معصوما واضح، و یزیده وضوحا قوله الاتی فی الکلام المأتین و العشرین: و کیف أظلم أحدا لنفس یسرع إلی البلی قفولها و یطول فی الثری حلولها، و قوله فیه أیضا. و اللّه لو اعطیت الأقالیم السّبعة بما تحت أفلاکها علی أن أعصی اللّه فی نملة أسلبها جلب شعیرة ما فعلته، و من هذا حاله کیف یتصوّر فی حقّه الظلم؟!.

(و أیّ قسم استأثرت علیکما به) أی أیّ سهم و نصیب أخذت من بیت المال و تفرّدت به و لم اشارککم.

و بطلانه أیضا واضح ممّا مر و یزیده توضیحا ما مرّ فی الکلام المأة و السادس و العشرین من قوله: لو کان المال لی لسوّیت بینهم فکیف و المال مال اللّه، و ما یأتی فی باب المختار من کتبه فی کتابه إلی عثمان بن حنیف الأنصاری من قوله: و إنّ إمامکم قد اکتفی من دنیاه بطمریه و من طعمه بقرصیه، و من هذا شأنه کیف یحیف الغیر و یذهب بحقّه و غیره؟! و بما ذکرته علم الفرق بین هذا الوجه و الوجه الأوّل، فانّ الأوّل أعم من الحقّ المالی و غیره، و هذا مخصوص بالمالی، و أیضا دفع الحقّ عنهما أعمّ من أن یصیر إلیه أو إلی غیره أو لم یصر إلی أحد بل یبقی فی بیت المال و الاستیثار علیهما به هو أن یأخذ حقّهما لنفسه.

(أم أیّ حقّ رفعه إلیّ أحد من المسلمین ضعفت عنه) و کنت محتاجا فیه إلی المعاون و المعین.

و بطلان هذا الوجه أيضا لا ريب فيه لما قد عرف من بأسه و شجاعته و أنه لو لا سيفه لما قام للاسلام عمود و لا اخضرّ للدّين عود، و قد قال فى الكلام السّابع و الثلاثين و استبددت برهانها كالجبل لا تحرّكه القواصف و لا تزيله العواصف لم يكن لأحد فىّ مهمز و لا لقائل فىّ مغمز الذّليل عندى عزيز حتى آخذ الحقّ له، و القوّى عندى ضعيف حتّى آخذ الحقّ منه، و قال فى الكلام المأة و السّادسة و الثلاثين: و ايم اللّه لأنصفنّ المظلوم من ظالمه و لأقودنّ الظالم بخزامته حتّى أورده منهل الحقّ و إن كان كارها (أم جهلته أم أخطأت بابه) و كنت محتاجا إلى التعليم و التنبيه و الفرق بين الجهل و الخطاء فى الباب الأوّل أن يكون اللّه سبحانه قد حكم بحرمة شىء مثلا فأحلّه الامام و الثّانى أن يصيب فى الحكم و يخطىء فى طريقه و الاستدلال عليه، أو أنّ الأوّل أن يجهل الحكم و يتحيّر فيه و لا يدرى كيف يحكم، و الثانى أن يحكم بخلاف الواقع و على أىّ تقدير فتوهّم أحد الأمرين فى حقّه عليه السّلام، مع علمه بما كان و ما يكون و ما هو كائن و كونه أعلم بطرق السّماء من طرق الأرض و كونه باب مدينة العلم و الحكمة و كونه أقضى الامة على ما صدر عن صدر النّبوة و عرفته فى تضاعيف الشّرح غير مرّة أوضح البطلان و فساده غنّى عن البرهان، هذا و لما أشار عليه السّلام إلى بطلان وجوه النّقم المتصوّرة إجمالا أراد إبطال ما نقما به عليه تصريحا و هو ترك الاستشارة و أمر الاسوة و أجاب عن النّقم بهما تفصيلا.

و قبل الشروع فى الجواب مهّد مقدّمة لطيفة دفعا بها توهّم كون نهوضه بالخلافة من حبّ الملك و الرّياسة و محبّة السلطنة و الولاية المقتضية للمماشاة و المشاورة مع الحاشية و البطانة كما كان فى المتخلّفين الثلاثة و رفعا بها منّتهما عنه عليه السّلام حيث منّا عليه بأنّا أصلحنا الأمر و وطدنا لک الامرة و بايعناک و قدنا إليک أعناق العرب على ما مرّ فى رواية أبى عثمان الجاحظ.

و تلک المقدّمة قوله عليه السّلام (و اللّه ما كانت لى فى الخلافة رغبة و لا فى

الولايـة اربـة) و حاجـة أمّا عدم احتياجه إليها فواضح، و أمّا عدم رغبته فيها فلكراهته لها طبعا و إن كان يحبّها شـرعا أو كراهته لها من حيث الملك و السـلطنة فلا تنافى رغبته من حيث التّمكن من إعلاء لواء الشرع و إقامة المعروف و إزاحة المنكر أو أنّ عدم الرّغبة حين عدم تحقّق الشرائط.

كما يشـعر بذلک قوله عليه السّلام فى الخطبة الثالثة المعروفة بالشّقشـقيّة: أما و الذى فلق الحبّة و برء النّسـمة لو لا حضور الحاضـر و قيام الحجّة بوجود الناصـر و ما أخـذ اللّه على العلماء ألاّ يقارّوا على كظّة ظالم و لا سـغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها و لألقيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز.

و يشعر به أيضا قوله عليه السّلام فى الكلام الحادى و التّسعين: دعونى و التمسوا غيرى، و مضى هناک أخبار مناسبة للمقام.

(و لكنكم دعوتمونى إليها) على رغبة منكم (و حملتمونى عليها) على كراهة منّى كما أوضـحه عليه السّلام فى المختار المأتين و الخامسة و العشـرين حيث قال هناک: و بسطتم يدى فكففتها و مددتموها فقبضتها ثمّ تداككتم علىّ تداكّ الابل الهيم على حياضها يوم ورودها حتّى انقطعت النّعل و سقطت الرّداء و وطىء الضّعيف و بلغ من سرور الناس بيعتهم إيّاى أن ابتهج بها الصغير و هدج إليها الكبير.

و لمّا مهّد المقدّمـة الشـريفة المنبئـة عن عدم رغبته فى الولاية و الخلافة و رفع بها منّتهما عليه فى المبايعة رتّب عليها الجواب عن نقمهما الأوّل أعنى مسألة المشاورة و قال:

(فلمّا أفضت) أى وصلت الخلافة (إلىّ نظرت إلى كتاب اللّه) عزّ و جلّ (و) إلى (ما وضع لنا) أى ما وظفه لنا و ألزمه علينا معاشر الأئمة من الأـمر بـالمعروف و النهى عن المنكر و الحكم بين الناس بالعـدل حيث قال «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ».

روى فى البحار عن العياشى عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبى

عبد اللّه عليه السّلام قال: فى قراءة علىّ عليه السّلام «كنتم خير أئمّة أخرجت للناس» قال: هم آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و عن العياشى عن أبى بصير عنه عليه السّلام، قال: إنما انزلت هذه الاية على محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيه و فى الأوصياء خاصّة فقال «أنتم خير أئمة «امة خ» اخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر» هكذا و اللّه نزل بها جبرئيل و ما عنى بها إلاّ محمّدا و أوصياءه صلوات اللّه عليهم.

و قال تعالى أيضا «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً » فانّ هذه الاية أيضا خطاب لخصوص ولاة الامر، و على كونها خطابا للعموم فيدخل فيه ولاة الأمر، و على أىّ تقدير فقد بيّن اللّه وظيفتهم فيها.

قال فى مجمع البيان: قيل فى معنى هذه الاية أقوال:

أحدها أنّها فى كلّ من اؤتمن أمانة من الأمانات و أمانات اللّه أوامره و نواهيه و أمانات عباده فيما يأتمن بعضهم بعضا من المال و غيره، و هو المروىّ عن أبى جعفر و أبى عبد اللّه عليهما السّلام.

و ثانيها أنّ المراد به ولاة الأمر أمرهم اللّه أن يقوموا برعاية الرّعية و حملهم على موجب الدّين و الشّريعة و رواه أصحابنا عن أبى جعفر الباقر و أبى عبد اللّه الصّادق عليهما السّلام قالا: أمر اللّه كلّ واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده، و يعضده أنّه أمر الرّعية بعد هذا بطاعة ولاة الأمر.

و روى عنهم عليهم السّلام انّهم قالوا: آيتان إحداهما لنا و الاخرى لكم قال اللّه «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها » الاية و قال «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » الاية.

و هذا القول داخل فى القول الأوّل لأنّه من جملة ما ائتمن اللّه عليه الأئمة الصّادقين عليهم السّلام و لذلک قال أبو جعفر عليه السّلام إنّ الصّلاة و الزكاة و الصّوم و الحجّ من الأمانة و يكون من جملتها الأمر لولاة الأمر بقسم الصدقات و الغنايم و غير ذلک

ممّا يتعلّق به حقّ الرعيـة، و قـد عظم اللّه أمر الامانة بقوله «يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ » و قوله «لا تَخُونُوا اللّهَ وَ الرَّسُولَ » و قوله «وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْکَ ».

(و) إلى مـا (أمرنـا بـالحكم بـه فـاتبعته) أراد بـه الحكـم بمـا أنزل اللّـه فى كتـابه دون غيره مـن أحكـام الجاهليّـة و الأحكـام الصّـادرة عن الاسـتحسانات العقليّـة كما صـدرت عن المتخلّفين الثلاثة و قد قال تعالى «وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْكافِرُونَ » «وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الظّالِمُونَ » «وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ » و قال «وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيْکَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النّاسِ لَفاسِقُونَ أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ».

فانّ هـذه الايات كما ترى صـريحة فى وجوب الأخـذ بحكم الكتاب، و الايـة الأخيرة و إن كانت خاصـة بالنبىّ إلاّ أنّها تعمّ الائمة القائمين مقامه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل تعمّ ساير أحكام الشرع بمقتضى أدلة الشركة فى التكاليف.

و غير خفىّ على الفطن العـارف حسن انطبـاق مفاد الايـة الأخيرة بالمقام فانّ اللّه سـبحانه أمر نبيّه فيها فى الحكم بين أهل الكتاب بما أنزل اللّه و نهـاه عن اتّبـاع هواهم و حـذّره من تفتينهم و أشار إلى توليهم عن حكم اللّه و إلى ابتغائهم حكم الجاهليـة، و كـذلک كان حال أمير المؤمنين عليه السّـلام مع طلحة و الزّبير اللذين هما تاليا أهل الكتاب فقد كان مراده أن يحكم بحكم اللّه و بالأخذ بسيرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و كان مرادهما أن يداخلهما فى الأمر و يشاورهما و يتابع هواهما و يسـير فيهما و فى غيرهما بسـيرة عمر، و كان غرضهما تفتينه و تغييره حكم اللّه إلى حكم الجاهلية، إذ حكم الجاهلية لم يكن منحصـرا فى أحكام أيام الفترة بل كلّ حكم خالف الكتاب و السـنة كمـا روى فى الكـافى عن الصادق عن أمير المؤمنين عليه السّـلام الحكم حكمان: حكم اللّه و حكم الجاهليـة فمن أخطأ حكم اللّه حكم بحكم الجاهليّة.

و قال الطبرسى فى قوله «أَ فَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ » قيل: المراد به كلّ من

طلب غير حكم اللّه فانه يخرج منه إلى حكم الجاهليّة و كفى بذلک أن يحكم بما يوجبه الجهل دون ما يوجبه العلم.

فقد علم بذلک أنّ تكليف الأئمة عليهم السّلام اتّباع أمر اللّه و الأخذ بحكم اللّه لا الحكم بالرأى و الأهواء كما فى أئمّة الجور.

روى فى البحار من تفسير علىّ بن إبراهيم عن حميد بن زياد عن محمّد بن الحسين عن محمّد بن يحيى عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السّلام قال: الأئمة فى كتاب اللّه إمامان قال اللّه «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا » لا بأمر الناس يقدّمون أمر اللّه قبل أمرهم و حكم اللّه قبل حكمهم، قال «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ » يقدّمون أمرهم قبل أمر اللّه و حكمهم قبل حكم اللّه و يأخذون بأهوائهم خلافا لما فى كتاب اللّه.

و كيف كان فمحصّل مفاد قوله عليه السّلام إنّى نظرت إلى كتاب اللّه جلّ شأنه و إلى ما عيّن لنا فيه من التكاليف و الأحكام فاتّبعته.

(و) نظرت إلى (ما استسنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و شرعه (فاقتديته) و تابعته (فلم) يبق الكتاب و السنة شيئا من الأحكام الشرعية (احتج فى ذلک إلى رأيكما و لا رأى غيركما) من الاراء الباطلة و الاستحسانات الفاسدة.

(و لا وقع حكم جهلته) و هذا أحد الوجوه المتقدّمة التى أنكرها سابقا على سبيل الاستفهام و نفاه هنا صريحا أى لم يقع حكم شرعى لا أعلم به فأحتاج إلى التعلّم و المشاورة (فأستشير كما و اخوانى من المسلمين) فيه و أتعلّمه منكم (و لو كان ذلک) أى لو وقع حكم كذلک (لم أرغب عنكما و لا عن غيركما).

و لما أجاب عن نقمهما الأوّل شرع فى الجواب عن نقمهما الثانى فقال:

(و أما ما ذكرتما من أمر الاسوة) أى القدوة و اقتدائكما بغيركما فى النصيب و القسمة (فانّ ذلک أمر لم أحكم أنا فيه برأيى) و من تلقاء نفسى (و لا وليته هوى منى) أى ما جعلت هواى واليا أوما باشرته بهواى (بل وجدت أنا و أنتما ما جاء به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من القسم بالسوية و العدل فى الرّعية و الحال أنه (قد فرغ منه)

و أكمل و لم يبق مجال للكلام (فلم احتج إليكما) و لا إلى غيركما (فيما قد فرغ اللّه من قسمه و أمضى فيه حكمه) نسبة الفراغ أولا إلى الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ثانيا إلى اللّه تنبيها على اتّحاد حكمهما لعدم كونه ناطقا عن الهوى إن هو إلاّ وحى يوحى و المراد أنه لا حاجة لى إلى الغير فى مال قد فرغ اللّه من تقسيمه و حكم فيه بالحكم النافذ الالزامى بأن يقسم بالسوية لا بالتفاوت.

(فليس لكما و اللّه عندى و لا لغيركما فى هذا) القسم بالسوية (عتبى) أى ليس لكما و لا لغيركما علىّ أن ارضيكم و ازيل شكواكم عنى.

ثمّ دعا لنفسه و لهما بقوله (أخذ اللّه بقلوبنا و قلوبكم إلى الحقّ) أى صرفها إليه (و ألهمنا و اياكم الصبر) أى ألهمنى الصبر على مشاق الخلافة و مقاساة المكاره و المساوى من الرعية و ألهمكم الصبر على ما تكرهه نفوسكم الامارة من القسم بالسوية و نحوه ممّا مر.

(ثمّ قال عليه السّلام رحم اللّه رجلا رأى حقا) و عدلا (فأعان عليه) و على العمل به (أو رأى جورا) و ظلما (فردّه) و دفعه (و كان عونا بالحقّ على صاحبه) أى على صاحب الجور.

و المراد به الجذب إلى طاعته و إعانته و الصرف عن مخالفته و اعانة ظالميه، لأنه عليه الصلاة و السلام مع الحقّ و الحقّ معه عليه السلام و الصّلاة يدور معه حيثما دار هو عليه التحية و الثناء، فالمعين له عليه الصلاة و السلام معين للحقّ، و المعاند له عليه السّلام معاند للحقّ و معين للجور و الباطل.

تكملة و تبصرة

روى فى البحار من الامالى أمالى الشيخ عن أحمد بن محمّد بن موسى بن الصلت عن أحمد بن عقدة قال: حدّثنا الحسن بن صالح من كتابه فى ربيع الأول سنة ثمان و سبعين و أحمد بن يحيى عن محمّد بن عمرو عن عبد الكريم عن القاسم بن أحمد عن أبى الصّلت الهروى و قال ابن عقدة و حدثناه القاسم بن الحسن الحسينى عن أبى الصلت عن علىّ بن عبد اللّه بن النّعجة عن أبى سهيل بن مالك عن مالك بن اوس بن

الحدثان قال:

لمّا ولی علیّ بن أبی طالب أسرع النّاس إلی بیعة المهاجرین و الأنصار و جماعة الناس لم یتخلّف عنه من أهل الفضل إلاّ نفر یسیر خذلوا و بایع الناس، و کان عثمان قد عود قریشا و الصحابة کلّهم، و صبّت علیهم الدّنیا صبا، و آثر بعضهم علی بعض، و خصّ أهل بیته من بنی امیة و جعل لهم البلاد و خوّلهم العباد فأظهروا فی الأرض الفساد و حمل أهل الجاهلیة و المؤلفة قلوبهم علی رقاب الناس حتی غلبوه علی أمره فأنکر الناس ما رأوا من ذلک فعاتبوه فلم یعتبهم، و راجعوه فلم یسمع منهم، و حملهم علی رقاب النّاس حتّی انتهی إلی أن ضرب بعضا و نفی بعضا و حرّم بعضا.

فرأی أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یدفعوه و قالوا: إنّما بایعناه علی کتاب اللّه و سنّة نبیّه و العمل بهما، فحیث لم یفعل ذلک لم تکن له علیهم طاعة فافترق النّاس فی أمره علی خاذل و قاتل.

فأمّا من قاتل فرأی أنّه حیث خالف الکتاب و السّنّة و استأثر بالفیء و استعمل من لا یستأهل رأوا أنّ جهاده جهاد.

و أمّا من خذله فانّه رأی أنّه یستحقّ الخذلان و لم یستوجب النصرة بترک أمر اللّه حتّی قتل.

و اجتمعوا علی علیّ بن أبی طالب علیه السّلام فبایعوه فقام و حمد اللّه و اثنی علیه بما هو أهله و صلّی علی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و آله ثمّ قال:

أما بعد فانی قد کنت کارها لهذه الولایة یعلم اللّه فی سماواته و فوق عرشه علی امّة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتّی اجتمعتم علی ذلک فدخلت فیه، و ذلک أنی سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: أیّما وال ولی أمر امتی من بعدی اقیم یوم القیامة علی الصراط و نشرت الملائکة صحیفته، فان نجی فبعدله، و إن جار انتفض به الصراط انتفاضة تزیل ما بین مفاصله حتی یکون بین کلّ عضو و عضو من أعضائه مسیرة مأئة عام یحرق به الصراط (1) ، فأوّل ما یلقی به النار أنفه و حرّ وجهه، و لکنی لما اجتمعتم

1- (1) - من الاعوام التی یحرق بها الصراط ای یقطع، بحار.

علیّ نظرت فلم یسعنی ردّکم حیث اجتمعتم أقول ما سمعتم و أستغفر اللّه لی و لکم.

فقـام إلیه النـاس فبایعوه فأوّل من قام فبایعه طلحـة و الزّبیر، ثمّ قام المهاجرون و الأنصار و سائر الناس حتی بایعه الناس و کان الـذی یأخذ علیهم البیعة عمار بن یاسر و أبو الهیثم بن التیهان و هما یقولان: نبایعکم علی طاعة اللّه و سنة رسوله و إن لم نف لکم فلا طاعة لنا علیکم و لا بیعة فی أعناقکم و القرآن أمامنا و أمامکم ثمّ التفت علیّ علیه السّلام عن یمینه و عن شماله و هو علی المنبر و هو یقول:

ألا لا یقولنّ رجال منکم غـدا قـد غمرتهم الـدّنیا فاتخـذوا العقار، و فجّروا الأنهار، و رکبوا الخیول الفارهة، و اتّخذوا الوصائف الرّدقة، فصار ذلک علیهم عارا و شنارا ان لم یغفر لهم الغفّار إذا منعوا ما کانوا فیه، و صیروا إلی حقوقهم التی یعلمون یقولون حرمنا علیّ بن أبی طالب و ظلمنا حقوقنا و نسـتعین باللّه و نستغفره، و أما من کان له فضل و سابقة منکم فانما أجره فیه علی اللّه، فمن استجاب للّه و لرسوله و دخل فی دیننا و استقبل قبلتنا و أکل ذبیحتنا فقد استوجب حقوق الاسلام و حدوده فأنتم أیها الناس عباد اللّه المسلمون و المال مال اللّه یقسم بینکم بالسویـة و لیس لأحـد علی أحـد فضل إلاّ بالتقوی، و للمتقین عنـد اللّه خیر الجزاء و أفضل الثواب، لم یجعل اللّه الدّنیا للمتقین جزاء و ما عنـد اللّه خیر للأبرار، إذا کان غـدا فاغـدوا فانّ عنـدنا مالا اجتمع فلا یتخلّفن أحـد کان فی عطاء أو لم یکن إذا کان مسـلما حرّا، احضـروا رحمکم اللّه.

فاجتمعوا من الغد و لم یتخلّف عنه أحد، فقسم بینهم ثلاثة دنانیر لکلّ إنسان الشـریف و الوضیع و الأحمر و الأسود و لم یفضّل أحدا و لم یتخلّف عنه أحد إلاّ هؤلاء الرّهط طلحة و الزبیر و عبد اللّه بن عمر و سعید بن العاص و مروان بن الحکم و ناس معهم، فسمع عبید اللّه بن أبی رافع و هو کاتب علیّ بن أبی طالب علیه السّلام عبـد اللّه بن الزبیر و هو یقول للزبیر و طلحة و سـعید بن العاص لقد التفت إلی زید بن ثابت فقلت له: ایاک اعنی و اسـمعی یا جارة فقال عبید اللّه یا سـعید بن العاص و عبد اللّه بن الزّبیر إنّ اللّه یقول فی کتابه «وَ أَکْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ کارِهُونَ » قال عبید اللّه فأخبرت علیا علیه السّلام فقال

عليه السّلام لان سلمت لهم لأحملنهم على الطريق قاتل اللّه ابن العاص لقد علم فى كلامى أنى اريده و أصحابه بكلامى و اللّه المستعان.

قال مالک بن الأوس: و كان علىّ بن أبى طالب اكثر ما يسكن القناة، فبينا نحن فى المسجد بعد الصبح إذ طلع الزبير و طلحة فجلسا ناحية عن علىّ، ثمّ طلع مروان و سعيد و عبد اللّه بن الزّبير و المسور بن محزمة، فجلسوا و كان علىّ عليه السّلام جعل عمار بن ياسر على الخيل، فقال لأبى الهيثم بن التيهان و الخالد بن زيد أبى أيّوب و لأبى حية و لرفاعة بن رافع فى رجال من اصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوموا إلى هؤلاء القوم فانه بلغنا عنهم ما نكره من خلاف أمير المؤمنين امامهم و الطعن عليه و قد دخل معهم قوم من أهل الجفاء و العداوة فانّهم سيحملونهم على ما ليس من رأيهم فقال، فقاموا و قمنا معهم حتّى جلسوا إليهم.

فتكلّم أبو الهيثم بن التيهان فقال: إنّ لكم لقدما فى الاسلام و سابقة و قرابة من أمير المؤمنين عليه السّلام و قد بلغنا عنكم طعن و سخط لأمير المؤمنين فان يكن أمر لكما خاصّة فكاتبا ابن عمّتكما و امامكما، و إن كان نصيحة للمسلمين فلا تؤخّراه عنه و نحن عون لكما فقد علمتما أنّ بنى اميّة لن تنصحكما و قد عرفتما و قال أحمد عرفتم عداوتهم لكما و قد شركتما فى دم عثمان و مالأتما.

فسكت الزبير و تكلّم طلحة فقال:

افرغوا جميعا ممّا تقولون، فانّى قد عرفت أنّ فى كلّ واحد منكم خطبة فتكلّم عمّار بن ياسر رحمه اللّه فحمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال:

أنتما صاحبا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد اعطيتما إمامكم الطاعة و المناصحة و الميثاق على العمل بطاعة اللّه و طاعة رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن يجعل كتاب اللّه اماما.

قال أحمد و جعل كتاب اللّه اماما ففيم السخط و الغضب على علىّ بن أبى طالب فغضب الرّجال للحق انصرا نصركما اللّه.

فتكلّم عبد اللّه بن الزبير، فقال: لقد تهدّدت يا أبا اليقظان.

فقال عمار: ما لک تتعلق فی مثل هذا یا أعبس ثمّ أمر به فاخرج.

فقام الزّبیر فقال: أعجلت یا أبا الیقظان علی ابن أخیک رحمک اللّه.

فقال عمار: یا أبا عبد اللّه انشدک اللّه أن تسمع قول من رأیت فانکم معشر المهاجرین لم یهلک من هلک منکم حتی استدخل فی أمره المؤلفة قلوبهم.

فقال الزبیر: معاذ اللّه أن نسمع منهم.

فقال عمار: و اللّه یا أبا عبد اللّه لو لم یبق أحد إلاّ خالف علیّ بن أبی طالب لما خالفته و لا زالت یدی مع یده، و ذلک لأنّ علیا لم یزل مع الحقّ منذ بعث اللّه نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فانی أشهد أنه لا ینبغی لأحد أن یفضل علیه أحدا.

فاجتمع عمار بن یاسر و أبو الهیثم و رفاعة و أبو أیوب و سهل بن حنیف فتشاوروا أن یرکبوا إلی علیّ علیه السّلام بالقناة فتخبروه بخبر القوم، فرکبوا إلیه فأخبروه باجتماع القوم و ما هم فیه من إظهار الشکوی و التعظیم لقتل عثمان، و قال له أبو الهیثم: یا أمیر المؤمنین انظر فی هذا الأمر.

فرکب بغلة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و دخل المدینة و صعد المنبر فحمد اللّه و أثنی علیه و اجتمع أهل الخیر و الفضل من الصحابة و المهاجرین فقالوا لعلیّ: إنهم قد کرهوا الاسوة و طلبوا الاثرة و سخطوا لذلک، فقال علیّ علیه السّلام: لیس لأحد فضل فی هذا المال، و هذا کتاب اللّه بیننا و بینکم و نبیکم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سیرته.

ثمّ صاح بأعلی صوته: یا معشر الأنصار أتمنّون علیّ باسلامکم أنا أبو الحسن القرم(1) و نزل عن المنبر و جلس ناحیة المسجد و بعث إلی طلحة و الزبیر فدعاهما ثمّ قال لهما: ألم یأتیانی و تبایعانی طائعین غیر مکرهین فما أنکرتم أجور فی حکم أو استیثار فی فیء؟ قالا: لا.

1- (1) - القرم أی المقدم فی الرأی، و القرم فحل الابل، أی أنا فیهم بمنزلة الفحل فی الابل، بحار

قال: أو فی أمر دعوتمانی إلیه فی أمر المسلمین فقصرت عنه؟ قالا: معاذ اللّه.

قال: فما الذی کرهتما فی أمری حتی رأیتما خلافی؟ قالا: خلافک لعمر بن الخطاب فی القسم و انتقاصنا حقنا من الفیء، جعلت حظنا فی الاسلام کحظّ غیرنا مما أفاء اللّه علینا بسیوفنا ممّن هو لنا فیء، فسوّیت بیننا و بینهم.

فقال علیّ: اللّه أکبر اللّهمّ إنی اشهدک و اشهد من حضر علیهما أما ما ذکرتما من الاستیثار فو اللّه ما کانت لی فی الولایة رغبة و لا لی فیها محبّة، و لکنکم دعوتمونی إلیها و حملتمونی علیها فکرهت خلافکم، فلما أفضت إلیّ نظرت إلی کتاب اللّه و ما وضع و امر فیه بالحکم و قسّم و سنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأمضیته و لم احتج فیه إلی رأیکما و دخولکما معی و لا غیرکما و لم یقع أمر جهلته فأتقوّی فیه برأیکما و مشورتکما، و لو کان ذلک لم أرغب عنکما و لا عن غیرکما إذا لم یکن فی کتاب اللّه و لا فی سنّة نبیّنا، فأما ما کان فلا یحتاج فیه إلی أحد.

و أما ما ذکرتما من أمر الأسوة فانّ ذلک أمر لم أحکم أنا فیه و وجدت أنا و أنتما ما قد جاء به محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من کتاب اللّه فلم أحتج فیه إلیکما قد فرغ من قسمه کتاب اللّه الذی لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه تنزیل من حکیم حمید و أما قولکما جعلتنا فیه کمن ضربناه بأسیافنا و أفاء اللّه علینا و قد سبق رجال رجالا فلم یضرّهم و لم یستأثر علیهم من سبقهم لم یضرّهم حتّی استجابوا لرّبهم، و اللّه ما لکم و لا لغیرکم إلاّ ذلک ألهمنا اللّه و إیّاکم الصبر علیه.

فذهب عبد اللّه بن الزّبیر یتکلّم فامر به فوجئت عنقه و اخرج من المسجد و هو یصیح و یقول: ردّوا إلیه بیعته.

فقال علیّ علیه السّلام: لست مخرجکما من أمر دخلتما فیه و لا مدخلکما فی أمر خرجتما منه.

فقاما عنه فقالا: أما انّه لیس عندنا أمر إلاّ الوفاء، قال:

فقال عليه السّلام: رحم اللّه عبدا رأى حقّا فأعان عليه أو رأى جورا فردّه و كان عونا للحقّ على من خالفه.

و روى الشّارح المعتزلى فى شرح الخطبة الحادى و التسعين عن أبى جعفر الاسكافى من كتابه الذى نقض به كتاب العثمانية للجاحظ قال:

قال أبو جعفر: لما اجتمعت الصّحابة فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد قتل عثمان للنظر فى أمر الامامة أشار أبو الهيثم بن التيهان و رفاعة بن رافع و مالک بن العجلان و أبو أيّوب الأنصارى و عمّار بن ياسر بعلىّ عليه السّلام و ذكروا فضله و سابقته و جهاده و قرابته، فأجابهم النّاس إليه فقام كلّ واحد منهم خطيبا بذكر فضل علىّ عليه السّلام، فمنهم من فضّله على أهل عصره خاصّة، و منهم من فضّله على المسلمين كلّهم كافة، ثمّ بويع فصعد المنبر فى اليوم الثانى من يوم البيعة و هو يوم السّبت لاحدى عشر ليلة بقين من ذى الحجة، فحمد اللّه و أثنى عليه و ذكر محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فصلّى عليه، ثمّ ذكر نعمة اللّه على أهل الاسلام، ثمّ ذكر الدّنيا فزهّدهم فيها و ذكر الاخرة فرغّبهم إليها ثمّ قال:

أما بعد فانّه لمّا قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استخلف النّاس أبا بكر، ثمّ استخلف أبو بكر عمر، فعمل بطريقه ثمّ جعلها شورى بين ستّة فأفضى الأمر منهم إلى عثمان فعمل ما أنكرتم و عرفتم ثمّ حصر و قتل، ثمّ جئتمونى فطلبتم إلىّ و إنّما أنا رجل منكم لى ما لكم و علىّ ما عليكم، و قد فتح اللّه الباب بينكم و بين أهل القبلة، و أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم و لا يحمل هذا الأمر إلاّ أهل الصّبر و النصر و العلم بمواقع الأمر، و إنى حاملكم على منهج نبيّكم، و منفذ فيكم ما أمرت به، إن استقمتم لى و باللّه المستعان ألا إنّ موضعى من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد وفاته كموضعى منه أيام حياته، فامضوا لما تؤمرون و قفوا عند ما تنهون عنه، و لا تعجلوا فى أمر حتّى نبيّنه لكم، فانّ لنا عن كلّ أمر تنكرونه عذرا، ألا و إنّ اللّه عالم من فوق سمائه و عرشه أنى كنت كارها للولاية على امة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى اجتمع رأيكم على ذلک لأنى سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: أيّما وال ولى الامر من بعدى

اقيم على حدّ الصـراط و نشـرت الملائكة صحيفته، فان كان عادلا أنجاه اللّه بعدله و إن كان جائرا انتقض به الصراط حتى تتزايل مفاصله ثمّ يهوى إلى النار، فيكون أوّل ما يتّقيها به أنفه و حرّ وجهه، و لكنى لما اجتمع رأيكم لم يسعنى ترككم.

ثمّ التفت يمينا و شمالا فقال:

ألا لا يقولنّ رجال منكم غـدا قد غمرتهم الدّنيا فاتّخذوا العقار و فجّروا الأنهار و ركبوا الخيول الفارهة و اتّخذوا الوصايف الرّدقة، فصار ذلک عليهم عارا و شنارا إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه و اصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون فينقمون ذلک و يستنكرون و يقولون: حرّمنا ابن أبى طالب حقوقنا، ألا و أيّما رجل من المهاجرين و الأنصار من أصـحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يرى أنّ الفضل له على من سواه لصـحبته فانّ له الفضل النيّر غـدا عنـد اللّه و ثوابه و أجره على اللّه، و أيما رجل اسـتجاب للّه و للرسول فصدّق ملّتنا و دخل فى ديننا و اسـتقبل قبلتنا فقـد اسـتوجب حقوق الاسـلام و حـدوده فأنتم عباد اللّه و المال مال اللّه يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد و للمتّقين غـدا عنـد اللّه أحسن الجزاء و أفضل الثواب، لم يجعل اللّه الـدّنيا للمتقين أجرا و لا ثوابا، و ما عنـد اللّه خير للأبرار، و إذا كان غـدا إنشاء اللّه فاغدوا علينا فانّ عندنا مالا نقسـمه فيكم و لا يتخلّفنّ أحد منكم عربىّ و لا عجمىّ كان من أهل العطاء أو لم يكن إذا كان مسـلما حرّا، أقول قولى هذا و أستغفر اللّه لى و لكم، ثمّ نزل.

قال أبو جعفر: و كان هذا أوّل ما أنكروه من كلامه عليه السّلام و أورثهم الضّغن عليه و كرهوا اعطاءه و قسمه بالسّوية فلمّا كان من الغد غدا و غـدا النّـاس لقبض المـال، فقـال لعبيـد اللّه بن أبى رافع كاتبه: ابـدء بالمهاجرين فنادهم و أعط كلّ رجل ممّن حضـر ثلاثـة دنانير ثمّ ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلک، و من يحضر من الناس كلّهم الأحمر و الأسود فافعل به مثل ذلک.

فقال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين هذا غلامى و قد اعتقته اليوم.

فقال: نعطيه كما نعطيک فأعطى كلّ واحـد منهم ثلاثـة دنانير، و لم يفضّل أحـدا على أحد، و تخلّف عن هذا القسم يومئذ طلحة و الزبير و عبد اللّه بن عمر و سعيد ابن العاص و مروان بن الحكم و رجال من قريش و غيرها.

قال: و سمع عبيد اللّه بن أبى رافع عبد اللّه بن الزبير يقول لأبيه و طلحة و مروان و سعيد ما خفى علينا أمس من كلام علىّ عليه السّلام ما يريد، فقال سعيد بن العاص و التفت إلى زيد بن ثابت: إيّاک أعنى و اسمعى يا جارة.

فقال عبيد اللّه بن أبى رافع لسعيد و عبد اللّه بن الزبير: إنّ اللّه يقول فى كتابه «وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ ».

ثمّ إنّ عبيد اللّه بن أبى رافع أخبر عليا عليه السّلام بذلک فقال عليه السّلام إن بقيت و سلمت لهم لاقيمنّهم على المحجّة البيضاء و الطريق الواضح، قاتل اللّه بنى العاص لقد عرف من كلامى و نظرى إليه امس أنّى اريده و أصحابه ممّن هلک فيمن هلک.

قال: فبينا الناس فى المسجد بعد الصّبح إذ طلع الزبير و طلحة فجلسا ناحية عن علىّ عليه السّلام ثمّ طلع مروان و سعيد و عبد اللّه بن الزبير فجلسوا إليهما، ثمّ جاء قوم من قريش فانضمّوا إليهم فتحدّثوا نجيا ساعة.

ثمّ قام الوليد بن عقبة بن أبى معط فجاء إلى علىّ عليه السّلام فقال: يا أبا الحسن قد و ترتنا جميعا أمّا أنا فقتلت أبى يوم بدر صبرا و خذلت أخى يوم الدار بالأمس، و أمّا سعيد فقتلت أباه يوم بدر فى الحرب و كان ثور قريش، و أما مروان فسخفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه و نحن اخوتک و نظراؤک من بنى عبد مناف، و نحن نبايعک اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال فى أيّام عثمان، و أن تقتل قتلته و أنا إن خفناک تركنا و التحقنا بالشام.

فقال عليه السّلام: أما ما ذكرتم من وترى إياكم فالحقّ وتركم، و أما وضعى عنكم ما أصبتم فليس لى أن أضع حقّ اللّه عنكم و لا عن غيركم، و أما قتلى قتلة عثمان فلو لزمنى قتلهم اليوم لقتلتهم أمس و لكن لكم علىّ إن خفتمونى أن اؤمنكم و إن خفتكم أن اسيركم فقام الوليد إلى أصحابه فحدّثهم و افترقوا على إظهار العداوة و إشاعة الخلاف فلمّا ظهر ذلک من أمرهم قال عمار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فانه قد بلغنا عنهم و رأينا منهم ما نكره من خلاف و طعن على إمامهم و قد دخل أهل الجفا بينهم و بين الزّبير، و الاعسر العاق يعنى طلحة.

فقام أبو الهيثم و عمّار و أبو أيّوب و سهل بن حنيف و جماعة معهم على علىّ

فقالوا يا أمير المؤمنين انظر فى أمرک و عاتب قومک هـذا الحىّ من قريش فانّهم قـد نقضوا عهـدک و أخلفوا وعدک و قد دعونا فى السـرّ إلى رفضک هداک اللّه لرشدک، و ذاک لأنهم كرهوا الاسوة و فقدوا الاثرة و لمّا آسـيت بينهم و بين الأعاجم أنكروا و استأثروا عدوّک و أعظموه و أظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة و تألّفا لأهل الضلالة فرأيک.

فخرج علىّ عليه السّلام فدخل المسجد و صعد المنبر مرتديا بطاق مؤتزرا ببرد قطرى(1) متقلّدا سيفا متوكّئا على قوس فقال:

أمّا بعـد فانّا نحمـد اللّه ربّنا و إلهنا و وليّنا و ولىّ النعم علينا الذى أصـبحت نعمه علينا ظاهرة و باطنة امتنانا منه بغير حول منّا و لا قوّة ليبلونا أنشـكر أم نكفر فمن شـكر زاده و من كفر عذّبه، فأفضل النّاس عند اللّه منزلة و أقربهم من اللّه وسيلة أطوعهم لأمره و أحملهم «أعملهم خ» بطاعته و أتبعهم لسـنّة رسوله و أحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فضل إلاّ بطاعة اللّه و طاعة الرّسول، هذا كتاب اللّه بين أظهرنا و عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سيرته فينا لا يجهل ذلک إلاّ جاهل عاند عن الحقّ منكر قال اللّه تعالى «يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ » ثمّ صاح بأعلى صوته: أطيعوا اللّه و أطيعوا الرّسول فان تولّيتم فانّ اللّه لا يحبّ الكافرين، ثمّ قال: يا معشـر المهاجرين و الأنصار أتمنّون على اللّه و رسوله باسـلامكم بل اللّه يمنّ عليكم أن هـديكم للايمان إن كنتم صادقين ثمّ قال: أنا أبو الحسن - و كان يقولها إذا غضب -.

ثمّ قال: ألا إنّ هذه الدّنيا الّتى أصـبحتم تتمنّونها و ترغبون فيها و أصـبحت تغضـبكم و ترضيكم ليست بداركم و لا منزلكم الّذى خلقتم له، فلا تغرّنّكم فقد حذّرتموها و اسـتتمّوا نعم اللّه عليكم بالصّبر لأنفسكم على طاعة اللّه و الذّلّ لحكمه جلّ ثناؤه، فأمّا هذا الفى، فليس لأحد على أحد فيه اثرة، فقد فرغ اللّه من قسمته فهو

1- (1) - الطاق ضرب من الثياب و القطر ضرب من البرد و يقال لها القطرية، منه

مـال اللّه و أنتم عبـاد اللّه المسـلمون، و هـذا كتـاب اللّه به أقررنا و إليه أسـلمنا و عهـد نبيّنا بين أظهرنا فمن لـم يرض فليتولّ كيف شاء، فانّ العامل بطاعة اللّه و الحاكم بحكم اللّه لا وحشة عليه.

ثمّ نزل عن المنبر فصـلّى ركعتين ثمّ بعث بعمّار بن ياسـر و عبد اللّه بن خلّ القرشـى إلى طلحة و الزبير و هما فى ناحية المسـجد، فأتياهما فدعواهما فقاما حتى جلسا إليه فقال لهما:

نشدتكما اللّه هل جئتما طائعين للبيعة و دعوتمانى إليها و أنا كاره لها؟ قالا: نعم.

فقال: غير مجبرين و لا مقسورين فأسلمتما لى بيعتكما و أعطيتمانى عهدكما قالا: نعم.

قال: فما دعاكما إلى ما أرى؟ قالا: أعطيناک بيعتنا على أن لا تقضـى الامور و لا تقطعها دوننا، و أن تستشـيرنا فى كلّ أمر و لا تستبدّ بذلک علينا و لنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسم و تقطع الأمر و تمضى الحكم بغير مشاورتنا و لا علمنا.

فقال عليه السّلام: لقد نقمتما يسـيرا و أرجاتما كثيرا فاستغفرا اللّه يغفر كما ألا تخبراننى أدفعتكما عن حقّ وجب لكما فظلمتكما إيّاه؟ قالا: معاذ اللّه.

قال: فهل استأثرت من هذا المال لنفسى بشى؟ قالا: معاذ اللّه.

قال: فوقع حكم أو حقّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه؟ قالا:

معاذ اللّه.

قـال: فمـا الـذى كرهتما من أمرى حتّى رأيتما خلافى؟ قالا، خلافک عمر بن الخطاب فى القسم إنّک جعلت حقنا فى القسم كحقّ غيرنا و سوّيت بيننـا و بين من لا يماثلنا فيما أفاءه اللّه تعالى علينا بأسـيافنا و رماحنا و أو جفنا عليه بخيلنا و ظهرت عليه دعوتنا و أخـذناه قسـرا قهرا ممن لا يرى الاسلام إلاّ كرها فقال: أما ما ذكرتماه من أمر الاستشارة فو اللّه ما كانت لى فى الولاية رغبة،

و لكنّكم دعوتمونى إليها و جعلتمونى عليها فخفت أن أردّكم فتختلف الامّة فلمّا افضت إلىّ نظرت فى كتاب اللّه و سنّة رسوله فأمضيت ما ولاّنى عليه و اتّبعته و لم احتج إلى رأيكما فيه و لا رأى غيركما، و لو وقع حكم ليس فى كتاب اللّه بيانه و لا فى السنة برهانه و احتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه.

و أمّا القسم و الاسوة فانّ ذلک أمر لم أحكم فيه بادىء بدء، قد وجدت أنا و أنتما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يحكم بذلک و كتاب اللّه ناطق به و هو الكتاب الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

و أمّا قولكما جعلت فيئنا و ما أفاءه سيوفنا و رماحنا سواء بيننا و بين غيرنا فقديما سبق إلى الاسلام قوم و نصروه بسيوفهم و رماحهم فلا فضّلهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى القسم و لا آثرهم بالسّبق و اللّه سبحانه موفّ السّابق و المجاهد يوم القيامة أعمالهم و ليس لكما و اللّه عندى و لا لغيركما إلاّ هذا، أخذ اللّه بقلوبنا و قلوبكم إلى الحقّ و ألهمنا و ايّاكم الصّبر - ثمّ قال - رحم اللّه امرء رأى حقّا فأعان عليه و رأى جورا فردّه و كان عونا للحقّ على من خالفه.

قال أبو جعفر: و قد روى أنّهما قالا له عليه السّلام وقت البيعة: نبايعک على أنّا شركاؤک فى هذا الأمر.

فقال: و لكنّكما شريكاى فى الفىء لا أستأثر عليكما و لا على عبد حبشى مجدّع بدرهم فما دونه، لا أنا و لا ولداى هذان، فان أبيتم إلاّ لفظ الشّركة فأنتما عونان لى عند العجز و الفاقة لا عند القوّة و الاستقامة.

قال أبو جعفر: فاشترطا ما لا يجوز فى عقد الامامة و شرط عليه السّلام لهما ما يجب فى الدّين و الشريعة.

قال الشّارح المعتزلى بعد نقله هذا الكلام من الاسكافى:

فان قلت: فانّ أبا بكر قسّم بالسويّة كما قسّمه أمير المؤمنين و لم ينكروا ذلک كما أنكروه أيام أمير المؤمنين فما الفرق بين الحالتين؟ قلت: إنّ أبا بكر قسّم محتذيا لقسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلمّا ولى عمر الخلافة

و فضّل قوما على قوم ألفوا ذلک و نسوا تلک القسمة الاولى و طالت أيّام عمر و اشربت قلوبهم كثرة العطاء و حبّ المال، و أمّا الذين اهتضموا فقنعوا و مرّنوا على القناعة و لم يخطر لأحد من الفريقين أنّ هذه الحال تنتقض أو تتغيّر بوجه ما.

فلمّا ولى عثمان أجرى الأمر على ما كان عمر يجريه، فازداد وثوق القوم بذلک و من ألف أمرا شقّ عليه فراقه و ترک العادة فيه.

فلمّا ولى أمير المؤمنين أراد أن يردّ الأمر إلى ما كان فى أيّام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبى بكر و قد نسى ذلک و رفض و تخلل بين الزّمانين اثنتان و عشرون سنة فشقّ ذلک عليهم و أكبروه حتّى حدث ما حدث من نقض البيعة و مفارقة الطّاعة، و للّه أمر هو بالغه.

الترجمة

از جملهٔ كلام نصيحت انجام آن امام است كه خطاب فرموده طلحة و زبير را بعد از آنكه بيعت كردند با او بخلافت او و عتاب كردند مر او را بجهت ترک نمودن آن بزرگوار مشاورهٔ ايشان را و نخواستن اعانت از ايشان را در امور خلافت مى فرمايد:

بتحقيق ايراد نموديد چيز مختصرى را و تأخير انداختيد چيز زياد را، چرا خبر نمى دهيد بمن كدام چيزى كه شما را در آن حق بوده است من مانع از حقّ شما شده ام؟ و كدام سهم و حصّه از بيت المال من علاوه از شما برداشته و بشما نداده ام يا كدام حقّى كه يک نفر مسلمان نزد من آورده از اجراء آن ضعيف بوده ام يا بحكم آن جاهل شده يا در دليل آن خطا نموده؟ قسم بخداى تعالى نبود مرا در خلافت هيچ رغبت و نه در ولايت هيچ حاجتى و ليكن شما خوانديد مرا بسوى آن و الزام نموديد مرا بر آن، پس هنگامى كه رسيد بمن نظر نمودم در كتاب عزيز خداوند و بچيزى كه واجب فرموده بما و أمر نموده ما را بحكم كردن آن، پس تبعيت نمودم بان و نظر نمودم بچيزى

که پیغمبر خدا صلوات اللّه و سلامه علیه و آله سنّت خود قرار داده، پس متابعت کردم آن را پس محتاج نبودم در این خصوص برأی و تدبیر شما، و نه برأی و تدبیر غیر شـما، و اتفاق نیفتاده حکمی که جاهل باشم بان تا مشاوره نمایم با شـما، یا با سایر برادران خود از مسلمانان، و اگر همچنین حکمی اتفاق می افتاد إعراض نمی کردم از شما و نه از غیر شما.

و أمّا آن چیزی که اظهار نمودید آن را از أمر اسوة یعنی برابری شما با سایرین در قسمت، پس بدرستی که این چیزیست من خود سر با رأی خود در آن حکم ننموده و با هوای نفس خود مباشـر آن نبوده، بلکه یافتم من و شـما چیزی را که آورد آن را حضـرت رسالت ماب صلوات اللّه و سـلامه علیه و آله از قسـمت بالسّویّة در حالتی که فارغ شده بود از آن، پس احتیاج نداشـتم من بشما در چیزی که خدا از قسمت آن فارغ بوده و امضای حکم خود را در آن فرموده، پس نیست شما را بحق خدا در نزد من و نه غیر شما را این که ترضیهٔ خواطر و ازالهٔ شکایت شما را نمایم، برگرداند خداوند قلبهای ما و قلبهای شما را بسوی حق، و الهام فرماید بما و شما صبر را.

پس از آن فرمود: رحمت کنـد خـدا مردی را که بینـد حق را پس اعانت نماید بان، یا بیند ظلم و سـتم را پس رفع نماید آن را، و باشد معین بحق بر ضرر صاحب جور و ظلم.

و من کلام له علیه السّلام و هو المأتان

اشارة

و الخامس من المختار فی باب الخطب

و رواه الشّارح المعتزلی من کتاب نصـر بن مزاحم فی شـرح المختار السادس و الأربعین باختلاف تطلع علیه إنشاء اللّه و قد سمع قوما من أصحابه یسبّون أهل الشّام أیّام حربهم بصفّین -

ص:81

إنّى أكره لكم أن تكونوا سبّابين، و لكنّكم لو وصفتم أعمالهم، و ذكرتم حالهم، كان أصوب فى القول، و أبلغ فى العذر، و قلتم مكان سبّكم إيّاهم: أللّهمّ احقن دمائنا و دمائهم، و أصلح ذات بيننا و بينهم، و اهدهم من ضلالتهم حتّى يعرف الحقّ من جهله، و يرعوى عن الغىّ و العدوان من لهج به.

اللغة

(السب) الشتم كالسّباب بكسر السّين و تخفيف الباء من سبّه يسبّه من باب نصر، و رجل مسبّ بكسر الميم و سبّ و سبّاب كثير السبّ، و التسابّ التشاتم و رجل سبّة بالضمّ أى يكثر النّاس سبّه و سبّبة كهمزة أى كثير السّب للنّاس و السبّابة الأصبع التى تلى الابهام لأنّها يشار بها عند السبّ.

و (حقنت) الماء فى السّقاء حقنا من باب نصر جمعته فيه و حقنت دمه خلاف هدرته أى منعته أن يسفك.

و (البين) بالفتح من الأضداد يطلق على الفرقة و الوصل قال تعالى «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » أى وصلكم و يكون اسما و ظرفا متمكنّا قال الفيومى: البين يطلق على الوصل و على الفرقة و منه ذات البين للعداوة و البغضاء و قولهم لاصلاح ذات البين أى لاصلاح الفساد بين القوم، و المراد إسكان النائرة و بين ظرف مبهم لا يتبيّن معناه إلاّ بالاضافة إلى اثنين فصاعدا أو ما يقوم مقام ذلک كقوله تعالى «عَوانٌ بَيْنَ ذلِکَ ».

و (ارعوى) عن القبيح ارتدع عنه و رجع و (الغىّ) الضلال و روى العمى بدله و (لهج) بالشىء لهجا من باب تعب أولع به.

الاعراب

قوله: و قلتم عطف على قوله: وصفتم فتدخل عليه لو و حذف جوابها بدلالة الجواب السّابق عليه أى و لو قلتم مكان سبّكم هذا الدّعاء لكان أحسن و أصوب.

ص:82

و قوله:ذات بيننا و بينهمباضافـة ذات إلى بين، و بينهم على ما رأيناه فى عدّة من النّسخ بالنصب عطف على ذات، و الأصوب أن يكون بالجرّ عطفا على بيننا.

و ذات إمّا بمعنى صاحبـة كما فى قوله تعالى«وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها » فتكون كنايـة عن نائرة العـداوة و البغضاء، و بيننا و بينهم على هذا ظرف مكان أى اصلح ما بيننا و بينهم من البغضاء و العداوة، و لمّا كانت العداوة مصاحبة البين و ملابسة له اضيفت إليه كما أنّ الضمائر لمّا كانت ملابسة للصدور قيل: ذات الصّدور.

و إمّا بمعنى نفس الشـىء و حقيقته كما فى قولهم: ذات يوم و ذات ليلة، و قد فسّر بهما قوله تعالى «وَ اللّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ » أى عليم بما فى الصّدور من الضّماير أو عليم بنفس الصّدور و بواطنها، و بين على هذا المعنى الثانى يجوز أن يكون ظرفا، و أن يكون اسما بمعنى الفرقة و الوصل حسبما تعرف فى بيان المعنى

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الكلام كما قاله الرّضـىّ و يأتى فى رواية الطبرسـىّ أيضا خاطب به أصحابه (و) ذلک أنّه (قد سمع قوما من أصحابه يسبّون أهل الشّام أيّام حربهم بصفين) فمنعهم بهذا الكلام من باب التأديب و الارشاد إلى القول الصّواب و كرايم الأخلاق المطلوبة فى كلّ باب.

و قبل الشـروع فى شرح كلامه ينبغى أن نمهّد مقدّمة فقهيّة فى جواز السبّ و عدم جوازه مطلقا أو فى الجملة تحقيقا للمقام و توضيحا لمرام الامام عليه السّلام.

فأقول و باللّه التوفيق:

السبّ لغـة هو الشّـتم كقولـک يـا شارب الخمر، يا آكل الرّبا، يا ملعون، يا خائن، يا فاجر، يا فاسق، يا حمار، يا كلب، يا ابن الكلب و نحو ذلـک، أو يا أعور يا أعمى يا أجـذم، يا أبرص، و نحوها، و يشـمل القـذف أيضا مثل يا ابن الزانيـة، يا ابن الحرام، و يا ديّوث، و يا قوّاد، و مثل ذلک.

و هو إما فى حقّ المؤمن، أو فى حقّ غيره من المنافق و الكافر و النّاصب.

أمّا المؤمن فسبّه حرام مطلقا، سواء كان متضمّنا للقذف أم لا و يدلّ عليه الأخبار المستفيضة المتقدّمة جملة منها فى شرح المختار المأة و الثّانى و التسعين خصوصا و عموم الأخبار الكثيرة الدّالّة على حرمة اهانة المؤمن و استحقاره و استذلاله.

مثل ما رواه فى الكافى بسنده عن معاوية عن أبى عبد اللّه عليه السّلام فى حديث قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قال اللّه لى: يا محمّد من أذلّ لى وليّا فقد أرصدنى بالمحاربة و من حاربنى حاربته، فقلت: يا ربّ و من وليّک هذا فقد علمت أنّ من حاربک حاربته، قال: ذاک من أخذت ميثاقه لک و لوصيّک و لذرّيتکما بالولاية.

و فيه عن المعلّى قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قال اللّه عزّ و جلّ: قد نابذنى من أذلّ عبدى المؤمن.

و عن المعلّى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال اللّه عزّ و جلّ:

من استذلّ عبدى فقد بارزنى بالمحاربة، و نحوها أخبار اخر.

و كما يحرم سبّه يحرم لعنه أيضا، و معناه الطّرد و الابعاد من رحمة اللّه بل هو نوع من السّب فيدلّ على حرمته ما دلّ على حرمة السّب مضافا إلى خصوص الأخبار النّاهية عنه.

مثل ما رواه فى الكافى عن علىّ بن أبى حمزة عن أحدهما عليهما السّلام قال: سمعته يقول: إنّ اللّعنة إذا خرجت عن فىّ صاحبها تردّدت فان وجدت مساغا و إلاّ رجعت على صاحبها.

و فيه عن أبى حمزة الثمالى قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول: إنّ اللّعنة إذا خرجت من فىّ صاحبها تردّدت بينهما فان وجدت مساغا و إلاّ رجعت على صاحبها.

و عن معلّى عن أحمد بن غسّال عن سماعة قال: دخلت على أبى عبد اللّه عليه السّلام فقال لى مبتدأ: يا سماعة ما هذا الّذى بينک و بين جمّالک إيّاک أن تكون فحّاشا أو سخّابا أو لعّانا، فقلت: و اللّه لقد كان ذلک إنّه ظلمنى، فقال: إن كان ظلمک لقد

أربيت عليه إنّ هذا ليس من فعالى و لا آمر به شيعتى استغفر ربّک و لا تعد، قلت:

أستغفر اللّه و لا أعود.

ثمّ المراد بالمؤمن الذى قلنا بعدم جواز سبّه و لعنه هل هو مطلق المؤمن أو خصوص من لم يستحق الاستخفاف، ظاهر الأخبار الاطلاق لكنّ المستفاد من بعض الأخبار و كلمات علمائنا الأبرار هو الاختصاص فيجوز سبّ المستحق إذا لم يكن متضمّنا للقذف.

قال فى البحار بعد ما روى من الكافى عن أبى بصير عن أبى جعفر عليه السّلام قال:

قال: سباب المؤمن فسوق، و قتاله كفر، و أكل لحمه معصية، و حرمة ماله كحرمة دمه: ما عبارته:

السّباب هنا بالكسر مصدر باب المفاعلة، و هو إمّا بمعنى السّب أو المبالغة فى السبّ أو على بابه من الطرفين و الاضافة إلى المفعول أو الفاعل، و الأوّل أظهر فيدلّ على أنّه لا بأس بسبّ غير المؤمن إذا لم يكن قذفا.

بل يمكن أن يكون المراد بالمؤمن من لا يتظاهر بارتكاب الكبائر و لا يكون مبتدعا مستحقّا للاستخفاف.

قال المحقّق فى الشّرايع: كلّ تعريض بما يكرهه المواجه و لم يوضع للقذف لغة و لا عرفا يثبت به التعزير إلى قوله: و لو كان المقول له مستحقّا للاستخفاف فلا حدّ و لا تعزير، و كذا كلّ ما يوجب أذى كقوله: يا أجذم أو يا أبرص.

و قال الشّهيد الثّانى فى شرحه: لمّا كان أذى المؤمن الغير المستحقّ للاستخفاف محرّما فكلّ كلمة تقال له و يحصل له بها الأذى و لم تكن موضوعة للقذف بالزّنا و ما فى حكمه لغة و لا عرفا يجب بها التّعزير بفعل المحرم كغيره من المحرّمات و منه التّعبير بالأمراض.

و فى صحيحة عبد الرّحمن بن أبى عبد اللّه قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن رجل سبّ رجلا بغير قذف يعرّض به هل يجلّد؟ قال: عليه التعزير.

و المراد بكون المقول له مستحقّا للاستخفاف أن يكون فاسقا متظاهرا بفسقه

فانّه لا حرمة له حينئذ.

لما روى عن الصّادق عليه السّلام إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له، و لا غيبة قال: و فى بعض الأخبار: من تمام العبادة الوقيعة فى أهل الرّيب.

و فى الصّحيح عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا رأيتم أهل البدع و الرّيب من بعدى فأظهروا البراءة منهم و أكثروا من سبّهم و القول فيهم و الوقيعة و باهتوهم لئلا يطمعوا فى الفساد فى الاسلام و يحذّرهم النّاس و لا يتعلّمون من بدعهم يكتب اللّه لكم بذلك الحسنات، و يرفع لكم به الدّرجات «فى الاخرة» انتهى.

و أمّا غير المؤمن من الكافر و المنافق و المبغض لاهل محمّد صلوات اللّه و سلامه عليه و عليهم، فلا ريب فى جواز لعنهم و وجوب معاداتهم و البراءة منهم، و آيات الكتاب و روايات الأئمّة الأطياب مشحونة به، قال تعالى «إِنَّ اللّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً » و قال «أُولئِکَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُونَ ».

و فى البحار من العيون باسناد التميمى عن الرّضا عن آبائه عليهم السّلام قال: قال النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من تولّى غير مواليه فعليه لعنة اللّه و الملائكه و النّاس أجمعين قال الصّدوق فى عقايده: اعتقادنا فى الظالمين انّهم ملعونون و البراءة منهم واجبة قال اللّه عزّ و جلّ «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُولئِکَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ ».

و قال ابن عباس فى تفسير هذه الاية: سبيل اللّه عزّ و جلّ فى هذا الموضع علىّ بن أبى طالب، و الأئمة فى كتاب اللّه عزّ و جلّ: إمامان: إمام هدى، و إمام ضلالة قال اللّه جلّ ثناؤه: «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَرُوا » و قال عزّ و جلّ فى أئمة الضلال «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ وَ أَتْبَعْناهُمْ فِى هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ».

و لمّا نزلت هذه الاية «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » قال النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من ظلم علىّا مقعدى هذا بعد وفاتى فكأنّما جحد نبوّتى

و نبوّة الأنبياء من قبلى، و من تولّى ظالما فهو ظالم قال اللّه عزّ و جلّ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ » و قال اللّه عزّ و جلّ «لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ » و قال عزّ و جلّ «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » و قال عزّ و جلّ «وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النّارُ » و الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه، فمن ادّعى الامامة و ليس بامام فهو الظالم الملعون، و من وضع الامامة فى غير أهلها فهو ظالم ملعون، انتهى كلامه رفع مقامه.

و أما سبّ هؤلاء و شتمهم فالظاهر جوازه أيضا كما ظهر من المحدّث العلامة المجلسى، بل هو ظاهر عبارة الشهيد الثانى أيضا لعدم الرّيب فى فسقهم الموجب للاستخفاف بأىّ نحو كان.

و يدل على ذلك صريحا ما فى تفسير علىّ بن إبراهيم القمّى فى تفسير سورة الأحزاب فى اقتصاص غزوة بنى قريظة قال: فجاء أمير المؤمنين عليه السّلام فأحاط بحصنهم فأشرف عليهم كعب بن أسيد من الحصن يشتمهم و يشتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأقبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على حمار فاستقبله أمير المؤمنين عليه السّلام فقال: بأبى و امّى يا رسول اللّه لا تدن من الحصن، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا علىّ لعلّهم شتمونى انهم لو رأونى لأذلّهم اللّه، ثمّ دنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حصنهم فقال: يا اخوة القردة و الخنازير و عبدة الطاغوت أ تشتمونى إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحهم، فأشرف عليهم كعب بن اسيد من الحصن فقال: يا أبا القاسم ما كنت جهولا، فاستحى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى سقط الرّداء من ظهره حياء مما قاله الحديث.

و يدل عليه أيضا ما قاله أمير المؤمنين عليه السّلام فى المختار التاسع عشر للاشعث ابن قيس: عليك لعنة اللّه و لعنة اللاعنين حائك بن حائك منافق بن كافر، و ما قاله فى المختار المأة و الخامس و الثلاثين للمغيرة بن الأخنس يا ابن اللّعين الأبتر و الشجرة التى لا أصل لها و لا فرع، و الأخبار فى هذا المعنى كثيرة كما هو غير خفىّ

على المتتبّع الخبير.

هذا كله إذا لم يتضمّن سبّهم للقذف، و أمّا إن تضمّن ذلک فلا کالمؤمن.

و يدل على ذلک ما رواه فى الكافى باسناده عن عمرو بن النعمان الجعفى قال:

كان لأبى عبد اللّه عليه السّلام صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكانا فبينما هو يمشى معه فى الحذائين(1) و معه غلام سندى له يمشى خلفهما إذا التفت الرّجل يريد غلامه ثلاث مرّات فلم يره، فلما نظر فى الرابعة قال: يا ابن الفاعلة أين كنت؟ قال:

فرفع أبو عبد اللّه عليه السّلام يده فصكّ بها جبهة نفسه ثمّ قال عليه السّلام: سبحان اللّه تقذف امّه قد كنت أرى أنّ لک ورعا فاذا ليس لک ورع، فقال: جعلت فداک إنّ امّه سنديّة مشركة فقال عليه السّلام: أما علمت أنّ لكلّ امة نكاحا تنحّ عنى، قال: فما رأيته يمشى معه حتى فرّق الموت بينهما، قال: و فى رواية اخرى انّ لكلّ امة نكاحا يحتجزون به عن الزّنا.

و فى الوسائل من الكافى عن علىّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن أبى الحسن الحذا قال: كنت عند أبى عبد اللّه عليه السّلام فسألنى رجل ما فعل غريمک قلت:

ذاک ابن الفاعلة، فنظر إلىّ أبو عبد اللّه عليه السّلام نظرا شديدا قال: فقلت: جعلت فداک إنه مجوسىّ امه اخته، فقال عليه السّلام: أ و ليس ذلک فى دينهم نكاحا.

و إذا تمهّد لک هذه المقدّمة الشريفة و عرفت جواز سبّ غير المؤمن و لعنه و طعنه و الوقيعة فيه فلنرجع إلى شرح المتن و نبيّن وجه منعه عليه السّلام لأصحابه عن سبّ أهل الشام كما يستفاد من قوله عليه السّلام:

(إنى أكره لكم أن تكونوا سبّابين) و لعلّ النكتة فى ذلک أنه عليه السّلام لما كان غرضه الأصلى و مقصوده بالذّات فى جميع حروبه هداية الانام و إعلاء كلمة الاسلام و انقاذهم من ورطات الجهالة و الضلالة لا القتل و الغارة و الملک و السلطنة بالاصالة كما أشار إلى ذلک فى المختار الرّابع و الخمسين بقوله عليه السّلام حين استبطاء أصحابه اذنه لهم فى القتال بصفين: و أما قولكم شكا فى أهل الشام فو اللّه ما دفعت الحرب يوما

1- (1) - الحذّاء وزان شدّاد صانع الحذاء و هو النعل، منه.

إلاّ و أنا أطمع أن تلحق بی طائفة فتهتدی بی و تعشو إلی ضوئی، و ذلک أحبّ إلیّ من أن اقتلها علی ضـلالها و إن کانت تبوء باثامها، و کان حصول هـذا الغرض بالرّفق و المـداراة و الحلم و کظم الغیظ لا بالغلظـة و الخشونـة و السّبّ و اللّعنة، لا جرم منعهم من السبّ لئلاّ یبعث علی شدّة العناد و مزید العداوة.

و الی ذلک یومی ما رواه فی الکافی عن أبی بصیر عن أبی جعفر علیه السّلام قال:

إنّ رجلا من بنی تمیم أتی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: اوصنی، فکان فیما أوصاه أن قال:

لا تسبّوا الناس فتکسبوا العداوة بینهم.

و یـدل علی ذلـک صـریحا قوله تعـالی فی سورة بنی إسـرائیل «وَ قُلْ لِعِبادِی یَقُولُوا الَّتِی هِیَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّیْطانَ یَنْزَغُ بَیْنَهُمْ إِنَّ الشَّیْطانَ کانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِیناً » أی انّ الشیطان یفسد بینهم و یغری بعضهم ببعض و یلقی بینهم العداوة.

قال فی الصافی فی تفسـیر الایة: قل لعبادی یعنی المؤمنین یقولوا للمشرکین الکلمة التی هی أحسن و لا یخاطبوهم بما یغیظهم و یغضبهم إنّ الشیطان یهیج بینهم المراء و الشرّ، فلعلّ المخاشنة بهم یفضی إلی العناد و ازدیاد الفساد.

و قال تعالی أیضا فی سورة السـجدة «لا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لاَ السَّیِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ وَ ما یُلَقّاهـا إِلاّـ الَّذِینَ صَبَرُوا وَ مـا یُلَقّاها إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ » قال فی مجمع البیان: لا تسـتوی الخصـلة الحسـنة و السـیئة، فلا یسـتوی الصبر و الغضب و الحلم و المـداراة و الغلظة و العفو و الاسائة، ثمّ بیّن سـبحانه ما یلزم علی الدّاعی من الرّفق بالمدعوّ فقال: ادفع بالتی هی أحسن، خاطب النبیّ صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: ادفع بحقک باطلهم و بحلمک جهلهم و بعفوک اسائتهم، فانک إذا دفعت خصومک بلین و رفق و مداراة صار عدوّک الذی یعادیک فی الدّین بصورة ولیّک القریب فکأنه ولیّک فی الدّین و حمیمک فی النسب، و ما یلقّیها أی ما یلقّی هذه الفعلة و هذه الحالة التی هی دفع السـیئة بالحسنة إلاّ الذین صبروا علی کظم الغیظ و احتمال المکروه، و ما یلقّیها أی هذه الخصلة الاّ ذو نصیب وافر من العقل و الرّأی.

و قال تعالی أیضا فی سورة الشوری «وَ الَّذِینَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْیُ هُمْ یَنْتَصِرُونَ »

«وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِکَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ».

قال أمين الاسلام الطبرسى: الذين إذا أصابهم البغى من غيرهم هم ينتصرون ممّن بغى عليهم، فمن انتصر و أخذ بحقّه و لم يجاوز فى ذلک ما حدّ اللّه فهو مطيع للّه و من أطاع اللّه فهو محمود.

ثمّ ذكر حدّ الانتصار فقال: و جزاء سيئة سيئة مثلها، قيل: هو جواب القبيح إذا قال أخزاک اللّه قال أخزاک اللّه، و سمّى الثانية سيئة للمشاكلة و كونها فى مقابلة الأولى.

ثمّ ذكر سبحانه العفو فقال: فمن عفى و أصلح فأجره على اللّه أى فمن عفى عمّاله المؤاخذة به و أصلح أمره بينه و بين ربّه فثوابه على اللّه إنه لا يحبّ الظالمين بيّن سبحانه انّه لم يرغب المظلوم فى العفو عن الظالم لميله إلى الظالم أو لحبّه إيّاه و لكنّه ليعرّضه بذلک لجزيل الثواب و لحبّه الاحسان و الفضل.

ثمّ ذكر سبحانه المنتصر فقال: و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئک ما عليهم من سبيل معناه من انتصر لنفسه و انتصف من ظالمه بعد ظلمه أى بعد أن ظلم و تعدّى عليه فالمنتصرون ما عليهم من اثم و عقوبة و ذّم إنّما السّبيل أى الاثم و العقاب على الذين يظلمون النّاس ابتداء و يبغون فى الأرض بغير الحقّ اولئک لهم عذاب أليم و لمن صبر و تحمّل المشقّة فى رضاء اللّه و غفر فلم ينتصر فانّ ذلک الصّبر و التجاوز لمن عزم الامور.

فقد علم بما ذكرنا كلّه أنّ استكراهه عليه السّلام لسبّ أهل الشّام لم يكن لتحريمه كما توهّمه الشّارح البحرانى، بل لا يراثه ازدياد الفساد و مزيد العداوة و العناد المنافى لغرضه عليه السّلام، مع أنّ فى الرّفق و المداراة و العفو و الصّفح من المصالح الدّنيوية و الاخرويّة ما لا تحصى حسبما اشيرت اليها فى الايات الشريفة و الأخبار

الّتی لا تستقصی.

و لکون هذه الخصال من مکارم الأخلاق و مزایا الخصال واظب علیها فی نفسه کما حثّ علیها أصحابه.

فقد روی فی البحار من کتاب صفّین لنصر بن مزاحم عن رجل عن منازل الجهنی عن زید بن وهب أنّ علیا مرّ علی جماعة من أهل الشّام فیهم الولید بن عقبة و هم یشتمونه فأخبروه بذلک فوقف فی ناس من إخوانه فقال:

انهدوا(1) إلیهم و علیکم بالسّکینة و سیماء السّالکین و وقار السلام و اللّه لاقرب قوم من الجهل باللّه عزّ و جلّ قوم قائدهم و مؤدّبهم معاویة و ابن النابغة و ابن الأعور السّلمی و ابن أبی معیط شارب الحرام و المجلود حدا فی الاسلام، و هم اولی یقومون فیقصبونی(2) و یشتمونی و قبل الیوم ما قاتلونی و شتمونی و أنا إذ ذاک أدعوهم إلی الاسلام و هم یدعونی إلی عبادة الأصنام، الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و قدیما ما عادنی الفاسقون إنّ هذا هو الخطب الجلیل إنّ فسّاقا کانوا عندنا غیر مرضیّین، و علی الاسلام و أهله متخوّفین، حتّی خدعوا شطر هذه الامّة و اشربوا قلوبهم حبّ الفتنة و استمالوا أهواءهم بالافک و البهتان، و قد نصبوا لنا الحرب، و جدّوا فی اطفاء نور اللّه، و اللّه متمّ نوره و لو کره الکافرون، اللّهمّ إنّهم قد ردّوا الحقّ فافضض جمعهم، و شتّت کلمتهم، و ابسلهم بخطایاهم، فانّه لا یذلّ من والیت، و لا یعزّ من عادیت.

فانظر إلی کریم خلقه و شرفه و سودده و حلمه، فانّه مع سماعه لشتمهم لعنهم اللّه کیف کفّ و حلم و صفح و أمر أصحابه بالنهد إلیهم و أوصاهم بالسّکینة و الوقار و لزوم سیماء الصّالحین، و لعمری إنّه علیه السّلام المصداق الحقّ لقوله تعالی «وَ ما یُلَقّاها إِلاَّ الَّذِینَ صَبَرُوا وَ ما یُلَقّاها إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ » هذا.

و یحتمل أن یکون السرّ فی المنع من سبّ أهل الشّام التحرّز من سبّهم له،

1- (1) - نهد لعدوّه صمد الیه، ق

2- (2) - قصبه عابه، ق

فيكون السّبّ لهم و الحال ذلک حراما، و يراد بالكراهة الحرمة لا معناها المعروف فى مصطلح المتشرّعة.

فيكون مساقه مساق قوله تعالى «وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّوا اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ » قال قتادة: كان المسلمون يسبّون أصنام الكفار فنهاهم عن ذلک لئلا يسبّوا اللّه فانّهم قوم جهلة.

و فى مجمع البيان نهى اللّه المؤمنين أن يسبّوا الأصنام، لما فى ذلک من المفسدة فقال: «وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ »، أى لا تخرجوا من دعوة الكفّار و محاجّتهم إلى أن تسبّوا ما يعبدون، فانّ ذلک ليس من الحجاج فى شىء فيسبّوا اللّه عدوا أى ظلما بغير علم و أنتم اليوم غير قادرين على معاقبتهم بما يستحقّون، فيدلّ على وجوب كفّ اللّسان عن المخالفين و عن أئمتهم فى مقام عدم التمكن.

و فى تفسير علىّ بن إبراهيم قال: حدّثنى أبى عن مسعدة بن صدقة عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: سئل عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ الشّرک أخفى من دبيب النّمل على صفاء سوداء فى ليلة ظلماء، قال عليه السّلام: كان المؤمنون يسبّون ما يعبد المشركون من دون اللّه، فكان المشركون يسبّون ما يعبد المؤمنون، فنهى اللّه المؤمنين عن سبّ آلهتهم لكيلا يسبّوا الكفّار إله المؤمنين فيكون المؤمنون قد أشركوا باللّه من حيث لا يعلمون فقال: «وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ » الاية.

و فى الصّافى من الكافى عن الصّادق عليه السّلام فى حديث: إيّاكم و سبّ أعداء اللّه حيث يسمعونكم فيسبّوا اللّه عدوا بغير علم.

بل المستفاد من بعض الأخبار أنّ المقصود بالاية النّهى عن سبّهم لئلا يسبّوا ولىّ اللّه فيكون المراد بالاية و المراد بكلام الامام شيئا واحدا.

فقد روى فى الصّافى عن العياشى عن الصّادق عليه السّلام انّه سئل عن هذه الاية فقال عليه السّلام: أرايت أحدا يسبّ اللّه؟ فقيل: لا و كيف؟ قال: من سبّ ولىّ اللّه فقد سبّ اللّه.

قال فى الصّافى: و فى الاعتقادات عنه عليه السّلام إنه قيل له: إنا نرى فى المسجد رجلا يطعن بسبّ أعدائكم و يسبّهم، فقال: ما له لعنه اللّه تعرّض بنا قال اللّه «وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ » الاية.

قال و قال الصّادق عليه السّلام فى تفسير هذه الاية: لا تسبّوهم فانهم يسبّون عليّكم، قال: و من سبّ وليّ اللّه فقد سبّ اللّه قال النبيّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعليّ عليه السّلام: من سبّک فقد سبّنى و من سبّنى فقد سبّ اللّه و من سبّ اللّه فقد كبّه اللّه فى منخريه فى نار جهنم فقد تحصّل مما ذكرنا أنّ سبّ أعداء اللّه و لعنهم و طعنهم مندوب مرغوب شرعا عند التمكن و القدرة، و الكفّ عنهم و الصفح و الاعراض واجب عند عدم الاستطاعة كما قال تعالى «فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ » و قال «خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ » هذا.

و لما منعهم من السب رغّبهم بأحسن القول و أصوبه الذى لا يهيج الفساد فقال (و لكنكم لو وصفتم أعمالهم و ذكرتم حالهم) بدل السباب لهم و شرحتم ما هم عليه من البغى و الظلم و العدوان و اتباع الهوى و الانحراف عن قصد السبيل من باب النصح و الارشاد و التنبيه على الخطاء (كان أصوب فى القول) لأنه من باب الدفع و الجدال بالتى هى أحسن المأمور بهما فى قوله تعالى «اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ » أى أدفع باطلهم ببيان الحجج على ألطف الوجوه و أوضحها و أقربها إلى الاجابة و القبول نحن أعلم بما يكذبون و يقولون و نجازيهم بما يستحقّون و فى قوله تعالى «اُدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّکَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » قال الطبرسى: أى ادع إلى دينه لأنه الطريق إلى مرضاته بالحكمة و الموعظة الحسن و هو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب فى تركه و التزهيد فى فعله، و فى ذلک تليين القلوب بما توجب الخشوع، و جادلهم بالكلمة التى هى أحسن و المعنى اقتلوا المشركين و اصرفهم عماهم عليه بالرّفق و السكينة و لين الجانب فى النصيحة ليكونوا أقرب إلى الاجابة فانّ الجدل هو قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج (و) كان (أبلغ فى العذر) إن مسّت الحاجة إلى الاعتذار مثل أن لو اعترض عليكم معترض منهم فى قتلهم و قتالهم كان لكم أن تجيبوهم و تعتذروا إليهم بأنا قد ذكّرناكم فلم تتذكروا، و نصحناكم فلم تنتصحوا، و وعظناكم فلم تقبلوا، فليس لكم

عندنا عتبى (و) لو (قلتم مكان سبّكم إياهم اللّهمّ احقن دمائنا و دمائهم) أى احفظها و أمسكها من السفک (و اصلح ذات بيننا و بينهم) أى العداوة التى بيننا و بينهم أو أصلح حقيقة فرقتنا و بينونتنا و بدّلها بالايتلاف و الاجتماع (و اهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق) و يفىء إليه (من جهله و يرعوى) أى يرتدع (عن الغىّ) و الضلال (و العدوان من لهج) و أولع (به) لكان أحسن القول و أجمله.

تكملة

هذا كلام رواه الشارح المعتزلى فى شرح المختار السادس و الأربعين من كتاب صفين لنصر بن مزاحم باختلاف و زيادة احببت نقله.

قال: قال نصر: حدثنا عمر بن سعد عن الحرث بن حصين عن عبد اللّه ابن شريک قال:

خرج حجر بن عدى و عمرو بن الحمق يظهر ان البراءة من أهل الشام، فأرسل علىّ عليه السّلام إليهما أن كفّا عمّا لا ينبغى عنكما، فأتياه فقالا: يا أمير المؤمنين ألسنا محقّين؟ قال: بلى، قالا: أو ليسوا مبطلين؟ قال: بلى، قالا: فلم منعتنا من شتمهم؟ قال:

كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين تشتمون و تبرون و لكن لو وصفتم مساوى أعمالهم فقلتم من سيرتهم كذا و كذا و من أعمالهم كذا و كذا كان أصوب فى القول و أبلغ فى العذر، و قلتم مكان لعنكم إياهم و براءتكم منهم: اللهمّ احقن دماءهم و دماءنا و أصلح ذات بينهم و بيننا و اهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقّ منهم من جهله و يرعوى عن الغىّ و العدوان منهم من لهج به، لكان أحبّ إلىّ و خيرا لكم، فقالا يا أمير المؤمنين نقبل عظتک و نتأدّب بأدبک.

و يظهر من هذه الرواية انه عليه السّلام كما كان يكره منهم الشتم كذلک يكره اللعن و البراءة للنكتة التى قدّمناها، فما قاله الشارح المعتزلى فى شرح المقام:

من أنّ الذى كرهه عليه السّلام منهم أنهم كانوا يشتمون أهل الشام و لم يكن يكره منهم لعنهم إياهم و البراءة منهم ليس بوجيه.

ص:94

الترجمة

از جملهٔ کلام نصیحت انجام آن بزرگوار است در حالتی که شنید جماعتی را از اصحاب خود که فحش می دادند شامیان را در ایام جنگ صفین:

بدرستی که من ناخوش دارم برای شما این که فحاش بشوید، و لیکن اگر تعریف نمائید عملهای ایشان را و ذکر نمائید حالهای ایشان را مقرون بصواب باشد در گفتار، و مقرون بکمال باشد در مقام اعتذار، و اگر بگوئید بجای فحش دادن شما ایشان را: بار پروردگارا نگه بدار خونهای ما و خونهای ایشان را از ریخته شدن، و اصلاح بفرما عداوت و دشمنی میان ما و میان ایشان را، و هدایت کن ایشان را از گمراهی خودشان تا این که بشناسد حق را کسی که جاهل بوده است بان و برگردد از گمراهی و تعدی کسی که حریص و مهیج باشد بان هر آینه این بهتر خواهد شد، اللهمّ وفقنا للطاعة.

و من کلام له علیه السّلام فی بعض ایام صفین و هو

اشارة

المأتان و السادس من المختار فی باب الخطب

و قد رأی الحسن علیه السّلام ابنه یتسرّع إلی الحرب:

أملکوا عنّی هذا الغلام لا یهدّنی، فإنّی أنفس بهذین - یعنی الحسن و الحسین علیهما السّلام - علی الموت، لئلاّ ینقطع بهما نسل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قال الرضی أبو الحسن «ره»: قوله: املکوا عنی هذا الغلام من أعلی الکلام و أفصحه.

اللغة

(ملکه) یملکه من باب ضرب ملکا بتثلیث المیم احتواه قادرا علی الاستبداد به، فهو مالک و ذاک مملوک و عبد مملکة مثلّثة اللام إذا سبی و ملک و لم یملک أبواه

و ملک علی النّاس أمرهم إذا تولی السلطنة فهو ملک بکسر اللام، و أملکه الشیء و ملّکه من باب الافعال و التفعیل بمعنی واحد، و ملکت العجین ملکا من باب ضرب شددته و قوّیته و أنعمت عجنه، و ملک نفسه منعها من السّقوط فی شهواتها و ما تمالک أن فعل أی لم یقدر علی حبس نفسه.

و لفظ أملکوا فی أکثر النّسخ حسبما صرّح به العلامة المجلسی أیضا بفتح الألف من باب الافعال.

و ضبطه الشّارح المعتزلی بصیغة الثلاثی مجردا قال: الألف فی املکوا وصل لأنّ الماضی ثلاثی من ملکت الفرس و الدّار و العبد أملک بالکسر أی احجروا علیه کما یحجر المالک علی مملوکه، قال: و عن متعلّقة بمحذوف تقدیره استولوا علیه و أبعدوه،و لمّا کان الملک سبب الهجر علی مملوکه عبّر بالسّبب عن المسبّب، انتهی.

و علی النسخ المشهورة فلا بدّ من جعل المزید بمعنی المجرّد کما یستعمل المتعدّی مورد اللازم فی نحو کبّه فأکبّ.

و قال الرّاوندی فی محکی کلامه: املکوا أی أمسکوه لأجلی یقال ما تمالک أن قال، أی ما تماسک و قیل: إنّه من ملکت العجین أی خذوه بالشدّة.

و قال البحرانی: أملکوه شدّوه و اضبطوه و (الهدّ) الهدم بشدّة و الکسر و (نفس) به من باب فرح ضنّ و بخل و (انسل) الولد و نسل نسلا من باب ضرب کثر نسله و تناسلوا توالدوا أی ولد بعضهم من بعض.

الاعراب

حرف عن فی قوله أملکوا عنّی علی قول الشّارح المعتزلی و البحرانی بمعناها الأصلی أعنی المجاوزة، أو بمعنی من کما فی قوله «هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ » و علی قول الرّاوندی فهی بمعنی اللام للتّعلیل کما فی قوله تعالی: «وَ ما کانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ إِلاّ عَنْ مَوْعِدَةٍ » و الأظهر عندی أنّها بمعنی البدل و العوض

ص:96

كما فى قوله تعالى «وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ».

و قوله لا يهـدّنى فى بعض النّسـخ بالنّصب على اضـمار أن أى لئلاّ يهدّنى، و فى بعضـها بالرّفع على الغاء ان المضـمرة عن العمل كما فى قولهم: و تسمع بالمعيدى خير من أن تراه على رواية الرّفع، و قد روى بالوجهين أيضا قول طرفة:

ألا ايّهذا الزّاجرى احضر الوغى و ان اشهد اللذات هل أنت مخلد

قال علماء الأدب: و انتصاب المضارع فى هذا الشّعر بأن شاذّ لعدم وقوعه فى جواب أحد الأشياء الستّة.

و يحتمل أن يكون انتصاب يهـدّنى بلفظة كى مضـمرة إن جوّزنا إضـمارها كما نصـبت مظهرة فى قوله تعالى «لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ » و قوله «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ » و قوله «كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ » و «لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً » و نحوها.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الكلام حسبما أشار إليه الرّضى قد خاطب به أصحابه فى بعض أيّام صفين و قد رأى الامام الهمام أبا محمّد الحسن عليه السّلام ابنه يتسرّع أى يتعجّل إلى الحرب فقال لهم:

(أملكوا عنّى هذا الغلام) أراد به منعهم له من التسرّع إليه و حفظهم إياه بدلا منه.

قال الشارح المعتزلى فى وجه علوّ هذا الكلام و فصاحته على ما أشار إليه السّيد: إنّه لمّا كان فى أملكوا معنى العبد أعقبه بعن، و ذلک أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين عليه السّلام إلا و قـد أبعـدوه عنه ألا ترى أنک إذا حجرت على زيـد دون عمرو فقـد باعدت زيدا عن عمرو، فلذلک قال: املكوا عنّى، انتهى.

و لا بأس به إلاّ انه انما يحسن لو كان الحسن فى تسرّعه إلى الحرب متابعا لأبيه عليه السّلام معاقبا له فيستحسن حينئذ أن يقول عليه السّلام: ابعدوه عنى، و لكن الرّواية لا دلالة فيها على ذلک.

و الأوجه عندی انه علیه السّلام لما شاهد من ابنه مسارعته إلی الحرب و کان بنفسه غیر متمکن من حفظه و ممانعته لمکان اشتغاله بکریهة الحرب و القتل و القتال أمر أصحابه بمحافظته علیه السّلام بأحسن تعبیر و ألطف عبارة و قال لهم: أملکوا أی أملکوه من التسرّع، فعدل عن التعبیر بلفظ المنع و الضبط و الحفظ و المراقبة و الامساک و ما ضاهاها إلی التعبیر بلفظ الملک، لما فیه من الدلالة علی التسلط و الاستیلاء و التمکّن من التصرف و القدرة علی الممانعة و الحفظ بأیّ وجه أمکن و أیّ نحو شاء و أراد المالک ما لیس فی غیره من الألفاظ المذکورة، یعنی امنعوه و احفظوه منع المالک لملکه و حفظه إیاه.

ثمّ أکّد ذلک بقوله عنّی یعنی أنی کما لو کان ممکنا لی لکنت أملکه و اراقبه غایة المراقبة، فحیث إنه لا یمکن لی ذلک فکونوا مالکین له مراقبین علیه بدلا منّی و راقبوه مثل مراقبتی غیر متوانین و لا مقصّرین.

فقد علم بذلک أنّ فی هذه العبارة من الدّلالة علی تأکید المنع و المحافظة ما لیس فی غیرها.

و علل علیه السّلام ذلک بقوله (لا یهدّنی) أی لئلا یکسرنی لأنّ التسرّع إلی الحرب مظنة القتل و الهلاک و موت الولد الصالح المعین خصوصا مثل أبی محمّد الحسن علیه السّلام موجب لانک «کذا» ظهر الوالد و ذهاب قوّة قلبه و نور بصره.

ثمّ علل علیه السّلام بعلة ثانیة و قال (فانی أنفس) أی أبخل (بهذین - یعنی الحسن و الحسین علیهما السّلام - علی الموت لئلا ینقطع بهما نسل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم).

تنبیه

اشارة

قال الشارح المعتزلی:

فان قلت: یجوز أن یقال للحسن و الحسین و ولدهما أبناء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ولد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذرّیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و نسل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ قلت: نعم لأنّ اللّه تعالی سماهم ابناه فی قوله «نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ » و انما عنی الحسن و الحسین و لو أوصی لولد فلان بمال دخل فیه أولاد البنات و سمّی اللّه تعالی

عیسـی ذرّیة إبراهیم فی قوله تعالی «وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ » إلی أن قال «وَ یَحْیی وَ عِیسـی » و لـم یختلف أهل اللغة فی أنّ ولد البنات من نسل الرّجل.

فان قلت: فما تصنع بقوله تعالی «ما کانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِکُمْ »؟ قلت: أسألک عن ابوّته لابراهیم بن مارية فکلّ ما تجیب به عن ذلک فهو جوابی عن الحسن و الحسـین علیهما السّلام و الجواب الشامل للجمیع أنه عنی زیـد بن حارثة لأنّ العرب کانت تقول: زید بن محمّد علی عادتهم فی تبنّی العبـد، فأبطل اللّه ذلک و نهی عن سـنة الجاهلیة و قال: إنّ محمّدا لیس أبا لواحد من الرّجال الباغین المعروفین بینکم لیفتری إلیه بالنبوّة، و ذلک لا ینفی کونه أبا لأطفال لـم یطلق علیهم لفظة الرّجال کابراهیم و حسن و حسین علیهم السّلام.

فان قلت: أتقول إنّ ابن البنت ابن علی الحقیقة الأصـلیة أم علی سبیل المجاز؟ قلت: لذاهب أن یذهب إلی أنّه حقیقة أصلیة لأنّ الأصل فی الاسـتعمال الحقیقة، و قد یکون اللفظ مشترکا بین مفهومین و هو فی أحدهما أشـهر و لا یلزم من کونه أشهر فی أحدهما أن لا یکون حقیقة فی الاخر، و لـذاهب أن یـذهب إلی أنّه حقیقة عرفیّة، و لذاهب إلی کونه مجازا قد اسـتعمله الشّارع، فجاز إطلاقه فی کلّ حال و اسـتعماله کساير المجازات المستعملة.

قال: و ما یـدلّ علی اختصاص ولـد فاطمـة علیهما السّلام دون بنی هاشم کافة بالنّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه ما کان یحلّ له علیه السّلام أن ینکح بنات الحسن و الحسـین علیهما السّلام و لا بنات ذرّیتهما و إن بعدت و طال الزّمان، و یحلّ له نکاح بنات غیرهم من بنی هاشم من الطالبیّین و غیرهم و هذا یدلّ علی مزید الأقربیّة و هی کونهم أولاده فان قلت: فقد قال الشّاعر:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا بنوهنّ أبناء الرّجال الأباعد

و قال حکیم العرب أکثم الصّیفی فی البنات یذّمهنّ: إنّهنّ یلدن الأعداء و یورّثن البعداء.

قلت: إنّما قال الشّاعر ما قاله علی المفهوم الأشهر، و لیس فی قول أکثم

ما يـدلّ على نفى بنوّتهم و إنّما ذكر أنّهن يلـدن الأعداء و قد يكون ولد الرّجل لصـلبه عدوّا قال اللّه تعالى «إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » و لا ينفى كونه عدوّا كونه ابنا، انتهى.

اقول: ما حقّقه الشّارح هو الحقّ الموافق للتحقيق، و هو مأخوذ من أخبار أهل بيت العصـمة و الطهارة حسـبما نشـير إلى بعضها و ان شئت مزيدا على ذلک فأقول:

لا شكّ إنّ نسـبة الابن و البنت إلى الأب و الامّ من حيث التّكوين و الخلقة نسبة واحدة لكونهما مخلوقين من نطفتهما قال تعالى «إِنّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ » أى أخلاط لأنّ ماء الرّجل يختلط بماء المرأة و دمها يكون مشـيجا أربعين ليلـة، و قال أيضا «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مـاءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ » أى صـلب الرّجـل و ترائب المرأة أى صـدرها، لأـنّ منيّها يخرج منه و من أجل اتّحـاد نسـبتهما إليهما فى التّكوّن صـحّ إضافتهما إلى كلّ منهما فى مقام التلفّظ و التعبير من دون تفاوت، فيقال ابن فلان و ابنـة فلان و ابن فلانة و ابنة فلانة، و لم يخالف فى صـحّة هذه الاضافة أحد من أهل العرف و اللغة أصـلا و قد قال تعالى فى كتابه العزيز «وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ » و قال «وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَها ».

فاذا صحّ إضافة الابن إلى الامّ و الامّ إلى أبيها و هكذا إضافته إلى الأب و الأب إلى أبيه بلا خلاف فلتصحّ اضافته إلى أب الامّ كما تصحّ إلى أب الأب، لعدم مانع يتصوّر إلاّ الشّعر المتقدّم أعنى قوله:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا بنوهنّ أبناء الرّجال الأباعد

و هو لا يصلح للمانعيّة.

إمـا لمـا قـاله الشّـارح المعتزلى: من ابتنـائه على كون اطلاـق الأبن على ابن الابن أشـهر و أغلب من اطلاقه على ابن البنت، و الشّـهرة فى الاطلاق لا تدلّ على كونه حقيقة فيه فقط و مجازا فى غيره كما برهن فى الاصول.

أو لابتنائه على مجرى عادة العرب من إسقاطهم البنات مع كونهنّ أولادا

ص:100

حقيقـة من درجـة الأولاد من أجل الاسـتنكاف و الالفة و النّخوة العربيّة و حميّة الجاهليّة كما شـرح اللّه حالهم فى قوله «وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ » و قد بلغوا فى الاستنكاف منهنّ إلى أن جرت عادتهم على الوئد و القتل حتّى نهاهم اللّه عن ذلک و عاتبهم عليه فى قوله «وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ » و قوله «وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » حسـبما عرفت تفصـيل ذلک فى شرح الفصل السّادس من الخطبة المأة و الحادية و التّسعين المعروفة بالقاصعة.

أو لما قاله ابن إدريس فى محكى كلامه من السّرائر: من أنّ الشاعر انما أراد بقوله بنونا بنو أبنائنا آه الانتساب بمعنى أنّ أولاد البنت لا ينسبون إلى امّهم و انّما ينسبون إلى آبائهم و ليس كلامنا فيه بل فى الولادة و هى متحقّقة من جهة الامّ من غير خلاف و الذكر و الانثى فيه سواء.

و قـد وافقنا على ذلک غير واحـد من الأصـحاب منهم المرتضـى و ابن إدريس و صاحب الجواهر فى غير موضع منه، و قد بسط الكلام فى ذلک كلّ البسط فى كتاب الخمس منه، و قال بعد اختياره موافقة المرتضى فى كونه ابنه حقيقة: إنّه يظهر ذلک من جماعة من الأصحاب فى غير المقـام، بل قـد يظهر من المحكىّ عن ابن إدريس فى كتاب المواريث الاجماع عليه كما عن المرتضـى فيه أيضا نفى الخلاف فيه، بل و كذا المحكىّ عن خلاف الشيخ فى باب الوقف و الميراث، بل ظاهره فيهما اجماع الامّة على ذلک.

ثمّ سـاق الأدلـة فى ذلـک، و أجـاب عن الشّعر المتقـدّم بـأنّه مضافـا إلى أنّه قول اعرابىّ جاهـل لا يعارض الكتاب و السـنّة محتمل لارادة المتعـارف المعتـاد فى جلب المنافع الدّنيويّـة و المضار بالأولاد و أولادهم دون أولاد البنات، فكانوا كالأباعـد بالنّسـبة إلى ذلک، بل لعلّ ظهور ارادة هذا الشاعر المجاز و المبالغة فى النّفى

شاهدة على العكس، اذ من البعيد ارادته بيان الوضع و اللغة فتأمّل، انتهى كلامه رفع مقامه.

و الحاصل انا نرى أنهم يستعملون لفظ الابن و الولد فى ابن البنت و ولدها كاستعمالهم لهما فى ابن الابن و ولده مع عدم صحة السّلب، فيكونان حقيقة فيهما و لا دليل على المصير إلى المجاز.

و إذا عرفت ذلک فأقول: إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أطلق على الحسنين عليهما السّلام لفظ الابن فى غير واحد من الأخبار فيكونان ابنيه حقيقة.

و من جملة هذه الأخبار الحديث المشهور انّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فيهما: هذان ابناى إمامان.

و فى البحار من المناقب عن فردوس الدّيلمى عن سلمان قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

سمّى هارون ابنيه شبرا و شبيرا، و انّنى سمّيت ابنىّ الحسن و الحسين.

و عن الدّار قطنى بالاسناد عن ابن عمر قال: قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ابناى هذان سيدا شباب أهل الجنّة و أبوهما خير منهما.

و عن الرّاغب عن أبى هريرة و بريدة رأيت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يخطب على المنبر ينظر إلى الناس مرّة و إلى الحسن مرّة و قال: إنّ ابنى هذا سيصلح اللّه به بين فئتين من المسلمين.

و عن عبد الرّحمن بن أبى ليلى قال: كنّا جلوسا عند النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ أقبل الحسين عليه السّلام فجعل ينزو على ظهر النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على بطنه فبال و قال عليه السّلام دعوه، قال أبو عبيد فى غريب الحديث إنّه قال: لا تزرموا ابنى أى لا تقطعوا عليه بوله ثمّ دعا بماء فصبّه على بوله.

و عن الطبرى عن طاوس اليمانى عن ابن عبّاس قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: رأيت فى الجنّة قصرا من درّة بيضاء لا صدع فيها و لا وصل، فقلت: حبيبى جبرئيل لمن هذا القصر؟ قال: للحسين ابنک، ثمّ تقدّمت أمامه فاذا أنا بتفّاح فأخذت تفّاحة ففلقتها فخرجت منها حوراء كان مقاريم النّسور أشفار عينيها فقلت: لمن أنت؟ فبكت

ثمّ قالت: لابنک الحسین، إلی غیر هذه ممّا لا نطیل بروایتها.

فقد ظهر ممّا ذکرنا و اتّضح کلّ الوضوح أنّه لا شکّ فی کونهما علیهما السّلام ابنیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حقیقة فلا یستریب فیه إلاّ جاهل متعنّت أو جاحد متعصّب، و قد احتجّ علی ذلک الأئمة علیهم السّلام و غیرهم أیضا فی مجالس المخالفین و غیرها بأحکم بیّنة و برهان.

فقد روی فی البحار من تفسیر علیّ بن إبراهیم عن أبیه عن ظریف بن ناصح عن عبد الصمد بن بشیر عن أبی الجارود عن أبی جعفر علیه السّلام قال:

قال لی أبو جعفر علیه السّلام: یا أبا الجارود ما یقولون فی الحسن و الحسین علیهما السّلام قلت: ینکرون علینا أنّهما ابنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال علیه السّلام: فبأیّ شیء احتججتم علیهم؟ قلت: بقول اللّه عزّ و جلّ فی عیسی بن مریم «وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ » إلی قوله «وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ » فجعل عیسی من ذرّیة إبراهیم قال علیه السّلام:

فأیّ شیء قالوا لکم؟ قلت: قالوا: قد یکون ولد الابنة من الولد و لا یکون من الصّلب قال علیه السّلام: فأیّ شیء احتججتم علیهم؟ قلت: احتججنا علیهم بقول اللّه عزّ و جلّ «فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ » الایة قال علیه السّلام: فأیّ شیء قالوا لکم؟ قلت: قالوا: قد یکون فی کلام العرب ابنی رجل واحد فیقول أبنائنا و انّما هما ابن واحد قال: فقال أبو جعفر علیه السّلام: و اللّه یا أبا الجارود لأعطینّکها من کتاب اللّه تسمّی بصلب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یردّها إلاّ الکافر، قال: قلت: جعلت فداک و أین؟ قال: حیث قال اللّه تعالی «حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهاتُکُمْ وَ بَناتُکُمْ » إلی أن ینتهی إلی قوله تعالی «وَ حَلائِلُ أَبْنائِکُمُ الَّذِینَ مِنْ أَصْلابِکُمْ » فسلهم یا أبا الجارود هل حلّ لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نکاح حلیلتهما فان قالوا: نعم فکذبوا و اللّه و فجروا، و إن قالوا: لا فهما و اللّه ابناه للصّلب و ما حرمتا علیه إلاّ للصلب.

قال المحدّث العلامة المجلسیّ: وجه الاحتجاج بالایة الأخیرة هو اتّفاقهم علی دخول ولد البنت فی هذه الایة و الأصل فی الاستعمال الحقیقة أو أنّهم یستدلّون بهذه الایة علی حرمة حلیلة الولد و لا یتمّ إلاّ بکونه ولدا حقیقة للصّلب

و هنا قصة لطيفة

و فى البحار وجدت فى بعض كتب المناقب مرسلا عن عامر الشّعبى أنّه قال:

بعث إلىّ الحجّاج ذات ليلة فخشيت فقمت فتوضأت و أوصيت ثمّ دخلت عليه فنظرت فاذا نطع منشور و السّيف مسلول، فسلّمت عليه فردّ علىّ السّلام فقال:

لا تخف فقد امنتک اللّيلة و غدا إلى الظهر، و أجلسنى عنده.

ثمّ أشار فاتى برجل مقيّد بالكبول و الأغلال فوضعوه بين يديه فقال: إنّ هذا الشّيخ يقول: إنّ الحسن و الحسين كانا ابنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليأتينىّ بحجّة من القرآن و إلاّ لأضربنّ عنقه، فقلت: يجب أن تحلّ قيده فانّه إذا احتجّ فانّه لا محالة يذهب و ان لم يحتج فانّ السّيف لا يقطع هذا الحديد، فخلّوا قيوده و كبوله فنظرت فاذا هو سعيد بن جبير فحزنت بذلک و قلت: كيف يجد حجّة على ذلک من القرآن، فقال له الحجاج: ائتنى بحجّة من القرآن على ما ادّعيت و إلاّ أضرب عنقک، فقال له: انتظر، فسكت ساعة ثمّ قال له مثل ذلک، فقال انتظر، فسكت ساعة ثمّ قال له مثل ذلک، فقال: أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ثمّ قال «وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ » إلى قوله «وَ كَذلِکَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ » ثمّ سكت، و قال للحجّاج اقرء ما بعده، فقرأ «وَ زَكَرِيّا وَ يَحْيى وَ عِيسى » فقال سعيد: كيف يليق ههنا عيسى؟ قال: إنّه كان من ذرّيته قال: إن كان عيسى من ذريّة إبراهيم و لم يكن له أب بل كان ابن ابنته فنسب إليه مع بعده فالحسن و الحسين أولى أن ينسبا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع قربهما منه، فأمر له بعشرة آلاف دينار، و أمر بأن يحملوها معه إلى داره و أذن له فى الرّجوع.

قال الشّعبى: فلمّا أصبحت قلت فى نفسى قد وجب علىّ أن آتى هذا الشيخ فأتعلّم منه معانى القرآن لأنّى كنت أظنّ أنى أعرفها فأتيته فاذا هو فى المسجد و تلک الدّنانير بين يديه يفرّقها عشرا عشرا و يتصدّق بها، ثمّ قال: هذا كلّه ببركة الحسن و الحسين عليهما السّلام لئن كنّا أغممنا واحدا لقد أفرحنا ألفا و أرضينّ

ص:104

اللّه و رسوله.

فقد تحصّل ممّا ذكرنا أنّه حصل لهما عليهما السّلام من النّسب ما لم يحصل لغيرهما فانّهما ابنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سبطاه و ولداه و ذرّيتاه و سيّدا شباب أهل الجنّة، فجدّهما رسول ربّ العالمين، و أبوهما أمير المؤمنين، و امّهما سيّدة نساء العالمين و هذا هو النّسب الذى تتضائل عنده الأنساب، و الشّرف الذى اسجل بصحّته الاثر و الكتاب.

نسب كأنّ عليه من شمس الضحى نورا و من فلق الصباح عمودا

فهما عليهما السّلام دوحتا النّبوة التّى طابت فرعا و أصلا، و شعبتا الفتوّة التى سمت رفعة و نبلا، و إنسانا عينى السّيادة و الفخار، و سليلا الشّرف الذى أظهر الخيلاء فى مضر و نزار، قد اكتنفهما العزّ و الشّرف، فما له عنهما منصرف، و أحاط بهما المجد من طرفيهما، و تصوّرا من الجلالة فكادت أن تقطر من عطفيهما، و تكوّنا من الاريحية فهى تلوح على شمائلهما، تبدو كما يبدو النّهار على مخائلهما، وفاقا فى طيب الاعراق و طهارة الاخلاق رتبة الأواخر و الأوائل، فعلت سماء فضلهما حتّى قيل: أين الثريا من يد المتناول، نسبهما يتّصل بمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل الامّ بغير فصل، و من قبل الأب يجتمع فى عبد المطلب فأعجب لطيب فرع و ذكاء أصل.

أنتم ذوو النسب القصير و طولكم باد على الكبراء و الأشراف

الخمر إن قيل ابنة العنب اكتفت بأب من الألقاب و الأوصاف

تكميل

قد تقدّم فى شرح الخطبة المأة و السادسة و التسعين و بعض الخطب المتضمّنة لذكر النبىّ جملة من مناقبه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تقدّم فى غير موضع من تضاعيف الشرح فصل واف من مناقب أمير المؤمنين عليه السّلام و كراماته و فضائله، و فى شرح المختار الواحد و المأتين جملة من مناقب الصدّيقة الكبرى سيدة النساء سلام اللّه عليها فأحببت أن أذكر هنا شطرا من مناقب الامامين الهمامين السبطين الزّكيين أبى محمّد الحسن و أبى عبد اللّه الحسين عليهما السلام تيمّنا بذكر فضايل جميع الخمسة من آل العباء عليهم التحية و الثناء، راجيا بذلك مزيد الأجر و الذخر يوم الجزاء،

و إن كان مناقبهم الجميلـة لا تعدّ و لا تحصـى، و ماثرهم الجليلة لا تحدّ و لا تستقصـى، إلاّ أن الميسور لا يسـقط بالمعسور، و عسـى أن يدرک المرجوّ بالمقدور.

رويدک إن أحببت نيل المطالب فلا تعد عن ترتيل آى المناقب

مناقب أصحاب الكساء قدوة الورى بهم يبتغى مطلوبه كلّ طالب

مناقب تجلى سافرات وجوهها و يجلو سناها مدلهما الغياهب

عليک بها سرّا وجه را فانها تحلّل عند اللّه أعلى المراتب

وجد عند ما يتلو لسانک آينا بدعوة قلب حاضر غير غائب

لمن قام فى تأليفها و اعتنى به ليقضى من مفروضهم كلّ واجب

عسى دعوة تزكو بها حسناته فيحظى من الحسنى بأسنى المواهب

فأقول: روى فى كشف الغمـة من كتاب معالم العترة الطاهرة للجنابـذى عن بريدة قال: كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يخطب فأقبل الحسن و الحسـين عليهما السلام و عليهما قميصان أحمران يعثران و يقومان، فلما رآهما فنزل فأخذهما ثمّ صعد فوضعهما فى حجره ثمّ قال: صدق اللّه «أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ » رأيت هذين فلم أصبر حتى أخذتهما.

و عن فاطمة عليهما السـلام بنت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنها أتت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و معها الحسن و الحسـين عليهما السّلام فى مرضه الذى توفّى فيه قالت: يا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إنّ هذين لم تورّثهما شيئا قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أمّا الحسن فله هيبتى و أمّا الحسين فله جرأتى و جودى.

و عن عبد اللّه بن عباس قال: بينما نحن عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ أقبلت فاطمة تبكى، فقال لها النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. ما يبكيک؟ قالت: يا رسول اللّه إنّ الحسن و الحسين خرجا فو اللّه ما أدرى أين سلكا.

فقـال النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لاـ تبكين فـداک أبوک فـانّ اللّه عزّ و جـلّ خلقهما و هو أرحم بهما اللهمّ إن كانا قـد أخـذا فى برّ فاحفظهما، و إن كانا قد أخذا فى بحر فسلّمهما فهبط جبرئيل عليه السّلام فقال: يا أحمد لا تغتم و لا تحزن هما فاضلان فى الدّنيا

فاضلان فی الاخرة و أبوهما خیر منهما و هما فی حظیرة بنی النجار نائمین، و قد وکّل اللّه بهما ملکا یحفظهما.

قال ابن عباس: فقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قمنا معه حتی أتینا معه حظیرة بنی النجار فاذا الحسن معانق الحسین و إذا الملک قد غطاهما بأحد جناحیه.

قال: فحمل النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الحسن و أخذ الحسین الملک و الناس یرون أنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حاملهما فقال أبو بکر و أبو أیوب الأنصاری: یا رسول اللّه ألا نخفّف عنک بأحد الصبیّین فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: دعاهما فانهما فاضلان فی الدّنیا فاضلان فی الاخرة و أبوهما خیر منهما ثمّ قال و اللّه لاشرّفنهما الیوم بما شرّفهما اللّه فخطب فقال:

یا أیها الناس ألا اخبرکم بخیر الناس جدّا و جدّة؟ قالوا: بلی یا رسول اللّه، قال: الحسن و الحسین جدّهما رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جدّتهما خدیجه بنت خویلد.

ألا اخبرکم بخیر الناس أبا و أما؟ قالوا: بلی یا رسول اللّه قال: الحسن و الحسین أبوهما علیّ بن أبی طالب علیه السّلام و امّهما فاطمة بنت محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

ألا اخبرکم أیها الناس بخیر الناس عما و عمة؟ قالوا: بلی یا رسول اللّه: قال:

الحسن و الحسین عمّهما جعفر بن أبی طالب و عمّتهما امّ هانی بنت أبی طالب.

أیها الناس ألا اخبرکم بخیر الناس خالا و خالة؟ قالوا: بلی یا رسول اللّه قال: الحسن و الحسین خالهما القاسم بن محمّد و خالتهما زینب بنت محمّد ألا إنّ أباهما فی الجنّة و امهما فی الجنّة و جدّهما فی الجنّة و جدّتهما فی الجنّة و خالهما فی الجنّة و خالتهما فی الجنّة و عمّهما فی الجنّة و عمّتهما فی الجنّة و هما فی الجنّة و من أحبّهما فی الجنّة و من أحبّ من أحبّهما فی الجنّة.

و فی البحار من بعض کتب المناقب القدیمة عن محمّد بن أحمد بن علیّ بن شاذان باسناده عن ابن عباس قال:

کنت جالسا بین یدی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذات یوم و بین یدیه علیّ و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم السّلام إذ هبط جبرئیل و معه تفّاحة، فحیّا بها النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و حیّا بها علیّ بن أبی طالب علیه السّلام فتحیّا بها علیّ و قبّلها و ردّها إلی رسول اللّه، فتحیّا بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

و حيّا بها الحسن و تحيّا بها الحسن و قبّلها و ردّها إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتحيّا بها رسول اللّه و حيّا بها الحسين و تحيّا بها الحسين و قبّلها و ردّها إلى رسول اللّه فتحيّا بها و حيّا بها فاطمة فتحيّت بها و قبّلتها و ردّتها إلى النبىّ، فتحيّا بها الرابعة و حيّا بها علىّ بن أبى طالب فلما همّ أن يردّها إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم سقطت التفاحة من بين أنامله فانفلقت بنصفين فسطع منها نور حتى بلغ إلى السـماء الدّنيا فاذا عليها سـطران مكتوبان: بسم اللّه الرّحمن الرّحيم تحيّة من اللّه إلى محمّد المصـطفى و علىّ المرتضـى و فاطمة الزّهراء و الحسن و الحسين سبطى رسول اللّه و أمان لمحبّيهما يوم القيامة من النار.

و عن ابن شاذان عن زاذان عن سلمان قال:

أتيت النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسلّمت عليه ثمّ دخلت على فاطمة عليهما السّلام فقال يا عبد اللّه هذان الحسن و الحسين جائعان يبكيان فخـذ بأيـديهما فاخرج بهما إلى جدّهما فأخذت بأيديهما و حملتهما حتى أتيت بهما إلى النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قال: ما لكما يا حسناى؟ قالا: نشتهى طعاما يا رسول اللّه، فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اللّهم أطعمهما ثلاثا قال:

فنظرت فاذا سـفرجلة فى يد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم شبيهة بقلّة من حجر أشد بياضا من الثلج و أحلى من العسل و ألين من الزبد، فعركها بابهامه فصـيرها نصـفين ثمّ دفع إلى الحسن نصفها و إلى الحسين نصفها، فجعلت أنظر إلى النصفين فى أيديهما و أنا أشتهيها قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا سلمان هذا طعام من الجنّة لا يأكله أحد حتّى ينجو من الحساب.

و باسناده عن الطبرانى باسناده عن سلمان قال:

كنا حول النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فجاءت أم أيمن فقالت: يا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقد ضلّ الحسن و الحسين و ذلک عنـد ارتفاع النهار، فقال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: قوموا فاطلبوا ابنىّ، فأخـذ كل رجل تجاه وجهه و أخـذت نحو النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فلم يزل حتى أتى صـفح الجبل و إذا الحسن و الحسـين عليهما السّلام ملتزق كلّ واحـد منهما بصاحبه، و إذا شجاع قائم على ذنبه يخرج من فيه شـبه النار فأسـرع لى «إليه» رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فالتفت مخاطبا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ثم انساب فدخل بعض الأجحرة، ثمّ أتاهما فافرق بينهما و مسح

وجوههما و قال بأبی و امّی أنتما ما أکرمکما علی اللّه، ثمّ حمل أحـدهما علی عاتقه الأیمن و الاخر علی عاتقـة الأیسـر فقلت: طوبی کما نعم المطیة مطیتکما فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: و نعم الراکبان هما و أبوهما خیر منهما.

و روی فی المراسیل:

أنّ الحسن و الحسـین علیهما السّـلام کانا یبکیان، فقال الحسن للحسین علیه السّلام: خطّی أحسن، و قال الحسین: لا بل خطّی أحسن من خطّک، فقال لفاطمة علیهما السّـلام حکمی بیننا فکرهت فاطمة علیها السّـلام أن تؤذی أحدهما، فقالت لهما: سـلا أباکما، فسألاه فکره أن یؤذی أحـدهما فقال: سـلاجدّ کما رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، فقال صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: لا أحکم بینکما حتّی أسأل جبرئیـل فلمـا جـاء جبرئیـل قـال: لا أحکم بینهما و لکن اسـرافیل یحکم بینهما فقال اسـرافیل: لا أحکم بینهما و لکن اسأل اللّه أن یحکم بینهما، فسأل اللّه ذلک فقال تعالی: لا أحکم بینهما و لکن امّهما فاطمة تحکم بینهما، فقالت فاطمة:

احکم بینهما یا ربّ و کانت لها قلادة فقالت: أنا أنثر بینکما جواهر هذه القلادة فمن أخذ منها أکثر فخطّه أحسن، فنثرها و کان جبرئیل وقتئذ عنـد قائمـة العرش، فـأمره اللّه تعـالی أن یهبـط إلی الأرض و ینصف الجواهر بینهما کیلا یتأذّی أحـدهما ففعل ذلک جبرئیل إکراما لهما و تعظیما.

و روی رکن الأئمة عبد الحمید بن میکائیل عن یوسف بن منصور السّاوی عن عبد اللّه بن محمّد الأزدی عن سهل بن عثمان عن منصور بن محمّد النسفی عن عبد اللّه ابن عمرو عن الحسن موسی عن صعدان عن مالک بن سلیمان عن ابن جریح عن عطا عن عایشة قالت:

کان رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم جایعا لا یقـدر علی ما یأکل، فقال لی: هاتی ردائی، فقلت أین تریـد؟ قال: إلی ابنتی فأنظر إلی الحسن و الحسین فیذهب بعض ما بی من الجوع، فخرج حتّی دخل علی فاطمة علیها السّلام فقال: یا فاطمة أین ابنای؟ فقالت:

یا رسول اللّه خرجا من الجوع و هما یبکیان، فخرج النبیّ صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی طلبهما فرأی أبا الدّرداء فقال: یا عویمر هل رأیت ابنیّ؟ قال: نعم یا رسول اللّه هما نائمان فی ظلّ حائلی بنی جذعان، فانطلق النبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فضمّهما و هما یبکیان و هو یمسـح الـدّموع عنهما، فقال له أبو الـدّرداء: دعنی أحملهما فقال یا أبا الدّرداء دعنی أمسح الدّموع عنهما فو الذی بعثنی بالحقّ نبیا لو قطرت قطرة فی الأرض لبقیت المجاعة فی امتی إلی یوم القیامة ثمّ حملهما و هما یبکیان و هو یبکی فجاء جبرئیل علیه السّلام فقال: السلام علیک یا محمّد ربّ العزّة جلّ جلاله یقرؤک السـلام و یقول: ما هذا الجزع؟ فقال النبیّ صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: یا جبرئیل ما أبکی جزعا بل أبکی من ذلّ الدّنیا، فقال جبرئیل:

إنّ اللّه تعالی یقول: أیسرّک أن أحوّل لک احدا ذهبا و لا ینقص مما عندی شیء؟ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لا، قال: لم؟ قال: لأنّ اللّه تعالی لم یحبّ الـدّنیا و لو أحبّها لما جعلها للکافر أکملها فقال جبرئیل: ادع بالجفنـة المنکوبـة التی فی ناحیـة البیت، قال: فدعا بها، فلما حملت فاذا فیها ثرید و لحم کثیر، فقال: کل یا محمّد و أطعم ابنیک و أهل بیتک، قال: فأکلوا و شبعوا قال: ثمّ أرسل بها إلیّ فأکلوا و شبعوا و هو علی حالها، قال ما رأیت جفنـة أعظم برکة منها فرفعت عنهم فقال النبیّ صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: و الذی بعثنی بالحقّ لو سـکتّ لتداولها فقراء امتی إلی یوم القیامة.

و فی البحار وجدت فی بعض مؤلفات أصحابنا أنه روی مرسلا من جماعة من الصحابة قالوا:

دخل النبیّ صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم دار فاطمة فقال: یا فاطمة إنّ أباک الیوم ضیفک، فقالت یا أبت إن الحسن و الحسین یطالبانی بشیء من الزاد فلم أجد لهما شـیئا یقتاتان به ثمّ إنّ النبیّ صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم دخل و جلس مع علیّ و الحسن و الحسـین و فاطمة علیهم السّلام و فاطمة علیها السّلام متحیّرة ما تدری کیف تصنع، ثمّ إنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نظر إلی السماء ساعة و اذا بجبرئیل قد نزل و قال: یا محمّد العلیّ الأعلی یقرؤک السـلام و یخصّک بالتحیّة و الاکرام و یقول لک: قل لعلیّ و فاطمة و الحسن و الحسـین أیّ شیء یشتهون من

فواكه الجنّة؟ فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا علىّ و يا فاطمة و يا حسن و يا حسين إنّ ربّ العزّة علم أنّكم جياع فأىّ شىء تشتهون من فواكه الجنّة؟ فأمسكوا عن الكلام و لم يردّوا جوابا حياء من النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فقال الحسين: عن إذنک يا أبتا يا أمير المؤمنين و عن إذنک يا أماه يا سيّدة نساء العالمين و عن إذنک يا أخاه الحسن الزّكى أختار لكم شيئا من فواكه الجنّة.

فقالوا جميعا: قل يا حسين ما شئت فقد رضينا بما تختاره لنا، فقال: يا رسول اللّه قل لجبرئيل: إنّا نشتهى رطبا جنيّا فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قد علم اللّه ذلک ثمّ قال:

يا فاطمة قومى و ادخلى البيت و احضرى إلينا ما فيه، فدخلت فرأت فيه طبقا من البلّور مغطى بمنديل من السندس الأخضر و فيه رطب جنىّ فى غير أوانه فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا فاطمة أنّى لک هذا قالت: هو من عند اللّه إنّ اللّه يرزق من يشاء بغير حساب كما قالت مريم بنت عمران.

فقام النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تناوله و قدّمه بين أيديهم ثمّ قال: بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ثمّ أخذ رطبة واحدة فوضعها فى فم الحسين عليه السّلام فقال هنيئا مريئا لک يا حسين، ثمّ أخذ رطبة فوضعها فى فم الحسن عليه السّلام و قال هنيئا مريئا لک يا حسن، ثمّ أخذ رطبة ثالثة فوضعها فى فم فاطمة الزّهراء عليها السّلام و قال هنيئا مرئيا لک يا فاطمة الزهراء، ثمّ أخذ رطبة رابعة فوضعها فى فم علىّ عليه السّلام و قال هنيئا مريئا لک يا علىّ، ثمّ ناول عليّا رطبة اخرى ثمّ رطبة اخرى و النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول له هنيئا مريئا لک، ثمّ وثب النبىّ قائما ثمّ جلس ثمّ أكلوا جميعا عن ذلک الرّطب.

فلمّا اكتفوا و اشبعوا ارتفعت المائدة إلى السّماء باذن اللّه تعالى.

فقالت فاطمة: يا أبت لقد رأيت اليوم منک عجبا.

فقال: يا فاطمة أمّا الرّطبة الاولى الّتى وضعتها فى فم الحسين و قلت له هنيئا يا حسين فانّى سمعت ميكائيل و اسرافيل يقولان هنيئا يا حسين فقلت أيضا موافقا لهما فى القول، ثمّ أخذت الثانية فوضعتها فى فم الحسن فسمعت جبرئيل و ميكائيل يقولان هنيئا لک يا حسن فقلت أنا موافقا لهما فى القول، ثمّ أخذت الثالثة فوضعتها

فی فمک یا فاطمة فسمعت الحور العین مسرورین مشرفین علینا من الجنان یقلن هنیئا لک یا فاطمة فقلت موافقا لهنّ بالقول، و لمّا أخذت الرّابعة فوضعتها فی فم علیّ علیه السّلام سمعت النّداء من قبل الحقّ یقول هنیئا مریئا لک یا علیّ فقلت موافقا لقول اللّه عزّ و جلّ، ثمّ ناولت علیّا رطبة اخری ثمّ اخری و أنا أسمع صوت الحقّ سبحانه یقول هنیئا مریئا لک یا علیّ فقلت موافقا لقول اللّه، ثمّ قمت إجلالا لربّ العزّة جلّ جلاله فسمعته یقول یا محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عزّتی و جلالی لو ناولت علیّا من هذه الساعة إلی یوم القیامة رطبة رطبة لقلت هنیئا مریئا بعد بلا انقطاع و روی فی بعض الأخبار:

أنّ أعرابیا أتی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال له: یا رسول اللّه لقد صدت خشفة غزالة و أتیت بها إلیک هدیة لولدیک الحسن و الحسین، فقبلها النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و دعا له بالخیر فاذا الحسن واقف عند جدّه فرغب إلیها فأعطاه إیّاها، فما مضی ساعة إلاّ و الحسین قد أقبل فرأی الخشفة عند أخیه یلعب بها فقال: یا أخی من أین لک هذه الخشفة؟ فقال الحسن: أعطانیها جدّی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فسار الحسین مسرعا إلی جدّه فقال: یا جدّاه أعطیت أخی خشفة و لم تعطنی مثلها و جعل یکرّر القول علی جدّه و هو ساکت لکنّه یسلّی خواطره و یلاطفه بشیء من الکلام حتّی أفضی من أمر الحسین علیه السّلام إلی أن همّ یبکی.

فبینما هو کذلک إذ نحن بصیاح قد ارتفع من باب المسجد، فنظرنا فاذا ظبیة و معها خشفها و من خلفها ذئبة تسوقها إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تضربها بأحد أطرافها حتّی أتت بها النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

ثمّ نطقت الغزالة بلسان فصیح فقالت: یا رسول اللّه قد کانت لی خشفتان إحداهما صادها الصیاد و أتی بها إلیک، و بقیت لی هذه الاخری و أنا بها مسرورة و إنّی کنت الان ارضعها فسمعت قائلا یقول: اسرعی اسرعی یا غزالة بخشفک إلی النبیّ محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اوصلیه سریعا لأنّ الحسین واقف بین یدی جدّه و قد همّ أن یبکی

و الملائكة بأجمعهم قد رفعوا رؤوسهم من صوامع العبادة، و لو بكى الحسين لبكت الملائكة المقرّبون لبكائه، و سمعت أيضا قائلا يقول: اسرعى يا غزالة قبل جريان الدموع على خدّ الحسين فان لم تفعلى سلّطت عليک هذه الذئبة تأكلک مع خشفک فأتيت بخشفى إليک يا رسول اللّه و قطعت مسافة بعيدة و لكن طويت لى الأرض حتّى أتيتک سريعة و أنا أحمد اللّه ربّى على أن جئتک قبل جريان دموع الحسين على خدّه، فارتفع التّهليل و التكبير من الأصحاب و دعا النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الغزالة بالخير و البركة و أخذ الحسين الخشفة و أتى بها إلى امه الزّهراء فسرّت بذلک سرورا عظيما و روى عن سلمان الفارسى قال:

اهدى إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قطف من العنب فى غير أوانه فقال لى: يا سلمان ايتنى بولدىّ الحسن و الحسين ليأكلا معى من هذا العنب، قال سلمان الفارسى: فذهبت أطرق عليهما منزل امّهما فلم أرهما، فأتيت منزل اختهما امّ كلثوم فلم أرهما.

فخبّرت النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلک فاضطرب و وثب قائما و هو يقول: وا ولداه و اقرّة عيناه من يرشدنى عليهما فله على اللّه الجنّة، فنزل جبرئيل من السماء و قال: يا محمّد على م هذا الانزعاج؟ فقال: على ولدىّ الحسن و الحسين فانى خائف عليهما من كيد اليهود، فقال جبرئيل: يا محمّد بل خف عليهما من كيد المنافقين، فانّ كيدهم أشدّ من كيد اليهود اعلم يا محمّد أنّ ابنيک الحسن و الحسين نائمان فى حديقة أبى الدّحداح.

فسار النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من وقته و ساعته إلى الحديقة و أنا معه حتّى دخلنا الحديقة و إذا هما نائمان و قد اعتنق أحدهما الاخر و ثعبان فى فيه طاقة ريحان يروّح بها وجهيهما.

فلّما رأى الثّعبان النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ألقى ما كان فى فيه فقال: السّلام عليک يا رسول اللّه لست أنا ثعبانا و لكنّى ملک من ملائكة الكرّ و بيّين غفلت عن ذكر ربّى طرفة عين فغضب علىّ ربّى و مسخنى ثعبانا كما ترى و طردنى من السماء إلى

الأرض ولى منذ سنين كثيرة أقصد كريما إلى اللّه فأسأله أن يشفع لى عند ربّى عسى أن يرحمنى و يعيدنى ملكا كما كنت أوّلا إنّه على كلّ شىء قدير قال: فجاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقبّلهما حتّى استيقظا فجلسا على ركبتى النّبى.

فقال لهما النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: انظرا يا ولدّى هذا ملک من ملائكة اللّه الكرّوبيين قد غفل عن ذكر ربّه طرفة عين فجعله اللّه هكذا و أنا مستشفع بكما إلى اللّه فاشفعا له فوثب الحسن و الحسين عليهما السّلام فأسبغا الوضوء و صلّيا ركعتين و قالا: اللّهمّ بحقّ جدّنا الجليل الحبيب محمّد المصطفى، و بأبينا علىّ المرتضى، و بامّنا فاطمة الزّهراء إلاّ ما رددته إلى حالته الأولى.

قال فما استتمّ دعاؤهما فاذا بجبرئيل نزل من السماء فى رهط من الملائكة و بشّر ذلک الملک برضى اللّه عنه و بردّه إلى سيرته الأولى ثمّ ارتفعوا إلى السماء و هم يسبّحون اللّه تعالى.

ثمّ رجع جبرئيل إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو متبسّم، و قال يا رسول اللّه إنّ ذلک الملک يفتخر على الملائكة السّبع السماوات و يقول لهم: من مثلى و أنا فى شفاعة السيدين السّبطين الحسن و الحسين عليهما السّلام.

و قال حكى عن عروة البارقى قال:

حججت فى بعض السّنين فدخلت مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فوجدت رسول اللّه جالسا و حوله غلامان يافعان و هو يقبّل هذا مرّة و هذا اخرى، فاذا رآه النّاس يفعل ذلک أمسكوا عن كلامه حتّى يقضى منهما و ما يعرفون لأىّ سبب حبّه ايّاهما.

فجئته و هو يفعل ذلک بهما فقلت: يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذان ابناک؟ فقال:

انّهما ابنا ابنتى و ابنا أخى و ابن عمّى و أحبّ الرّجال إلىّ و من هو سمعى و بصرى و من نفسه نفسى و نفسى نفسه و من أحزن لحزنه و يحزن لحزنى.

فقلت له: قد عجبت يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من فعلک بهما و حبّک لهما.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له: أحدّثک أيّها الرّجل إنّى لمّا عرج بى إلى السماء و دخلت

الجنّة انتهيت إلى شجرة فى رياض الجنّة فعجبت من طيب رايحتها فقال لى جبرئيل:

يـا محمّـد تعجب من هـذه الشـجرة فثمرها أطيب من ريحها، فجعل جبرئيل يتحفنى من ثمرها و يطعمنى من فاكهتها و أنا لا أملّ منها، ثمّ مررنا بشـجرة اخرى فقال لى جبرئيل: يا محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كل من هذه الشـجرة فانّها تشـبه الشجرة الّتى أكلت منها الثمر فهى أطيب طعما و أزكا رايحة.

قال: فجعل جبرئيل يتحفنى بثمرها و يشـمّنى من رايحتها و أنا لا أملّ منها، فقلت: يا أخى جبرئيل ما رأيت فى الأشـجار أطيب و لا أحسـن من هاتين الشّجرتين، فقال لى: يا محمّد أ تدرى ما اسم هاتين الشّجرتين؟ فقلت: لا أدرى، فقال: إحداهما الحسن و الاخرى الحسين، فاذا هبطت يا محمّـد إلى الأرض من فورک فأت زوجتک خديجـة و واقعها من وقتک و ساعتک فانّه يخرج منک طيب رايحـة الثمر الّذى أكلته من هاتين الشّجرتين فتلد لک فاطمة الزّهراء، ثمّ زوّجها أخاک عليّا فتلد له ابنين فسمّ أحدهما الحسن و الاخر الحسين.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ففعلت ما أمرنى أخى جبرئيل فكان الأمر ما كان، فنزل إلىّ جبرئيل بعد ما ولد الحسن و الحسين فقلت له: يـا جبرئيـل مـا أشوقنى إلى تينـک الشّـجرتين فقال لى: يا محمّـد إذا اشـتقت إلى الأكل من ثمرة تينک الشّـجرتين فشمّ الحسن و الحسين.

قال: فجعل النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كلّما اشـتاق إلى الشّـجرتين يشمّ الحسن و الحسين عليهما الصلاة و السّلام و يلثمهما و هو يقول: صدق أخى جبرئيل، ثمّ يقبّل الحسن و الحسـين عليهما السّـلام و يقول: يا أصـحابى انّى أودّ أنّى اقاسـمهما حياتى لحبّى لهما و هما ريحانتاى من الدّنيا، فتعجّب الرّجل وصف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للحسن و الحسين عليهما السّلام.

و فى كشف الغمّة قال البغوى يرفعه إلى يعلى قال:

جاء الحسن و الحسـين يسـعيان إلى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فأخـذ أحدهما فضـمّه إلى ابطه و أخذ الاخر فضّـمه إلى ابطه الاخرى فقال: هذان ريحانتاى من الدّنيا من أحبّنى فليحبّهما.

ص:115

و فيه عن أبى هريرة قال:

خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معه حسن و حسين عليهما السّلام هذا على عاتقة و هذا على عاتقة و هو يلثم هذا مرّة و هذا مرّة حتّى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول اللّه إنّک تحبّهما فقال: من أحبّهما فقد أحبّنى و من أبغضهما فقد أبغضنى.

أقول: هذه الأخبار أنموذج من مناقب أخبار السّبطين سلام اللّه عليهما و على جدّهما و أبيهما و امّهما و ظهر منها كيفيّة عناية اللّه تعالى و عناية رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إكرامهما فى حقّهما كما ظهر فرط محبّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و محبّة أمير المؤمنين إيّاهما إلى مرتبة يودّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقاسمهما حياته كما مرّ فى آخر روايات البحار و يرضى أمير المؤمنين عليه السّلام بأن يخوض بنفسه الشّريف فى غمرات الحرب و يضنّ بهما ذلک حذرا من انقطاع نسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حسبما مرّ فى هذا الكلام الّذى نحن فى شرحه.

فلعن اللّه امة بلغوا الغاية فى العصيان، و وصلوا إلى النّهاية فى إرضاء الشيطان و أقدموا على أمر عظيم من إسخاط الرّحمن، كيف سعوا فى إطفاء نور اللّه و جدّوا فى قطع نسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بدّلوا ما وصّاهم اللّه به من مودّة القربى بالعداوة و البغضاء، و ما أوصاهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من محبّة العترة بالشقاوة و الشقاء.

فشوها لتلک الوجوه الّتى شوّهها الكفر و الفسوق و العصيان، و سوأة لهذه الامّة الّتى لم تبق شيئا من مراتب العداوة و العناد و الطغيان، فكيف لو شاهدهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع ما أقدموا عليه فى حقّ الال من سفک الدّماء و قتل الرجال و سبى الحريم و ذبح الأطفال، اولئک عليهم لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين و سيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون.

الترجمة

از جمله كلام آن حضرتست در بعض أيّام جنگ صفين در حالتى كه ديد پسرش امام حسن عليه السّلام را مى شتابد بسوى جنگ فرمود بأصحاب خود:

مالک شويد و ممانعت نمائيد بعوض من اين جوان را تا آنكه نشكند بنيهٔ

بدن مرا، پس بدرستی که من بخیل ترم باین دو جوان که حسن و حسین علیهما السّلام باشند بر مرگ، مبادا بریده شود بجهت موت ایشان نسل بر گزیدهٔ پیغمبر آن رسول خدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

سیّد رضی رحمة اللّه علیه گفته که: فرمایش آن حضرت که فرموده مالک شوید بعوض من از جمله کلام عالی مقام او و متضمّن غایت فصاحتست.

و من کلام له علیه السّلام و هو

اشارة

المأتان و السابع من المختار

فی باب الخطب

و قد رویناه فی شرح الخطبة الخامسة و الثلاثین من کتاب صفین لنصر بن مزاحم باختلاف یسیر عرفته. قاله لمّا اضطرب علیه علیه السّلام أصحابه فی أمر الحکومة.

أیّها النّاس إنّه لم یزل أمری معکم علی ما أحبّ، حتّی نهکتکم الحرب، و قد و اللّه أخذت منکم و ترکت، و هی لعدوّکم أنهک، لقد کنت أمس أمیرا، فأصبحت الیوم مأمورا، و کنت أمس ناهیا، فأصبحت الیوم منهیّا، و قد أحببتم البقاء، و لیس لی أن أحملکم علی ما تکرهون.

اللغة

(نهکته) الحمّی نهکاً من باب منع و تعب هزلته، و نهکه السلطان عقوبة بالغ فیه، و نهکت الثّوب لبسته حتّی خلق و بلی (و الحرب) مؤنّث سماعیّ و قد تذکر ذهابا إلی معنی القتال فیقال حرب شدید

الاعراب

قوله عليه السّلام: و قد و اللّه أخذت، جملة القسم معترضة بين قد و مدخولها جيئت بها لتأكيد الكلام.

المعنى

اعلم أنّه قد تقدّم فى شرح الخطبة الخامسة و الثلاثين تفصيل قصّة الحكومة و عرفت هناک أنّ أهل الشام لمّا ضعفوا عن مقاومة أهل العراق و عجزوا عن مقاتلتهم و رأوا علوّ كلمة الحقّ و أيقنوا بالهلاک و العطب، عدلوا عن القراع إلى الخداع فرفعوا المصاحف على الرّماح بتدبير ابن النابغة عمرو بن العاص اللّعين على وجه الخديعة و المكيدة.

و لمّا رأى أهل العراق منهم ذلک كفّوا أيديهم عن القتال و اجتمعوا عليه عليه السّلام و طالبوه بالكفّ عنهم و كانوا فى ذلک على أقسام.

فمنهم من دخلت عليه الشّبهة برفع المصاحف و اعتقدوا أنّهم لم يرفعوها خديعة و حيلة بل حقا و عملا بموجب الكتاب و تسليما للدّين الحقّ فرأى أنّ الاستسلام للحجّة أولى من الاصرار على الحرب.

و منهم من قد كان ملّ من الحرب بطول المدّة، فلمّا رأى شبهة ما يسوغ التعلّق بها فى رفض المحاربة و حبّ العافية أخلد إليها.

و منهم من كان يبغض أمير المؤمنين عليه السّلام بالباطن و يطيعه بالظاهر كما يطيع كثير من النّاس السلطان ظاهرا أو يبغضه باطنا فلمّا وجد طريقا إلى خذلانه و ترک نصرته أسرع إليها.

فاجتمع جمهور عسكره إليه عليه السّلام و طالبوه الكفّ فامتنع امتناع عالم بالمكيدة و عرّفهم أنّها خدعة و حيلة و قال لهم: إنّى أعرف بالقوم منكم و أعلم أنّهم ليسوا بأهل دين و لا قرآن فلا تغترّوا برفعهم للمصاحف و انهدوا إليهم و لم يبق منهم إلاّ آخر نفسهم، فأبوا عليه و لجّوا و أصرّوا على القعود و الخذلان و طلبوا أن ينفذ إلى الأشتر و ساير المحاربين أن يكفّوا عن الحرب و يرجعوا.

فأرسل إلى الأشتر و أمره بالرّجوع، فقال الأشتر: و كيف أرجع و قد لاحت

أمارات الظفر و قال له: ليمهلنى ساعة واحدة و لم يكن عالما بصورة الحال، فلمّا عاد إليه الرّسول بذلک غضبوا و شغبوا و قالوا: أنفذت إلى الأشتر سرّا تأمره بالجدّ و تنهاه عن الكفّ و إن لم يعد قتلناک كما قتلنا عثمان.

فرجعت الرّسل إلى الاشتر فقالوا له: أ تحبّ أن تظفر بالعدوّ و أمير المؤمنين قد سلّت عليه خمسون ألف سيف، فقال: ما الخبر؟ قالوا: إنّ الجيش بأسره قد أحدقوا به و هو جالس بينهم على الأرض تحته نطع و هو مطرق و البارقة تلمع على رأسه يقولون: لئن لم يرجع الأشتر قتلناک.

فرجع فوجد أمير المؤمنين تحت الخطر قد ردّوه أصحابه بين الأمرين إن لم يكفّ عن الحرب إمّا أن يسلّموه إلى معاوية أو يقتلوه و لا ناصر له منهم إلاّ ولداه و ابن عمّه و نفر قليل لا يبلغ عشرة.

فلمّا رآهم الأشتر شتمهم و شتموه و أبوا و قالوا: المصاحف المصاحف و الرّجوع إليها لا نرى غير ذلک، فأجابهم أمير المؤمنين إلى ذلک كرها دفعا للأفسد بالفاسد و قال لهم:

(أيّها الناس إنه لم يزل أمرى معكم على ما احبّ) من قتال أهل البغى و العدوان و استيصال القاسطين من حزب الشّيطان (حتّى) عاد طاعتكم لى إلى المخالفة و نصرتكم إلى الخذلان و المنابذة فأبيتم إباء المخالفين الجفاة و المنابذين العصاة بما (نهكتكم) و هزلتكم (الحرب) بطول مدّتها و ثقل أوزارها.

و نبّه على خطائهم فى القعود عنها بقوله (و قد و اللّه أخذت منكم) طائفة (و تركت) طائفة فلم تستأصلكم بالمرّة بل بقيت منكم بقيّة (و هى لعدوّكم) أنكى و (أنهک) إذ لم يبق منهم إلاّ حشاشة ضعيفة فانّ القتل فى أهل الشام كان أشدّ استحرارا و الوهن فيهم أظهر، و لو لا فساد أهل العراق لاستوصل الشّام و خلص إلى معاوية فأخذه بعنقه، و لم يكن قد بقى من قوّة أهل الشام إلاّ حركة المذبوح و مثل حركة ذنب الوزغة عند قتلها يضطرب يمينا و شمالا.

ثمّ أخذ فى التّشكّى منهم بسوء فعلهم فقال(لقد كنت أمس أميرا فأصبحت

اليوم مأمورا) لا يخفى حسن المقابلة بين القرينتين و هو من مقابلة الثلاثة بالثلاثة.

و كـذا فى قوله(و كنت أمس ناهيـا فأصـبحت اليوم منهيّـا) ثمّ ساق الكلام مساق التّعريض و التقريع فقال (و قـد أحببتم البقاء و ليس لى أن أحملكم على ما تكرهون) من القتال و القتل، و عـدم حمله لهم على ذلك إمّا لعدم القدرة أو لعدم اقتضاء المصـلحة ليقضـى اللّه أمرا كان مفعولا.

الترجمة

از جمله كلام معجز نظام آن امام أنام عليه الصـلاة و السـلام است كه فرموده آن را هنگامى كه مضطرب شدند و اغتشاش نمودند أصحاب او بر او در أمر حكومت حكمين پس فرمود آن بزرگوار بايشان:

اى مردمان بدرستى كه ثابت بود أمر من و شـما بر چيزى كه دوست مى داشتم تا اين كه لاغر و ضعيف نمود شما را حرب و كارزار و حال آنكه قسم بخـدا آن حرب بعض شـما را فرا گرفت و بعضـى را فرو گـذاشت، و از براى دشـمن زيادتر موجب لاغرى آنها شد، بتحقيق بودم ديروز أمير شـما پس گرديـدم امروز مأمور، و بودم ديروز نهى كننده و گرديم امروز نهى شده، و بتحقيق دوست داشتيد زندگانى را و نيسـت مرا كه الزام نمايم شما را بر چيزى كه مكروه طبع شماست.

و من كلام له عليه السّلام بالبصرة و هو

اشارة

المأتان و الثامن من المختار فى باب الخطب

و هو مروىّ فى شرح المعتزلى باختلاف تعرفه إنشاء اللّه، و روى بعض فقراته فى الكافى أيضا مسندا بسند نذكره فى التّكملة الاتية.

قال الرضىّ رضى اللّه عنه: و قد دخل على العلاء بن زياد الحارثى و هو من أصحابه يعوده فلمّا رأى سعة داره قال عليه السّلام:

ما كنت تصنع بسعة هذه الدّار فى الدّنيا، أما أنت إليها فى الاخرة

كنت أحوج، و بلى إن شئت بلغت بها الاخرة تقرى فيها الضّيف، و تصل فيها الرّحم، و تطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الاخرة. فقال له عليه السّلام العلاء يا أمير المؤمنين أشكو إليک أخى عاصم بن زياد قال عليه السّلام: و ما له؟ قال: لبس العباء و تخلّى من الدّنيا، قال عليه السّلام: علىّ به فلمّا جاء قال:

يا عدىّ نفسه، لقد استهام بک الخبيث، أ ما رحمت أهلک و ولدک، أ ترى اللّه أحلّ لک الطّيّبات و هو يكره أن تأخذها، أنت أهون على اللّه من ذلک، قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت فى خشونة ملبسک و جشوبة مأكلک، قال عليه السّلام: ويحک إنّى لست كأنت، إنّ اللّه تعالى فرض على أئمّة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بضعفة النّاس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره.

اللغة

(وسع) المكان القوم و وسع المكان يسع أى اتّسع يتعدّى و لا يتعدّى و المصدر سعة بفتح السّين و به قرء السبعة فى قوله تعالى «وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ » و كسرها لغة و به قرء بعض التابعين قال الفيومى قيل: الأصل فى المضارع الكسر و لهذا حذفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة و كسرة ثمّ فتحت بعد الحذف لمكان حرف الحلق، و مثله يهب و يقع و يدع و يلغ و يطأ و يضع، و الحذف فى يسع و يطأ ممّا ماضيه مكسور شاذّ لأنّهم قالوا: فعل بالكسر مضارعه يفعل بالفتح

و استثنوا أفعالا ليست هذه منها.

(و قريت) الضّعيف أقريه من باب رمى و (عدىّ نفسه) تصغير عدو و أصله عديو و فحذفت إحدى الواوين و قلبت الثّانية ياء تخفيفا ثمّ ادغمت ياء التصغير فيها و (هام) يهيم خرج على وجهه لا يدرى أين يتوجّه فهو هائم و استهام بك أى جعلك هائما، و قال الشارح البحرانى: اى أذهبك لوجهك و زيّن لك الهيام و هو الذّهاب فى التّيه.

و (الملبس) و (المأكل) مصدران بمعنى المفعول، و طعام (جشب) و مجشوب غليظ و قيل الّذى لا ادام معه و (أئمّة الحقّ) فى بعض النسخ أئمّة العدل بدله و (يقدروا) أنفسهم فى بعض النسخ بالتخفيف مضارع قدر من باب ضرب و فى بعضها بالتثقيل و المعنى واحد مأخوذان من القدر بمعنى التضييق قال تعالى «اَللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ » له أو بمعنى قياس الشىء بالشّىء و يقال أيضا هذا قدر هذا و قدره أى مماثله و (البيغ) ثوران الدّم و تبيغ عليه الأمر اختلط و الدّم هاج و غلب.

الاعراب

قوله: ما كنت تصنع، كان هنا زايدة كما فى قوله تعالى «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا » و قوله: أما أنت اه أما حرف استفتاح يبدء بها الكلام و فايدتها المعنويّة توكيد مضمون الجملة الّتى بعدها قال نجم الأئمّة: و كأنها مركبّة من همزة الانكار و حرف النّفى و الانكار نفى و نفى النّفى إثبات ركب الحرفان لافادة الاثبات و التّحقيق و فايدتها اللّفظيّة كون الكلام بعدها مبتدأ به، و فى بعض النّسخ ما أنت بدل أما أنت و عليه فتكون ما موصولة بدلا من الدّار أو من سعة و الأوّل أظهر.

و قوله إليها متعلق بقوله أحوج، و كذا قوله: فى الاخرة، و قوله: و بلى استدراک عن الجملة السّابقة قال الفرّاء أصلها بل زيدت عليها الألف للوقف، و قال نجم الأئمّة: لفظة بل التى تليها الجمل للانتقال من جملة إلى اخرى أهمّ من الاولى، قال: و تجىء بعد الاستفهام أيضا كقوله: «أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ » إلى قوله «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ ».

أقول: و يكون بلى هنـا بمعنى الاسـتدراک ادخلت عليهـا الواو كما تـدخل على لكن، و يجوز جعلها عاطفـة للجملـة على الجملـة و لكن جعلها اعتراضيّة أظهر من حيث المعنى.

و جملة تقرى فيها الضّيف يجوز أن تكون حالا من قوله بها، و يجوز أن تكون استينافا بيانيّا فانّه عليه السّلام لمّا قال له: إن شئت بلغت بها، فكأنه سئل عن كيفيّة البلاغ فقال: تقرى فيها.

و قوله: عليّ به، اسم فعـل أى ايتونى به قـال نجم الأئمـة: يقـال عليک زيـدا أى خـذه كأنّ الأصل عليک أخـذه و أمّا عليّ بمعنى ادلّنى فهو مخالف للقياس من وجه آخر إذ هو أمر لكن الضـمير المجرور به فى معنى المفعول يقال عليّ زيـدا أى قرّ بنيه و القياس أن يكون المجرور فاعلا، و قوله: يا عديّ نفسه يحتمل أن يكون التصغير للتحقير، و أن يكون للتعظيم كما فى قول الشاعر:

و ديهية تصفرّ منها الأنامل

و جملـة: لقـد اسـتهام بک، جواب قسم مقـدّر و الباء زايـدة، و أما رحمت، حرف تنـديم و أ ترى اللّه اسـتفهام توبيخى، و قوله هذا أنت فى خشونـة ملبسک الظرف حال من أنت لأنه فى المعنى مفعول لمـدلول هـذا أى اشـير إليک حال كونک فى خشونة اه و مثل ذلک قوله تعالى «هذا بَعْلِي شَيْخاً » أى انبّه عليه أو اشير إليه شيخا.

المعنى

اشارة

اعلم أنّ هذا الكلام قاله بالبصـرة و قد دخل على العلاء بن زياد الحارثى و هو من أصـحابه يعوده و يتفقّد حاله لمرضه فلمّا رأى عليه السّلام سعة داره قال:

(ما كنت تصـنع بسـعة هذه الدّار فى الدّنيا) اسـتفهام وارد معرض التوبيخ و الانكار لما صـنعه لمنافاته الزّهد المطلوب و لمّا نبه على ذلک أردفه بقوله (أما أنت إليها فى الاخرة كنت أحوج) تنبيها له على كون السـعة محتاجا إليها فى الاخرة مزيد الاحتياج، و ذلک لكون الدنيا دار فناء و انقطاع و الاخرة دار قرار و بقاء، و معلوم أنّ إصلاح المقرّ أولى من الممرّ، و الحاجة إليه فيه أزيد و أشدّ.

ثمّ استدرک بقوله (و بلی إن شئت بلغت بها الاخرة) یعنی أنّک بعد ما فرطت فی توسعتها و بنائها یمکن لک تدارک ذلک بأن تجعلها بلاغا و وصلة و وسیلة إلی اتّساع الدّار الاخرة بأن (تقری فیها الضّیف و تصل فیها الرّحم) و القرابة (و تطلع منها الحقوق مطالعها) أی تخرج فیها الحقوق الماليّة الواجبة و المندوبة من الخمس و الزّکاة و الصّدقات و صنایع المعروف و الحقّ المعلوم للسائل و المحروم و ساير وجوه البرّ المقرّبة إلی اللّه سبحانه و تضعها فی مواضعها اللایقة و تصرفها فی مصارفها المستحقّة.

و قال الشارح البحرانی: مطالع الحقوق وجوهها الشرعیّة المتعلّقة به کالزّکاة و الصّدقة و غیرهما، و الأظهر بل الأولی ما ذکرناه.

و کیف کان فالمراد أنّک إن أتیت فیها بالقربات و الحسنات و أقمت باخراج الحقوق المفروضات و المندوبات (فاذا أنت قد بلغت بها الاخرة) و احملت «جمعت ظ» بینها و بین الدّنیا (فقال له العلاء یا أمیر المؤمنین أشکو إلیک أخی عاصم بن زیاد قال و ما له قال لبس العباء و تخلّی من الدّنیا).

قیل: المراد بلبس العباء جعلها شعارا أو ترک القطن و نحوه و الاکتفاء بلبسها فی الصّیف و الشّتاء و فی وصیّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأبی ذر: یکون فی آخر الزّمان قوم یلبسون الصوف فی صیفهم و شتائهم یرون لهم بذلک الفضل علی غیرهم اولئک یلعنهم ملائکة السماوات و الأرض، انتهی.

أقول: و الأظهر أنّ المراد أنّه اقتصر بلبس العباء و ترک الدّنیا بالمرّة و لم یأخذ منها سواها.

(قال علیه السّلام علیّ به) أی ائتونی به و احضروه لدیّ (فلمّا جاء قال علیه السّلام یا عدّی نفسه).

قال الشارح البحرانی: صغّره استصغارا له باعتبار أنّ شیطانه لم یقده إلی کبیرة بل قاده إلی أمر و إن کان خارجا به عن الشریعة إلاّ أنّه قریب من السلامة و دخل علیه بالخدعة فی رأی الصّالحین، و قیل: بل صغّره من جهة حقارة فعله ذلک

لكونه عن جهل منه، انتهى.

و الأظهر أن يكون التصغير للتّعظيم، و الغرض منه استعظامه لعداوته لها باعتبار ظلمه عليها، و ذلک لأن لنفسه و لكلّ من جوارحه عليه حقّا و قد روينا فى شرح الخطبة التّاسعة و الثمانين فى ضمن أخبار محاسبة النفس من الوسايل من الخصال و معانى الأخبار عن عطا عن أبى ذر عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حديث قال: و على العاقل ما لم يكن مغلوبا أن تكون له ساعات: ساعة يناجى فيها ربّه، و ساعة يحاسب فيها نفسه، و ساعة يتفكّر فيها صنع اللّه إليه، و ساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال فانّ هذه السّاعة معينة لتلک السّاعات، و استجمام للقلوب و تفريغ لها.

و فى البحار من كتاب تنبيه الخاطر قيل: إنّ سلمان رضى اللّه عنه جاء زائرا لأبى الدّرداء فوجد امّ الدّرداء مبتذلة، فقال: ما شأنک؟ قالت: إنّ أخاک ليست له حاجة فى شىء من أمر الدّنيا، قال: فلمّا جاء أبو الدّرداء رحّب لسلمان و قرّب إليه طعاما فقال لسلمان اطعم فقال: إنّى صائم، قال: أقسمت عليک إلاّ ما اطعمت، فقال: ما أنا باكل حتّى تأكل، قال: و بات عنده فلمّا جاء الليل قام أبو الدّرداء فحبسه سلمان فقال: يا أبا الدّرداء إنّ لربّک عليک حقّا، و لجسدک عليک حقّا، و لأهلک عليک حقّا، فصم و افطر و صلّ و نم و أعط كلّ ذى حقّ حقّه، فأتى أبو الدّرداء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبره بما قال سلمان فقال عليه السّلام مثل قول سلمان.

و قوله (لقد استهام بک الخبيث) أى جعلک هائما متحيّرا لا تدرى ما تفعل و أين تذهب، و فيه تنبيه على أنّ تركه للدّنيا لم يكن عن خالص العقل، بل كان بمداخلة الشيطان و شوب الهوى، و ذلک بما كان فى فعله ذلک من الاخلال بجملة من الحقوق الواجبة شرعا عليه من حقّ الأهل و الأولاد كما أشار إليه بقوله:

(أ ما رحمت أهلک و ولدک) استفهام فى معرض التّوبيخ و الانكار، لاعراضه عنهم و تركه لهم و عدم ترحّمه عليهم، و قد جعل اللّه تعالى عليه حقّا.

كما يدلّ عليه ما رواه فى البحار من كتاب تحف العقول فى رسالة علىّ بن

الحسين عليه السّلام المعروفة برسالة الحقوق قال عليه السّلام:

و أمّا حقّ أهل بيتک عامّة، فاضمار السلامة، و نشر جناح الرّحمة، و الرّفق بمسيئهم، و شكر محسنهم إلى نفسه و إليک فانّ إحسانه إلى نفسه إحسانه إليک إذا كفّ عنک أذاه و كفاه مؤنته و حبس عنک نفسه. فعمّهم جميعا بدعوتک و انصرهم جميعا بنصرتک، و أنزلهم جميعا منک منازلهم، كبيرهم بمنزلة الوالد، و صغيرهم بمنزلة الولد، و أوسطهم بمنزلة الأخ.

و فى هذه الرّسالة أيضا و أمّا حقّ ولدک فتعلم أنّه منک و مضاف إليک فى عاجل الدّنيا بخيره و شرّه و انک مسئول عمّا ولّيته من حسن الأدب و الدلالة على ربّه و المعونة له على طاعته فيک و فى نفسه فمثاب على ذلک و معاقب فاعمل فى أمره عمل المتزّين بحسن أثره عليه فى عاجل الدّنيا المعذر إلى ربّه فيما بينک و بينه بحسن القيام عليه و الأخذ له منه و لا قوّة إلاّ باللّه.

و فى البحار من الفقه الرّضوى أروى عن العالم عليه السّلام، أنّه قال لرجل:

ألک والدان؟ فقال: لا، فقال: أ لک ولد؟ قال: نعم، قال له: برّ ولدک يحسب لک برّ والديک.

و روى أنّه قال: برّوا أولادكم و أحسنوا إليهم فانّهم يظنّون أنكم ترزقونهم و فى الفقيه قال الصادق عليه السّلام برّ الرّجل بولده برّه بوالديه.

و فى خبر آخر من كان عنده صبىّ فليتصابّ له.

و فى الوسايل من الكافى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: إنّ اللّه ليرحم العبد لشدّة حبّه بولده.

و عن كليب الصيداوى قال قال لى أبو الحسن عليه السّلام: اذا وعدتم الصبيان ففوا لهم فانّهم يرون أنّكم الذين ترزقونهم، إنّ اللّه عزّ و جلّ ليس يغضب لشىء كغضبه للنساء و الصبيان.

و فى الكافى فى كتاب المعيشة فى باب الحثّ على الطلب و التعرّض للرّزق عن معلّى بن خنيس قال: سأل أبو عبد اللّه عليه السّلام عن رجل و أنا عنده، فقيل: أصابته الحاجة

فقال: ما يصنع اليوم؟ قيل: فى البيت يعبد ربّه قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: و اللّه الذى يقوته أشدّ عبادة منه.

و فيه عن أبى حمزة عن أبى جعفر عليه السّلام قال: من طلب الدنيا استعفافا عن الناس و سعيا على أهله و تعطفا على جاره لقى اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة و وجهه مثل القمر ليلة البدر.

ثمّ أنكر عليه ثانيا بقوله (أ ترى اللّه أحلّ لک الطيّبات) من الرزق و الفاخرات من اللّباس (و هو يكره أن تأخذها) و نبّه بهذه الجملة الانكاريّة على أنّ التخلية من الدّنيا بالكليّة ليست مطلوبة للشّارع، لأنّها توجب اختلال نظام العالم، و فيه نقض لغرض الشّارع و مقصوده الذى هو عمارة الأرض و بقاء النّوع الانسانى حينا من الدّهر و مدّة من الزّمان الّتى اقتضت الحكمة الالهيّة و المشيّة الرّبانية بقائه إلى تلک المدّة ليعبدوه و يوحّدوه سبحانه فيها، لأنّ التّعمير و التمدّن و بقاء النوع لا يحصل و لا يتمّ إلاّ بتعاون أبناء النّوع و تشاركهم على القيام بمصالح البقاء و لوازمه و ترک الدّنيا و الاعراض عنها مناف لذلک الغرض البتّة، هذا.

و فى قوله عليه السّلام:أ ترى اللّه أحلّ لک الطيّبات، تلميح إلى قوله عزّ و جلّ«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ »أى من حرّم الثّياب الّتى تتزّين بها الناس و ساير ما يتجمّل به مما أخرجها اللّه من الأرض لعباده من القطن و الكتان و الابريشم و الصّوف و الجواهر و المستلذّات من الماكل و المشارب روى فى الصافى من الكافى عن الصّادق عليه السّلام بعث أمير المؤمنين عبد اللّه بن عباس إلى ابن الكوّا و أصحابه و عليه قميص رقيق و حلّة، فلمّا نظروا إليه قالوا:

يا ابن عباس أنت خيرنا فى أنفسنا و أنت تلبس هذا اللّباس؟ قال: و هذا أوّل ما اخاصمكم فيه «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ » و قال اللّه «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ».

و عن الصادق عليه السّلام أنّه كان متكئا على بعض أصحابه فلقيه عباد بن كثير

و علیه علیه السّلام ثیاب مرویة(1) فقال یا أبا عبـد اللّه إنّک من أهل بیت النّبوة و کان أبوک(2) و کان(3) فما لهذه الثیاب المرویة علیک؟ فلو لبست دون هـذه الثیـاب فقال له: ویلک یا عبّاد من حرّم زینـة اللّه الّتی أخرج لعباده و الطیبات من الرّزق إنّ اللّه عزّ و جلّ إذا أنعم علی عبـده نعمـة أحبّ أن یراهـا علیه لیس بها بأس، ویلک یا عباد إنّما أنا بضـعة من رسول اللّه فلا تؤذونی و کان عباد یلبس ثوبین من قطن و فی شرح المعتزلی روی انّ قوما من المتصوّفة دخلوا بخراسان علی علیّ ابن موسی الرّضا علیهما السّلام فقالوا له إنّ أمیر المؤمنین(4) فکّر فیما ولاّـه اللّه من الامـور فرآکم أهل البیت أولی الناس أن تؤمّوا الناس و نظر فیکم أهل البیت فرآک أولی النّاس بالناس فرأی أن یردّ هـذا الأمر إلیـک و الامامـة تحتاج إلی من یأکل الجشب و یلبس الخشن و یرکب الحمار و یعود المریض، فقال علیه السّلام لهم: إنّ یوسف کان نبیّا یلبس أقبیة الدّیباج المزرورة بالذهب، و یجلس علی متکئات آل فرعون، و یحکم إنّما یراد من الامام قسـطه و عدله إذا قال صدق و إذا حکم عدل و إذا وعد أنجز إنّ اللّه لم یحرّم لبوسا و لا مطعما، ثمّ قرء «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَةَ اللّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ » الایة.

و قال ابن عباس فی قوله «قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الـدُّنْیا خالِصَـةً یَوْمَ الْقِیامَةِ » یعنی أنّ المؤمنین یشارکون المشـرکین فی الطیبات فی الـدّنیا فـأکلوا من طیّبـات طعامهم، و لبسوا من جیاد ثیابهم، و نکحوا من صالـح نسائهم، ثمّ یخلص اللّه الطیبات فی الاخرة للـذین آمنوا و لیس للمشرکین فیها شیء.

و فی الصّافی من الامـالی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی حـدیث: و اعلموا یا عباد اللّه إنّ المتقین حازوا عاجل الخیر و آجله، شارکوا أهل الدّنیا فی دنیاهم، و لم

1- (1) - الرواء بضم الراء و المد حسن المنظر، منه.

2- (2) - یعنی أمیر المؤمنین (علیه السلام) منه.

3- (3) - أی زاهدا.

4- (4) - أی المأمون الملعون، منه.

يشاركهم أهل الدّنيا فى آخرتهم، أباحهم اللّه الدّنيا ما كفاهم و أغناهم قال اللّه عزّ و جلّ «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ » الاية سكنوا الدّنيا بأفضل ما سكنت، و أكلوها بأفضل ما اكلت، شاركوا أهل الدّنيا فى دنياهم فأكلوا معهم من طيّبات ما يأكلون، و شربوا من طيّبات ما يشربون، و لبسوا من أفضل ما يلبسون، و سكنوا من أفضل ما يسكنون، و تزوّجوا من أفضل ما يتزوّجون، و ركبوا من أفضل ما يركبون، و أصابوا لذّة الدّنيا مع أهل الدّنيا، و هم غدا جيران اللّه يتمنّون عليه فيعطيهم ما يتمنّون، لا تردّ لهم دعوة، و لا ينقص لهم نصيب من اللذة، فالى هذا يا عباد اللّه يشتاق إليه من كان له عقل، هذا.

و قوله عليه السّلام (أنت أهون على اللّه من ذلک) يعنى أنّ أفعال اللّه سبحانه و أحكامه ليست كأفعال خلقه و أحكامهم، فربّما يعطى الواحد منّا مالا لاخر مع عدم طيب نفسه به بل على كره منه له أو يأذن له أن يسكن فى منزله باقتضاء مصلحة لاحظها فيه من مداراة معه و نحوها مع كراهة له باطنا و أمّا اللّه القادر القاهر العزيز ذوا السلطان فأجلّ و أعلى من أن يكون ما أعطاه و أحلّه لعباده من باب المصانعة و المجاملة، لأنّهم أهون عنده تعالى من ذلک، و أىّ ملاحظة للخالق من مخلوقه الذّليل، و مداهنة للقاهر من مقهوره الضّعيف المقيّد بقيد الرّقية و العبوديّة.

(قال يا أمير المؤمنين هذا أنت) إمامنا و قد و تنا حال كونک (فى خشونة ملبسک) حيث قنعت من اللّباس بطمريه(1) (و جشوبة مأكلک) حيث اقتصرت من الطعام بقرصيه فينبغى لنا أن نتأسّى و نأتمّ بک و نحذو حذوک.

(قال عليه السّلام ويحک) كلمة رحمة قالها شفقة و عطوفة (إنّى لست كأنت) يعنى أنّ تكليفى الشرعى غير تكليفک، و أشار إلى وجه المغايرة بقوله:

(إن اللّه تعالى فرض على أئمّة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس) أى يضيّقوا على أنفسهم فى المعاش بضيق الفقراء و الضعفاء أو يقيسوا أنفسهم بهؤلاء و يكونوا شبيها بهم

1- (1) - الطمر الثوب الخلق و الكساء البالى، م.

(كيلا يتبيّغ) و يغلب (بالفقير فقره) فيقلّ صبره فيعطب، و ذلک فانّ الفقير إذا رأى إمامه و مقتـداه بزيّ الفقراء و معاشه مثل معاش المساكين كان له تسلية عمّا يتجرّعه من غصص الفقر و نغص المسكنة هذا.

و يؤيّد ما ذكره عليه السّلام من أنّ الفرض على أئمّة الحقّ أن يقدروا أنفسهم بالضّعفاء:

ما رواه فى الصافى عن الصادق عليه السّلام أنّه قيل له: أصـلحک اللّه ذكرت أنّ علىّ بن أبى طالب كان يلبس الخشن يلبس القميص بأربعة دراهم و ما أشـبه ذلک و نرى عليک اللّباس الجيّد، فقال عليه السّلام له: إنّ علىّ بن أبى طالب كان يلبس ذلک فى زمان لا ينكر، و لو لبس مثل ذلک اليوم لشـهر به، فخير لباس كلّ زمان لباس أهله غير أنّ قائمنا عليه السّلام إذا قام لبس ثياب علىّ بن أبى طالب عليه السّلام و سار بسـيرته فانّه يسـتفاد منه أنّ القائم عند ظهوره يسـير سـيرة أمير المؤمنين عليه السّلام، و يسـلک مسلكه فى اللباس و غيره، لكونه مطمح نظر العموم كأمير المؤمنين، و أما ساير الأئمّة فلا، و ما أجاب الصادق عليه السّلام به للسائل فجواب إقناعى لاسكاته و الجواب الحقيقى ما قاله عليه السّلام فى المتن من أن لا يتبيّغ بالفقير فقره.

تكملة

قال الشّارح المعتزلى: و اعلم أنّ الّذى رويته عن الشيوخ و رأيته بخطّ أحمد بن عبد اللّه بن الخشاب:

أنّ الرّبيع بن زيـاد الحارثى أصابه نشّابـة فى جبينه فكانت تنتقض عليه فى كلّ عام، فأتاه علىّ عليه السّلام عائـدا فقال: كيف تجـدک أبا عبد اللّه؟ قال: أجـدنى يا أمير المؤمنين لو كان لا يـذهب ما بى إلاّ بـذهاب بصـرى لتمنيت ذهابه، قال: و ما قيمـة بصـرک عندک؟ قال لو كانت الدّنيا لفديته بها، قال: لا جرم ليعطينک اللّه على قدر ذلک إنّ اللّه يعطى على قدر الألم و المصـيبة و عنده تضعيف كثير، قال الرّبيع: يا أمير المؤمنين ألاـ أشـكو اليک عاصم بن زياد أخى؟ قال عليه السّلام: و ماله؟ قال: لبس العباء و ترک الملاء و غمّ أهله و حزن ولـده، فقال عليه السّلام: ادعوا لى عاصما فلمّا،

أتاه عبس وجهه و قال: ويحک يا عاصم أ ترى اللّه أباح لک اللـذات و هو يكره ما أخذت منها، لأنت أهون على اللّه من ذلک، أو ما سـمعته يقول «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ » ثمّ قال «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ » و قال «وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها » أما و اللّه ابتذال نعم اللّه بالفعال(1) أحبّ إليه من ابتذالها بالمقال، و قد سمعتم اللّه يقول «وَ أَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ » و قوله «مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبـادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ » إنّ اللّه خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسـلين فقال «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ » و قال «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً » و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لبعض نسائه:

مالى أراک شعثاء مرهاء سلتاء(2) قـال عاصم: فلم اقتصـرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن و أكل الجشب؟ قال عليه السّلام: إنّ اللّه افترض على أئمّة العدل أن يقدر ما لأنفسهم بالقوام كيلا يتبيّغ بالفقير فقره، فما قام علىّ عليه السّلام حتّى نزع عاصم العباء و لبس ملائة.

قال الشّارح: و الرّبيع بن زياد هو الذى افتتح بعض خراسان، و أمّا العلاء ابن زياد الّذى ذكره الرّضىّ رحمه اللّه فلا أعرفه لعلّ غيرى يعرفه.

أقول: و يؤيّد ما ذكره الشّارح روايـة الكلينى فانّه روى فى الكافى فى باب سـيرة الامام عن علىّ بن محمّد عن صالح بن أبى حمّاد و عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد و غيرهما بأسانيد مختلفة فى احتجاج أمير المؤمنين على عاصم بن زياد حين لبس العباء و ترک الملاء و شكاه أخوه الرّبيع بن الزّياد إلى أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قـد غمّ أهله و أحزن ولده بذلک فقال أمير المؤمنين: علىّ بعاصم بن زياد، فجىء به فلمّا رآه

1- (1) - اى اسـتعمالها و اظهارهـا و تشـهيرها، بالفعال و هو الشـكر الفعلى أحب إلى اللّه من ابتـذالها بالمقال و هو الشـكر القولى و قد صرّح بعض المحققين إن الشكر الفعلى أقوى دلالة على تعظيم المنعم من الشكر القولى هكذا فى شرح ملا صالح على الكافى م.
2- (2) - فيه انه لعن السلتاء و المرهاء، السلتاء التى لا تختضب و المرهاء التى لا تكتحل نهاية.

عبس فی وجهه فقال له: أما استحییت من أهلک أما رحمت ولدک أ ترى اللّه أحلّ لک الطیبات و هو یکره أخذک منها أنت أهون على اللّه من ذلک أو لیس اللّه یقول «وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ فِیها فاکِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَکْمامِ » أو لیس اللّه یقول «مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ یَلْتَقِیانِ بَیْنَهُما بَرْزَخٌ لا یَبْغِیانِ » إلى قوله «یَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ » فیا للّه لابتذال نعم اللّه بالفعال أحبّ إلیه من ابتذالها بالمقال، و قد قال اللّه عزّ و جلّ «وَ أَمّا بِنِعْمَةِ رَبِّکَ فَحَدِّثْ » فقال عاصم: یا أمیر المؤمنین فعلی ما اقتصرت فی مطعمک على الجشوبة و فی ملبسک على الخشونة؟ فقال: ویحک إنّ اللّه فرض على أئمّة العدل أن یقدروا أنفسهم بضعفة النّاس کیلا یتبیّغ بالفقیر فقره، فألقى عاصم بن زیاد العباء و لبس الملاء اللّهمّ وفّقنا لطاعتک بمحمّد و آله.

تنبیه

اشارة

على مذهب الصوفیة و هدایة

اعلم أنّه قد ظهر لک اجمالا من هذا الکلام لأمیر المؤمنین علیه السّلام الّذی نحن فی شرحه أنّ سلوک نهج العبودیّة بغیر ما قرّره صاحب الشّریعة زیغ و ضلال، و وزر على سالکه و وبال، و أنّه من استهامة الشیطان اللّعین و تسویله و تمویه النّفس و تدلیسه، فأحببت باقتضاء المقام و مناسبته بسط المقال فی هذا المرام و التّنبیه على ضلال أقوام زاغوا عن نهج الرّشاد و نکبوا عن طریق السّداد، و نبذوا أمر اللّه وراء ظهورهم و اشتغلوا بالمجادلات الکلامیّة و الهذیانات الفلسفیّة و أبدعوا عبادات مخترعة، و أعرضوا عن حقایق علوم الدّین و الملّة، و دقایق أسرار الکتاب و السّنّة، و سمّوا أنفسهم بالمتصوّفة و الصّوفیّة.

و قبل الشّروع فی المقصود لا بدّ من تمهید مقدّمة شریفة و هی:

إنّه لا شکّ أنّ الغرض الأصلی و المقصود بالذّات من خلق الانسان هو العبودیّة و العرفان، کما شهد به الکتاب المکنون فی قوله «وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِیَعْبُدُونِ » کما لا شکّ أیضا أنّ المقصود من بعث الأنبیاء و الرّسل و إنزال

الصّحف و الكتب لم يكن إلاّ ذلک أعنى جذب الخلق إلى الحقّ الأوّل عزّ و جلّ و أنّهم عليهم السّلام على كثرتهم و اختلاف شرايعهم لم يكن غرضهم إلاّ شيئا واحدا و هو التّنفير عن الدّنيا و الترغيب إلى العقبى و القطع عن الخلق و الوصل إلى الحقّ و الارشاد و الدّلالة على الصراط المستقيم المؤدّى إليه و المحصّل للقرب و الزّلفى لديه.

فبعثهم اللّه إلى الناس بما شرع لهم من الدّين ليدلّوهم عليه و يعلّموهم كيفيّة السّلوک إليه و لم يخل سبحانه خلقه من نبىّ مرسل أو كتاب منزل أو حجّة لازمة أو محجّة قائمة.

فهم عليهم السّلام أدلاّء سبل الحقّ، و الهادون إليها، و المعلّمون لكيفيّة سلوكها بما أتوا به من الشرائع و الأديان الّتى شرعها اللّه تعالى لطفا منه فى حقّ عباده، و لم يتركهم سبحانه و آراءهم و لم يكلهم فى سلوک سبيله إلى عقولهم الناقصة و أهوائهم المختلفة و آرائهم المتشتّتة، فليس لهم أن يسلكوا طريق عبوديّته بما يستحسنه العقول.

و قد ورد فى أخبار كثيرة أنّ دين اللّه لا يصاب بالعقول، و أنه لا شىء أبعد عن دين اللّه من عقول الرجال.

و لو كانت العقول كافية فى سلوک سبيل العبوديّة لم تكن إلى بعث الأنبياء و الحجج حاجة، كما أنه لو كان ما يرتضيه العقول و يخترعه من العبادات مرضيا عند الربّ مطلوبا له تعالى لم يكن داع إلى جعل الأديان و الشرائع التى شرعها و بعث بها الأنبياء عليهم السّلام كما قال تعالى «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً » و قال و «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصّى بِهِ نُوحاً » فقد علم بذلک أنّ اللازم على العبد إذا أراد أن يعبد اللّه و يتقرّب إليه أن يعبده بالعبادات المجعولة فى الشريعة الموظفة المشروحة فيها ماهيّة و هيئة و كما و كيفا و وقتا و عددا بادابها الموظفة و شرايطها المقرّرة و أركانها و أجزائها المختصّة و سنّتها المعيّنة و غيرهما مما جعله صاحب الشرع و شرعه.

لأنّ المطلوب للحقّ و المقرّب إليه ليس إلاّ و لا يقبل عزّ و جلّ من العبادات إلاّ

ما أرسل به حججه و أنطق به ألسنتهم.

و من ذلک أنّ الشیطان اللعین لما أبی من السجود لادم علیه السّلام الذی کان مأمورا به و مطلوبا له تعالی مع أنه قال: یا ربّ اعفنی من السجود لادم و أنا أعبدک عبادة لم یعبدکها ملک مقرّب و لا نبیّ مرسل، صار مستحقّا للطرد و الابعاد حیث أراد أن یعبد اللّه من غیر الوجه الذی کان مأمورا به، و قد قال اللّه له: لا حاجة لی فی عبادتک إنما ارید أن اعبد من حیث ارید لا من حیث ترید، علی ما مرّ فی روایة علیّ بن إبراهیم عن الصادق علیه السّلام فی أوّل تنبیهات شرح الفصل الحادی عشر من الخطبة الاولی و قد قال تعالی «لَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقی وَ أْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوابِها ».

و اتیان البیوت من الأبواب هو الأخذ بقول الحجج و الرجوع فی سلوک نهج الحقّ إلیهم، کما یدلّ علیه روایة الصافی عن أمیر المؤمنین المتقدّم فی شرح الفصل الرابع من الخطبة الاولی.

و مرّ هنا روایة علیّ بن إبراهیم عن أبی جعفر علیه السّلام أنه قال: ذروة الأمر و سنامه و مفتاحه و باب الأشیاء و رضی الرحمن الطاعة للامام بعد معرفته أما لو أنّ رجلا قام لیله و صام نهاره و تصدّق بجمیع ماله و حجّ جمیع دهره و لم یعرف ولایة ولیّ اللّه فیوالیه و یکون جمیع أعماله بدلالته ما کان له علی اللّه حقّ فی ثوابه.

فحاصل الکلام و ملخّص المرام أنّ العبادة المحصّلة للقرب و الزّلفی هی العبادة المتلقّاة من بیت النبوّة و الولایة، و المعلومة الثبوت فی الکتاب و السّنة فما لم یعلم ثبوتها فیهما مثل ما علم عدم ثبوتها بدعة و ضلالة موجبة لسخط الرّحمن و رضی الشّیطان، مؤدّیة إلی العذاب الألیم و الخزی العظیم.

إلاّ أنّ جماعة من العامّة و الجهّال الخاصّة غفلوا عمّا قرّرناه فی هذه المقدّمة و استبدّوا بعقولهم الفاسدة و آرائهم الکاسدة، و سلکوا السّبیل من غیر دلیل و أضلّهم الشّیطان و ضلّوا عن سواء السّبیل، و مع ذلک یزعمون أنّهم أهل السّلوک و المعرفة و الزّهد و القشف و الرّیاضة

و هم قوم يسمّون بأهل الذّكر و التّصوّف، يدّعون البراءة من التّصنع و التّكلّف، يلبسون خرقا، و يجلسون حلقا، يخترعون الأذكار، و يتغنّون بالأشعار و يغلبون بالتّهليل، و ليس لهم إلى العلم و المعرفة دليل، ابتدعوا شهيقا و نهيقا، و اخترعوا رقصا و تصفيقا، قد خاضوا فى الفتن، و أخذوا بالبدع دون السّنن، رفعوا أصواتا بالنداء، و صاحوا صيحة الشّقاء، أمن الضّرب يتألّمون؟ أم من الطّعن يتظلّمون؟ أم مع أكفائهم يتكلّمون؟ إنّ اللّه لا يسمع بالصّماخ، و لا يحتاج فى سماعه إلى الصّراخ، أ تنادون باعدا؟ أم توقظون راقدا؟ تعالى اللّه لا تأخذه السّنة، و لا تحيط به الألسنة، سبّحوه تسبيح الحيتان فى البحر، و ادعوه تضرّعا و خيفة دون الجهر، إنّه ليس منكم ببعيد، بل هو أقرب إليكم من حبل الوريد.

و أنت إذا عرفت ما مهّدناه فى هذه المقدّمة فاستمع لما يتلى عليك من شرح حال هذه الطايفة و بيان عقايدهم و مذاهبهم و وجه تسميتهم، و ما ورد من العلماء و العترة الطاهرة سلام اللّه عليهم فى طعنهم و الازراء عليهم و تفصيل ذلک فى مقامات.

المقام الاول فى وجه تسميتهم بالصوفية

و ذكروا فيه أقوالا:

الاول و هو الأشهر أنّ اشتقاقها من الصّوف سمّوا بها للبسهم الصّوف فى الصيف و الشتاء، و هذا الوجه هو المستفاد من الأخبار الاتية.

و رووا عن أنس بن مالک أنه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يجيب دعوة العبيد تواضعا، و يركب الحمار غير مستنكف، و يلبس الصوف غير متكلّف.

و قال الحسن البصرى: لقد ادركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف و الشعر و فى رواية الجمهور أيضا عن امامهم البيهقى المشهور نقلا عن عبد اللّه بن مسعود أنه قال: كانت الأنبياء يركبون الحمار، و يلبسون الصوف، و يحلبون الشاة.

و فى البحار من اكمال الدّين باسناده عن الحسين بن مصعب عن الصادق عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: خمس لا أدعهنّ حتى الممات: الأكل

على الحضيض مع العبيد، و ركوبى الحمار موكفا، و حلب العنز بيدى، و لبس الصوف، و التسليم على الصبيان لتكون سنة من بعدى.

و فى بعض كتب أصحابنا و لقد روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطريق أهل البيت عليهم السّلام أنّ عيسى بن مريم كان يلبس الصوف و الشعر، و يأكل من الشجر، و يبيت حيث أمسى.

و عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يوم كلّم اللّه موسى كان عليه جبّة من صوف، و سراويل من صوف، و قلنسوة مدوّرة من صوف، و نعلاه من جلد و يستفاد من هذه الأخبار و غيرها مما لا حاجة إلى ايرادها أنّ لبس الصوف مندوب شرعا و أنه لباس الأنبياء و الأئمة و الصلحاء.

و لكن هذه الطائفة لما كان لبسهم له تكلّفا و تصيّدا و قصدا للاشتهار و اظهارا للفضل كما قال عليه السّلام فى الخطبة الثانية و الثلاثين فى تعديد أصناف الناس: - و منهم من أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه فتحلّى باسم القناعة و تزيّن بلباس أهل الزّهادة و ليس من ذلك فى مراح و لا مغدى - لا جرم كان ذلك موجبا للازراء عليهم.

و يشهد بما ذكرته النبوّى المتقدّم فى شرح قوله عليه السّلام فى المتن: لبس العباء و تخلّى من الدّنيا حيث قال لأبى ذرّ: قوم يلبسون الصوف فى الصيف و الشتاء يرون لهم بذلك الفضل على غيرهم، الحديث.

الثانى أنّه مأخوذ من الصّوف لا بالمعنى المتقدّم بل بمعنى آخر نقلوه عن جنيدهم البغدادى أنه قال: الصوفى مشتقّ من الصوف و الصوف ثلاثة أحرف: صاد و واو وفاء، و الصاد صبر، و صدق، و صفاء، و الواو ودّ، و ورد، و وفاء، و الفاء فرد، و فقر و فناء.

الثالث أنهم سمّوا صوفية نسبة إلى الصفة التى كانت فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يسكنها فقراء المهاجرين، و كانت مسقّفة بجريد النخل و كانوا أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن و لا عشاير يدرسون القرآن باللّيل و يرضحون النوى بالنهار، و يحتطبون على ظهورهم، و يغزون مع كلّ سريّة، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

و أكثر أصحابه يؤانسونهم و يأكلون معهم، و يتعاهدونهم بالمبرّات.

و قد وصل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوما إليهم و شاهد منهم فقرهم و طيب نفوسهم بالشدّة فقال: ابشروا يا أهل الصّفة إنّ من امتى من كان على حالكم و وصفكم و نعتكم التى أنتم عليها انكم و انهم رفقائى فى الجنّة.

و قد رتّبهم أبو نعيم الحافظ فى حليته على ترتيب حروف المعجم ذكر من مشاهيرهم سلمان و أبا ذر و عمار و صهيب و بلال و أبا هريرة و خباب بن الارت و حذيفة ابن اليمان و أبا سعيد الخدرى و بشر بن الخصاصية و أبا مويهبة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان هؤلاء أزهدهم و أعملهم بالكتاب و السنة فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنهم يلبسون الصوف و يخيطون ثيابهم بالأغصان الدّقيقة من الشجر.

و نقل فى وصفهم: أنهم كانوا أضياف الاسلام إلاّ أنّ بعضهم زلت قدمه بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ركن إلى الدّنيا و مال إلى حطامها كأبى هريرة و صهيب، و الذين ثبتت قدمهم فى الفقر و الزّهد سلمان و أبو ذر و حذيفة و بلال و أبو سعيد، فانهم كانوا من السابقين الرّاجعين إلى أمير المؤمنين عليه السّلام و كانوا يسمّون بالشيعة قال أمين الاسلام الطبرسىّ فى قوله تعالى «وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» إنّ الاية نزلت فى سلمان و أبى ذر و صهيب و غيرهم من فقراء أصحاب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ذلک إنّ المؤلفة قلوبهم جاءوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عينية بن الحصين و الأقرع ابن حابس و ذووهم فقالوا: يا رسول اللّه إن جلست فى صدر المجلس و نحّيت عنّا هؤلاء و أرواح ضئنانهم(1) - و كانت عليهم جبات الصوف - جلسنا نحن إليک و أخذنا عنک فلا يمنعنا من الدخول إلاّ هؤلاء، فلما نزلت الاية قام النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يلتمسهم فأصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون اللّه عزّ و جلّ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الحمد للّه الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من امتى معكم المحيا و الممات، انتهى.

1- (1) - فانّ بعضهم يعرق فى ثوبه فيوجد منه ريح الضأن، منه

و الحاصل أنّ الصوفية على زعمهم و ادّعائهم لما شاكلت حالهم حال أهل الصفة لكونهم مجتمعين متألّفين مصاحبين للّه و فى اللّه قديما و حديثا فى الرّبط و الزّوايا قيل لهم: صوفيّة، و هذا و إن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللّغوى إلاّ أن يراعى فيه الخفّة على اللّسان، و لا بأس به من حيث المعنى.

الرابع أنّ هذه النسبة إلى صوفة كما يقال: الكوفى للمنتسب إلى كوفة، و بنى صوفة جماعة من العرب كانوا يتزهّدون و يتقلّلون من الدّنيا، فنسب هذه الطايفة إليهم، و فى القاموس صوفة أبو حىّ من مضر، و هو الغوث بن مرّ بن ارّ بن طابخة كانوا يخدمون الكعبة و يجيزون الحاجّ فى الجاهلية أى يفيضون بهم من عرفات، أوهم قوم من أفناء القبائل تجمّعوا فتشبّكوا كتشبّک الصّوفة، و كذا فى الصحاح و غيره من كتب اللّغة.

المقام الثانى

فى ابتداء ظهور هذه الطايفة على اختلاف

الاقوال و الروايات

فأقول: قال المحدّث الجزايرىّ: إنّ هذا الاسم و هو التّصوّف كان مستعملا فى فرقة من الحكماء الزّايغين عن طريق الحق، ثمّ قد استعمل بعدهم فى جماعة من الزنادقة أى من الهنود و البراهمة، و بعد مجىء الاسلام استعمل فى جماعة من أهل الخلاف كالحسن البصرى و سفيان الثّورى و أبى هاشم الكوفى و نحوهم، و قد كانوا فى طرف من الخلاف مع الأئمة عليهم السّلام، فانّ هؤلاء المذكورين قد عارضوا الأئمة و باحثوهم و أرادوا إطفاء نور اللّه بأفواههم و اللّه متمّ نوره و لو كره الكافرون إلى أن قال: و قد استمرّ الحال إلى هذه الأعصار و ما قاربها.

ثمّ إنّ جماعة من علماء الشّيعة طالعوا كتبهم و اطلعوا على مذاهبهم فرأوا فيها بعض الرّخص و المسامحات مثل قولهم، بأنّ الغناء المحرّم هو الذى يستعمل فى مجالس أهل الشرب و أهل الفسوق، فأباحوا أفراد الغناء و أنواعه لمتابعيهم و كانوا

من أهل العلم و الناس يميلون إلى من يسهل إليهم مثل هذه الامور التى كان للنفس منها التذاذ، و كتركهم التزويج و إقبالهم على الغلمان الحسان، و العجب من بعض الشّيعة كيف مال إلى هذه الطريقة مع اطلاعه على أنّها مخالفة لطريقة أهل البيت اعتقادا و أعمالا.

و قال أيضا: و الدّواعى لهم على اختراع هذا المذهب امور:

الأوّل ما نقل أنّ خلفاء بنى اميّة و بنى العبّاس لعنهم اللّه كانوا يحبّون أن يحصّلوا رجالا من أهل العبادة و الزّهادة و التكلّم ببعض المغيبات و إن لم يقع، لأجل معارضات الأئمة الطاهرين عليهم السّلام و علمهم و زهدهم و كمالاتهم حتى يصغروا أهل البيت و أطوارهم فى أعين النّاس، فلم يجدوا أحدا يقدم على هذا سوى هذه الفرقة الضّالّة، فمن هذا مال إليهم سلاطين الجور لعنهم اللّه و بنوا لهم البقاع و حملوا اليهم الأموال و طلبوا منهم الدّعاء فى مطالب دنياهم و قاسوهم بأهل البيت عليهم السّلام، و أين الثّريا من يد المتناول.

الثانى سهولة هذا المسلك و صعوبة طريق العلم، فانّ العامى منهم قد يجلس فى بيت ضيق مظلم أربعين يوما، و ربّما ترائى له إخوانه من الجنّ و الشّياطين فاذا خرج صار من رؤسائهم و حصل له درجة العالم الذى يحصّلها فى خمسين سنة و أكثر، بل ربما كان اعتبار هذا بين رعاع النّاس أزيد من اعتبار ذلك العالم.

الثالث أنّ هذا المذهب شرك لصيد الأولاد و جمع الأموال و الجاه و الاعتبار و نحو ذلك.

و قال أبو القاسم القشرىّ الصّوفى العامى فى محكىّ كلامه من رسالته المعروفة بالقشرية:

اعلموا رحمكم اللّه أنّ المسلمين بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يتسمّ أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم: الصحابة و لمّا ادرك أهل العصر الثانى سمّى من صحب الصّحابة التّابعين و رأوا ذلك أشرف سمة، ثمّ قيل لمن بعدهم أتباع التّابعين، ثمّ اختلف الناس و تباينت المراتب

فقيل لخواصّ الناس ممّن لهم شـدّة عناية بأمر الدّين: الزهاد و العبّاد، ثمّ ظهرت البدع و حصل التّداعى بين الفرق فكلّ فريق ادّعى أنّ فيهم زهادا فانفردوا خواصّ أهل الشّريعة المراعون أنفسهم مع اللّه الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التّصوّف، و اشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المأتين من الهجرة، انتهى.

و من كتاب نفحات الانس انّ أوّل من اخترع له هذا الاسم أبو هاشم الكوفى الشّامى الصّوفى المعاصر مع السّفيان الثّورى.

و فى كتاب حديقة الشّيعة أنّه كان يلبس ثيابا خشنة من الصوف كالرّهبان و يقول بالحلول و الاتّحاد لنفسه كالنّصارى فى عيسى عليه السّلام، و كان فى الظّاهر أمويّا جبريّا، و فى الباطن ملحـدا دهريا، و الطائفـة التى ينتسب إليه باعتبار لباسه تسـمى صوفية سواء لبست الصوف أو لم تلبس، و بهشميّة و أبو هاشميّة باعتبار كنيته و عثمانيّة و شريكيّة لأنّ اسمه و اسم أبيه عثمان بن شريک.

قال فى حديقـة الشـيعة: و كان غرض هـذا الملعون من وضع مـذهب التصوّف هـدم مذهب الاسـلام، و قد ورد من الأئمة عليهم السّلام أحاديث فى طعنه.

و لمّا رأى سـفيان الثورى طريقته استحسـنه و أضاف إليه الرّؤية و الصورة و التشبيه و التجسيم و وسّع دائرة التصوّف، فنسبت هذه الفرقة إليه، فقالوا: ثوريـة و سـفيانية ثمّ نسـبت إلى أبى يزيد البسـطامى فسـمّيت باليزيديّة و البسـطاميّة، ثمّ بملاحظة قولهم بالحلول و الاتحاد سـمّيت حلوليّـة و اتّحاديّـة، ثمّ لمّا بالغ بعضـهم فى الاتّحاد و قال بوحـدة الوجود سـمّيت وحدتيـة، و نسـبت إلى حسـين بن منصور الحلاّج فقيل منصوريّـة و حلاجية، و بملاحظة غلوّهم فى المشايخ و زعمهم حلول الحقّ فيهم قيل لهم: غالية و غاوية، و لمكرهم و خديعتهم و تفتينهم للنّاس قيل لهم: زرّاقيّة و خدّاعيّة.

و لمّا اخترعوا مذهبا متضـمّنا للرّهبانية و النصـرانية و الكفر و الاسـلام سمّاهم الأئمة عليهم السّلام مبتدعة، و لكونهم من أهل الرّياء سمّوا مرائية، و لوضعهم التصوّف سماهم العلماء بالمتصوّفة، و لكثرة صلفهم سمّوا بالمتصلّفة، و لهم أسماء اخر و اشهر

ألقابهم و أسـمائهم الصوفيـة و المتصوّفـة و المتصـلّفة و المبتدعـة و الزرّاقية و الغلات و الغالية و الحلاجية انتهى كلامه رفع اللّه مقامه فى أعلى عليّين مع الذّين أنعم عليهم بنعمة الايمان و ألبسهم لباس الكرامة و الشرف.

المقام الثالث

فى عقايدهم الفاسدة و اعمالهم الباطلة.

و قـد حقّقنا عقايـدهم الفاسـدة و بيّنا أعمالهم الباطلة إنشاء اللّه و ثبّتنا أنّ عقايدهم مخالفة للشـريعة الطاهرة بالدّلائل العقلية و النقلية بعون اللّه الملک المتعال.

أما العقائد

:

فمنها

اعتقادهم بالحلول و الاتّحاد

، و قـد نسب أكثر المتكلّمين من الفريقين و غيرهم فى مبحثى الحلول و الاتّحاد من كتبهم الكلامية هاتين النسـبتين إلى هذه الفرقة الضالة خذلهم اللّه تعالى.

قال المحقّق الطوسى فى رسالته الموسومة بقواعد العقائد:

و منها أى من الصفات السلبيّة أنه تعالى لا يمكن أن يكون فى جهة أو حين أو محلّ لاحتياج ما يكون كذلک إلى الحيّز و المحلّ، و كذلک لا يمكن أن يشار إليه اشارة حسّـية، و خالفت المشـبّهة و المجسّـمة فى ذلک إذ قالوا فى جهة فوق أو جسم لا كغيره من الأجسام، و ذهب بعض الصوفية إلى جواز حلوله فى قلوب أوليائه و لعلّ مرادهم غير ما يعنى به من حلول الأعراض فى محلّها، انتهى.

و قال العلامة فى شرح هذه الرسالة الموسوم بكشف الفوايد:

ذهب المحقّقون إلى أنه تعـالى لاـ يمكن أن يكون فى جهـة أو محاذاة و لا فى حيّز و مكان و لا فى محلّ يحلّ فيه حلول العرض فى محلّه، لأنّ كلّ ما كان كذلک كان مفتقرا إلى الجهة و الحيّز و المحلّ بالضرورة لاستحالة حلول الغنىّ عن المحلّ فيه و الاحتياج ينافى الوجوب، و هذا المعنى لا يمكن أن يشار إليه إشارة حسّية

بأنه هنا أو هناک، لتوقف ذلک علی الحصول فی الحیّز و الجهـة و المحلّ، و خالفت المجسّـمة و المشـبّهة فی ذلک فقالوا: إنّ اللّه فی جهة فوق و انه جسم لاـ کالأجسـام و قـد تقـدّم بطلاـنه و قـال بعض الصوفیّـة: بـأنّه تعالی حالّ فی قلوب العارفین، فان عنوا به حلول العرض فی المحلّ فهو باطل بما تقدّم، و إن عنوا به شیئا آخر فلا بدّ من بیانه.

و قال المحقّق الطوسی فی تلک الرّسالة:

و لا یجوز علیه الاتّحاد و هو صـیرورة الشّـیئین شـیئا واحـدا، بأن ینتفی أحـدهما و یبقی الاخر أو ینتفیا معا و یحدث شـیء آخر، فانّ ذلک محال عقلا، و قال قوم من القدماء: کلّ من تعقل شـیئا تعقّلا تاما اتّحد بمعقوله ذلک، و إلیه ذهب جمع من الصوفیّة، و ذلک بالمعنی الذی ذکرناه غیر معقول.

و قال العلامة فی الشرح:

الاتّحاد یطلق علی صـیرورة شـیئین شـیئا آخر، بأن یعـدم عن الأوّل شـیء و یحـدث فیه آخر کما یقال: صار الماء هواء، فانّ الصورة المائیّة زالت و اتّصفت بالصورة الهوائیة أو بأن یمتزج شیئان و یحدث صورة ثالثة مغایرة للأوّل کما یقال صار الخشب سریرا، و هذان ممکنان لکن اطلاـق الاتّحاد علیهما بنوع من المجاز، و هـذا المعنی و إن کان ممکنا فی حقّ غیره تعالی إلاّ أنّه یسـتحیل فی حقّه أیضا لاسـتحالة انفعاله عن الغیر و صیرورته جزءا من غیره.

و أمّا الاتّحاد الحقیقی و هو صـیرورة الشـیئین شـیئا واحـدا لا بأحد المعنیین بل بأن ینتفی الذّاتان و یتّحد إحداهما بالاخری فهذا ضـروریّ البطلان.

فانّ الشـیئین إن بقیا بعد الاتّحاد بحالهما فهما اثنان، و إن عدم أحدهما فلا اتّحاد لاستحالة اتّحاد المعدوم بالموجود، و إن عدما معا و وجد ثالث فلا اتّحاد بل اعـدام شـیء و ایجاد آخر و ذهب فرفوریوس بعد المعلّم الأوّل إلی أنّ من عقل شـیئا اتّحدت ذاته بذلک المعقول، و إلیه ذهب الرئیس فی المبـدأ و المعاد، لأنّ الصورة العقلیّة اذا حلت الجوهر العاقل بالقوّة صـیّرته عقلا بالفعل و إنّما یکون کذلک مع الاتّحاد و إلاّ

لكان ما هو بالقوّة بعد بالقوّة و الملازمة ممنوعة.

ثمّ لو اتّحد العاقل بمعقوله لزم أن لا يعقل إلاّ شيئا واحدا أو يتّحد الذوات المعقولة فى أنفسها أيضا و قوم من الصّوفيّة إنّ اللّه تعالى يتّحد بأبدان العارفين و الكلّ غير معقول بالمعنى الذى ذكرناه.

و قال الفاضل المقداد فى شرحه على الباب الحادى عشر:

قال: أى العلاّمة «قد»: و لا يجوز أن يكون فى محلّ و الاّ افتقر إليه و لا فى جهة و إلاّ لافتقر إليها.

أقول: هذان وصفان سلبيّان، الأوّل إنّه ليس فى محلّ خلافا للنّصارى و جمع من المتصوّفة و المعقول من الحلول هو قيام موجود بموجود على سبيل التّبعيّة، فان أرادوا هذا المعنى فهو باطل، و الاّ لزم افتقار الواجب و هو محال، و ان أرادوا غيره فلابدّ من تصوّره أوّلا ثمّ الحكم عليه بالنّفى و الاثبات، انتهى ما أهمّنا نقله.

و قال أيضا فى شرح قول العلاّمة «قد» و لا يتّحد بغيره لامتناع الاتّحاد مطلقا.

أقول: الاتّحاد يقال على معنيين: مجازىّ و حقيقىّ، أمّا المجازى فهو صيرورة الشىء شيئا آخر بالكون و الفساد، إمّا من غير إضافة شىء آخر كقولهم صار الماء هواء و صار الهواء ماء، أو مع إضافة شىء آخر كما يقال صار التّراب طينا بانضياف الماء إليه، و أمّا الحقيقى فهو صيرورة الشيئين الموجودين شيئا واحدا موجودا.

إذا تقرّر هذا فاعلم أنّ الأوّل مستحيل عليه تعالى قطعا لاستحالة الكون و الفساد عليه، و أمّا الثانى فقد قال بعض النّصارى إنّه اتّحد بالمسيح فانّهم قالوا اتّحدت(1) لاهوتيّة البارى مع ناسوتيّة عيسى، و قال النّصيريّة: إنّه اتّحد بعلى عليه السّلام و قال بعض المتصوّفة: انّه اتّحد بالعارفين، فان عنوا غير ما ذكرناه فلا بدّ من تصوّره أوّلا ثمّ يحكم عليه، و إن عنوا ما ذكرناه فهو باطل قطعا لأنّ

1- (1) - و اليه ذهب أيضا محى الدين الملحد حسبما تعرفه فيما يأتى انشاء اللّه، منه.

الاتّحاد مستحيل فى نفسه فيستحيل اثباته لغيره، و أمّا استحالته فهو انّ المتحدين بعد اتّحادهما إن بقيا موجودين فلا اتّحاد، لأنّهما اثنان لا واحد، و إن عدما معا فلا اتّحاد بل وجد ثالث، و إن عدم أحدهما بقى الاخر فلا اتّحاد أيضا لأنّ المعدوم لا يتّحد بالموجود.

و قال الشيخ المفيد «قد» فى شرح عقايد الصدوق:

الحلاجيّة حزب من أصحاب التّصوّف و هم أصحاب الاباحة و القول بالحلول، و لم يكن الحلاج يتخصّص باظهار التّشيع و إن كان ظاهر أمره التصوّف، و هم قوم ملحدة زنادقة يموّهون بمظاهرة كلّ فرقة بدينهم و يدعون للحلاج الأباطيل و يجرون فى ذلک مجرى المجوس و دعويهم لذردشت المعجزات و مجرى النصارى فى دعويهم لرهبانهم الايات البيّنات، و النصارى و المجوس أقرب إلى العبادات منهم و هم أبعد من الشرائع و العمل بها من النّصارى و المجوس.

و قال الشارح القوشجى فى شرح الهيّات التجريد:

ذهب بعض المتصوّفة إلى أنّه تعالى يحلّ فى العارفين و النصارى إلى حلوله فى عيسى، فان أرادوا بالحلول هذا المعنى فباطل، و إن أرادوا أنّه غير ذلک فلا يمكن نفيه أو إثباته إلاّ بعد تصوّر ما هو المراد.

و قال الشارح البحرانى فى كتاب قواعد العقائد له:

انّه تعالى لا يتّحد بغيره، خلافا للنّصارى و بعض الحكماء السابقين و بعض المتصوّفة.

لنا أنّ المراد من الاتّحاد إن كان صيرورة الشيئين شيئا واحدا كما هو المفهوم من لفظه فهو باطل، لأنّ المتّحدين إن بقيا موجودين فلا اتّحاد، و إن عدما معا فالموجود غيرهما فلا اتّحاد أيضا، و إن عدم أحدهما دون الاخر فلا اتّحاد إذ المعدوم لا يتّحد بالموجود، و إن أرادوا به معنى آخر فلا بدّ من إفادة تصوّره لننظر فيه.

و قال شارح الطوالع:

حكى القول بالاتّحاد و الحلول عن النصارى و جمع من المتصوّفة، فانّه حكى عن النصارى أنّهم قالوا: اتّحدت الأقانيم الأب و الابن و روح القدس و اتّحدت ناسوت المسيح و اللاّهوت و حلّ البارى فى عيسى، و حكى عن جمع من المتصوّفة أنّهم قالوا: إذا انتهى العارف نهاية مراتبه انتهى هويّته و صار الموجود هو اللّه سبحانه، و هذه المرتبة هى الفناء فى التّوحيد، و قالوا: إنّ اللّه تعالى يحلّ فى العارفين، فان أرادوا بالاتّحاد و الحلول ما ذكرناه فقد بان فساده، و إن أرادوا به غيره لا بدّ من تصوّره أوّلا ليتأتى التصديق به نفيا أو اثباتا، فانّه لا يمكن نفيه و اثباته إلاّ بعد تصوّر ما هو المراد.

و قال المحدّث العلامة المجلسىّ فى عقايده:

و القول بحلوله تعالى فى غيره كما قال بعض الصوفيّة و الغلاة، أو اتّحاده مع غيره كما قاله بعض الصّوفيّة، أو انّ له تعالى صاحبة أو ولدا أو شريكا كما قاله النصارى، أو أنّه تعالى جسم أو أنّ له مكانا كالعرش و غيره، أو جزءا أو عضوا فكلّ ذلک كفر إلى غير ذلک ممّا حكوه عنهم و شنّعوا عليهم.

ثمّ لمّا رأى المتأخّرون منهم فساد ما قاله متقدّموهم و بطلانه و شناعته وجّهوا كلامهم بأنّ مرادهم به وحدة الوجود لا الاتّحاد و الحلول، و هو من قبيل دفع الفاسد بالأفسد و توجيه الشنيع بالأشنع.

و قال صاحب الشوارق فيه:

قد اشتهر من مشايخ الصوفيّة القول بوحدة الوجود و أنّ الوجودات بل الموجودات ليست بمتكثّرة فى الحقيقة بل هناک موجود واحد قد تعدّدت شئونه و تكثرت أطواره ثمّ قال: و لمّا كان ذلک بحسب الظاهر و بالمعنى المتبادر مخالفا لما يحكم به بديهة العقل من تكثّر الموجودات بالحقيقة لا بمجرّد الاعتبار تصدّى كثير من المحقّقين لتوجيه كلامهم، انتهى.

و قال القيصرى فى شرح الفصوص لمحيى الدين:

حقيقة الوجود إذا اخذت بشرط أن لا يكون معها شىء فهى المسمّاة عند

الصوفيّة بالمرتبة الأحدية المستهلكة جميع الأسماء و الصفات فيها، و يسمّى جمع الجمع و حقيقة الحقائق و العماء أيضا، و إذا اخذت بشرط شيء، فامّا أن يؤخذ بشرط جميع الأشياء اللازمة لها كليّها و جزئيها المسمّاة بالأسماء و الصفات فهى المرتبة الالهيّة المسماة عندهم بالواحديّة و مقام الجمع، و هذه المرتبة باعتبار ايصال مظاهر الأسماء الّتى هى الأعيان و الحقائق إلى كمالاتها المناسبة لاستعداداتها فى الخارج تسمّى مرتبة الرّبوبية، و إذا اخذت لا بشرط شيء آخر و لا بشرط لا شيء فهى المسماة بالهويّة السّارية فى جميع الموجودات، و إذا اخذت بشرط ثبوت الصور العلميّة فيها فهى مرتبة الاسم الباطن المطلق و الأوّل و العليم و ربّ الأعيان الثابتة - إلى أن قال - و اذا أخذت بشرط الصّور الحسّية العينيّة فهى مرتبة الاسم المصوّر و ربّ العالم الخيال المطلق و المقيّد. و إذا أخذت بشرط الصور الحسيّة الشهادتيّة فهى مرتبة الاسم الظاهر المطلق و الاخر و ربّ عالم الملک، و مرتبة الانسان الكامل عبارة عن جميع المراتب الالهيّة و الكونيّة من العقول و النفوس الكليّة و الجزئية و مراتب الطبيعة إلى آخر تنزلات الوجود، و يسمّى بالمرتبة العمائية أيضا فهى المضاهية للمرتبة الالهيّة، و لا فرق بينهما إلاّ بالرّبوبيّة و المربوبية، و لذلک صار خليفة اللّه، و إذا علمت هذا علمت الفرق بين المراتب الالهية و الرّبوبية و الكونية، انتهى.

و قال صاحب الشوارق فى گوهر مراد فى الفصل الذى ساقه لبيان كيفيّة صدور المعلول من العلّة ما محصله:

إنّ الصوفية قالوا إنّ صدور المعلول من العلّة عبارة عن تنزّل العلة بمرتبة وجود المعلول و تطورها بطور المعلول و من هنا تفطنوا بوحدة الوجود بمعنى أنّ الوجود حقيقة واحدة سارية فى جميع الموجودات، و ليست مهيات الممكنات إلاّ امورا اعتبارية و الموجودات بأسرها مظاهر تلک الحقيقة الواحدة بحيث لا يلزم الاتّحاد و الحلول، لأنهما فرع الاثنينيّة و لا موجود إلاّ واحد.

قال: و فهم هذا المعنى بغاية الاشكال لأنهم ادعوا أنّ فهم ذلک لا يتيسّر

بالعقول المتعارفة بل بالرياضة و المجاهدة و بطور وراء طور العقل، و هو فناء السالک فی سلوکه من نفسه و عقله و من جميع المعقولات و الموهومات فضلا عن المحسوسات و قصره همته فی التوجّه الی الحقّ و ذکره له بلسانه و قلبه بحيث لا يخطر بقلبه سواه و لا يبقی فی قلبه غيره حتی يغيب عن نفسه حال ملاحظته لجلال اللّه، و إن لاحظها فمن حيث هی لاحظه لا من حيث هی مزّينة بزينة الحقّ، بل لا يکون الذّکر أيضا ملحوظا فضلا عن الذّاکر.

قال: و إذا داوم السّالک علی ذلک يفيض عليه نور من أنوار الالهيّة يشاهد به حقايق الأشياء علی ما هی عليها کما يشاهد المحسوسات بحسّ البصر.

قال: و نحن اعتقدنا بامکان صدق هذه الدّعوی بحسن ظنّنا بالسلف، و ليس المراد بهذا النّور المذکور نور يفاض عليه من الخارج، بل نور مودع فی نفس الانسان ذواته، و الغرض من الرّياضة و المجاهدة تصفيته و تجليته من الأکدار الطبيعية و الحسيّة و الخيالية و الوهميّة، و إذا حصلت التصفية و التّجلية بالرّياضات العلمية و العملية و الاعتقاد بالعقايد الحقّة صار هذا النّور من القوّة إلی الفعل، و يری به الأشياء و يشاهدها بعين اليقين، اللّهم بلّغنا إلی ذلک المقام العالی باخراجنا عن هذا المنزل الفانی البالی، انتهی ما أهمّنا نقله من کلامه.

و قد سلک هذا المسلک صدر المتألهين و صرّح به فی کتبه الکلاميّة و غيرها فی موارد کثيرة.

قال فی الفصل الأوّل من إلهيّات الأسفار الذی ساقه لاثبات وجود الواجب تعالی و الوصول إلی معرفة ذاته ما هذه عبارته:

اعلم أنّ الطرق إلی اللّه کثيرة لکن بعضها أوثق و أشرف و أنور من بعض، و أسدّ البراهين و أشرفها هو الذی لا يکون الوسط فی البرهان غيره بالحقيقة، فيکون الطريق إلی المقصود هو عين المقصود، و هذه سبيل الصديقين الذين يستشهدون بذاته علی صفاته و بصفاته علی أفعاله واحدا بعد واحد.

و ذلک لأنّ الرّبانيّين ينظرون إلی الوجود و يحقّقونه و يعلمون أنّه أصل

كلّ شـىء ثمّ يصلون بالنظر إليه إلى أنّه بحسب حقيقته واجب الوجود، و أمّا الامكان و الحاجة و المعلوليّة و غير ذلک فانّما يلحقه لا لأجل حقيقته بل لأجل نقايص و اعـدام خارجـة عن أصل حقيقته، ثمّ بالنظر فيما يلزم الوجوب و الامكان يصـلون إلى توحيد ذاته و صـفاته و من صفاته إلى كيفيّة أفعاله.

و تقريره أنّ الوجود كما مرّ حقيقـة عينيّة واحدة بسـيطة لا اختلاف بين أفرادها لذاتها إلاّ بالكمال و النقص و الشدّة و الضّعف أو بامور زايدة كما فى أفراد ماهيّـة نوعيّـة و غايـة كمالها ما لا أتمّ منه و هو الذى لا يكون متعلقا بغيره و لا يتصوّر ما هو أتمّ منه، إذ كلّ ناقص متعلّق بغيره مفتقر إلى اتمامه.

فاذن الوجود إمّا مستغن عن غيره، و إمّا مفتقر لذاته إلى غيره، و الأوّل هو واجب الوجود و هو صرف الوجود الذى لا أتمّ منه و لا يشوبه عدم و لا ـ نقص، و الثـانى هو مـا سواه من أفعاله و آثاره و لا قوام لما سواه إلاّ به لما مرّ أنّ حقيقـة الوجود لا نقص لها و إنما يلحقه النقص لأجل المعلوليّـة، و قـد مرّ أنّ الوجود إذا كان معلولا كان مجعولا بنفسـه(1) جعلاـ بسـيطا و كان بـذاته مفتقرا إلى جاعل، و هو متعلق الجوهر و الذّات بجاعله.

فإذن قـد ثبت و اتّضـح أنّ الوجود إمّا تام الحقيقـة واجب الهويّـة، و إمّا مفتقر الذّات إليه متعلق الجوهرية، و على أىّ القسـمين ثبت و تبيّن وجود واجب الوجود غنىّ الهوية عمّا سواه – إلى أن قال بعد جملة من النقص و الابرام:

فاذن حقيقة الوجود فى كلّ موجود بحسـبه و أمّا الوحدة الّتى تجمع الكل فهى ليست نوعيّة و لا جنسـية بل ضـربا آخر من الوحدة لا يعرفها إلاّ الكاملون.

و قال فى شرح الكافى فى شرح الحديث الأوّل من باب جوامع التوحيد:

«توحيد عرشى» اعلم أنّ ذاته تعالى حقيقة الوجود بلا حدّ، و حقيقة الوجود لا يشوبه عدم، فلا بدّ أن يكون بها وجود كلّ الأشياء و أن يكون هو وجود الأشـياء كلّها، إذ لو كانت تلک الذّات وجود الشـىء بعينه أو الأشـياء بعينها و لـم تكن لشىء آخر أو لأشياء اخرى لـم يكن حقيقة الوجود

1- (1) – اى لا بالعرض و التبعية للماهية كما أنّ المهية مجعولة بواسطة و تبعيّة، منه.

و قد فرضناها حقيقة الوجود أو حقيقة الشيء و صرفه لا يتعدّد كالانسان مثلا فانه لا يمكن أن يتعدّد من حيث هو انسان، و ليس التعدّد فى زيد و عمر إلاّ بأمر خارج عن حقيقة الانسانية فحقيقة الوجود لا يتعدّد إلاّ بشيء خارج، و لكن الخارج ليس إلاّ العدم إذ المعانى و المهيّات تابعة للوجود و العدم ليس بشيء ثابت فثبت أن لا تعدّد فى الوجود إلاّ من جهة الاعدام و النقائص.

فاذن لمّا كان واجب الوجود محض حقيقة الوجود الصرف الذى لا أتم منه فلا خارج عنه إلاّ النقائص العدميّة و الاعدام فهو كلّ الذّوات و لا يشذّ عنه شيء من الموجودات من حيث كونه موجودا بل من حيث كونه ناقصا أو معدوما.

و قال فى شرح الحديث الأوّل من باب أدنى المعرفة:

اعلم أنّ للتوحيد و ساير معارف الايمان أربع درجات كقشر الجوز، و قشر قشره، و لبّه، و لبّ لبّه.

الدّرجة الاولى أن يقول باللسان: لا إله إلاّ اللّه و قلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافق و الثانية أن يصدّق بمعنى اللفظ قلبه كما يصدّق به عموم المسلمين و هو اعتقاد و ليس بعرفان.

و الثالثة أن يعرف ذلک بطريق الكشف بالبرهان بواسطة نور الحقّ و هو مقام المقرّبين، و ذلک بأن يرى أشياء كثيرة و لكن يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار الرّابعة أن لا يرى فى الوجود إلاّ واحدا و هو مشاهدة الصدّيقين و تسمّيه الصوفيّة بالفناء فى التوحيد.

فالأوّل موحّد باللسان و يعصم ذلک صاحبه عن السيف و السنان.

و الثانى موحّد بمعنى أنّه معتقد بقلبه.

و الثالث موحّد بمعنى أنّه لم يشاهد إلاّ مؤثّرا واحدا و يرى أنّه لا فاعل بالحقيقة إلاّ واحد، و الوسايط مترتّبة فى القرب و البعد منه تعالى لصدورها منه

على التّرتيب الضرورى لا لكونها علل الايجاد بخلاف ما عليه الأشاعرة.

و الرّابع موحّد بمعنى أنّه لم يحضر فى شهوده غير الواحد الحقّ فلا يرى الكلّ من حيث هو كثير بل من حيث هو واحد، لأنّ المهيّات المختلفة لا وجود لها إلاّ بالوجود، و الوجود بذاته موجود و له حقيقة واحدة متفاوتة الدّرجات و المقامات و لكلّ مقام خواص و لوازم ينتزع منه و يصدق عليه و هى المسمّاة بالمهيّات و الأعيان الثابتة الّتى ما شمّت رائحة الوجود، و لا هى مجعولة و كذا الأعدام و النقائص لا يتعلق بها جعل و تأثير، إذ لا وجود لها فالحقيقة على صرافة وحدتها الذّاتيّة الّتى لا مثل لها و لا شبه و لا ندّ و لا ضدّ، إذ ليست هذه الوحدة وحدة عدديّة يحصل بتكرّرها العدد، سواء كان فى العين أو فى الذّهن، و لا جنسيّة و لا نوعيّة و لا مقداريّة و لا غير ذلک من أقسام الوحدات.

فهذا هو الغاية القصوى فى التوحيد و إن كانت الأذهان قاصرة عن إدراكها و لكن لا أقلّ من التسليم و عدم التلقّى بالجحود و الانكار، و اللّه ذو الفضل العظيم.

و قال فى شرح الحديث الخامس من باب حدوث العالم:

إنّ مهيّته تعالى إنيّته بمعنى أن لا مهيّة له سوى الحقيقة المحضة و الانّية البحتة و الوجود الصرف الذى لا يشوبه عدم و لا عموم و لا خصوص فاليه الاشارة بقوله عليه السّلام: شىء بخلاف الأشياء.

لأنّ كلّ ما سوى حقيقة الوجود له مهيّة خاصّة يعرضها عدم و قصور يلحقها كليّة و جزئية، و كلّ منها يسلب عنها أشياء كثيرة وجوديّة، فهذا جسم و هذه صورة، و هذا فلک و هذا انسان، فما هو فلک ليس بانسان، و ما هو جسم ليس بعقل و ما هى صورة ليست بمادّة.

و هذا بخلاف ذاته تعالى إذ هو كلّ الوجود و كلّه الوجود و ما من شىء إلاّ و هو ذاته أو تبع و رشح لذاته، و ما فى الوجود إلاّ ذاته و صفاته و أفعاله.

و قال فى شرح الحديث الرّابع من باب اطلاق القول بأنّه شىء:

و نسبة جميع الأشياء إليه تعالى نسبة ساير الأضواء و ظلالها إلى ضوء

الشـمس الّـذى به يضـىء كـلّ شـىء و هو مسـتغن عن غيره لو كـان لضوئها قيام بنفسه و لكنّه يغاير الأوّل تعالى بأنّ الضوء فيها يحتاج إلى موضوع و هو محسوس، و الوجود الأـوّل لاـ موضوع له و لاـ محسوس، بل معقول لـذاته و عاقل و عقل لـذاته و لما سواه من الأنوار العقلية القـاهرة و المـدبّرة و سـاير الصّور و الأـجرام و عوارضـها و الوجودات الفايضـة منه كالأـنوار و المهيّـات التابعـة لهـا كالظلاـل و الأجسام كالظلمات، و للّه المثل الأعلى فى السماوات. إلى غير ذلک ممّا لا نطيل بنقله.

و قال بعضهم:

كلّما فى الكون وهم أو خيال أو عكوس فى المرايا أو ظلال

و قال عامر بن عامر البصـرى و هو من صوفيّة الشـيعة كما فى مجالس المؤمنين فى مفتتح قصيدته الّتى سماها ذات الأنوار فى معنى الوحدة الصرفة:

إنّ ذلک ليس بحلول كما ظنّه بعض المتوّهمين، و ذلک لأنّ الحلول يقتضى وجود شيئين أحدهما حالّ و الثانى محلّ، و ليس الأمر كذلک عنـد فحول المتوحّـدين، بـل عنـدهم أنّ الواحـد المطلق من كـلّ الوجوه لاـ يبقى سواه، و هو ظاهر بالكلّ للكلّ، و لكلّ فرد من أفراد كثرته الدّاخلة فى حقيقة وحدته نصيب من عين تلک الوحدة، و لا خروج له عنها و لا انعدام يطرى على شىء ثمّ شرع فى القصيدة المسمّاة بذات الأنوار و قال فى مطلعها:

تجلّى لى المحبوب فى كلّ وجهة فشاهدته فى كلّ معنى و صورة

و خاطبنى منى بكشف السرائر تعالت عن الأغيار لطفا و جلّت

فقال أ تدرى من أنا قلت أنت يا منای أنا إذ كنت أنت حقيقتى

فقال كذاک الأمر لكنّما إذا تعيّنت الأشياء بى كنت نسختى

فأوصلت ذاتى باتّحادى بذاته بغير حلول بل بتخصيص نسبة

فصرت فناء فى بقاء مؤبّد لذات بديموميّة سرمديّة

إذا رمت إثباتا لانيّتى محا هواه وجودى محوة أىّ محوة

فيأخذنى منّى فأصبح سائلا لنفسى عن نفسى حضورا لغيبة

و انظر فی مرآت ذاتی مشاهدا لذاتی بذاتی و هو غایة غایتی

فاغدو و أمری بین أمرین واحد علومی تمحونی و وهمی مثلتی

إلی أن قال:

بدا ظاهرا بالکلّ للکلّ بیّنا فشاهده العینان فی کلّ ذرّة

و أشرق منه مطلق قیّد الوری عموما بوحدانیة صمدیّة

هو الواحد الفرد الکثیر بنفسه و لیس سواه إن نظرت بدقّة

به کلّ حیّ و هو حیّ بذاته و إن شئت أن تحیی به فله مت

له کلّ عین فی الوجود یری بها له کلّ اذن فی البرایا وعیّة

له کلّ کفّ فی الواری باطشا بها له کلّ علم من علوم الخلیقة

لذلک ما قال الاله لادم علی صورتی کانت لخلقک خلقتی

فکثرته مخفیّة تحت وحدة کما أنا فرد کثرتی تحت وحدتی

بقیت به لمّا فنیت له کما وجدت حیاتی فیه من بعد موتتی

إلی أن قال:

نظرت فلم ابصر سوی محض وحدة بغیر شریک قد تقسّط بکثرة

تکثّرت الأشیاء و الکلّ واحد صفات و ذات ضمتا فی هویّة

یحجّب عنّا و اختفی بظهوره فضلّل فیه کلّ قوم بحجّة

فساير ذرّات الوجود مظاهر له إن رآه باصر ببصیرة

محا ممکنات الوهم منه بواجب حوی کثرة توحیدها بالضرورة

و ذاک لأن لا شیء یوجد غیرها و جملتها موجودة بالمعیّة

لک الکلّ یا من لا سواه فمن رأی سواک فرؤیا ذاک من أحولیة

(1) و محصّله کما تری أنّ ذات الوجود المطلق و الممکنات لیست إلاّ مجالی

1- (1) با من آمیزش او الفت موج است و کناردائما با من و پیوسـته گریزان از منمجموعهٔ کون را بقانون سبقکردیم تصفّح ورقا بعد ورقحقا که نخواندیم و ندیدیم در اوجز ذات حق و شئون ذاتیهٔ حق

و مظاهر له.

و بعبارة اخرى الوجود إذا اعتبر لا بشرط التّعيّن و عدم التعيّن يكون حقيقة الواجب، و اذا اعتبر بشرط التعيّن بالماهية يكون عين حقيقة الممكنات فيكون حقيقة كلّ ممكن هو الوجود المتعيّن بالماهية، فاذا لم يعتبر فيه التعيّن كان عين حقيقة الواجب، تعالى عمّا يقول الجاهلون علوّا كبيرا.

اذا عرفت ذلک فأقول:

إنّ بطلان هذا الاعتقاد الفاسد ممّا دلّ عليه العقل و النّقل، و لكونه من مزالّ الأقدام يحتاج إلى بسط الكلام فى ذلک المقصود و المرام، بعون اللّه المالک المهيمن السّلام، و باللّه أستعين و أستمدّ و بمحمّد و آله الطاهرين سلام اللّه عليه و عليهم أجمعين أتوسّل فى كشف الحجاب عن وجه المرام.

اما الدليل العقلى على بطلانه

فموقوف على تمهيد مقدّمة متضمّنة للفرق بين الواجب تعالى شأنه و الممكن و هو بوجوه:

الاول

الافتقار و عدم الافتقار

بيانه: أنّ الموجود إمّا موجود بنفسه غير مفتقر فى وجوده إلى غيره أى - العلّة الموجدة، أو موجود لا بنفسه بل مفتقر إلى العلّة، و الحصر بينهما عقلىّ دائر بين النفى و الاثبات، فلا يتصوّر واسطة بين الافتقار و عدم الافتقار، فلا موجود خارجا من القسمين و المتّصف بعدم الافتقار هو الواجب و بالافتقار هو الممكن.

أمّا الثّانى فلا بدّ أن ينتهى وجوده إلى علّة قائمة بذاتها موجودة بنفسها، إذ معنى افتقاره هو قبوله لأثر العلّة الذى هو الوجود، فلو لم تكن العلة بنفسها موجودة لكانت فاقدة للأثر و الفاقد للشىء كيف يكون معطيا، و مجرّد وصول الأثر بواسطة إلى محلّ لا يرفع الافتقار فلا بدّ من الانتهاء إلى المؤثر القائم بذاته ؟؟؟؟؟ عنى غير المفتقر فى وجوده إلى غيره.

؟؟؟؟؟ يكون وجوده علة لوجوده و هو غير معقول لاستلزامه تقدّم الشىء

على نفسه.

و إمّا بأن يكون نفسه عين الوجود أى لا يكون له ماهيّة و وجود كما فى الممكنات بل يكون ماهيته انيّته و هو المطلوب.

فان قلت: هل له تعالى ماهيّة؟ قلت: الماهيّة لها معنيان:

أحدهما بازاء الوجود كما يقال وجود الممكن زايد على ماهيّته و الماهيّة بهذا المعنى يعرضها العموم و الاشتراك فليست له تعالى ماهيّة بهذا المعنى.

و ثانيهما ما به الشىء هو هو و هذا يصحّ له عزّ و جلّ و قد صرّح به الصّادق عليه السّلام فى جواب الزنديق فى حديث طويل مروىّ فى الكافى قال: قال له السّائل: فله إنيّة و مائيّة؟ قال عليه السّلام: نعم لا يثبت الشىء إلاّ بانيّة و مائيّة.

الثانى

أنّه تعالى منزّه عن الحدّ و الرّسم

و المثل و الشّبه و الضّدّ و النّد، و التنزّه مقتضى ذاته و الممكن محدود ممثّل.

أمّا الأوّل فلما عرفت من أنّه تعالى نفس الوجود و متعيّن الذّات بوجوب وجوده و ليس له ماهيّة و وجود فليس بذى أجزاء و ما لا جزء له لا جنس له و لا فصل له و ما لا جنس له و لا فصل له لا حدّ له، و إذ ليست له صفة لازمة و لا خاصّة فلا رسم له، و ما لا حدّ له يمتنع إقامة البرهان عليه إلاّ أنّه من حيث كونه مبدءا لأفعاله و آثاره و بارئا لمخلوقاته ممّا يقام عليه البرهان كما يقال: العالم مصنوع مبنى يقتضى أنّ له صانعا بانيا، فالعالم له صانع و إذا ثبت أنّ للعالم صانعا ثبت وجوده ضرورة.

و أما الثانى فلتركبه من الوجود و الماهية يكون ذا أجزاء و الوجود للممكنات أمر عقلى متصوّر فى الذّهن مشترك بين الموجودات زايد فى التصوّر على المهيات و قد عرفت أنّ المهية التى هى معروض الوجود أيضا مما يعرضه العموم و الاشتراك فافراد الممكنات بجميعها مشتركة فى أمر جامع بينها به يشابه أحدها الاخر و يشاكله

و يتميّز أحدهما عن الاخر بأمر بائن، و ليس الحدّ إلاّ عبارة عن الجامع الفارق.

و أيضا كلّ متصف بالوجود الامكانى فله مهيّة و وجود.

أما المهيّة فلكونها غير الوجود يحتاج فى موجوديّتها إلى جاعل يجعلها موجودا إذ المهيّة لا تقتضى نفسها وجودها و إلاّ لكان وجودها قبل وجودها و هو محال ضرورة تقدّم المقتضى على المقتضى.

و أما الوجود فلأنّ كلّ وجود غير وجوده تعالى فهو يشوبه عدم و نقص فيحتاج إلى موجد و له حدّ معين من مراتب الوجود يحتاج إلى محدّد إذ لو كانت نفس طبيعة الوجود تقتضى ذلک الحدّ لكان الجميع كذلک و ليس كذلک، فاذن الوجود فى كلّ موجود نفس تعيّنه الخاصّ و وحدته الشخصيّة و تشخّصه المحدّد و المعين، و كلّ ما له حدّ فله علة محدّدة تحدّده على ذلک الحدّ.

و هذا بخلاف الوجود الالهى الذى هو عين ذاته و تعيّنه بالوجوب فلا قاهر فوقه و لا محدّد له إذ ليس فيه إلاّ محض الحقيقة القدسية و التنزّه.

بل قد قال بعض الأساطين: إنّ انفكاک المهية من الوجود إنما هو فى تحليل العقل، و أما فى الواقع فهى عينه حيث قال:

إنّ الوجود لا بدّ له عما يخرجه عن الايهام، فلا يتحقّق إلاّ بعد التعيّن التمام بالفصول المتنازلة إلى أن ينتهى إلى التشخّص. فبعد التعيّن التامّ يتحقّق و الترتب إنما هو فى المرتبة و التحليل، و هذا ما أشاروا إليه بقولهم: إنّ الشىء ما لم يتشخّص لم يوجد و ما لم يوجد لم يتشخّص، و أنّ التشخّص يساوق الوجود، فانه ذات الوجود و خلوّه عنه سلب الشىء عن نفسه.

و بما حقّقنا ظهر أنّ الماهية عين الوجود، و انما ينفكان فى التحليل، فيحمل الوجود على الماهية و يعرضها باعتبار كما أنّ الماهية تعرض الوجود باعتبار آخر و فى الحقيقة ليس هناک إلاّ الوجود الخاصّ، فالوجود الذى هو نقيض العدم بنفسه لا يتقوّم بل هو و الحدّ و التحديد مستند إلى أمر وراء ذلک، فالمبدء تعالى ليس له ذات و وجود، و إنما يعبر بعبارتين بالالجاء و ضيق المجال كما هو الحال فى جميع

صفات الجمال، و هذا متن بيان مقتبس من مشكاة النبوّة إلى أن قال:

ظهر من جميع ما تقدّم أنّ إثبات المبدأ تعالى لا ينفكّ عن التوحيد، ضرورة أنّ الحدّ ينافى الوجود و التعدّد لا يعقل إلاّ بالحدود و قال:

و كشف الحجاب أنّ الوجود عين هويّته و نفس الماهية كما هو محصّل عروض الوجود للماهية، و التفكيک إنّما هو بالتحليل و كذا الحمل و العروض، فقبل التحقّق الذى هو عين الواقع و الخارج لا وجود و لا ماهية، و معه لا تمائز.

فللحيوانيّة مثلا نحو من الوجود لأنّ الحركة بالارادة و الحسّ وجود و المعدوم لا يعقل أن يكون حيوانا و حساسا، و كذا النّطق و هو إدراک الكلّيات و ملكة اكتساب النظريّات نحو من الوجود و المعدوم ليس ناطقا بالضرورة.

و كذا الحال فى جميع الأجناس و الفصول و الأنواع الملتئمة منها المترتّبة فانّه صرف الفرض و ليس كون الانسان قبل الوجود انسانا و كون الوجود وجودا قبل التحقّق إلاّ مجرّد الفرض، فعدم كون الانسان و الوجود قبل التحقّق وجودا و انسانا مخالف للفرض لا أنّه سلب للشّىء عن نفسه كيف و ليس هناک شىء و لا نفس إلاّ بالفرض.

ألا ترى أنّ اجتماع النّقيضين لو كان اجتماعا تحقيقيا لكان محقّقا و إنّما هو مجرّد فرض و تقدير، فالانسانيّة التّحقيقية و هو الحيوانيّة مع النطق لو كانت غير الوجود فكيف يكون متحرّكا بالارادة و مدركا للمعقولات و هو لا وجود له.

و من خفى عليه هذا المعنى خبط خبطة عشواء فبين من ذهب إلى أنّ التقرير مرحلة سابقة على الوجود، و من توهّم أنّ بين الوجود و العدم مرحلة تسمّى بالحال و لم يتفطنوا أنّ ارتفاع النّقيضين محال، انتهى ما أهمّنا نقله من كلامه دام عزّه و علاه.

و قد اتّضح منه كلّ الوضوح أنّ الممكن لا تحصل له إلاّ بالوجود و الماهية و أنّ الماهيّة بحسب الخارج عين الوجود وحده، و أنّ معنى عروض الوجود للماهيّة أنّ الملحوظ فى الوجود إنّما هو حدّه المعين لا أنّ هناک عارضا و معروضا

و عروضا.

فانقدح منه أنّ قول الصوفيّة بأنّ الماهيّة ماهيّة حال العدم و هى المعبّر عنها بالعين الثابت، و قولهم بأنّ الأعيان الثابتة ما شمّت رايحة الوجود ممّا لا معنى له أو التفكيک بين الثّبوت و الوجود و القول باتّصاف الماهيّة بالأوّل دون الثانى سفسطة محضة.

الثالث

أنّ الواجب تعالى وجوده تامّ فوق التّمام

، و الممكن موصوف بالقصور و النّقصان، و التمام مقتضى ذات الاوّل كما أنّ النّقصان لازم وجود الثانى.

و المراد بكونه تامّا كونه جامعا لجميع صفات الكمال إذ قد قلنا إنّه عين الوجود و الكمالات كلّها وجود، فتكون الكمالات جميعا حاصلة له بالفعل بنفسه من دون افتقار إلى الاستكمال بالغير، و هذا من ضيق العبارة بل كما أنّ ذاته تعالى صرف الوجود كذلک صرف العلم و القدرة و الاختيار و الحياة و غيرها من الصّفات الكماليّة، و هذه الصّفات عين ذاته كما قال أمير المؤمنين: علم كلّه قدرة كلّه حياة كلّه.

و المراد بفوق التمام كونه مع جامعيّته للكمالات و تماميّتها له موجدا لوجود غيره و كمالاتهم جميعا أيضا.

و أمّا الممكن فلا ينفک عن وصف الافتقار و الامكان و المهيّة و المعلوليّة و التركيب و غيرها من النقائص، و ما يتصوّر فيه من وصف الكمال فامّا أن لا يكون حاصلا له بالفعل بل بالقوّة كالانسان مثلا، أو يكون حاصلا بالفعل و لكن حصوله ليس بنفسه بل بالغير، فعلم من ذلک أنّ الواجب تامّ و الممكن ناقص.

و اذا عرفت هذه المقدّمة الشريفة ظهر لک فساد القول بوحدة الوجود، لأنه إذا كان الواجب علة و الممكن معلولا، و الأوّل مستغنيا و الثانى مفتقرا، و الأول منزّها عن الحدّ و التعيّن و الثانى محدودا متعيّنا بالماهية، و الأوّل بسيطا و الثانى مركّبا، و الأول تامّا فوق التمام و الثانى مكتنفا بالعدم و النقصان حسبما عرفته

فى المقدّمـة الّتى مهّدناها، فكيف يعقل ترقّى الثانى إلى مرتبـة الأوّل، فانّ ذاتىّ الشّىء لا ينفكّ عنه و المعلوليّة و المحدوديّة و الافتقار و النقصان من لوازم ذات الممكن فكيف يتصوّر أن يلقى الممكن إنيّته على اصطلاحهم و يصل إلى مرتبة الواجب.

مع أنّ إنيّته ليس إلاّ تعيّنه بماهيّته و بعد ارتفاع التّعين و التّحدّد لا يبقى ماهيّة و لا وجود، فلا يكون هناک شىء أصلا.

و كذلک إذا كان الواجب تعيّنه بذاته و بكنهه و منزّها عن الحدود لكونه صـرف الوجود و كان تامّا فوق التمام كان مباينا للممكن غاية البينونة كما قال الرّضا عليه السّلام فى الحديث المروىّ عنه فى الكافى: مباينته إيّاهم مفارقته إنيّتهم، فكيف يتوّهم كونه ساريا فى الموجودات.

و هؤلاء الجهلـة لمّا سـمعوا أنّ الواجب وجود خال من جميع الحدود و القيود، و أنّ الوجود مفهوم واحد نقيض العدم، فتوهّموا أنّ الوجود الخالى من جميع القيود هو الوجود المطلق لا بشـرط التعيّن و عـدم التعيّن، فيجتمع مع جميع التعيّنات الامكانية، و يكون عين حقيقة كلّ ممكن.

و هـذا التوهّم من الفساد بمكان لأنّ معنى خلوّ الواجب من القيود، هو خلوّه من التعيّنات الامكانيـة لا من مطلق التعيّن و لو بـذاته، فتعيّنه سبحانه بوجوب وجوده الـذى هو عين ذاته فعلى هـذا يكون طرد الحـدود و التعيّنات الامكانيـة محالا، و ليس معنى خلوّه منها كونه مبهما ساريا فى التعيّنات مثل سريان الكلّيات فى مصاديقها الخارجيّة المتعينة.

و بعبارة أوضح أنّ الواجب مع قطع النظر عن الحدود و التعيّنات إمّا مبهم أو متعيّن.

أمّـا الأـوّل فتحقّقه محـال بالضّرورة، لأنّ الشـىء ما لم يتشـخّص لم يوجـد و من هنا قالوا إنّ الكلىّ الطبيعى أمر مبهم لا يمكن تحقّقه فى الخارج إلاّ بضمّ التعيّنات و تشخّصات الأفراد.

ص:158

و أما الثانى فامّا أن يكون سـرايته فى المخلوقات مع تعيّنه الـذى هو له فهو محال، لأنّه جمع بين النقيضـين إذ التعيّن الوجوبى مناف للتعيّن الامكـانى و منـاقض له، أو مع إلقـائه لتعيّنه الـذّاتى و تعيّنه بالتعيّن الامكانى و هو فرع أن يكون متحرّک غير واجب و ممكن يكون فى تلک المراتب و يكون واجبا تارة و ممكنا اخرى و هو باطل.

و الحاصـل أنّ الواجب إمّـا مبهم محض و جامع بين جميع الموجودات كما هو شأن الجامعـة السارية، و هو مسـتلزم لنفى وجود الصانع تعالى عن ذلک علوّا كبيرا، و إما أنّه متعيّن بحب ذاته فيستحيل سريانه فى الامور المتعيّنة بالحدود و القيود.

و الى ذلک أشار المحقّق الطوسى فى شرح الاشارات حيث قال:

حقيقة الواجب ليست هى الوجود العام بل هى مجرّد وجوده الخاص به المخالف لساير الموجودات لقيامه بالذّات.

و قـال أيضـا: الوجود داخـل فى مفهوم ذات واجب الوجود لا الوجود المشترک الـذى لا يوجـد إلاّ فى العقل بل الوجود الخاص الـذى هو المبدأ الأول لجميع الموجودات و إذ ليس له جزء فهو نفس ذاته و هو المراد من قولهم: مهيّته هى إنيّته انتهى.

و قال المعلّم الثانى فى محكىّ كلامه من كتاب الجمع بين الرّايين:

إنّه لما كان البارى جلّ جلاله بانيّـة ذاته مباينا لجميع ما سواه و ذلک له بمعنى أشـرف و أفضل و أعلى بحيث لا يناسـبه فى إنيتّه شـىء و لا يشاكله و لا يشـبهه حقيقة و لا مجازا، ثمّ مع ذلک لم يكن بدّ من وصـفه و اطلاق كلّ لفظة كماليّة من هذه الألفاظ المتواطئة عليه، فانّ من الواجب الضّـرورى أن نعلم أنّ مع كلّ لفظـة نقولها فى شـىء من أوصافه معنى بذاته بعيدا من المعنى الّذى نتصوّره من تلک اللّفظة و ذلک كمـا قلناه بمعنى أشـرف و أعلى حتّى إذا قلنا إنّه موجود علمنا مع ذلک أنّ وجوده لا كوجود ساير ما دونه، و إذا قلنا إنّه حىّ علمنا أنّه بمعنى أشرف من الحىّ الذى هو دونه و كذلک الأمر فى سايرها، انتهى.

ص:159

و هو كما ترى نصّ صـريح مثل الاخبار الاتيـة الواردة من معادن القـدس و الطهارة فى أنّ مباينته لغيره بنفس ذاته. فلا يتّصف بالماهيّة و لا بـالوجود بـالمعنى المتصوّر فى الممكن، بـل إذا قلنا إنّه موجود و وصـفناه بالوجود فهو بمعنى اعلا ممّا يتصوّره العقل، و هكـذا إذا وصـفناه بالعلم و الحياة و ساير الصـفات الثبوتيّة و هو معنى ما ورد فى غير واحد من الأخبار الكثيرة من أنّه سـبحانه شـىء لا كالأشـياء فوصـفه بأنّه شىء من ضيق المجال و الخروج من حدّ التعطيل، و بأنّه لا كالأشياء للتّنزيه و التقديس و نفى التشبيه و الاشارة إلى كونه باينا من الأشياء و كونها باينة منه بنفس ذاته المقدّسة.

و الحاصل أنّه تعالى ممتاز عمّا سواه بـذاته، و الوجود عين ذاته، و الوجود الّـذى له عزّ و جلّ ليس بالمعنى الـذى لها كيف و الوجود الـذى لغيره أمر بديهىّ يعرفه الكلّ كساير البديهيّات، و الوجود المخصّص به لا يدركه بعد الهمم و لا يناله غوص الفطن، و غاية معرفتنا بذاته أنّا لا نعرف ذاته بيـان ذلک أنّ كلّ مـدرک باحـدى القوى و الحواسّ ظاهريّـة كانت أو باطنيّـة و كلّ ما تـدركه المشاعر صورة كانت أو معنى فهو محدود متمثّل تحدّه الحواسّ و تمثّله الأفكار، و كلّ ما هو كذلک فهو مخلوق مثلنا مصـنوع بفكرنا، و خالق الأشياء منزّه عنه فنعرف ذاته بأنّا لا نعرف ذاته إذ غاية ما يحصل لنا من الاثار و الأفعال كونه مبدء لتلک الاثار و الأفعال صانعا لها، و من ذلک يحصل الجزم بوجوده تعالى.

إذ لو لم يكن موجودا ثابتا لكان معدوما منفيّا اذ لا مخرج منهما و لا واسطة بين النّفى و الاثبات و الوجود و العدم.

و يلزم من عدمه أن لا يكون فى الوجود شـىء أصـلا و اللاّزم باطل بالبديهة فكذا الملزوم و وجه الملازمة أنّ الكلّ مفتقر فى وجوده إليه فما هو معدوم فى نفسه كيف يكون مفيضا للوجود فثبت بذلک أنّه موجود ممتاز بذاته عمّا عداه هذا.

ص:160

و الصوفيّة أولياء الشيطان لمّا ضاق بهم الخناق فى إقامة البرهان على مذهبهم الفاسد و اعتقادهم الكاسد استندوا إلى الكشف و العيان.

قال بعض من له خوض فى التّصوف:

إنّ مستند الصوفيّة فيما ذهبوا إليه هو الكشف و العيان لا النظر و البرهان، فانّهم لمّا توجّهوا إلى جناب الحقّ سبحانه بالتّعرية الكاملة و تفريغ القلب بالكليّة عن جميع التّعلّقات الكونيّة و القوانين العلميّة مع توحيد العزيمة و دوام الجمعيّة و المواظبة على هذه الطريقة بدون فترة و لا تقسيم خاطر و لا تشتّت عزيمة منّ اللّه سبحانه عليهم بنور كاشف يريهم الأشياء كما هى.

و هذا النور يظهر فى الباطن عند ظهور طور وراء طور العقل، و لا تستبعدن وجود ذلک، فوراء العقل أطوار كثيرة يكاد لا يعرف عددها إلاّ اللّه.

و نسبة العقل إلى ذلک النور كنسبة الوهم إلى العقل، فكما يمكن أن يحكم العقل بصحّة ما لا يدركه الوهم كوجود موجود مثلا لا خارج العالم و لا داخله، فكذلک يمكن أن يحكم ذلک النّور الكاشف بصحّة بعض ما لا يدركه العقل، كوجود حقيقة مطلقة محيطة لا يحصرها التقييد و لا يقيّدها التعيين.

مع أنّ وجود حقيقة كذلک ليس من هذا القبيل فانّ كثيرا من الحكماء و المتكلّمين ذهبوا إلى وجود الكلّى الطبيعى فى الخارج.

و المقصود هنا رفع الاستحالة العقلية و الاستبعادات العادية عن هذه المسألة لا إثباتها بالبراهين و الأدلة، انتهى.

و هو سخيف جدّا لامتناع أن يكون طور وراء العقل إلاّ النّبوة، و لو جوّز ذلک لبطلت الشرائع و الأديان و الأحكام النقليّة و العقلية و ارتفع الأمان و انسدّ باب الايمان.

و ليس نتيجة ما ذكر من الرّياضة و المجاهدة إلاّ تلطيف السّر و تهذيب الباطن و تصفية القلب ليسهل النظر و يسرع الفكر و يصفو الذّهن من الكدر، فيتجرّد المعقولات النظريّة عن الغواشى الوهميّة و يتميّز المعقول عن الموهوم، و ذلک

هو معنى الكشف و نور اللّه الكاشف لا ما توهّموه.

و مثله فى السخافة استناد بعضهم فى ذلک إلى الأدلة السمعيّة حيث قال:

إذا علمت أنّ الوجود هو الحقّ علمت سرّ قوله «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ » «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » «وَ فِى أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ » «وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ » و قوله «اَللّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ » و اللّه «بِكُلِّ شَىْ ءٍ مُحِيطٌ » و كنت سمعه و بصره، و سرّ قوله: و لو دليتم بحبل لهبط على اللّه، و أمثال ذلک من الأسرار المنبهة للتوحيد بلسان الاشارة، انتهى.

و لا دلالة فيها على ما زعموه بوجه.

أمّا الاية الاولى فدلالتها على بطلان ما زعموه و فساده أظهر، بل مكذبة لدعواهم، لأنّ وجود الأشياء عينها فى الخارج لا معها، و قد عرفت أنّ التغاير فى طرف التّحليل، و المراد بكونه تعالى معنا فى جميع الأمكنة ما حقّقناه فى شرح الفصل السادس من الخطبة الاولى فى شرح قوله عليه السّلام: مع كلّ شىء لا بمقارنة و أمّا الاية الثانية فهى أيضا مكذبة لهم لأنّ الاقربيّة مستلزمة للمغايرة و المنافية للعينيّة، و المراد بها القرب بالعلم و الاحاطة أو باعتبار كون ذاته و وجوده منه تعالى حدوثا و بقاء بحيث لو قطع النظر عنه آنا ما هلک و صار عدما محضا لاستحالة بقاء المعلول من غير علّة و أمّا الاية الثالثة فهى أيضا دليل على البينونة و المغايرة، لافادته كون نفس الشخص آية على صانعه و هو استدلال إنّى و أين ذلک من الاتّحاد.

و أمّا الاية الرّابعة فالمراد بها انحصار الالوهية فى جميع العوالم فيه تعالى و هو أيضا مكذب للعينيّة لمنافاة الالوهيّة لها.

و أمّا الاية الخامسة فالمراد بها أنّه هاد لأهل السماوات بلا واسطة و لأهل الأرض بواسطة الأنبياء و الرّسل و الأئمة عليهم السّلام، و قد ورد تفسيره بهذا المعنى فى أخبار أهل البيت سلام اللّه عليهم.

و أمّا الاية السادسة فهى أيضا مكذبة لدعواهم لأنّ وجود الشىء ليس محيطا

به بل هو فی الخارج و فی التحلیل عارض له.

و أما الحدیث القدسی فلا دلالة فیه أیضا علی الاتّحاد، بل المراد به معنی آخر أشار به فی البحار.

فانه بعد ما روی من المحاسن عن عبد الرّحمن بن حماد عن حنان بن سدیر عن أبی عبد اللّه علیه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: قال اللّه تعالی: ما تحبّب إلیّ عبدی بشیء أحبّ إلیّ ممّا افترضته إلیه، و أنّ عبدی لیتحبّب إلیّ بالنافلة حتی احبّه فاذا أحببته کنت سمعه الذی یسمع به و بصره الذی یبصر به و لسانه الذی ینطق به و یده التی یبطش بها و رجله التی یمشی بها إذا دعانی أجبته و إذا سألنی أعطیته.

قال: هذا الخبر یحتمل وجوها:

الأوّل أنه لکثرة تخلّقه بأخلاق ربّه و وفور حبّه لجناب قدسه تخلّی عن شهوته و إرادته، و لا ینظر إلاّ إلی ما یحبّه سبحانه و لا یبطش إلاّ إلی ما یوصله إلی قربه تعالی و هکذا الثانی أن یکون المراد أنّه تعالی أحبّ إلیه من سمعه و بصره و لسانه و یده و یبذل هذه الأعضاء الشّریفة فیما یوجب رضاه فالمراد بکونه سمعه أنّه فی حبّه و اکرامه بمنزلة سمعه بل أعزّ منه لأنّه یبذل سمعه فی رضاه و کذا البواقی.

الثالث أن یکون المعنی کنت نور سمعه و بصره و قوّة یده و رجله و لسانه و الحاصل أنّه لمّا استعمل نور بصره فیما یرضی ربّه أعطاه بمقتضی وعده سبحانه «لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ » نورا من أنواره به یمیّز بین الحقّ و الباطل، و به یعرف المؤمن و المنافق کما قال اللّه تعالی «إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ » و قال علیه السّلام: المؤمن ینظر بنور اللّه، و کذا لما بذل قوّته فی طاعته أعطاه قوّة فوق طاقة البشر کما قال مولانا الأطهر: ما قلعت باب الخیبر بقوّة جسمانیة بل بقوّة ربانیة و هکذا.

الرّابع أنه لما خرج عن سلطان الهوی و آثر علی جمیع إراداته و مراداته و شهواته لرضی المولی صار الرّب تعالی متصرّفا فی نفسه و بدنه، مدبّرا لقلبه

و عقله و جوارحه فبه يسـمع و به يبصـر و به ينطق و به يمشـى و به يبطش كما ورد فى تأويل قوله «وَ ما تَشاؤُنَ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللّهُ » و هذا معنى دقيق لا يفهمه إلاّ العارفون و ليس المراد به المعنى الذى باح به المبتدعون فانّه الكفر الصريح و الشّرك القبيح انتهى كلامه رفع مقامه.

و أما الرواية الأخيرة فعلى تسـليم صـحّة سـندها و عدم كونها من موضوعات العامّة فمعناها إحاطته تعالى بجميع العوالم و عدم خلوّ مكان منه عزّ و جلّ بهذا المعنى، و أين هذا ممّا زعمه حزب الشيطان من أنّ الوجود هو اللّه، تعالى عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا.

فقد وضح و اتّضح من هذا كلّه أنّ ما ذهب إليه الزّنديق اللّعين محيى الدّين و أتباعه الذين هم أولياء الشـيطان و هادمو أساس الشرع المبين من أنّ الوجود هو الحقّ الأوّل و أنّه سار فى الموجودات و أنّها على كثرتها مجالى و مظاهر له، و أنّ الواجب إذا اشـتمل على الحدّ و التّعين صار ممكنا، و انّ الممكن إذا ارتفع عنه الحدّ و التّعيّن صار واجبا ففى قوس النزول يكون الواجب ممكنا، و فى قوس الصّعود يكون الممكن واجبا، غلط بيّن و كفر و زندقة و إلحاد.

و العجب من صـدر المتـألهين أنّه مع ذكـائه و براعته فى فنّ الكلاـم و إذعـانه بأكثر ما أوردناه فى المقدّمـة الشّـريفة، غفل عن نتيجتها و قلّد الصّوفيـة فيمـا هم عليه زعمـا منه أنّ مـا ذهبوا إليه من وحـدة الوجود هو نتيجـة كلمـات الأسـاطين من الحكماء و المتكلّمين، و لم يتعقّل المباينة، ثمّ ذهب إلى كونه مشتركا مقولا على ما تحته بالتشكيک حسبما نقلناه.

قال فى الأسفار:

«فصل» فى أنّ مفهوم الوجود مشترک محمول على ما تحته حمل التّشكيک لا حمل التّواطى.

أمّا كونه مشتركا بين الماهيّات فهو قريب من الأوّليّات، فانّ العقل يجـد بين موجود و موجود من المناسـبة و المشابهة ما لا يجد مثلهما بين الموجود

و المعدوم و أطال فى إثبات الاشتراک بما لا طائل تحته إلى أن قال:

و أمّا كونه محمولا ـ على ما تحته بالتّشكيک أعنى الأوّليّة و الأقدميّة و الأشدّية، فلأنّ الوجود فى بعض الموجودات بمقتضى ذاته كما سيجىء دون بعض و فى بعضها أقدم بحسب الطّبع من بعض، و فى بعضها أتمّ و أقوى.

فالوجود الذى لا سبب له أولى بالموجوديّة من غيره، و هو متقدّم على جميع الموجودات بالطّبع، و كذا وجود كلّ واحد من العقول الفعّالة متقدّم على تاليه، و وجود الجوهر متقدّم على وجود العرض.

و أيضا فانّ الوجود المفارقى أقوى من الوجود المادّى، و خصوصا وجود نفس المادّة القابلة، فانّها فى غاية الضعف حتّى كأنّه يشبه العدم و المتقدّم و المتأخّر و كذا الأقوى و الأضعف كالمقوّمين للموجودات و إن لم يكن كذلک للماهيّات.

فالوجود الواقع فى كلّ مرتبة من المراتب لا يتصوّر وقوعه فى مرتبة اخرى لا سابقة و لا لاحقة و لا وقوع وجود آخر فى مرتبته لا سابق و لا لاحق، انتهى.

و اعترض عليه بعض أساطين مشايخنا المعاصرين أطال اللّه بقاه بقوله:

إنّ هذا الكلام يكشف عن أنّه لم يتعقّل معنى الوجود و الماهيّة، ضرورة أنّ المتصف بالكلّية و الجزئية و التواطى و التشكيک إنّما هو الكلّى الطبيعىّ، فموضوع هذه الأحكام إنّما هو الماهية، و أمّا الوجود المنسلخ عنها فى التّحليل فهو كالعدم، و مع عدم لحاظ الانسلاخ فيه لا تعدّد و لا تغاير و لا ماهيّة و لا وجود، بل هو حينئذ عينها و هى عينه كما لا يخفى و لا يصلح لأن يتّصف بشىء من هذه الصّفات إلاّ تبعا للذات.

بل التحقيق أنّ الاعراض بأسرها على هذا المنوال فانّها جهات تحليليّة لا انيّة لها و لا ماهيّة و انّما هى شئون المعروض، فانّ العروض بلحاظ ارتباطه مع الغير فهو غير متأصّل لا محالة كالفوقيّة و الابوّة و كذا ما يلزم من وجوده

التكرّر كالوجود.

و أمّا اللون و ما شاكله فهو متأصّل لا كما توهّموه من أنّ له ماهيّة و وجودا إلاّ أنّه فی وجوده يحتاج إلی موضوع بخلاف الجوهر، و إلاّ لكان المعروض من مقولة الأين بالنسبة إلی العرض مع أنّ وجود العرض لنفسه عين وجوده للغير لا أنّ هناک وجودين و هذا معنی الحلول و هو عبارة اخری عمّا اشرنا إليه من أنّه نحو وجود المعروض، فالموجود له ذات و وجود و لوجوده شئون و خصوصيّات تسمّی بالاعراض و أمّا الماهية فلا يعرضها إلاّ الوجود، و أما الزّوجية فی الأربعة و ما يشابهها فليست عرضا لماهية، ضرورة أنّ الأربعة كم منفصل لا ماهيّة من الماهيّات بل هو تحليل فی تحليل فی خصوصيّات الوجود و لو علی سبيل التقدير.

و أمّا ما توهّمه من أنّ الوجود فی بعض الموجودات بمقتضی ذاته فمرجعه إلی كون الشیء علة لنفسه و أمّا الواجب تعالی فهذا التعبير بالنّسبة اليه جلّ ذكره كساير التّعابير ليس علی ما توهّمه بل مرجعه إلی أنّه تعالی مقدّس عن الوجود الّذی هو نقيض العدم و نسبة الوجود إليه تعالی سلب نقص العدم عنه لا إثبات الوجود(1).

و بالجملة فكون الوجود معلولا للذّات ضروریّ الاستحالة، فانّ الفاقد لا يكون معطيا مع أنّ تقدّم الشیء علی نفسه أيضا ضروری الفساد.

و أمّا الأقدميّة بحسب الطّبع فهو أيضا من الأغلاط لما عرفت من أنّه تعالی منزّه عن الطّبع.

ص:166

1- (1) - يعنی أنّ وجوده ليس علی حدّ وجود سائر الموجودات الممكنة لانّ الممكنات جميعها تنحل فی طرف العقل إلی ماهية و وجود عارض لها و من هنا قالوا كلّ ممكن زوج تركيبی بل وجوده عزّ و جلّ نحو آخر من الوجود و هو عين ذاته و ليس له ذات غيره بل ماهيّته انيّته.و الحاصل أنه تعالی كما أنه منزّه عن الماهية المعروضة للوجود فكذلک منزّه عن الوجود العارض عليها لانّ الوجود بهذا المعنی مسبوق بالعدم و قد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) فی بعض الخطب المتقدّمة: سبق الاوقات كونه و العدم وجوده فوجوده بمعنی آخر فتأمل جيّدا من الشارح عفی عنه

و أمّا العقول فعلى القول بها فلا تقدّم لشىء منها على تاليه إلاّ بالعليّة.

و أمّا الجوهر فهو تقدّم الموضوع على العرض و هو نحو آخر من السّبق التحليلى و هو عين العروض.

و أمّا اختلاف حال المجرّد و المادّى فليس مستندا إلى اختلاف أنحاء الوجود بل انّما الاختلاف بين الجواهر بالماديّة و التجرّد بالذّات و إن لم تكن موجودة، و الهيولى مع قطع النّظر عن الوجود متميّز عن العقل و غيره من أقسام الجواهر كتميّز ساير الماهيّات، و ضعف المادّة عبارة اخرى عن كونها مادّة محضة فى الانفعال، و هذه جهة ذاتيّة لا ربط لها بالوجود و أمّا ما توهّمه من أنّ الوجود الواقع فى كلّ مرتبة من المراتب لا يتصوّر وقوعه فى مرتبة اخرى آه فقد أخذه من أهل العلم من حيث لا يشعر، ضرورة أنّ مقتضى مذهب أئمّته من أنّ الوجود حقيقة واحدة أنّه لا تميّز بين الوجودات إلاّ بالاعتبار، فالمراتب انّما ترتّبت باعتبار التّنزلات، ففى قوسى النّزول و الصّعود تتحرّك العين فى الوجود، و هذا ما ذهبوا اليه من الحركة الجوهريّة.

مع أنّ هذا مناف لهذا الكلام الّذى تقدّم منه من الاختلاف بين العقل و الهيولى مثلا فى شدّة الوجود و ضعفه، فانّ هذا إنّما ينطبق على ما ذهبوا إليه من أنّ الأعيان الثّابتة ما شمّت رايحة الوجود و إنّما هى اضافات إشراقيّة تختلف قوّة و ضعفا باختلاف النّزول و الصعود و البعد و القرب، و لهذا كان النّاسوت أضعف الدّرجات، لأنّها منتهى قوس النّزول و اللاّهوت أقوى حيث انّه مبدء لهذه الدّرجات المتدرّجة.

و بالجملة فاستحالة تبدّل الوجودات إنّما تتمّ على مذهب غير الصوفيّة، فانّ العرض لا ينتقل، و إنّما يتمّ هذا فيما لم يكن وجود فى طول الاخر، و أمّا فى السّلسلة الطّوليّة فهو غلط صرف، فشىء من الشخصين لا يتبدّل بالاخر كما أنّ الحمار أيضا لا يتبدّل بالانسان، و أمّا النطفة فتكون علقة و مضغة و حيوانا و انسانا و ليس هذا من تبدّل الصّورة مع بقاء الهيولى، و كذا الحال فى تبدّل العناصر بعضها ببعض على

ما هو التحقيق، فانّه من تبـدّل وجود باخر بمعنى التّرقى و الصّعود كما أنّ مراتب الفناء دركات النّزول، و لتحقيق هـذه المسائل مقام آخر، انتهى كلامه رفع اللّه مقامه.

و قال السيّد محمّد قطب السلسلة الذّهبيّة فى نظمه:

زعموا الوجود مشكّكا سبحانه عن اشتراك وضيعها و شريفها

فى الاشتراكين التزام ضلالة قد ضاع فى نهج الهدى تقطيعها، هذا.

و ربّما اعترض على القول بالتّشكيک بامتناعه فى الذّاتيّات، و أجاب عنه القيصرى فى شرح الفصوص بما لا طائل تحته و لا بأس بنقل كلامه و تعقيبه بما يتوجّه عليه من النّظر.

قال: و ما يقال إنّ الوجود تقطع على أفراده لا على التّساوى، فانّه يقع على العلّة و معلولها بالتقـدّم و التأخّر، و على وجود الجوهر و العرض بالأولويّة و عدمها، و على وجود القارّ و غير القارّ بالشدّة و الضـعف، فيكون مقولا عليها بالتشـكيک و ما هو مقول بالتشكيک لا يكون عين ماهيّة شىء و لا جزئه.

إن أرادوا به أنّ التقـدّم و التّأخر و الأولويّة و عـدمها و الشـدّة و الضـعف باعتبـار الوجود من حيث هو هو، فهو ممنوع لكونهـا من الامـور الاضافيّة الّتى لا يتصوّر إلاّ بنسـبة بعضـها إلى بعض، و لأنّ المقول على سبيل التشكيک باعتبار العموم و الكلّيّة و الوجود من حيث هو هو لا عامّ و لا خاصّ.

و إن أرادوا به أنّهـا يلحق الوجود بالقياس إلى الماهيّات، فهو صـحيح لكن لا يلزم أن يكون الوجود من حيث هو مقولا عليها بالتشـكيک إذ اعتبار المعروضات غير اعتبار الوجود.

و ذلـک بعينه كلامـ أهل اللّه لأنّهم ذهبوا إلى أنّ الوجود باعتبار تنزّله فى مراتب الامكان و ظهوره فى خطائر الامكان و كثرة الوسائط يشـتدّ خفـاؤه، فيضـعف ظهوره و كمالاته و باعتبار قلّتها يشـتدّ نوريّته و يقوى ظهوره، فيظهر كمالاته و صـفاته فيكون إطلاقه على القوى أولى من اطلاقه على الضّعيف، انتهى.

و فيه انّ الماهيّة مع قطع النّظر عن الوجود و كذا الوجود مع قطع النّظر

عن الماهيّة لا ـ يحكم عليهما بحكم لما عرفت من أنّهما تحليليّان لا أمران متغايران، فالشدّة و الضّعف إنّما تعرضان الوجود التحقيقى الواجد للماهيّة، لا المتسلخ عنها فالماهيّة يشتدّ وجودها المنظّم اليها و ما نسجته هذه الطايفة من أنّ الوجود هو الحقّ و أنّ الماهيات مظاهر و مجالى و أنّ الاختلاف إنّما هو فى الدّرجات التجلّى بحسب القرب و البعد و قلّة الوسايط و كثرتها، ممّا ليس له معنى محصّل.

و بالجملة فقد تحصّل ممّا ذكرنا كلّه أنّ وجوده تعالى مغاير لوجود غيره مباين له، و اتّصافه بالوجود ليس كاتّصاف غيره به إذ الوجود الّذى له تامّ فوق التّمام و اتّصافه به بمعنى أجلّ و أشرف و أعلى من أن يبلغه العقول و الأوهام كما قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى الفصل الثانى من الخطبة الاولى: الّذى لا يدركه بعد الهمم و لا يناله غوص الفطن.

بل قد قال بعض المحقّقين: إنّ وصفه تعالى بالوجود من ضيق العبارة، و إنّ معنى قولنا إنّه موجود إنّه ليس بعدم و لا معدوم فيكون مرجع اتّصافه به إلى سلب العدم عنه لا اثبات الوجود الّذى هو نقيض العدم له، فانّه تعالى منزّه عن ذلک، لأنّ الوجود الذى هو نقيضه حدّ له واقع فى طرفه و قباله.

كما يتّضح ذلک بقولنا مثلا خرج الشىء من العدم إلى الوجود و من الوجود إلى العدم، فانّ الوجود و العدم متناقضان متقابلان صار كلّ منهما حدّا للاخر و فى قباله و طرفه، و اللّه سبحانه لما كان منزّها عن الحدود لا يمكن اتّصافه بالوجود الذى هو حدّ العدم و طرفه.

و يوضح ذلک قوله عليه السّلام فى المختار المأة و الخامس و الثمانين: سبق الأوقات كونه و العدم وجوده، و أيضا الوجود الذى هو نقيض العدم إنما يتصوّر فيما يتصوّر فيه العدم كالماهيات و اللّه عزّ و جلّ منزّه عن الماهيّة و عن عوارضها.

و الحاصل أنّ وصفه بالوجود كوصفه بساير أوصاف الجمال مثل قولنا: إنه عالم أى ليس بجاهل، و قادر أى ليس بعاجز، و هكذا.

ص:169

و أما غيره تعالى من الموجودات الممكنة فانما يتصف بالوجود المقابل للعدم المناقض له لكونه ذى ماهية مشخّصة لوجوده كما أنّ وجوده كان مشخّصا له فانّ الشىء ما لم يتشخّص لم يوجد و ما لم يوجد لم يتشخّص.

و بعد هذا كلّه فكيف يزعم العاقل اتّحاد وجود المخلوقات الذى هو من البديهيات الأوّليّة على ما قيل مع وجود الخالق الذى إذا حاول الفكر المبرّء من خطرات الوساوس أن يقع عليه فى عميقات غيوب ملكوته و تولهت القلوب إليه لتجرى فى كيفية صفاته و غمضت مداخل العقول فى حيث لا تبلغه الصفات لتنال علم ذاته رجعت إذا جبهت معترفة بأنه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، و لا يخطر ببال اولى الرّويات خاطرة من تقدير جلال عزّته، فتعالى اللّه عما يقول الملحدون علوا كبيرا.

و أما الدليل النقلى

فهو جميع الأخبار و الأحاديث الدّالة على تقديسه و تنزيهه عن التشبيه و التحديد، و المفيدة لمغايرته لمخلوقاته و مباينته إياهم بنفس ذاته الأقدس و وجوده الأجلّ الأشرف الأعلى.

و أكثرها احتواء لذلک خطب أمير المؤمنين الواردة فى مقام التوحيد المتقدّمة فى تضاعيف الكتاب، و لا بأس بالاشارة إلى بعض ما تقدّم منه عليه السّلام فى هذا الباب تذكرة و ذكرى و ما يذكّر إلاّ اولو الألباب.

فمنه قوله عليه السّلام: فى الفصل السادس من المختار الأوّل:

كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شىء لا بمقارنة، و غير كلّ شىء لا بمزايلة.

فانّ قوله عليه السّلام: موجود لا عن عدم نصّ صريح فى أنّ وجوده ليس مثل وجود ساير موجودات المسبوق بالعدم المناقض له كما أنّ اثبات مغايرته لكلّ شىء و نفى مقارنته له صريحان فى عدم الاتّحاد و الوحدة بل قوله: مع كلّ شىء أيضا لا يخلو عن الدّلالة، لأنّ المعية مقتضية للاثنينية المنافية للوحدة و العينية كما لا يخفى.

و محصّل الجميع مباينة الحقّ للخلق بذاته و كونه معهم بالعلم و الاحاطة

و القيومية و العلّية فانّ المعلول لا يغيب عن علته.

و منه قوله عليه السّلام فى المختار الرابع و الستين:

لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن، و لم ينأ عنها فيقال هو منها بائن.

فانّ الفقرة الاولى صريحة فى أبطال الحلول و الاتّحاد كما هو مذهب قدماء الصوفيّة على ما حكينا عنهم سابقا، و المراد بالفقرة الثانية نفى المباينة المتصوّرة بين المتباينين المتباعد أحدهما عن الاخر، فلا تنافى ما قدّمناه من بينونته لها لذاته من أجل تنزّهه عن الحدّ و كونها مشتملة على الحدود مع قربه لها بالعلم و الاحاطة و الافضال و الرّحمة.

و منه قوله عليه السّلام فى الفصل الثانى من المختار التّسعين:

كذب العادلون(1) بک إذ شبّهوک بأصنامهم و محلوک حلية المخلوقين بأوهامهم «إلى ان قال» فاشهد أنّ من ساواک بشىء من خلقک فقد عدل بک و العادل بک كافر بما تنزّلت به محكمات آياتک و نطقت عنه شواهد حجج بيّناتک.

فانّه كساير الأخبار المتواترة و الايات القرآنيّة فى كفر من شبّهه عزّ و جلّ بالأصنام و زيّنه بزينة المخلوقات فكيف المتصوّفة الجاعلون إيّاه سبحانه عين الأصنام و المعتقدون أنّ هويّته سارية فيها و انّ وجودها عين وجوده الظاهر فى صورة الصّنميّة و أنّها مجالى و مظاهر له و أنّ العبادة لها عبادة له تعالى عمّا يقول الملحدون علوّا كبيرا.

و لعلک إذا سمعت نسبة هذا القول و الاعتقاد منّا إلى هذه الطايفة الضّالّة المضلّة نسبتنا إلى العصبيّة و العناد. و بادرت إلى تكذيبنا و قلت كيف يمكن أن يعتقد هؤلاء مع كونهم من المسلمين المؤمنين على خلاف ما هو من ضروريّات الدّين بل ما هو أساس الدّين و أصله أعنى توحيد الرّب و تفريده بالمعبودية الذى لم يكن بعث الأنبياء و الرّسل و انزال الكتب و الصّحف و تشريع الشرائع و الأديان من لدن زمن آدم عليه السّلام إلى آخر الزّمن إلاّ لأجله.

1- (1) - اى الجاعلون لک عديلا منه.

فان شـئت أن تعرف صحّة هذه النّسبة و تعلم حقّيتها بعلم اليقين فاستمع لما يتلى عليک من كلام قطب أقطابهم الزّنديق اللّعين ابن العربى محيى الدّين فى الفصوص و من كلام القيصرى فى شرحه.

قالا فى الفصّ الهارونى بعد ما ذكرا غضب موسى عليه السّلام على أخيه هارون لمّا شاهد من قومه عبادة العجل ما صريح عبارتهما:

«ثمّ قال هارون لموسـى إنى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل فتجعلنى سببا فى تفريقهم فانّ عبادة العجل فرّقت بينهم فكان منهم من عبـده اتباعـا للسّـامرى و تقليـدا له و منهم من توقّف عن عبـادته حتى يرجع إليهم موسـى فيسألونه فى ذلک فخشـى هارون أن ينسب ذلک الفرقان بينهم إليه و كان موسـى أعلم بالأمر من هارون لأنّه علم ما عبده أصحاب العجل» أى علم موسى ما الّذى عبده أصحاب العجل فى الحقيقة «لعلمه بأنّ اللّه قضى ألاّ نعبد إلاّ إيّاه» كما قال تعالى: «وَ قَضى رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ».

«و مـا حكم اللّه بشـىء إلاّـ وقع فكان عتب موسـى أخاه هارون لما وقع الأمر فى إنكاره و عـدم اتّساعه» أى كان عتب موسـى أخاه هارون لأجل انكاره عبادة العجل و عدم اتّساعه قلبه لذلک.

«فانّ العارف من يرى الحق فى كل شىء بل يراه عين كلّ شىء فكان موسى يربّى هارون تربية علم».

و اعلم أنّ هـذا الكلاـم و إن كان حقّا من حيث الباطن لكن لا يصـحّ من حيث النّبوة و الظاهر، فانّ النبىّ يجب عليه إنكار العبادة للأرباب الجزئيـة كما يجب عليه إرشاد الامّة إلى الحقّ المطلق، و لذلک أنكر جميع الأنبياء عبادة الأصـنام و إن كانت مظاهر للهوية الالهيّة، فانكار هـارون عبادة العجل من حيث كونه نبيّا حقّ إلاّ أن يكون محمولا على أنّ موسـى علم بالكشف أنّه ذهل عن شـهود الحق الظاهر فى صورة العجل، فأراد أن ينبّهه على ذلک و هو عين التّربية و الارشاد منه عليه السّـلام و انكاره على السامرى و عجله على بصيرة، فانّ انكار الأنبياء و الأولياء لعبادة الأصنام الّتى هى المظاهر ليس كانكار المحجوبين فانّهم يرون الحقّ مع كلّشىء بخلاف غيرهم

بل ذلک لتخلیصهم عن التقیّد بصورة خاصّة و تجلّی خاصّ إذ فیه إنکار باقی المجالی و هو عین الضّلال.

«و لـذلک» أی و لأجـل أنّه کان مرّبیا لهارون «لما قال له هارون ما قال رجع إلی السامری فقال له فما خطبک یا سامرّی» أی ما شأنک و ما مرادک، یعنی فیما صنعت من عدو لک إلی صورة العجل علی الاختصاص و صنعک هذا الشّبح من حلّی القوم و ترکک الاله المطلق.

«فغلبت علیه الغیرة فحرّقه ثمّ نسف رمـاد تلـک الصّورة فی الیمّ نسـفا و قـال له انظر إلی إلهک فسـمّاه إلها بطریق التّنبیه للتّعلیم» أی نبّه أنّه مظهر من المظاهر و مجلی من مجالیه - إلی أن قال:

«فکان عـدم قوّة إرداع هارون بالفعل أن ینفـذ فی أصـحاب العجل بالتّسـلیط علی العجل کما سـلط علیه موسـی حکمة من اللّه ظاهرة فی الوجود لیعبد فی کلّ صورة و إن ذهبت تلک الصّورة بعد ذلک فما ذهبت إلاّ بعد ما تلبّست عند عابدها بالالوهیّة» أی عدم تأثیر هارون فی منعهم عن عبادة العجل أو عدم تسلّطه علیهم کما تسلّط علیهم موسی کان حکمة من اللّه ظاهرة فی الوجود الکونی فیکون معبودا فی صور الأکوان کلّها و ان کانت هذه الصورة ذاهبة فانیة لأنّ ذهابها و فنائها إنّما هو بعد التّلبّس بالعبودیة عند عابدها.

«و لهـذا» أی و لأجل أنّه أراد أن یعبـد فی کلّ صورة «ما بقی نوع من الأنواع إلاّ و عبـد إمّا عبادة تألّه، أو عبادة تسـخیر فلا بدّ من ذلک لمن عقل» أمّا العبادة بالالهیّة کعبادة الأصنام و غیر ذلک من الشمس و القمر و الکواکب و العجل، و أمّا العبادة بالتّسخیر فکما یعبدون الأموال و أصحاب الجاه و المناصب، إلی أن قال بعد جملة من ترّهاته:

«و العارف المکمّل من رأی کلّ معبود مجلی للحقّ یعبد فیه و لذلک» أی و لأجل أنّ الحقّ هو الذی ظهر فی ذلک المجلی و عبد «سـمّوه کلّهم إلها مع اسمه

الخاص بحجر أو حيوان أو شـجر أو انسان أو كوكب أو ملک أو فلک هـذا اسم الشخصـيّة فيه و الالوهية مرتبة تخيل العابد له» اى لمعبوده «انّها مرتبة معبوده الخاص و هى على الحقيقة مجلى للحق» انتهى كلامهما هبط مقامهما ببعض تلخيص منّا.

و محصّـل كلامهمـا كمـا ترى أنّ الأصـنام جميعـا مجالى الحقّ و مظاهره بل هى عين الحقّ بل الأشـياء جميعا مظاهره و مجاليه و عبـدة الأوثان و الأصـنام و كذلک العابدون للشمس و القمر و الكواكب و الشجر و الحجر و النار و العجل، و كذلک عبادة المدّعين للالوهيّة من فرعون و شـداد، و كـذلک المنقادين للجبابرة و ساير الظلمـة من أرباب الجاه و المناصب المسـلطين على الرّعيـة كلّهم جميعا عابدون للّه تعـالى لأنّ هـذه المعبودات كلّها هو الحقّ ظهر فى هـذه المظاهر و تصوّر بهـذه الصور المختلفـة فهى على كثرتها ليست فى الحقيقـة إلاّ واحدا.

و منع الأنبياء و الأولياء من عبادة الأصنام لم يكن من حيث إنّها عبادة باطلة مبغوضة للّه تعالى بل من أجل حصر العابد للصّنم أو الشجر أو الحجر مثلاـ عبـادته فى هـذا المعبود الخاصّ، فبعث اللّه الأنبياء ليرشـدوا امتهم و يعلّموهم أنّ اللّه شاء و قضـى أن يعبـد فى كلّ صورة و مجلى، و أنّ المجالى كلّها إله فليس لكم أن تقصروا عبادتكم بمعبود خاصّ و تخصّصوه به و تتّخذوه إلها دون غيره.

و من هذا الباب كان غضب موسى على هارون فانّه عليه السّلام لما كان أعلم منه و كان يعلم أن اللّه شاء أن يعبد فى كلّ صورة حتّى صورة العجل و ما شاءه و قضاه عزّ و جلّ لا بـدّ من وقوعه لا محالـة و كان هارون لا يعلم ذلک و لذلک أنكر على قومه عبادته فعتب موسـى عليه لأجله و نبّهه على عدم اتّساع قلبه و على غفلته و ذهوله عن حقيقة الأمر.

و الحاصل إنّ الأنبياء إنّما بعثوا ليأمروا امّتهم بعبادة كلّشـىء من صـنم أو غيره و ليردعوهم عن قصر عبادتهم بشىء مخصوص معيّن فقط. و قد أوضح الرّجس الخبيث هذا الغرض فى بعض فقرات الفصّ النّوحى.

قال فى جملـة ما نقل من كلام نوح و قومه: «و مكروا مكرا كبّارا» لأنّ الدّعوة إلى اللّه مكر بالمدعوّ لأنّه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية فهذا عين المكر على بصيرة فنبّه أنّ الأمر له كلّه فأجابوه مكرا كما دعاهم»

قال شارحه القيصـرى: إى لمّا مكر نوح معهم مكروا مكرا كبّارا فى جوابه و ذلک لأنّ الدّعوة إلى اللّه مكر من الداعى بالمدعوّ، لأنّ المدعوّ ما عـدم الحقّ من البدايـة حتى يدعى إليه فى الغاية لأنّه مظهر هويته فى بعض مراتب وجوده فالحقّ معه بل هو عينه فالدّاعى إذا دعى مظهرا ما يمكر به فانه يريد إنّ الحق ليس معه أو هو غيره و هو عين المكر.

لكن مثل هذا المكر من الأنبياء إنّما هو على بصـيرة كما قال: أدعو إلى اللّه على بصـيرة أنا و من اتّبعنى، أى يعلم النبىّ أنه مظهر هوية الحقّ لكن يـدعوه ليخلّصه عن القيود و ترتفع عنه الحجب الموجبة للضـلالة فيرى ذاته مظهرا للهوّية و يشاهد جميع الموجودات مظاهر للحق و يعبده بجميع أسمائه و صفاته كما عبده من حيث اسمه الخاص، و فاعل نبه ضمير يرجع إلى نوح أو إلى الحقّ أى نبّههم على أنّ الملک كله للّه ليس كما تخيلوا أنه لهم.

قال «فقالوا فى مكرهم لا تـذرنّ آلهتكم و لا تـذرّن ودّا و لا سواعا و لا يغوث و يعوق و نسـرا فانهم إذا تركوهم جهلوا من الحقّ على قدر ما تركوا من هؤلاء فانّ للحقّ فى كلّ معبود وجها يعرفه من عرفه و يجهله من جهله فالعالم يعلم من عبـد و فى أىّ صورة ظهر حتى عبـد، و أنّ التفريق و الكثرة كالاعضاء المحسوسة و كالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية».

قال الشارح القيصرى: فالعالم باللّه و مظاهره يعلم أنّ المعبود هو الحقّ فى أىّ صورة كانت سواء كانت حسّية كالأصنام أو خيالية كالجنّ أو عقليـة كالملائكـة و يعلم أنّ التفريق و الكثرة مظـاهر لأسـمائه و صـفاته و هى كالأعضاء فى الصورة الانسانيـة، فانّ العين مظهر للابصار و الاذن للسمع و الانف للشمّ و اليد للبطش، و كالقوى الروحانية كالعقل و الوهم و الذاكرة و الحافظة و المفكرة و المتخيلة فانها كلّها مظاهر لصفات الرّوح، انتهى.

و محصّل كلامهما أنّ قوم نوح فى عبادتهم للأصـنام كانوا محقّين لكونها مظاهر الحقّ كما أن العابـدين لها كـذلک لأنهم أيضا كانوا مظهر الحقّ و كان

الحقّ معهم بل هو عينهم و كان نوح أيضا يعلم أنهم على الحقّ إلاّ أنه أراد على وجه المكر و الخديعة أن يصرفهم عن عبادتها إلى عبادته.

و إنما كان هذا مكرا منه عليه السّلام لأنه كان يقول لهم ما لم يكن معتقدا به و يموّه خلاف ما أضمره و اعتقده إذ كان عالما و على بصيرة من ربّه بأنّ الأصنام مظاهر الحقّ و عبادتها عبادته إلاّ أنه عليه السّلام أراد أن يخلّصهم من القيود حتى لا يقصروا عبادتهم فيها فقط، بل يعبدوه فى كلّ معنى و صورة.

و لما شاهد القوم منه ذلک المكر أنكروا عليه و أجابوه بما هو أعظم مكرا و أكبر من مكره فقالوا لا تتركوا آلهتكم إلى غيرها، لأنّ فى تركها ترک عبادة الحقّ بقدر ما ظهر فيها و قصر عبادته فى ساير المجالى و هو جهل و غفلة لأنّ للحقّ فى كلّ معبود وجها يعرفها العارفون سواء كان ذلک المعبود فى صورة صنم أو حجر أو شجر أو بقر أو جن أو ملک أو غيرها.

هذا محصّل كلام هذين الرجسين النجسين النحسين و كم لهما فى الكتاب المذكور من هذا النمط و الاسلوب، و سنشير إلى بعضها فيما سيأتى، فلينظر المؤمن الكيس البصير إلى أنهما كيف موّها الباطل بصورة الحقّ و أوّلا كلام اللّه بارائهم الفاسدة و أحلامهم الكاسدة على طبق عقايدهم الباطلة، و قد قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المختار من فسّر القرآن برأيه فليبوء مقعده من النار.

و لعمرى أنهما و من حذا حذوهما حزب الشيطان و أولياء عبدة الطاغوت و الأوثان، و لم يكن غرضهما إلاّ تكذيب الأنبياء و الرّسل و ما جاءوا به من البيّنات و البرهان و هدم أساس الاسلام و الايمان و إبطال جميع الشرائع و الأديان، و ترويج عبادة الأصنام و جعل كلمة الكفر العليا و خفض كلمة الرحمن.

و اقسم باللّه الكريم و إنه لقسم لو تعلمون عظيم إنهم المصداق الحقيقى لقول أمير المؤمنين عليه السّلام فى المختار السابع: اتّخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا و اتّخذهم له أشراكا فباض و فرخ فى صدورهم و دبّ و درج فى حجورهم فنظر بأعينهم و نطق

بألسنتهم فركّب بهم الزّلل و زيّن لهم الخطل فعل من شرّكه الشيطان فى سلطانه و نطق بالباطل على لسانه.

و مع ذلک فالعجب کلّ العجب أنهم يزعمون أنهم الموحّدون العارفون الكمّلون و أنّ غيرهم لمحجوبون و بالحقّ جاهلون، بل يترقى بعضهم و يدّعى الولاية و القطبية و يطغى آخرون فيدعون لأنفسهم الالوهية و الرّبوبية و يزعمون أن ربّهم تجلّى فيهم و ظهر فى صورهم المنحوسة.

فيقول ابن العربى فى فتوحاته: إنّ اللّه تجلّى لى مرارا و قال: انصح عبادى و يقول البسطامى: سبحانى و ما أعظم شأنى و لا إله إلاّ أنا، و يقول الحلاج: ليس فى جبّتى سوى اللّه، و يقول: أنا الحقّ و أنا اللّه.

و بعضهم يبلغ الغاية و يجاوز النهاية فيقول و يهجر، و يتكلّم تكلّم المجنون الذى لا يشعر، فيخاطب الرّبّ عزّ و جلّ و العياذ باللّه مخاطبة الموالى للعبيد و هو قطبهم أبو يزيد.

فقد نقل عنه القيصرى فى شرح الفصّ النوحى أنّه قال فى مناجاته عند تجلّى الحقّ له: ملكى أعظم من ملكک لكونک لى و أنا لک فأنا ملكک و أنت ملكى و أنت العظيم الأعظم و ملكى أنت فأنت أعظم من ملكک و هو أنا.

فلينظر العاقل إلى مهملات هذا الجاهل، ثمّ لينظر إلى سوء أدبه و قبح خطابه و مناجاته حيث لم يرفع يده عن الانانيّة فعبّر بلفظ أنا و أنت غير مرّة فى مثل هذا المقام الذى هو مقام الفناء و التجلّى على زعمهم و كيف يجتمع ذلک مع قولهم السائر:

بينى و بينک اننى ينازعنى فارفع بلطفک اننى من البين

و انّما أطنبنا الكلام فى المقام تنبيها على ضلالة هذه الجهلة الّذين زعموا أنّهم من أهل الكشف و الشّهود و اليقين و الموحّدين المخلصين مع أنّهم من الضّالين المكذّبين للأنبياء و المرسلين، و تعالى اللّه عمّا يقول الظالمون و الملحدون علوا كبيرا.

و منه

قوله عليه السّلام فى الخطبة المأة و الثانية و الخمسين:

ص:177

الحمـد للّه الدّالّ على وجوده بخلقه و بمحدث خلقه على أزليّته و باشـتباههم على أن لا شـبه له، لا تسـتلمه المشاعر و لا تحجبه السّواتر، لافتراق الصّانع و المصـنوع، و الحادّ و المحـدود، و الرّب و المربوب «إلى أن قال» و البائن لا بتراخى مسافة، و الظاهر لا برؤية، و الباطن لا بلطافة، بان من الأشـياء بالقهر لها و القدرة عليها، و بانت الأشـياء منه بالخضوع له و الرّجوع إليه، من وصفه فقد حدّه و من حدّه فقد عدّه، و من عدّه فقد أبطل أزله.

و قد مضى شرح هذه الفقرات فى محلّها و أقول هنا إنّ فيها وجوها من الدّلالة على بطلان مذهب هذه الملاحدة.

أولها قوله: لا تحجبه السواتر اه

فانّ هذه الطّائفة زعمت أنّه سبحانه و تعالى احتجب فى مخلوقاته و سرت هويّته فيها و صارت صور الموجودات حجابا ساترا له.

و يوضـح ذلـک ما قاله ابن الأعرابى فى الفصّ الابراهيمى من الفصوص «انّما سـمّى الخليل عليه السّلام خليلا لتخلّله و حصـره جميع ما اتصفت به الذّات قال الشّاعر.

قد تخلّلت مسلک الرّوح منّى و به سمّى الخليل خليلا

كما يتخلّل اللون و المتلوّن و لتخلّل الحقّ وجود صورة إبراهيم و كلّ حكم يصحّ من ذلک» قال القيصـرى: أى سمّى الخليل خليلا لتخلّله كما سـمّى الخمر خمرا لتخميره العقل و تخلّله عليه السّلام عبارة عن سـريانه فى المظاهر الالهيّة و الصّفات الرّبوبية كسريان هويّة الحقّ فيها من حيث اسـمه اللطيف و لكون اسم التخلّل هنا مجازا عطف عليه قوله و حصـره جميع ما اتّصـفت به الـذات الالهيّة و هو الصّفات الثّبوتيّة الحقيقيّة.

و المراد بالرّوح فى البيت المستشـهد الرّوح الحيوانى أى سـريت فى ذاتى و قلبى كسريان الرّوح الحيوانى فى مسالكه فأورد مثالين أحدهما عقلى كقول الشّاعر لأنّ تخلّل عشق المحبوب مسالک الرّوح من المحبّ العاشق عقلىّ،

و الاـخر حسّى كقوله كما يتخلّل اللون المتلوّن أى تخلّل الخليل الـذات الالهيّة بالاختفاء فيها و الاتّصاف بصـفاتها كما يتخلّل اللون المتلوّن بسـريانه فى جميع اجزاء المتلوّن بحيث يكون هو هو فى الحسّ بحيث لاـ يفرق بينهمـا بالاشـارة الحسّية فيكون مكانه عين مكان المتلوّن و لا يكون بينهما امتياز فى الحسّ.

و قوله: و لتخلّل الحقّ عطف على قوله و لتخلّله و حصـره أى سـمّى الخليل خليلا لتخلّله و لتخلّل الحقّ بظهور الهويّة و سريانها فى وجود إبراهيم فى الخارج و عينه فى العلم، و فى كلّ حكم يصـحّ من ذلک الوجود من الصّفات و الكمالات اللازمة لتعيّنه و المراد بالصورة عينه الخارجى.

ثمّ قال فى المتن و الشـرح «اعلم انّه ما تخلّل شـىء شـيئا إلاّ كان محمولا فيه» لأنّ المتخلّل هو الذى ينفذ فى الشـىء و يدخل فى جوهره فالدّاخل محمول و مستور فيه و المدخول فيه حامل له و ظاهره.

«فالمتخلّل اسم فاعـل محجوب بالمتخلّل اسم مفعول فاسم المفعول هو الظاهر و اسم الفاعل هو الباطن المسـتور و هو غـذاء له كالماء يتخلّل الصّوفية فتربو به و تتسع فان كان الحقّ هو الظاهر فالخلق مسـتور فيه فيكون الخلق جميع اسماء الحقّ سمعه و بصره و جميع نسبه و ادراكـاته و إن كـان الخلق هو الظـاهر فـالحقّ مسـتور بـاطن فيه فالحقّ سـمع الخلق و بصـره و يـده و رجله و جميع قواه كما ورد فى الخبر الصّحيح».

قال القيصـرى أى ما دخل شـىء فى شـىء إلاّ كان الداخل مسـتورا فى المدخول فيه، فالمتخلّل الذى هو اسم الفاعل أى الداخل محجوب مستور فى المتخلّل الذى هو اسم المفعول أى المدخول فيه فالمدخول فيه هو الظاهر و الداخل هو الباطن، و الظّاهر إنّما يغتذى من الباطن لأنّ الفيض عليه لا يحصل إلاّ منه فالباطن غذاء الظاهر إذ به قوامه و وجوده.

و إذا كـان الأمر كـذلک لا يخلو إمّا أن يكون الحقّ ظاهرا و الخلق باطنا أو بالعكس، فان كان الحقّ ظاهرا أى محسوسا بتجلّيه فى مرتبـة من مراتب الاسم الظاهر فالخلق مستور فيه و باطنه فيكون الخلق جميع أسماء الحقّ و صفاته من

السّمع و البصر و الارادة و غيرها و جميع النّسب الّتى هى تلحقه بالحقّ شرعا و إن كان الخلق هو الظاهر فى مرآت الحقّ فالحقّ مستور فيه و باطنه فالحقّ سمع الخلق و بصره و جميع قواه الباطنة، و هذا نتيجة قرب النوافل، و الأوّل نتيجة قرب الفرائض و إنّما جاء باليد و الرّجلين اللّذين من الظّاهر مع أنّ كلامه فى الباطن لورود الخبر الصّحيح كذلك و فى الحديث دليل على أنّ الحقّ عين باطن العبد و عين ظاهره، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

و محصّل ما قالاه كما ترى: كون الخلق حجابا للخالق و الخالق حجابا للخلق، و كون كلّ منهما عين الاخر و محجوبا به، قد أبطله أمير المؤمنين عليه السّلام بقوله: لا تحجبه السّواتر، معلّلا بافتراق الصّانع و المصنوع و الحادّ و المحدود و الرّب و المربوب، و المفترقان كيف يكون أحدهما عين الاخر على ما توهّمه هؤلاء الجهلة.

و العجب أنّ الكتاب و السّنة بل جميع الأنبياء و المرسلين ينادون بأعلى أصواتهم و جهوريّ أقوالهم بتوحيد الخالق و التّفريق بينه و بين خلقه، و هؤلاء الملاحدة وقفوا فى قبالهم و بالغوا فى مقام الانكار و المكابرة و المعارضة، و أصرّوا فى جعله عينه زاعمين أنّ ذلك عين التوحيد مع أنّه عين الالحاد و الجحود و التّشريك، هذا.

مع ما يتوجّه على ما قالاه من وجوه الكلام و ضروب الملام.

أمّا أوّلا فلأنّ نسبة إبراهيم عليه السّلام ليس من أجل تخلّله فى وجود الحقّ و تخلّل الحقّ فيه، بل لأجل كماله فى مقام الخلّة و هى المودّة و الصّداقة، و الخلّ و الخليل الصّديق المختص، فلأجل مزيد اختصاصه به و كرامته لديه سمّى خليلا، و لو كان تسمية الخليل بهذا الاسم من أجل التخلل فى الوجود لما صحّ إطلاقه على ساير الأخلاّء إلاّ بالمجاز، لأنّ المعنى الحقيقى أعنى تخلّل كلّ من الخليلين فى وجود الاخر غير متصوّر، فلا بدّ من ارتكاب المجاز و المصير إلى أنّ مودّة كلّ منهما بلغت الغاية بحيث تخلّلت القلب و صارت خلاله و باطنه، و بعد البناء على المجاز

ففيما نحن فيه أيضا كذلک، فيراد به مزيد الاختصاص لاستلزام كمال المودّة ذلک و أمّا ثانيا فلأنّ البيت لا شاهد فيه على ما ادّعاه، إذ المراد به المبالغة فى تخلّل محبّة محبوبه فى قلبه بتشبيهها بتخلّل الرّوح، و ليس المراد تخلّل نفس المحبوب فى ذاته كما قال: و بذلک السبب سمّى الخليل خليلا لكون محبّته داخلة فى قلب خليله، مضافا إلى أنّه لا دلالة فى البيت على أنّه أراد بالخليل إبراهيم حتّى يستشهد به على المدّعا.

و أمّا ثالثا فلأنّ وجه التسمية لو كان ما زعم لما اختصّ الخليل عليه السّلام بالخلّة إذ على أصله الفاسد جميع المخلوقات متخلّلة فيه و هو متخلّل فيها لكونها جميعا مجاليه و مظاهره، و قد صرّح بذلک أيضا أخيرا بقوله: فالمتخلّل محجوب بالمتخلّل إلى آخر كلامه، و على ذلک فيكون اللّه سبحانه و تعالى خليل جميع الموجودات من الانسان و الحيوان و غيرهما بجميع أنواعها و أصنافها، و كذلک جميع الموجودات حتّى الكلاب و الخنازير و العياذ باللّه ثمّ العياذ باللّه خليلا له، أ فيرضى السّنّى فيه بهذا الاعتقاد فضلا عن العاقل؟! و قد صرّح بالعموم أيضا فى الفصّ الاسماعيلى بقوله:

«فلا تنظر إلى الحقّ فتعريه عن الخلق و لا تنظر إلى الخلق و تكسوه سوى الحق»

قال القيصرى: أى لا تنظر إلى الحقّ بأن تجعله موجودا خارجيا مجرّدا عن الأكوان منزّها عن المظاهر الخلقية عاريا عنها و عن صفاتها، و لا تنظر إلى الخلق بأن تجعله مجرّدا عن الحقّ مغايرا له من كلّ الوجوه و تكسوه لباس الغيرية و قد قال تعالى: «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ »، بل انظر إلى الحقّ فى الخلق لترى الوحدة الذاتيّة فى الكثرة الخلقيّة و ترى الكثرة الخلقيّة فى الوحدة الذاتيّة.

و أمّا رابعا فلأنّ قوله: فاسم المفعول هو الظاهر و اسم الفاعل هو الباطن المستور و هو غذاء له، فيه إنّا لم نر إلى الان فى آية و لا رواية و لا فى كلام حكيم أو متكلم أو محدّث أو فقيه و لا عاقل و لا سفيه غير هذا المعتوه اطلاق أنّ اللّه غذاء للخلق و الخلق غذاء اللّه، مضافا إلى فساده فى نفسه لأنّ الغذاء بالمعنى الحقيقى

مستحيل ارادته، و إن اريد به المجاز على وجه الاستعارة حسبما تمحله القيصرى و أشار إليه فى قوله: و الظّاهر انّما يغتذى من الباطن لأنّ الفيض عليه لا يحصل إلاّ منه فالباطن غذاء الظاهر إذ به قوامه و وجوده، فبعد تسليم صحّة هذا التّجوّز و الغضّ عن استكراه الذوق السّليم له و استهجانه عنده، فيه أنّه إنّما يستقيم إذا كان الباطن المستور هو الحقّ لا الخلق، و إلاّ فيلزم افتقار الحقّ سبحانه و تعالى إلى الخلق فى قوامه و وجوده و هو محال كما هو ظاهر.

و قد فصّلا غذائية كلّ منهما للاخر فى الفصّ اللقمانى قال فى المتن:

«إذا شاء الاله يريد رزقا له فالكون أجمعه غذاء»

«و إن شاء الاله يريد رزقا لنا فهو الغذاء كما يشاء»

قال الشّارح: أى إذا تعلقت مشيّته بأن يريد له رزقا فالكون بأجمعه غذاء له، و قد تقدّم أنّ الحقّ من حيث أسمائه و صفاته لا يظهر فى الشهادة إلاّ بأعيان الأكوان، و إن كان من حيث ذاته مع قطع النظر عن الظهور و البطون و الأسماء و الصّفات غنيّا عن العالمين، فالأعيان غذاء له من حيث إظهارها إيّاه و من حيث فنائها و اختفائها فيه ليظهر بوحدته الحقيقيّة كفناء الغذاء و انعدامها و اختفائها فى المغتذى و إن كان باعتبار آخر هو غذاء للأعيان.

و إليه أشار بالبيت الثانى و ذلک لأنّ الغذاء هو ما يغتذى فى عين المغتذى و يظهر على صورته ليقوم به و الهويّة الالهية هى الّتى تختفى فى أعيان الخلايق و تصير ظاهرة بصورتها مقوّمة لها، فهى غذاء للأعيان و نسبة الاغتذاء و الرّزق إليه مع أنّه يطعم و لا يطعم و نسبة كونه غذاء لنا بعينها كنسبة بعض الصّفات الكونيّة إليه بقوله: من ذا الّذى يقرض اللّه قرضا حسنا، و مرضت فلم تعدنى، و أمثال ذلک ممّا جاء فى الشّرع.

و هذه النسبة أيضا من باطن الشّرع فانّ النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعطى الكتاب و أمر باخراجه إلى الخلق فلا ينبغى أن يسىء أحد ظنّه من المؤمنين فى حقّ الأولياء و الكاملين فى أمثال هذه الأشياء، انتهى.

ص:182

و مقتضـى ما ذكراه من كون الكون بأجمعه غذاء له و بالعكس أنّ الكلاب و الخنازير و الميتة و نحوها غذاء له سـبحانه و هو غذاء لها إن هو إلاّ كفر صريح و إلحاد صحيح.

و ما اعتذر به الشّارح من ورود أمثال ذلک فی الشّرع فيه إنّا تابعون للشرع فاذا ورد فی الشّرع وصفه ببعض الصّفات الكونيّة فنحن أيضا نصفه به لثبوت الاذن فيه من الشّارع و نؤوّله على وفق الاصول الشّرعية، و أمّا ما لم يثبت الاذن فيه فنضـربه على الجدار فضـلا عمّا علم بطلانه و فساده من العقل و الشّرع.

و أمّا قوله: و هذه النسـبة أيضا من باطن الشّرع فانّ النّبىّ اعطى الكتاب و امر باخراجه إلى الخلق، فأشار به إلى ما ذكره فی ديباجة الفصوص بقوله:

فانّی رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فی مبشرة اريتها فی العشر الاخر من المحرّم لسنة سبع و عشرين و ستّمأة بمحروسة دمشق و بيده كتاب فقال لی: هذا كتاب فصوص الحكم خذه و اخرج به إلى النّاس ينتفعون به، انتهى.

و لعمری إنّ هـذه الرّؤيـا إمّا إفک و افتراء لا أصل لها أصـلا و إنّما نسـجتها من تلقاء نفسه لتفتين مردته الحمقاء و ترويـج كتاب ضـلاله، أو أضـغاث أحلاـم نفثها الشّيطان فی روعه و ألقاها فی امنيّته و كيف يمكن أن يؤتيه النّبىّ كتابا فيه هـدم أساس دينه و تخريب بنيان مـذهبه و ملّته.

و أما خامسا فلأنّ قوله: فالحقّ سـمع الخلق و بصره و يده و رجله و جميع قواء كما ورد فی الخبر الصّحيح فيه إنّ هذا الخبر الذی استند إليه هنا و جعله سـند مـذهبه الفاسـد فی مقامات كثيرة من كتابه قـد قـدّمنا روايته فی ذيل الدليل العقلی و أوردنا فی تأويله وجوها عديدة موافقة لأصول المذهب و نقلنا عن المحدّث العلامة المجلسی هناک أنّ حمله على ظاهره كما ذهب إليه هذه الطّايفة المبتدعة كفر صريح و شرک قبيح.

و أقول هنا: إنّ أظهر الوجوه المحتملـة فی معناه هو الوجه الأخير المتقدّم ثمة و محصّلة أنّ العبد إذا تقرّب إلى ربّه بالفرايض و النّوافل صار مقرّبا له

و محبوبا إليه، فيفاض عليه التّوفيقات الرّبانيّة و يحيط به الألطاف الالهيّة فلا يشاء إلاّ أن يشاء اللّه، و لا يصرف حواسه و مشاعره إلاّ بما فيه رضا مولاه، و بازاء ذلک من انهمک فی الشّهوات و غمر فی بحر السّيئات و الخطيئات فيحيط به الخذلان و يكون قلبه عشّ الشّيطان فلا يصرف مشاعره و قواه إلاّ بما فيه رضاه فيشركه فی سلطانه و ينطق بالباطل علی لسانه.

و الحاصل أنّ مساق هذه الرّواية فی حقّ عباد اللّه المقرّبين مساق قول أمير المؤمنين عليه السّلام فی حقّ عبيد الشّيطان المبعدين حيث قال فی المختار السّابع:

اتّخذوا الشّيطان لأمرهم ملاكأ و اتّخذهم له أشراكا فباض و فرّخ فی صدورهم و دبّ و درج فی حجورهم فنظر بأعينهم و نطق بألسنتهم فركّب بهم الزّلل و زيّن لهم الخطل فعل من قد شرّكه الشيطان فی سلطانه و نطق بالباطل علی لسانه.

فكما أنّ المراد بهذا الكلام المجاز و الاستعارة قطعا لا الحقيقة، فكذلک الحديث المذكور كما هو غير خفیّ علی ذوی البصائر إلاّ أنّ من لم يجعل اللّه له نورا فما له من نور، هذا.

و ممّا وقع التصريح فيه أيضا فی كلام ابن العربی بأنّ الحقّ مستور فی الخلق و الخلق ساتر له ما صريح عبارته فی الفصّ العيسوی، فانّه بعد ما ذكر كيفية إحياء عيسی عليه السّلام للموتی و مشاهدة القوم ذلک منه و تحيّرهم فيه فی إحيائه لكونه من الخصائص الالهيّة قال:

«فأدّی بعضهم إلی القول بالحلول و انه هو اللّه بما أحيی به من الموتی و لذلک نسبوا إلی الكفر و هو السّتر لأنّهم ستروا اللّه الّذی أحيی الموتی بصورة بشريّة عيسی» قال القيصری: أی فأدّی نظر بعضهم فيه إلی القول بالحلول فقال: إنّ اللّه حلّ فی صورة عيسی فأحيی الموتی، و قال بعضهم: إنّ المسيح هو اللّه، و لمّا ستروا اللّه بالصورة العيسوية المقيّدة فقط نسبوا إلی الكفر.

«فقال اللّه تعالی «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ » فجمعوا بين الخطاء و بين الكفر فی تمام الكلام كلّه» أی جمعوا بين الكفر و هو ستر الحقّ بالصورة

العيسويـة و بين الخطاء و هو حصـر هويـة اللّه فى كلمة العيسوية، و المراد بقوله فى تمام الكلام أى بمجموع قولهم إنّ اللّه هو المسـيح بن مريم، جمعوا بين الكفر و الخطاء.

«لا ـ بقولهم هو اللّه و لا بقولهم ابن مريم» لأنّ قولهم هو اللّه أو اللّه هو صادق من حيث إنّ هويّة الحقّ هى الّتى تعيّنت و ظهرت بالصورة العيسويّة كمـا ظهرت بصورة العـالم كلّه و قولهم: المسـيح بن مريم أيضـا صادق، لأنّه ابن مريم بلا شک لكن تمام الكلام و مجموعه غير صحيح لأنّه يفيد حسر الحقّ فى صورة عيسى فقط و هو الباطل لأنّ العالم كلّه غيبا و شهادة صورته لا عيسى فقط، انتهى.

و محصّل كلامهما أنّ النّصارى القائلين بالحلول إنّما أرادوا بـذلک أنّ لاهوتيّة الاله تغيّبت بناسوتيّة عيسـى فاسـتتر الحقّ بالصّورة العيسويّة كمـا حكى اللّه تعـالى عنهم ذلـک بقوله: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قـالُوا إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ »، فـانّ المراد بـالكفر هنا معناه اللّغوى و هو السّتر لا الاصـطلاحى، فيكون معنى الاية: إنّ الّذين قالوا إنّ اللّه هو المسـيح قد ستروه به و هم كانوا مصيبين فى ذلک القول و الاعتقاد لكون الهويّة الالهيّة مختفيـة فيه و ظهورهـا بصورته كاختفائها فى أعيان الخلايق كلّها و ظهورها بصورها، لكنّهم أخطئوا فى حصـرهم الحقّ فى صورة عيسى فقط و جعله مظهرا له دون غيره مع أنّ العالم كلّه مظهره لا عيسى فقط.

و الحاصل أنّ النصارى انّما أخطئوا حيث قالوا: انّ اللّه هو المسـيح بن مريم و لم يقولوا إنّ اللّه هو العالم كله، فلو قالوا كـذلک ارتفع عنهم الخطاء و العايبة بالمرّة.

أقول: هذا ملخّص مراد هذا الملحد الضّليل الّذى أضلّ كثيرا و ضلّ عن سواء السبيل، فانظر الى أنّه كيف يبدّل كلمة الكفر بالاسلام و كلمة الاسلام بالكفر و يؤوّل كلام اللّه الظاهر بل النّص فى تكفير النصارى إلى معنى يشمئزّ منه الطباع و تنفرّ عنه الأسماع.

فيـا عجبـا عجبا و مالى لا أعجب من أنّ اللّه سـبحانه و تعالى إنّما حكم بكفر النصارى و لعنهم و طردهم و ابعادهم من أجل قولهم بحلوله فى عيسى فقط فكيف بمن يقول بحلوله

ص:185

فی جمیع الأعیـان و الأکوان حتّی الکلاب و الخنازیر نعوذ باللّه ثمّ نعوذ باللّه من هـذا الاعتقاد الفاسـد و لعن اللّه المعتقـدین به و عـذّبهم عذابا ألیما لا یعذّبه أحدا من العالمین.

الوجه الثانی من وجوه الدّلالة قوله علیه السّلام: الظاهر لا برؤیة و الباطن لا بلطافة

یعنی انّه ظـاهر بلا اقتراب و باطن بلا حجاب و بعبارة اخری أنّه عزّ و جلّ ظاهر بایاته و محتجب بـذاته و لیس ظهوره کظهور ساير الأشـیاء بأن یکون مرئیّا بحاسّة البصـر، و لا بطونه بلطافة قوامه کالهواء و الرّوح و نحوهما حسـبما عرفت تفصـیلا فی مقامه و الیه أشار سبحانه بقوله: «لا تُدْرِکُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِیفُ الْخَبِیرُ ».

و قال الرّضا علیه التحیّـة و الثنا فی الحـدیث الّـذی رواه فی البحار من التوحیـد و العیون عن الحسـین بن خالد عنه علیه السّـلام فی تفسـیر أسـمائه سبحانه و تعالی و بیان أنّ اطلاقها علیه عزّ و جلّ لیس علی الوجه الّذی یطلق علی غیره و أنّ المعنی الّذی یراد عند إطلاق اسم علیه سبحانه مخالف للمعنی المراد عند إطلاقه علی غیره قال علیه السّلام:

و أمّا الظاهر فلیس من أجل أنّه علی الأشـیاء برکوب فوقها و قعود علیها و تسـنّم لـذراها، و لکن ذلک لقهره و لغلبته الأشـیاء و قـدرته علیها «الی أن قـال:» و وجه آخر أنّه الظاهر لمن أراده لا یخفی علیه شـیء و أنّه مـدبّر لکلّ ما یری فأیّ ظاهر أظهر و أوضـح أمرا من اللّه تبارک و تعالی فانک لا تعدم صنعته حیثما توّجهت و فیک من آثاره ما یغنیک و الظاهر منّا البارز بنفسه و المعلوم بحدّه فقد جمعنا الاسم و اختلف المعنی.

و أمّا الباطن فلیس علی معنی الاسـتبطان للأشـیاء بأن یغور فیها و لکن ذلک منه علی اسـتبطانه للأشیاء علما و حفظا و تدبیرا کقول القائل: بطنته أی خبّرته و علمت مکتوم سرّه، و الباطن منّا بمعنی الغائر فی الشیء المستتر فقد جمعنا الاسم و اختلف المعنی، الحدیث.

فقـد علم بـذلک کلّه بطلاـن ما زعمه الصّوفیّـة، فانّهم یقولون: إنّ ظهوره عبارة عن ظهوره بصور الموجودات کما حکینا عن القیصـری فیما سبق من قوله: إنّ حقیقة

الوجود إذا اخذت بشـرط الصّور الحسـيّة الشهادتيّة فهى مرتبة الاسم الظّاهر المطلق، و أنّ بطونه عبارة عن تخلّله و احتجابه بالخلق حسبما عرفت قريبا، و على قولهم فيكون ظهوره برؤية البصر له فى مجاليه و مظاهره و بطونه للطافته و سراية هويّته فى الموجودات و اختفائه فيها.

و قد أشار إلى تفصيل ذلک ابن العربى فى الفصّ الهودى حيث قال:

«فالعـالم صورته و هو روح العـالم المـدبّر له، فالعـالم هو الانسان الكبير، فالعالم من حيث إنّه عالم صورة الحقّ و الحقّ روحه المـدبّر له، فالعـالم هو الانسـان الكبير فهو الكون كلّه و هو الواحـد الّـذى قـام كونى بكونه و لـذا قلت يغتـذى فوجودى غـذاؤه و به نحن نغتـذى» قال القيصـرى: أى الحقّ هو الوجود كلّه و هو الواحـد بحسب الـذّات و الحقيقـة و القيّوم الّذى قام وجودى و وجود العالم كلّه بوجوده و ذاته، و قوله: و لذا إشارة إلى قوله قام كونى بكونه أى و لأجل أنّ وجودى قائم بوجوده و وجوده ظاهر بوجودى نسبت الغذاء اليه فغذاؤه وجود العالم و غذاء العالم وجوده و أسماؤه لأنّ الغذاء عبارة عمّا به بقاء المغتذى فى الخارج و ذلک باختفائه و ظهوره على صورة من يغتذى، و لا شكّ أنّ وجودنا يحصل باختفاء هويّته فينا و ظهوره بصورنا و بقائنا أيضا يحصل بايصال الفيض الـدّائم الينا كذلک أعيان العالم يختفى فى ذاته و يظهر وجوده و أسماؤه و أحكامها فى الخارج.

إلى أن قالا بعد جملة من ترّهاتهما:

«إذ هو الظاهر و هو باطنها إذ هو الباطن» لأنّ الحقّ هو الظّاهر و ظاهريّته بصور العالم و الحقّ باطنها، لأنّه هو الباطن كما أنه هو الظّاهر «و هو الأوّل اذ كان و لا هى» أى الحقّ هو الأوّل لأنّه كان و ليس صور العالم موجودة كما قال عليه السّلام كان و لا شىء معه «و هو الاخر اذ كان عينها عند ظهورها» أى هو الاخر لأنّه عين أعيان العالم و صورها عند ظهورها فى الخارج «فالاخر عين الظاهر و الباطن عين الأوّل».

قال القيصرى: الاخر يطلق على معنيين:

أحدهما ما ذكره هنا و هو كون الحقّ عين الأعيان الخارجيّة الموجودة فى الخارج لأنّه آخر المراتب.

و ثانيهما كون الأعيان مستهلكة فى الحقّ بالفناء فيه، فعلى الأول الاخر عين الظاهر و الباطن عين الأوّل لكون الحقّ باطنا أوّلا و لا ظهور للأشياء إلى أن قالا:

«و إذا كان الحقّ وقاية للعبد بوجه» و هو كون الحق ظاهر العبد «و العبد وقاية للحقّ بوجه» و هو كون العبد ظاهر الحقّ «فقل فى الكون ما شئت إن شئت قلت هو الخلق» كما يقول المحجوبون باعتبار صفات النقص «و إن شئت قلت هو الحقّ» كما يقول الموحّدون باعتبار صفات الكمال «و إن شئت قلت هو الحقّ و الخلق» باعتبار الجمع بين الكمال و النقصان «و إن شئت قلت لا حقّ من كلّ وجه و لا خلق من كلّ وجه» كما يقول المحقّقون الجامعون بين المراتب الالهيّة و العبودية «و إن شئت قلت بالحيرة فى ذلک» كما قيل: العجز عن درک الادراک إدراک.

«فقد بانت تبعيّتک المراتب و لو لا التحديد ما أخبرت الرسل بتحوّل الحقّ فى الصّور و لا وصفته بخلع الصّور عن نفسه فلا تنظر العين إلاّ إليه و لا يقع الحكم إلاّ عليه».

قال القيصرى: لما كان كون الحقّ عين الأشياء يوجب التحديد قال: و لو لا التحديد واقعا فى نفس الأمر ما أخبرت الرّسل بأنّ الحقّ يتحوّل فى الصّور كما جاء فى الحديث الصحيح: إنّ الحقّ يتجلّى يوم القيامة للخلق فى صورة منكرة فيقول:

أنا ربّكم الأعلى فيقولون: نعوذ باللّه منک، فيتجلّى فى صورة عقايدهم فيسجدون له و الصّور كلّها محدودة، فاذ كان الحقّ يظهر بالصّور المحدودة و نطق الكتاب بأنّه هو الأوّل و الاخر و الظاهر و الباطن و هو بكلّ شىء عليم، حصل العلم للعارف أنّ الظاهر بهذه الصّورة أيضا ليس إلاّ هو فلا تنظر العين إلاّ إليه و لا يقع الحكم إلاّ عليه إذ لا موجود سواه ليكون مشاهدا إيّاه بل هو الشاهد و المشهود عليه و الحاكم و المحكوم عليه، انتهى.

و يتوجّه عليهما أوّلا أنّ البراهين المحكمة من العقل و النقل قد قامت على

استحالة رؤيته سبحانه بحسّ البصر، و قد تقدّم ذكرها مكرّرا فى تضاعيف الكتاب و قد قال تعالى صريحا: «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »، فنصّ كلام الحقّ سبحانه و تعالى ناطق بأنّ ما قالاه إفک و بهت و افتراء.

و أمّا ثانيا فقد عرفت سابقا و ستعرف أيضا مباينة الحقّ للخلق و مفارقة الصّانع و المصنوع و الربّ و المربوب و الحادّ و المحدود، و مع ذلک فكيف يمكن أن يكون الحقّ وقاية للعبد و العبد وقاية للحقّ و يتفرّع على ذلک بطلان الوجوه الأربعة جميعا لكونها كلّها خلاف ما قاله الأنبياء و الرّسل و الحجج المعصومون سلام اللّه عليهم أجمعين، نعم الحيرة فى ادراک ذاته حقّ من جهة تنزّهه عن التحديد لا بالمعنى الّذى توهّمه هذا الجاهل، فانّ حجج اللّه المعصومين مع كونهم عالمين بحقايق الأشياء على ما هى عليها بالعلم اللدنّى قد اعترفوا بالعجز عن إدراک ذاته و قد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما عرفناک حقّ معرفتک، فعلم أنّ عجزهم ليس من جهة استتاره فى الخلق و استتار الخلق فيه كما زعمه هذا الضليل.

و أمّا ثالثا فانّ ما نسبه إلى الرّسل كذب فاحش و الحديث الذى استدلّ به من أنّ الحقّ يتجلّى للعبد يوم القيامة اه موضوع مجعول لكونه مخالفا للعقل و النّقل و الضّرورة.

و مثله فى الجعل ما رواه الغزالى فى آخر كتاب احياء العلوم عن جرير بن عبد اللّه البجلّى قال: كنّا جلوسا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فرأى القمر ليلة البدر فقال: إنّكم ترون ربّكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته.

و روى عن صحيح مسلم عن صهيب قال: قرء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله تعالى:

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ »، قال: إذا دخل أهل الجنّة الجنّة و أهل النّار النّار نادى مناد يا أهل الجنّة إنّ لكم عند اللّه موعدا يريد أن ينجزكموه، قالوا:

ما هذا الموعد ألم يثقّل موازيننا و يبيّض وجوهنا و يدخلنا الجنّة و يجرنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب و ينظرون إلى وجه اللّه عزّ و جلّ فما اعطوا شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى وجه اللّه.

قال الغزالى: و قد روى حديث الرّؤية جماعة من الصّحابة.

أقول: و لو روى ألف صحابة حديثا مفيدا لرؤيته سبحانه بحاسة البصر لطرحناه لكونه مخالفا لنصّ الكتاب فضلا عن البراهين الساطعة، نعم لو كان حديثا معتبرا قابلا- للتّأويل أوّلناه كما نؤوّل قوله تعالى: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ »، و قوله: «فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ »، و نحوهما بما لا يخالف اصول المذهب و اللّه هو الهادى.

الوجه الثالث من وجوه الدلالة قوله عليه السّلام: بان من الأشياء بالقهر لها و القدرة

عليها و بانت الأشياء منه بالخضوع له و الرّجوع إليه.

فانّه صريح فى مباينته للأشياء بغلبته و استيلائه عليها و قدرته على ايجادها و إعدامها كما هو شأن الواجب تعالى و بخضوع الأشياء و ذلّها فى قيد الامكان و رجوعها و افتقارها فى وجودها و كمالاتها إليه عزّ و جلّ كما هو مقتضى حال الممكن و مع ذلک فكيف يمكن جعل أحدهما عين الاخر على ما ذهب إليه المتصوّفة.

الوجه الرابع قوله عليه السّلام: من وصفه فقد حدّه إلى قوله: فقد أبطل أزله

و هو صريح فى تنزّهه سبحانه عن الأوصاف و الحدود الامكانيّة فيبطل القول بظهوره فى صور الموجودات و اتّصافه بأوصافها و حدودها و تشكله بأشكال المختلفة كما هو مذهب الصوفيّة خذلهم اللّه تعالى.

و منه

أكثر فقرات الخطبة المأة و الثانية و الستّين:

فمنها قوله عليه السّلام فيها: حدّ الأشياء عند خلقه لها إبانة له من شبهها

أى انّه تعالى جعل للأشياء عند ايجاده إيّاها أجزاء و ذاتيات إن كان الحدّ بمعناه المنطقى أو حدودا و نهايات إن كان بمعناه اللّغوى و محصّله أنّه تعالى جعلها محدودة مشخصة بحدود معيّنة تقف عندها و لا يتجاوز عنها إلى غيرها.

و إنّما جعلها كذلک ليتميّز بعضها عن بعض و يفترق أحدها عن الاخر، لأنّ الشخص ما لم يتشخّص لم يوجد، و الوقوف إلى حدّ معيّن لا بدّ له من علّة محدّدة إذ ماهية الشىء لو كانت مقتضية للانتهاء إلى ذلک الحدّ المخصوص لكان

جميع افراد تلک الماهيّة كذلک و ليس فليس و العلة المحدّدة لابد أن يكون منزّها عن الحدّ و الاّ فيحتاج إلى علّة اخرى فيتسلسل.

و بعبارة اخرى الأشياء لكونها ذى ماهية مركّبة من الجنس و الفصل محدودة بالحدّ المنطقى و لكونها منتهية إلى حدّ معيّن و مقدار مشخّص محدودة بالحدّ اللغوى. و هو من لواحق الكمّ المتصل و المنفصل اللذين هما من أقسام العرض، و الواجب تعالى لكونه منزّها عن التّركيب المستلزم للافتقار لا يكون محدودا بالحدّ المنطقى، و لعدم كونه عرضا امتنع أن يكون محدودا بالحدّ اللغوى فيكون مباينا لمخلوقاته منزّها عن مشابهتها بنفس ذاته.

و قال عليه السّلام فى هذه الخطبة أيضا بعد جملة كلام له:

تعالى عما ينحله المتحدّدون من صفات الأقدار و نهايات الأقطار و تأثّل المساكن و تمكّن الأماكن فالحدّ لخلقه مضروب و إلى غيره منسوب.

و اوضح منهما ما فى البحار من التّوحيد للصدوق باسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبى عبد اللّه عن أمير المؤمنين فى خطبة طويلة له عليه السّلام قال: لمّا شبّهه العادلون بالخلق المبعض فى صفاته ذوى الأقطار و النواحى المختلفة فى طبقاته و كان عزّ و جلّ الموجود بنفسه لا بأداته انتفى أن يكون قدّروه حقّ قدره فقال تنزيها لنفسه عن مشاركة الأنداد و ارتفاعا عن قياس المقدّرين له بالحدود من كفرة العباد: «وَ ما قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمّا يُشْرِكُونَ » و مثل هذه فى الدّلالة على تنزّهه سبحانه من التحديد و التّشبيه أخبار كثيرة قريبة من التواتر بل متواترة.

مثل ما رواه فى البحار من توحيد الصدوق عن إبراهيم بن محمّد الهمدانى قال:

كتبت إلى الرّجل يعنى أبا الحسن عليه السّلام إنّ من قبلنا من مواليک قد اختلفوا فى التّوحيد: فمنهم من يقول: جسم، و منهم من يقول: صورة، فكتب عليه السّلام بخطه:

سبحان من لا يحدّ و لا يوصف ليس كمثله شىء و هو السميع العليم أو قال البصير.

و فيه أيضا عن الصادق عليه السّلام أنّه قال لهشام: إن اللّه تعالى لا يشبه شيئا و لا

يشبهه شيء و كلّما وقع فى الوهم فهو بخلافه.

قال و روى عنه عليه السّلام أيضا أنّه قال: سبحان من لا يعلم أحد كيف هو إلاّ هو ليس كمثله شيء و هو السميع البصير لا يحدّ و لا يحسّ و لا يدركه الأبصار و لا يحيط به شيء و لا هو جسم و لا صورة و لا بذى تخطيط و لا تحديد.

و فيه من التوحيد عن هشام بن إبراهيم العباسى قال: قلت له يعنى أبا الحسن عليه السّلام: جعلت فداک أمرنى بعض مواليک أن أسألک عن مسألة قال عليه السّلام: و من هو؟ قلت: الحسن بن سهل، قال: و فى أىّ شيء المسألة؟ قال: قلت: فى التوحيد قال: و أىّ شيء من التوحيد؟ قال: يسألک عن اللّه جسم أولا جسم، فقال عليه السّلام لى: إنّ للنّاس فى التوحيد ثلاثة مذاهب: إثبات بتشبيه، و مذهب النفى، و مذهب إثبات بلا تشبيه، فمذهب الاثبات بتشبيه لا يجوز، و مذهب النفى لا يجوز، و الطريق فى المذهب الثالث إثبات بلا تشبيه.

و فيه من التوحيد عن المفضّل بن عمر عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من شبّه اللّه بخلقه فهو مشرک إنّ اللّه تبارک و تعالى لا يشبه شيئا و لا يشبهه شيء و كلّما وقع فى الوهم فهو بخلافه.

و فيه من العقائد باسناده عن محمّد بن زياد قال: سمعت يونس بن ظبيان يقول:

دخلت على أبى عبد اللّه عليه السّلام فقلت له: إنّ هشام بن الحكم يقول قولا عظيما إلاّ انّى أختصر لک منه أحرفا يزعم أنّ اللّه جسم لأنّ الأشياء شيئان، جسم و فعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصّانع بمعنى الفعل و يجوز أن يكون بمعنى الفاعل، فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: ويله أما علم أنّ الجسم محدود متناه و الصورة محدودة متناهية فاذا احتمل الحدّ احتمل الزّيادة و النقصان و إذا احتمل الزّيادة و النقصان كان مخلوقا، قال: قلت: فما أقول؟ قال: لا جسم و لا صورة و هو مجسّم الأجسام و مصوّر الصور، و لم يتجزّأ و لم يتناه و لم يتزايد و لم يتناقص لو كان كما يقول لم يكن بين الخالق و المخلوق فرق، و لا بين المنشيء و المنشأ، لكن هو المنشيء فرّق بين من جسّمه

و صوّره و أنشأه إذا كان لا يشبهه شيء و لا يشبه هو شيئا.

قال المحدّث العلامة المجلسى بعد روايته ذلک:

استدلّ عليه السّلام على نفى جسميّته تعالى بأنّه لو كان جسما لكان محدودا بحدود متناهيا إليها لاستحالة لا تناهى الابعاد، و كلّ محتمل للحدّ قابل للانقسام باجزاء متشاركة فى الاسم و الحدّ، فله حقيقة كليّة غير متشخّصة بذاتها و لا موجودة بذاتها إذ هو مركّب من أجزاء حال كلّ واحد منها ما ذكر فيكون مخلوقا، أو بأنّ كل قابل للحدّ و النّهاية قابل للزّيادة و النقصان لا يتأبّى عنهما فى حدّ ذاته و إن استقرّ على حدّ معيّن فانّما استقرّ عليه من جهة جاعل.

ثمّ استدلّ عليه السّلام بوجه آخر و هو ما يحكم به الوجدان من كون الموجد أعلى شأنا و أرفع قدرا من الموجد، و عدم المشابهة و المشاركة بينهما و إلاّ فكيف يحتاج أحدهما إلى العلّة دون الاخر، و كيف صار هذا موجدا بدون العكس، و يحتمل أن يكون عدم المشاركة و المشابهة فيما يحتاج إلى العلّة فيحتاج إلى علّة اخرى، انتهى.

فقد علم بذلک كلّه كونه سبحانه منزّها عن الحدّ و الشّبه و أنّه يجب تنزيهه عن التحديد و التشبيه، و أنّ القائل بهما كافر مشرک.

و ذهب محيى الدّين على أصله الفاسد إلى أنّ القول بهما عين التّوحيد.

و القائل بهما مؤمن موحّد كامل، و النافى لهما عنه تعالى جاهل، و تبعه على ذلک القيصرى.

قال فى الفصوص فى الفصّ النّوحى:

«اعلم أنّ التّنزيه عند أهل الحقائق فى الجناب الالهى عين التحديد و التّقييد و المنزّه إمّا جاهل و إمّا صاحب سوء أدب».

قال القيصرى: اعلم أنّ التّنزيه إمّا أن يكون عن النقائص الامكانيّة فقط أو منها و من الكمالات الانسانية أيضا و كلّ منهما عند أهل الكشف و الشهود تحديد للجناب الالهى و تقييد له، لأنّه يميّز الحقّ عن جميع الموجودات و يجعل ظهوره فى بعض

مراتبه و هو ما يقتضـى التّنزيه دون البعض و هو ما يقتضـى التشبيه كالحياة و العلم و القدرة و الارادة و السـمع و البصر و غير ذلک، و ليس الأمر كذلک فانّ الموجودات بذواتهم و وجوداتهم و كمالاتهم كلّها مظاهر للحقّ و هو ظاهر فيهم و متجلّى لهم و هو معهم أينما كانوا فيه ذواتهم و وجودهم و بقاؤهم و جميع صفاتهم، بل هو الذى ظهر بهذه الصور كلّها فهى للحقّ بالأصالة و للخلق بالتّبعيّة، فالمنزّه إما جاهل بالأـمر على ما هو عليه أو عالم بأنّ العالم كلّه مظهره، فان كان جاهلا و حكم بجهله على اللّه و قيـده فى بعض مراتبه فهو جاهل و صاحب سوء أدب، و إن كان عالما به فقد أساء الأدب مع اللّه تعالى و رسله بنفيه عنه ما أثبته هو لنفسه فى مقامى جمعه و تفصيله.

هـذا فى مقام الالهيّـة، و أما فى مقام الأحديّـة الذاتيّة فلا تشبيه و لا تنزيه إذ لا تعدّد فيه بوجه أصـلا قال الشـيخ يعنى محيى الدين فى عنقاء المغرب مخاطبا للمنزّه و غاية معرفتک به أن تسلب عنه نقايص الكون و سلب العبد عن ربّه ما لا يجوز عليه راجع إليه، و فى هذا المقام قال من قال: سـبحانى دون التّوانى هيهات و هل يعرى من شىء إلاّ من لبسه أو يؤخذ شىء إلاّ من حبسه و متى لبس الحقّ صفات النقص حتّى تسـلبها عنه أو تعريه و اللّه ما هـذه حالـة التّنزيه فالتّنزيه راجع إلى تطهير محلک لا إلى ذاته و هو من جملة منحه لک و هباته و البارى منزّه عن التّنزيه فكيف عن التّشبيه.

قال الماتن «و لكن إذا اطلقاه و قالا به فالقائل بالشّـرايع المؤمن إذا نزّه و وقف عند التّنزيه و لـم ير غير ذلک فقد أساء الأدب و أكذب الحقّ و الرسل صلوات اللّه عليهم و هو لا يشعر و يتخيّل أنّه فى الحاصل و هو فى الفايت و هو كمن آمن ببعض و كفر ببعض».

قـال الشـارح: أى الجاهـل و صـاحب سوء الأدب إذا اطلقا التّنزيه و قالا به كلّ منهما إمّا أن يكون مؤمنا بالشـرايع و الكتب الالهيّـة أو غير مؤمن، فالمؤمن إذا نزّه الحقّ و وقف عنده و لـم يشبّه فى مقام التّشبيه و لـم يثبت تلک الصفات الّتى هى

كمالات فى العالم فقد أساء الأدب و كذّب الرسل و الكتب الالهيّة فيما أخبر به عن نفسه بأنّه الحىّ القيوم السميع البصير و لا يشعر بهذا التكذيب الصادر منه و يتخيّل أنّ له حاصلا من العلوم و المعارف و أنّه مؤمن و موّحد و ما يعلم أنّه فائت منه و هو كمن آمن ببعض و هو مقام التّنزيه و كفر ببعض و هو مقام التّشبيه، و غير المؤمن سواء كان قائلا بعقله كالفلاسفة أو لم يكن كمقلّديهم المتفلسفة فقد ضلّ و أضلّ، لأنّه ما علم الأمر على ما هو عليه و ما اهتدى بنور الايمان الرّافع للحجب و إنّما ترک هذا القسم لظهور بطلانه، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

و محصّله أنّ اللازم على المؤمن الموحّد أن يكون جامعا بين مرتبتى التّنزيه و التّشبيه، بأن ينزّهه فى مقام التنزيه من النّقايص الامكانيّة، و يشبّهه فى مقام التشبيه بأن يثبت له صفات الكمال الّتى فى المخلوقات من السمع و البصر و الارادة و الحياة و نحوها، لأنّ المخلوقات كلّها مظاهر له و كمالها كماله بل ليس فى الوجود خلق تشاهده العين إلاّ و عينه و ذاته عين الحقّ الظاهر فى تلک الصّورة.

كما قال فى الفصّ الهودى «و ما خلق تراه العين إلاّ عينه حقّ» و قال فى الفصّ الاسماعيلى ما هذه عبارته:

«فلا تنظر إلى الحقّ فتعريه عن الخلق و لا تنظر إلى الخلق و تكسوه سوى الحقّ

و نزّهه و شبّهه و قم فى مقعد الصدق»

قال القيصرى: أى لا تنظر إلى الحقّ فتجعله موجودا خارجيّا مجرّدا عن الأكوان منزّها عن المظاهر الخلقيّة عاريا عنها و عن صفاتها، و لا تنظر إلى الخلق بأن تجعل الخلق مجرّدا عن الحقّ مغايرا له من كلّ الوجوه و تكسوه لباس الغيريّة، بل انظر الى الحقّ فى الخلق لترى الوحدة الذاتيّة فى الكثرة الخلقية و ترى الكثرة الخلقية فى الوحدة الذّاتية، و نزّه الحق الّذى فى الخلق بحسب مقام أحديّته عن كلّ ما فيه شايبة الكثرة و الامكانيّة و النقصان، و شبّهه أيضا بكلّ صفات كماليّة كالسمع و البصر و الارادة و القدرة، فانّک إذا جمعت بين التّشبيه

و التنزيه كما هو عادة الكاملين فقد قمت مقام الصدق و هو مقام الجمع بين الكمالين.

و أوضح ذلک فی الفصّ الالیاسی و شرحه بقوله:

«و إذا أعطاه اللّه المعرفة بالتجلّی کملت معرفته باللّه فنزّه فی موضع و شبّه فی موضع» أی نزّه فی موضع التّنزیه تنزیها حقانیا و شبّه فی موضع التّشبیه تشبیها عیانیا فیکون تنزیهه تنزیه الحقّ و تشبیهه تشبیه الحقّ «و رای سریان الحقّ بالوجود فی الصّور الطبیعیّة و العنصریة فما بقیت له صورة إلاّ و یری عین الحقّ عینها و هذه المعرفة التّامة فلا یمکن أن یخلو تنزیه عن تشبیه و لا تشبیه عن تنزیه».

و ذلک لأنّ کلّ ما نزّهته عنه من النقائص فهو ثابت له عند ظهوره فی المراتب الکونیّة و هو التشبیه، و کلّ ما شبّهته به و أثبتّ له من الکمالات فهو منفیّ عنه فی مرتبة أحدیّته و هو التنزیه، و علی ذلک فلا یجوز للمؤمن أن یقتصر فی مقام التوحید علی التّنزیه فقط.

أمّا أوّلا فلأنّ التنزیه عن التحدید و التّشبیه عین التحدید لأنّ التّمیز عن کلّ شیء محدود بتمایزه عنها.

و أمّا ثانیا فلأنّه جهل باللّه الکریم حیث إنّه قیّده فی بعض مراتبه و میّزه عن سایر مجالیه و مظاهره.

و أمّا ثالثا فلأنّه أساء الأدب مع اللّه و مع رسوله حیث لم یثبت له صفات الکمال الّتی له فی مجالیه.

و أمّا رابعا فلأنّه کذّب اللّه و رسوله فیما أخبرا به من اتّصافه بصفات الکمال، هذا.

و أنت خبیر بتدلیس هذا الجاهل الضّلیل و تلبیسه الباطل بصورة الحقّ و الحقّ بصورة الباطل غیر خفیّ علی الفطن العارف لأنّ العقل و النقل و الأنبیاء و الرسل جمیعا متّفقون علی تنزّهه سبحانه عن النقائص الامکانیة و عن اتّصافه بصفات المحدثات و عن مشابهة المخلوقات و قد نزّه ذاته و هو أعلم به من غیره فی کتابه

ص:196

الكريم بقوله: «وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ » و قال أيضا: «سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً »، و قال: «فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ »، و قال: «سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمّا يَصِفُونَ »، و قال: «أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللّهِ سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ » إلى غير هذه من الايات البيّنات.

و أمّا الوجوه الّتى استند إليها فى عدم جواز الاقتصار على التّنزيه فكلّها فاسدة.

أمّا الوجه الأوّل فلمنع كون التنزيه موجبا للتحديد إذ معنى التنزيه هو ابداء المغايرة بين الحقّ و الخلق من أجل اتّصاف الخلق بصفات النقصان و عوارض الامكان، و كون الحقّ بريئا منها من حيث وجوب وجوده و كونه تامّا فوق التمام.

و بعبارة اخرى جعله سبحانه خلوّا من خلقه و خلقه خلوّا منه من أجل كون الخلق محدودا و الحقّ منزّها عن الحدّ، فحقيقة التّنزيه هو إظهار كونه مباينا لمخلوقاته مفارقا لها بنفس ذاته الأقدس الأعلى من أجل اتّصافها بالحدود و النهايات، و ذلک لا يوجب كونه محدودا بوجه أصلا لا بالحدّ الاصطلاحى و لا بالحدّ اللّغوى.

و إن أراد بقوله إنّه عين التحديد إنّ فيه تميز الحقّ عن كلّ ما سواه لما فيها من القصور و النقصان و المحدودية بحدود الامكان، فهذا هو محض الايمان المطلوب عقلا و شرعا فلا معنى للاستناد إليه فى عدم الجواز.

بل أقول: إنّ عمدة الغرض من التّنزيهات الواردة فى الكتاب المبين و الصادرة عن ألسنة الأنبياء و المرسلين و الملائكة المقرّبين و الحجج المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين ليس إلاّ تنزيهه سبحانه و تقديسه تعالى عمّا نسبته إليه عزّ و جلّ هذه الطايفة المضلّة الضّالة من ظهوره فى صور الموجودات و اتّصافه بصفات المحدثات فتعالى اللّه عما يقول الظالمون و سبحان اللّه ربّ العرش عمّا يصفون.

و أمّا الوجه الثانى فلمنع كونه جهلا بل هو محض العلم و العرفان و التوحيد

و الايمان، و إنّما الجاهل من قال بتجلّيه فى مخلوقاته و بظهوره فى صور مصنوعاته.

و أمّا الوجه الثالث فلأن سيّ ء الأدب من قال: سبحانى ما أعظم شانى، لا من قال سبحان اللّه و سبحان ربّى، و من قال: إنّى أنا اللّه و ليس فى جبّتى سوى اللّه لا من قال: لا إله إلاّ اللّه.

و أمّا الوجه الرّابع فلأنّ المكذّب للأنبياء و الرّسل أمثال هذا الجاهل القائل بتجلّيه فى مخلوقاته و اتّصافه بصفات محدثاته لا القائل بتنزّهه عن مجانسة مخلوقاته و اتّصافه بنعوت العظمة و الجلال و صفات العزّة و الجمال بذاته، و بعبارة اخرى المكذّب للرسل و الأنبياء من نزّه و شبه و قال: إنه كلّ الأشياء لا من قدّس و نزّه و قال: إنه ليس كمثله شيء و إنه شيء لا كالأشياء.

و الحاصل أنا ننزّهه من مشابهة غيره فى ذاته و صفاته و نصفه بصفات الكمال بذاته و نقول: إنه حيّ قيّوم عالم سميع بصير قادر خبير بمعنى أجلّ و أعلى على ما نبّه عليه الحجج المعصومون فى شرح الأسماء الحسنى، و نقدّسه من صفات المخلوق مطلقا سواء كانت صفة نقصان كالعجز و الحاجة و الافتقار أو صفة كمال كالعلم و الارادة و القدرة و الاختيار، فانّ هذه الصفات و ان كانت كمالات للمخلوق إلاّ أنّ اثباتها للخالق بالاعتبار الثابت للمخلوق موجب لاتّصافه بصفات المحدثات فتكون بالنسبة إليه تعالى نقصا لا كمالا.

و هذا هو الّذى دلّ عليه السنّة و الكتاب، و صرّح به الأئمة الأطياب، و حقّقه العلماء الراسخون و اولو الألباب.

و أما ما قاله هؤلاء الجهال: من أنّ صفات كماله هو عين صفات الكمال فى مخلوقاته لكونها مجاليه و مظاهره، فمما لم يرد به كتاب و لا سنة، بل هو افك و فرية بيّنة، و قد قال سبحانه: «أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ ».

و بالجملة فحالنا و حال هؤلاء كمال قال تعالى فى كتابه، فنحن نقول:

«رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى »

«اَللّهِ كَذِباً ».

و قد علم بذلک کلّه أنّ التنزیه ینافی التشبیه و التشبیه ینافی التنزیه بل لیس الغرض من التنزیه إلاّ التنزیه من التشبیه.

فظهر به أنّ ما قاله ابن العربی من أنه لا یمکن أن یخلو تنزیه عن تشبیه و لا تشبیه عن تنزیه غلط صرف و خبط واضح.

و أفحش من ذلک غلطا و شططا کلامه الّذی حکاه القیصری عن کتابه المسمّی بعنقاء المغرب.

فانّ قوله: إنّ تنزیه العبد لربّه راجع إلی تنزیهه لنفسه، و انّ معنی سبحان اللّه سبحانی لأنّ اللّه سبحانه لم یکن متّصفا بصفات النّقص حتّی ینزّه عنها و لا متلبّسا بها حتّی تسلب عنه و یعری منها، و انّما المتّصف بها هو المنزّه بنفسه فهو المحتاج إلی التّنزیه دون ربّه فقول باطل و کلام فاسد و من الفساد بمکان.

أمّا أوّلا فلأنّ تنزیه الرّب من النّقایص لا یستلزم اتّصافه بها فی الواقع أولا ثمّ یسلب لأنّ القضیّة السلبیّة لا یستلزم الایجاب و إلاّ لم یصحّ قوله تعالی: وَ «اَلْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِی لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ وَلِیٌّ مِنَ الذُّلِّ »، و بعد التّنزل نقول: إنّ المراد به تنزیهه عما وصفه به أهل الکفر و الضّلال و نسبه الیه السفهاء و الجهّال من المشبّهة و المجسّمة و الایصانیّة و المتصوّفة و غیرها من الجهال، و لذلک قال تعالی فی کتابه: سبحانه: و تعالی عمّا یقول الظّالمون، و قال:

«فَسُبْحانَ اللّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا یَصِفُونَ »، و قد قال: «قالُوا اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِیُّ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ ».

و أمّا ثانیا فلأن قوله: تنزیه الرّب راجع إلی تنزیه نفس المنزّه و تطهیر محلّه لا یقوله إلاّ سفیه أو مجنون لأنّ العیب و النقصان من لوازم ذات الممکن فکیف ینزّه المنزّه نفسه عنهما.

إذا عرفت ذلک فلنرجع إلی بقیّة کلامه الّذی نقلناه عن الفصّ النوحی.

قال بعد جملة من ترّهاته: «فنسبته لما ظهر من صور العالم نسبة الرّوح المدبّر

للصّورة فيؤخذ فى حدّ الانسان مثلا باطنه و ظاهره و كذلک كلّ محدود فالحقّ محدود بكلّ حدّ».

قال القيصـرى: أى إذا كان العالم صورة الحقّ و هو روحه فنسـبة الحقّ إلى كلّ ما ظهر من صور العالم نسـبة الرّوح الجزئى المـدبّر للصّورة المعيّنـة إليها فى كونه مـدبّرا، و لمّا كان ظاهر العالم ظاهر الحقّ و باطنه باطن الحقّ و الباطن و الظّاهر مأخوذ فى تعريف الانسان و تحديده لأنّه معرف بالحيوان الناطق و النّاطق باطنه و الحيوان ظاهره و الهيئة الاجتماعيّة الحاصلة من الجنس و الفصل ظاهره الّذى به سرى الأحديّة فيه و حقايقهما المشتركة و المميّزة باطنه و الحقّ مأخوذ فى حدّه، و كذلک كلّ محدود إذ لا بّد فى كلّ من المحدودات من أمر عامّ مشترک و أمر خاصّ مميّز و كلاهما ينتهيان إلى الحقّ الّذى هو باطن كلّ شىء فالحقّ محدود بكلّ حدّ لأن كلّما هو محدود بحدّ مظهر من مظاهره ظاهره من اسمه الظاهر و باطنه من اسمه الباطن و المظهر عين الظاهر باعتبار الأحديّة فالحقّ هو المحدود.

قال الماتن: «و صور العالم لا ينضـبط و لا يحاط بها و لا يعلم حـدود كلّ صورة منها إلاّ على قـدر ما حصل لكلّ عالم من صورة فلذلک يجهل حدّ الحق فانّه لا يعلم حدّه إلاّ و يعلم حدّ كلّ صورة و هذا محال حصوله فحدّ الحقّ محال».

قال الشّارح: أى صور العالم و جزئياته مفصـلا غير منضـبطة و لا منحصـرة و الحـدود لا تعلم إلاّ بعـد الاحاطة بصور الأشـياء و حقايقها، فالعلم بحدودها محال، فحدّ الحقّ من حيث مظاهره أيضا محال.

قال الماتن: «و كـذلک من شـبّهه و ما نزّهه فقـد قيّده و حدّده و ما عرّفه و من جمع فى معرفته بين التنزيه و التشبيه و وصـفه بالوصـفين على الاجمال لأنه يستحيل ذلک على التفصيل لعدم الاحاطة بما فى العالم من الصور فقد عرّفه مجملا لا على التفصيل» انتهى.

و محصـله أنّ الحقّ محدود بحدود غير متناهية لا يمكن معرفتها تفصيلا بل اجمالا و ذلک لأنه باطن العالم و صور العالم الذى هو مظهره غير متناهية و لا منضبطة، و حدودها كذلک لأنّ كلّ صورة فلها حد معيّن فيعدّد الحدود بتعين الصّور و بتعدّد حدودها يتعدّد حدود الحقّ فلا يمكن معرفتها إلاّ إجمالا كما لا يمكن معرفة صور

العالم و حدود تلک الصور إلاّ کذلک.

و قوله: و کذلک من شبّهه آه عطف علی ما سبق أی کما أنّ التنزیه بدون التشبیه عین التحدید و التقیید و مستلزم للجهل، فکذلک العکس فمن شبّهه و لم ینزّهه فقد قیّده بما یقتضیه التشبیه و حدّده بحدود المظاهر، فلم یعرّفه حقّ المعرفة لخلوّ معرفته من التنزیه، فالعارف من جمع بین التنزیه و التشبیه و وصفه بهما علی الاجمال لأنّ معرفة صور العالم التی نقیضها التشبیه غیر ممکنه تفصیلا حسبما عرفت، هذا محصّل کلامه و قد عرفت فساده بما لا مزید علیه.

و قالا فی الفصّ الهودی و شرحه: «و ما رأینا قطّ من عند اللّه تعالی فی حقّه تعالی فی آیة أنزلها أو اخبار عنه أوصله إلینا فیما یرجع إلیه إلاّ بالتحدید تنزیها کان أو غیر تنزیه أوّلها العماء الذی ما فوقه هواء و لا تحته هواء و کان الحقّ فیه قبل أن یخلق الخلق».

أی أول ذلک التحدید هو المرتبة العمائیة التی أشار الیها النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند سؤال الأعرابی أین کان ربّنا قبل أن یخلق الخلق؟ قال: کان فی عماء ما فوقه هواء و لا تحته هواء، و انما کان العماء أول التحدیدات لأنه لغة عبارة عن الضباب و فی اصطلاح أهل اللّه عبارة عن أول تعین ظهر للحقّ بحسب اسمه الجامع الالهی، و کلاهما محدودان، و هذه المرتبة هی مرتبة الانسان الکامل فانه أول ما تعیّن ظهر بالصورة المحمّدیة صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثمّ فصّلها فخلق منها أعیان العالم علما و خارجا.

«ثمّ ذکر انه استوی علی العرش فهذا تحدید أیضا» لأنّ الاستواء علیه ظهور الاسم الرّحمانی فی صورة العرشیّة و هو أیضا تحدید لأنّه یتعیّن فیظهر فیها.

«ثمّ ذکر انّه ینزل إلی السماء الدّنیا فهذا تحدید» أی ذکر الحقّ بلسان نبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّ اللّه ینزل کلّ لیلة إلی السماء الدّنیا فیقول: هل من تائب فأتوب علیه هل من مستغفر. فأغفر له و النّزول إلی المقام المعیّن تحدید.

«ثمّ ذکر انّه فی السّماء و انّه فی الأرض» کما قال: «وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّماءِ إِلهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلهٌ »، و کونه فی السّماء و فی الأرض تحدید.

«و انّه معنا أينما كنّا» أى و ذكر أنّه معنا كما قال: «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ ».

«إلى أن أخبرنا انّه عيننا» أى حدّد نفسه إلى أن جعله أعيننا كما قال: كنت سمه و بصره الحديث.

«و نحن محدودون فما وصف نفسه إلاّ بالحدّ و قوله ليس كمثله شىء حدّ أيضا إن أخذنا الكاف زائدة لغير الصفة» أى لا تكون للتشبيه ليفيد ليس مثل مثله شىء.

«و من تميّز عن المحدود فهو محدود بكونه ليس عين هذا المحدود فالاطلاق من التقييد تقييد و المطلق مقيّد بالاطلاق لمن فهم و إن جعلنا الكاف للصّفة فقد حدّدناه» أى على التقديرين يلزم التحديد، أمّا على الأوّل فلأنّ الممتاز عن المحدود لا يكون إلاّ محدودا بكونه ممتازا عنه كما أنّ الاطلاق المقابل للتقييد أيضا تقييد بعدم التقييد و المطلق مقيّد بالاطلاق، و أمّا على الثانى فلأنّ نفى مثل المثل اثبات للمثل و هو محدود فما يماثله أيضا محدود.

«و ان أخذنا ليس كمثله شىء على نفى المثل تحقّقنا بالمفهوم و بالاخبار الصحيح انّه عين الأشياء و الأشياء محدودة و ان اختلفت حدودها» أى و إن حملنا على نفى المثليّة مطلقا سواء كان زايدا أو غير زايد مع عدم القصد بوجود المثل بل المقصود المبالغة فى التّنزيه كما يقال: مثلك لا يغضب، و الغرض نفى الغضب منه يلزم التحديد أيضا، لأنّ ما يمتاز عن الشىء محدود بامتيازه عنه فسلب المثليّة تحدّده، و هو المراد بقوله: تحققنا بالمفهوم أى علمنا حقيقته بالمفهوم من الاية أنه محدود و كذلك تحديده بالخبر الصحيح و هو: كنت سمعه و بصره الحديث، لأنه صار عين الأشياء و الأشياء محدودة بحدود مختلفة و أن فى قوله: و إن اختلفت حدودها للمبالغة.

«فهو محدود بحدّ كلّ محدود فما يحدّ شىء إلاّ و هو حدّ للحقّ» لما كان الحدّ عبارة عن التعيين و الحدّ الاصطلاحى انما يسمى بالحدّ لأنه أيضا يعيّن الشىء و يميّزه عن غيره نقل الكلام إلى الحدّ الاصطلاحى الموجب لتعيّن الأشياء فى العقل و انما جعله محدودا بحدّ كلّ محدود لأنه عين لكلّ محدود فحدّه حدّ الحقّ و قوله و هو عايد إلى الحدّ الذى يدلّ عليه قوله فما يحدّ، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

ص:202

أقول: فياللّه لهـذا الرجل من سوء الاعتقاد و الزيغ عن نهج الرشاد و الاصـرار فى ترويج الزندقة و الالحاد، و صـرف الايات المحكمات عن ظواهرهـا إلى تصـحيح عبادة الطاغوت و الاسـتناد إلى المتشابهات فى اثبات مـذهب هو أوهن من بيت العنكبوت، و قـد قال عزّ من قائل: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَ الرّاسِخُونَ ».

فهل يحكم العاقل بـدليل متشابه على أنّ الحقّ بكل حـدّ محـدود؟ أم هل يسـلّم القول بوحـدة الوجود الذى هو فى معنى الكفر و الجحود بمجرّد الاستناد إلى كشف و شهود؟ و قد عرفت بطلان التشبيه و التحديد ببرهان متين و بيان لا عليه مزيد.

و الأدلّة التى استند اليها هنا فى اثبات تلك الدّعوة غير خفية الفساد على ذوى العقل و النهى.

أما الدليل الأول و هو حديث العماء ففيه أنه من مجعولات العامة و يدلّ عليه الأخبار النّافية للزّمان و المكان عنه تعالى و قد تقدّم كثير منها فى تضاعيف الشرح مضافا إلى قيام الدليل العقلى أيضا على ذلک كما أشار اليه الأئمة عليهم السّلام فى أخبارهم.

مثل ما رواه المحـدّث العلامـة المجلسـى «قـد» فى البحار من كتاب روضـة الواعظين قال: روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام انّه قال له رجل: أين المعبود؟ فقال: لا يقال له أين لأنه أيّن الأينيّة، و لا يقال له كيف لأنّه كيّف الكيفيّة، و لا يقال له ما هو لأنه خلق الماهيّة، سـبحانه من عظيم تاهت الفطن فى تيّار أمواج عظمته، و حصرت الألباب عند ذكر أزليّته، و تحيّرت العقول فى أفلاک ملكوته.

و فيه من كتاب التوحيد للصّدوق قال: و روى أنّه سـئل أمير المؤمنين عليه السّلام أين كان ربّنا قبل أن يخلق سماء و أرضا؟ فقال: أين سؤال عن مكان كان اللّه و لا مكان.

و فيه منه باسـناده عن المفضّل بن عمر عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: من زعم أنّ اللّه فى شـىء أو من شىء أو على شىء فقد أشرک، لو كان عزّ و جلّ على شىء لكان محمولا، و لو كان فى شىء لكان محصورا، و لو كان من شىء لكان محدثا.

قال العلامة المجلسى: قوله: لكان محمولا أى محتاجا إلى ما يحمله، و قوله:

محصورا أى عاجزا ممنوعا عن الخروج من المكان أو محصورا بذلک الشىء و محويا به فيكون له انقطاع و انتهاء فيكون ذا حدود و أجزاء.

و فيه منه باسناده عن حمّاد بن عمرو عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: كذب من زعم أنّ اللّه عزّ و جلّ فى شىء أو من شىء أو على شىء.

قال الصّدوق: الدّليل على أنّ اللّه عزّ و جلّ لا فى مكان أنّ الأماكن كلّها حادثة و قد قام الدّليل على أنّ اللّه قديم سابق للأماكن، و ليس يجوز أن يحتاج الغنىّ القديم إلى ما كان غنيّا عنه، و لا أن يتغيّر عمّا لم يزل موجودا عليه فصحّ اليوم أنّه لا فى مكان كما أنّه لم يزل كذلک.

و تصديق ذلک ما حدّثنا به القطان عن ابن زكريّا القطّان عن ابن حبيب عن ابن بهلول عن أبيه عن سليمان المروزى عن سليمان بن مهران قال قلت لجعفر ابن محمّد عليهما السّلام: هل يجوز أن تقول إنّ اللّه عزّ و جلّ فى مكان؟ فقال عليه السّلام: سبحان اللّه و تعالى عن ذلک انّه لو كان فى مكان لكان محدثا لأنّ الكائن فى مكان محتاج إلى المكان و الاحتياج من صفات الحديث لا القديم.

و أمّا الدليل الثانى فقد عرفت الجواب عنه فى شرح الفصل الخامس من الخطبة الاولى و قلنا هناک: إنّ المراد بالاستواء فى الاية هو الاستيلاء و السّلطنة.

و قال أمير المؤمنين فى رواية الاحتجاج عنه عليه السّلام فى جواب أسئلة الزّنديق المنكر للقرآن: يعنى استوى أمره و علا تدبيره.

و أما الدّليل الثالث فهو من مجعولات العامّة أيضا.

و يدل على ذلک صريحا ما رواه فى البحار من الأمالى و التوحيد و العيون عن الدّقاق عن الصّوفى عن الرّويانى عن عبد العظيم الحسنى عن إبراهيم بن أبى محمود قال: قلت للرّضا عليه السّلام يا ابن رسول اللّه ما تقول فى الحديث الّذى يروى النّاس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انّه قال: إن اللّه تبارک و تعالى ينزل كلّ ليلة إلى السّماء الدّنيا؟ فقال عليه السّلام: لعن اللّه المحرّفين للكلم عن مواضعه، و اللّه ما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذلک إنّما قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ اللّه تبارک و تعالى ينزل ملكا إلى السّماء الدّنيا كلّ ليلة

فی الثّلث الأخیر و لیلـة الجمعة فی أوّل اللیل فیأمره فینادی هل من سائل فأعطیه هل من تائب فأتوب علیه هل من مسـتغفر فأسـتغفر له، یا طالب الخیر أقبل و یا طالب الشـرّ اقصر، فلا یزال ینادی هذا إلی أن یطلع الفجر، فاذا طلع الفجر عاد إلی محلّه من ملکوت السّماء، حدّثنی بذلک أبی عن جدّی عن آبائه عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فیه من الاحتجاج عن یعقوب بن جعفر الجعفری عن أبی إبراهیم موسی علیه السّلام قال:

ذکر عنده قوم زعموا أنّ اللّه تبارک و تعالی ینزل إلی السّماء الدّنیا، فقال علیه السّلام:

إنّ اللّه لا ینزل و لا یحتاج إلی أن ینزل إنّما منظره فی القرب و البعـد سواء لم یبعد منه قریب و لم یقرب منه بعید، و لم یحتج إلی شـیء بل یحتـاج إلیه، و هو ذو الطول لا إله إلاّ هو العزیز الحکیم، أمّا قول الواصـفین إنّه ینزل تبارک و تعالی عن ذلک فانّما یقول ذلک من ینسـبه إلی نقص أو زیادة، و کلّ متحرّک محتاج إلی من یحرّکه أو یحرّک به، فمن ظنّ باللّه الظّنون فقد هلک و أهلک، فاحذروا فی صفاته من أن تقفوا له علی حدّ من نقص أو زیادة أو تحریک أو تحرّک أو زوال أو استنزال أو نهوض أو قعود، فانّ اللّه عزّ و جلّ عن صفة الواصفین و نعت النّاعتین، و توهّم المتوهّمین.

فانظر إلی هذا الحدیث الشـریف کیف أبطل ما یقوله الملاحدة بالدّلیل العقلی، فانّ قوله: فانّما یقول ذلک من ینسبه إلی نقص أو زیادة، یرید به أنّ النّزول المکانی إنّما یتصوّر فی حقّ المتحیّز و کلّ متحیّز موصوف بالتقدّر و کلّ متقدّر متّصف بالنقص عمّا هو زاید منه و بالزّیادة علی مـا هو أنقص منه أو یکون فی نفسه قابلاـ للزّیـادة و النّقصـان، و الوجوب الـذّاتی ینـافی ذلـک لاسـتلزامه التجزّی و الانقسـام المسـتلزمین للامکان.

و أیضا کلّ متحرّک یحتاج إلی من یحرّکه أو یتحرّک به لأنّ المتحرّک إما جسم أو متعلّق بالجسم و الجسم المتحرّک لا بـدّ له من محرّک لأنّه لیس یتحرّک بجسـمیّته، و المتعلق بالجسم لا بدّ له فی تحرّکه من جسم یتحرّک به و هو سبحانه منزّه عن الاحتیاج إلی المتحرّک و عن التغیّر بمغیّر و عن التعلّق بجسم یتحرّک به.

و أما الدّليل الرابع فانّ معنى الاية الشريفة ليس ما توهّمه هذا الجاهل بسوء فهمه و اعتقاده، بل معنى آخر.

كما نبه عليه الصّادق عليه السّلام فى الرّواية المروية فى البحار من التوحيد عن أبيه عن علىّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبى عمير عن هشام بن الحكم قال قال أبو شاكر الديصانى: إنّ فى القرآن آية هى قولنا، قلت: و ما هى؟ فقال: «وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ »، فلم أدر بما اجيبه فحجت فخبرت أبا عبد اللّه عليه السّلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمک بالكوفة، فانّه يقول فلان، فقل ما اسمک بالبصرة، فانّه يقول فلان، فقل كذلک ربّنا فى السّماء إله و فى الأرض إله و فى كلّ مكان إله، قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال هذه نقلت من الحجاز.

و محصّل جوابه عليه السّلام أنّه تعالى مسمّى بهذا الاسم فى السّماء و فى الأرض، و قال اكثر المفسرين: إنّ الظرف متعلّق بالإله لكونه بمعنى المعبود، و قال البيضاوى فى تفسير قوله: «هُوَ اللّهُ فِى السَّماواتِ وَ فِى الْأَرْضِ »: هو اللّه الضمير للّه و اللّه خبره و فى السماوات و فى الأرض متعلّق باسم اللّه، و المعنى هو المستحقّ للعبادة فيهما لا غير كقوله: «هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ ».

و روى فى البحار من التوحيد باسناده عن مثنّى الحناط عن أبى جعفر أظنّه محمّد بن النعمان قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ هُوَ اللّهُ فِى السَّماواتِ وَ فِى الْأَرْضِ »، قال: كذلک هو فى كلّ مكان، قلت: بذاته؟ قال: ويحک إنّ الأماكن أقدار فاذا قلت فى مكان بذاته لزمک أن تقول فى أقدار و غير ذلک و لكن هو باين من خلقه محيط بما خلق علما و قدرة و احاطة و سلطانا، و ليس علمه بما فى الأرض بأقلّ ممّا فى السّماء لا يبعد منه شىء، و الأشياء له سواء علما و قدرة و سلطانا و ملكا و احاطة.

و أمّا الدّليل الخامس فالجواب عنه بمثل الجواب عن سابقه، فانّ المراد به كونه معنا بالعلم و الاحاطة و القيّوميّة.

و أجاب عنها أمير المؤمنين عليه السّلام بجواب آخر رواه فى البحار من الاحتجاج

فى جواب أسـئلة الزّنديق المنكر للقرآن قال عليه السّلام: و قوله: «وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ »، و قوله: «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ »، و قوله: «مـا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رابِعُهُمْ »، فانّما أراد بـذلک استيلاء امنائه بالقـدرة الّتى ركّبها فيهم على جميع خلقه و أنّ فعلهم فعله الحديث.

و أمّا الدّليل السادس فقد مرّ جوابه بما لا مزيد عليه قبل أوراق.

و أمّا الـدّليل السابع فأوهن من الجميع، لأنّ المراد بالاية هو التّنزيه فقط و نفى المثل من جميع الجهات، إمّا بجعل الكاف زايدة أو بمعناها الأصلى قصدا للمبالغة فى نفى المثل على حدّ قولهم: مثلک لا يبخل.

روى فى الصّافى من مصـباح المتهجّد فى خطبة لأمير المؤمنين عليه السّلام ليس كمثله شىء إذ كان شىء الشىء من مشيّته فكان لا يشبه مكوّنه.

و روى فى البحار من روضة الواعظين عن أمير المؤمنين عليه السّلام أيضا انّه قال:

اتّقوا أن تمثّلوا بالربّ الذى لا مثل له أو تشـبّهوه من خلقه أو تلقوا إليه الأوهام أو تعلموا «تعملوا ظ» فيه الفكر و تضـربوا له الأمثال أو تنعتوه بنعوت المخلوقين، فانّ لمن فعل ذلک نارا.

و أما ما قاله من اسـتلزام التنزيه للتقييد و التحديد معللا بأنّ الاطلاق من التقييد تقييد و المطلق بالاطلاق مقيّد، فقد عرفت فيما سبق ضعفه و أنه غير مستلزم له.

و نزيد توضيحا و نقول: محصّل مراده إنّ الاية محتملة لوجوه ثلاثة.

احدها كون الكاف زايدة و المراد بها نفى المثل.

و الثانى كونها للتشبيه و المراد بها نفى مثل المثل.

و الثالث كونها للتشبيه أيضا لكن المراد نفى المثل مبالغة و على جميع الوجوه فهى مفيدة للتحديد.

أما على الوجه الأوّل فلأنّ المعنى أنه ليس شـىء من الأشـياء مثله و شـبهه، و الأشياء كلّها محدودة بالحدود فاذا نفيت مشابهته بها و ميّزته عنها فقد أثبتّ له الحدّ

بتنزيهک إذ المتميز عن المحـدود محدود بأنه غيره و المغايرة لا تكون إلاّ بالحدود فيكون محدودا بتمايزه عن المحدودات و هو معنى قوله: فالاطلاق من التقييد تقييد آه.

و أمـا على الوجه الثانى فلأنّه يفيـد اثبات المثل حيث إنّ المنفى مثل المثل لا نفس المثل و المثل محـدود فمثله و هو اللّه تعالى عن ذلک أيضا محدود.

و أما على الوجه الثالث فلأنه كالوجه الأوّل يفيـد التحديـد بتميّزه عن المحدود فعلى جميع الوجوه يثبت كونه محدودا، و أنت خبير بأنّ هذا كلّه ناش من قلّة الفهم إذ قد عرفت أنّ المراد بالاية هو نفى المثل على الوجه الأول أو على الوجه الثالث و المقصود بها التنزيه من التشبيه.

و ما توهّمه من اسـتلزام التّنزيه للتّقييـد و التّحديد، فهو ظاهر فى أنّه لم يفهم معنى التّنزيه و التّمييز و لم يميّز بين تمايز الموجودات بعضـها عن بعض و بين تمايز الواجب تعالى عنها و افتراقه لها.

فنقول: إنّ التميّز على قسمين:

أحـدهما التميّز بالحـدّ و هو الّـذى بين الموجودات فانّها جميعا لكونها محـدودة مركّبـة من الأجناس و الفصول و مشـتملة على الأقـدار و النهابات يكون تميّز كلّ منها عن الاخر بالحدّ المخصوص به.

و ثانيهما التميّز عن المحـدود و هو تميّز الواجب عن غيره كائنا ما كان، فانّ الممكنات بأسـرها لمّا كانت محدودة يكون تميّز الواجب عنها بتنزّهه عن الحـدّ و هو عبـارة اخرى عن وجوب الوجود، فانّه سـبحانه لكونه صـرف الوجود و كون وجوده عين ذاته و كون تعيّنه بـذاته يكون متمايزا عمّا تعيّنه و تحصّله بالحدود فافهم و اغتنم و على الصّراط المستقيم فاستقم.

و منها قوله عليه السّلام فى الخطبة المذكورة أيضا: لا تقدّره الأوهام بالحدود

و الحركات و لا بالجوارح و الأدوات.

فانّ الفقرة الاولى تدلّ على تنزّهه من الحدود حسبما عرفت آنفا و على

تنزّهه من التّحوّل فى الصّور كما قال فى الفصّ الالياسى «يتجلّى فى القيامة بصورة فيعرف ثمّ يتحوّل فى صورة فينكر ثمّ يتحوّل عنها فى صورة فيعرف و هو هو المتجلّى فى كلّ صورة ليس غيره» انتهى.

و تدّل أيضا على تنزّهه من النّزول إلى السّماء الدّنيا و من التّنزّل إلى مرتبة الممكنات و سراية هويّته فيها حسبما قدّمنا حكاية ذلك كلّه عن هذه الطّايفة الضّالّة.

و الفقرة الثّانية تدلّ على تنزّهه من الجوارح و الأعضاء فتدلّ على بطلان اتّصافه بها و كون أعضاء الانسان أعضاء له كما قال محيى الدّين فى غير موضع من الفصوص.

و صرّح به فى الفصّ الهودى اجمالا بقوله «فالغير يقول: السّمع سمع زيد و العارف يقول: السّمع عين الحقّ و هكذا ما بقى من القوى و الأعضاء فما كلّ أحد عرف الحقّ فتفاضل النّاس و تميّزت المراتب» أى تفاضل النّاس فى العلم بالحقّ و تميّزت مراتبهم فبان الفاضل و المفضول فى الخلايق.

و فى الفصّ السّليمانى تفصيلا بقوله «و العمل ينقسم على ثمانية أعضاء من الانسان».

قال القيصرى: و هى اليدان و الرّجلان و السّمع و البصر و الجبهة و اللّسان إذ باليدين يتمكّن من التّوضّى و التّطهر، و على الرّجلين يقوم فى الصّلاة و يسعى و يحجّ، و بالسّمع يتمكّن من سماع كلام اللّه و كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بالبصر يتمكّن من المشاهدة فى جميع أعماله، و باللّسان يثنى على اللّه تعالى و يسبّحه و يقرأ كلامه، و بالجبهة يسجد فى صلاته.

«و قد أخبر الحقّ تعالى أنّه هويّة كلّ عضو منها فلم يكن العامل فيها غير الحقّ و الصّورة للعبد و الهويّة مندرجة فيه أى فى اسمه لا غير».

قال القيصرى: أى أخبر الحقّ بأنّه عين كلّ عضو بقوله: كنت سمعه الّذى يسمع به و بصره الذى يبصر به و يده الّتى يبطش بها و رجله الّتى يمشى بها، و العامل بحسب الظّاهر

الشّخص و أعضاؤه، و الحقّ عينها فلا يكون العامل غير الحقّ غير أنّ الصّورة صورة العبد و الهويّة الالهيّة مندرجة فى العبد، و لمّا كانت الهويّة إنّما تندرج فى أسمائه فسّر بقوله: أى فى اسمه، ليعلم أنّ عين العبد هو أيضا اسم من أسمائه لا غير ليلزم اندراج الحقّ فى غيره مطلقا فيتوّهم منه الحلول، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

و قد عرفت فيما تقدّم أنّ المراد بحديث كنت سمعه و بصره معنى آخر لا ما توهّما، فيبطل جميع ما فرّعا عليه.

و منها قوله عليه السّلام فى الخطبة المذكورة أيضا: الظّاهر لا يقال ممّا و الباطن

لا يقال فيما، لا شبح فيتقضّى و لا محجوب فيحوى.

فانّه يدلّ على أنّ اتّصافه بالظهور و البطون ليس بالمعنى المتبادر منهما فى غيره، و على أنّه لا يتشخّص بتشخّص الممكنات و صور الموجودات كما هو مذهب هذه الفرقة الضّالّة حسبما عرفت تفصيلا، و على أنّه لا يكون محجوبا بالحجاب فيدلّ على بطلان ما ذهبوا إليه أيضا من كونه محتجبا بالخلق على ما عرفت تفصيلا و أشار عليه السّلام إلى دليل بطلان الاحتجاب بقوله: فيحوى، يعنى أنّه لو كان محجوبا لكان محويّا و كان حجابه حاويا له محيطا به فيكون له انقطاع و انتهاء و يكون ذا حدود و أجزاء و هو باطل.

و مثله ما رواه عنه عليه السّلام فى البحار من الارشاد و الاحتجاج عن الشّعبى روى أنّه سمع أمير المؤمنين عليه السّلام رجلا يقول: و الّذى احتجب بسبع طباق، فعلاه عليه السّلام بالدّرة ثمّ قال: يا ويلک إنّ اللّه أجلّ من أن يحتجب من شىء أو يحتجب عنه شىء، سبحان الّذى لا يحويه مكان و لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السّماء فقال الرّجلّ: أفاكفّر عن يمينى يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السّلام: لا لم تحلف باللّه فيلزمک الكفّارة و إنّما حلفت بغيره.

و منه

قوله عليه السّلام فى المختار المأة و الثّامن و السّبعين

حين سأله ذعلب اليمانى فقال: هل رأيت ربّک يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السّلام: أ فأعبد ما لا أرى؟ قال: و كيف

تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان و لكن رأته القلوب بحقايق الايمان فانّ قوله عليه السّلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان يبطل القول بالكشف و الشهود و أنّ الحقّ بكلّ صورة مشهود كما قال محيى الدّين فى الفصّ الهودى:

«و ما خلق تراه العين إلاّ عينه حقّ و لكن مودع فيه لهذا صورة حقّ»

قال القيصرى: أى ليس خلق فى الوجود تشاهده العين إلاّ و عينه و ذاته عين الحقّ الظاهر فى تلك الصورة، فالحقّ هو المشهود و الخلق موهوم، و لذلك يسمّى به، فانّ الخلق فى اللغة الافك و التقدير و قال تعالى: «إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ »، أى إفك و تقدير من عندكم ما أنزل اللّه بها من سلطان، و قوله: و لكن مودع آه أى صور الخلق حقّ له بضمّ الحاء و هو جمع كالحقاق شبه صور الخلايق بالحقاق(1) و الحق بما فيها و الصور جمع صورة سكن الواو لضرورة.

و قال فى ذلك الفصّ أيضا «فالقرب الالهى من العبد لا خفاء به فى الاخبار الالهى فلا قرب أقرب من أن تكون هويته عين أعضاء العبد و قواه و ليس العبد سوى هذه الأعضاء و القوى فهو أى العبد حقّ مشهود فى خلق متوهّم».

قال الشارح القيصرى: أى ظاهر فى صورة خلق متوهّم و هى الصورة الظلية، و قد مرّ غير مرّة أنّ كلّ ما يدرك و يشهد فهو حقّ و الخلق متوهّم لأنّ الحقّ هو الذى تجلّى فى مرايا الأعيان فظهر بحسبها فى هذه الصورة فالظاهر هو الحقّ لا غير.

«فالخلق معقول و الحقّ محسوس مشهود عند المؤمنين و أهل الكشف و الوجود و ما عدا هذين الصنفين فالحقّ عندهم معقول و الخلق مشهود» و هم المحجوبون كالحكماء و المتكلّمين و الفقهاء و عامة الخلايق سوى المؤمنين بالأولياء و أهل الكشف لأنهم أيضا يجدون فى بواطنهم حقيقة ما ذهب إليه الأولياء و إلاّ ما آمن.

و قال فيه أيضا «فلا تنظر العين إلاّ إليه و لا يقع الحكم إلاّ عليه» قال

1- (1) - الحق و الحقاق جمع حقة وعاء من خشب، ق

الشارح: إذ لا موجود سواه ليكون مشاهدا إياه بل هو الشاهد و المشهود و الحاكم و المحكوم عليه إلى أن قال «فمن رأى الحقّ منه فيه بعينه فـذلک العـارف» أى فمن رأى الحقّ الظاهر على صورته من الحقّ المطلق فى عين الحقّ بعين الحقّ فهو العارف أو من رأى الحقّ من نفسـه فى نفسه بعين الحقّ فهو العارف «و من رأى الحقّ منه فيه بعين نفسه فـذلک غير العارف» أى من رأى الحقّ من نفسه بنفسه بعين نفسه فذلک غير العارف مع أنه صاحب الشهود لعدم اطلاعه على أنه لا يمكن ادراک الحقّ بعين غيره «و من لم ير الحقّ منه و لا فيه و انتظر أن يراه بعين نفسه فـذلک الجاهـل» أى من لم ير الحقّ من نفسه و لا ـ فى نفسه و انتظر أن يراه فى الا ـ خرة بعين نفسه فهو الجاهل، لأنه من كان فى هـذه أعمى فهو فى الا خرة أعمى و أضلّ سبيلا.

إلى غير هـذه من ترّهاتهم و مزخرفاتهم التى لا طائل فيها و كلام أمير المؤمنين عليه السّلام فى هـذا المختار و غيره مما مرّ و سـيأتى دليل على بطلانها جميعا.

و اصـرح من كلمـاته عليه السّلام كلّها ما رواه فى البحار من التوحيـد و العيون عن الرّضا عليه السّلام فى خطبـة طويلـة له خطب بها فى مجلس المأمون فى توحيد اللّه سبحانه و تمجيده و تنزيهه قال عليه السّلام فيها: ظاهر لا بتأويل المباشرة متجلّى لا باستهلال رؤية.

التجلّى الانكشـاف و الظهور يقال: اسـتهلّ الهلال بصـيغة المعلوم و المجهول أى ظهر و تبيّن أى ظاهر ليس ظهوره بأن يباشـره حاسـة من الحواس بل ظاهر بأمارة غالب على كلّ شىء بقدرته و ظاهر أيضا لا بظهور من جهة الرؤية كما هو زعم هذه الجهلة.

و منه

قوله عليه السّلام فى المختار المأة و الرابع و الثمانين:

الحمد للّه الذى لا تدركه الشواهد و لا تحويه المشاهد و لا تراه النواظر و لا تحجبه السواتر الدال على قدمه بحدوث خلقه و بحدوث خلقه على وجوده و باشتباههم على أن لا شبه له.

فانّ كلا من هذه الفقرات دليل على بطلان مقالاتهم الزيفة المتقدّمة كما لا يخفى على من أحاط خبرا بما قدّمناه من ذوى الفطن الثاقبة.

ص:212

و قال عليه السّلام فى هذا المختار أيضا: تلقاه الاذهان لا بمشاعرة، و تشهد له المرائى لا بمحاضرة.

و قد عرفت معناهما فى مقامهما و أقول هنا: إنّ الفقرة الثانية دليل على بطلان قولهم بأنّ أعيان الممكنات مرايا للحقّ لظهوره فيها كما أنّ الحقّ مرآة لها باعتبار آخر و يستفاد من تقريراتهم أن مرآتيّتها بعنوان المحاضرة بل العينيّة و أشار إلى ذلک محيى الدين فى الفص اليوسفى اجمالا و شرحه القيصرى تفصيلا قالا:

«فكلّ ما تدركه فهو وجود الحقّ الظاهر فى مرايا أعيان الممكنات» أى كلّ ما تدركه بالمدركات العقليّة و القوى الحسيّة فهو عين وجود الحقّ الظاهر فى مرايا أعيان الممكنات، و قد علمت أنّ الأعيان مرايا للحقّ و أسمائه كما أنّ وجود الحقّ مرآة للأعيان، فبالاعتبار الأول جميع الموجودات عين ذات الحقّ و الأعيان على حالها فى العدم لأنّ حامل صور الأعيان هو النفس الرّحمانى، و النفس الرّحمانى إشارة الى ما قالاه فى الفصّ الهودى و شرحه.

قال الماتن «و لهذا الكرب تنفس فنسب النفس إلى الرّحمن» قال الشّارح أى لكون الحقّ ذواته مشتملا على حقايق العالم و صورها و طلب ملک الحقائق ظهورها حصل الكرب فى الباطن و لهذا الكرب تنفّس الحقّ أى تجلّى لاظهار ما فى الباطن من أعيان العالم فى الخارج فنسب أى الحقّ النّفس الى الرّحمن أى إلى الاسم الرّحمانى بلسان نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى قوله: إنّى أجد نفس الرّحمان من قبل اليمن، و النّفس عبارة عن الوجود المنبسط على الأعيان عينا و عن الهيولى الحامل لصور الموجودات و الأوّل مرتّب على الثّانى.

«لأنّه رحم ما طلبته النسب الالهيّة من ايجاد صور العالم الّتى قلنا هى ظاهر الحقّ» أى نسب النفس إلى الرّحمن لأنّ الحقّ بالنّفس الرحمانى رحم الأعيان فاعطى ما طلبته النّسب الالهية الّتى هى الأسماء و الصّفات من وجود صور العالم الّتى هى ظاهر الحقّ انتهى.

و هو أى النفس الرّحمانى عين وجود الحقّ و الوجود الاضافى الفايض عليها

أيضا عين الحقّ فليس المـدرک و الموجود إلاّ عين الحقّ و الأعيان على حالها فى العلم، و هذا مشـرب الموحّد، و بالاعتبار الثانى الأعيان هى الظاهرة الموجودة فى مرايا الوجود و الوجود معقول محض، و هذا مشرب المحجوبين عن الحقّ و مشرب المحققّ الجامع بين المراتب العالم بهما فى هـذا المقام الجمع بين الحقّ و الخلق بحيث شـهود أحدهما لا تحجبه عن شـهود الاخر، و ذلک لجمعه بين المرآتين، لأنّ المرايا إذا تقابلت تظهر منها عكس جامع لما فيها، فيتّحد ما فى المرايا المتعدّدة بحكم اتحاد انعكاس أشعّتها و إلى هذا الاعتبار أشار بقوله:

«فمن حيث هويـة الحقّ هو وجوده» أى فكلّ ما تـدركه من حيث هويّة الحقّ الظاهرة فيه هو عين وجوده «و من حيث اختلاف الصور فيه» أى فى كلّ ما تدركه «هو أعيان الممكنات» انتهى كلامهما هبط مقامهما.

و أنت قـد عرفت فسـاد ذلـک كلّه مضافا إلى قوله عليه السّلام هنا بما حققناه سابقا من أنّ وجود الحقّ بـذاته مباين لمخلوقاته فكيف يكون أحدهما مرآتا للاخر على أنّ مرآتيّة الأعيان تستلزم التحديد و الحواية للحقّ و عرفت منافاتهما لوجوب الوجود.

و منه

أكثر فقرات الخطبة المأة و الخامسة و الثمانين

الّتى تجمع من اصول علم التوحيد ما لا تجمعه خطبة حسبما يعرفه المتدبّر الخبير

فمن جملة هذه الفقرات قوله عليه السّلام: و لا حقيقته أصاب من مثله و لا ايّاه عنى

من شبهه.

فانه صريح فى التنزيه من التمثيل و التشبيه، و قد عرفت أنّ هؤلاء يقولون بالجمع بين التنزيه و التشبيه كما قال فى الفصّ النوحى:

«فان قلت بالتنزيه كنت مقيدا و ان قلت بالتشبيه كنت محددا»

«و ان قلت بالأمرين كنت مسددا و كنت إماما فى المعارف سيدا»

و عرفت فساده بما لا مزيد عليه.

و منها قوله عليه السّلام: كلّ معروف بنفسه مصنوع و كلّ قائم فى سواه معلول

فانه مبطل لقولهم بتجلی وجود الحق فی العالم و ظهوره فی مرایا الأعیان کما قال فی الفصّ الابراهیمی «و یعطیک الکشف انّ العالم لیس إلاّ تجلّیه فی صور اعیانهم الثابتة التی یستحیل وجودها بدونه و انه یتنوّع و یتصوّر بحسب حقایق هذه الأعیان و أحوالها».

قال القیصری: أی یعطیک الکشف أنّ الحقّ هو الذی ظهر فی صور العالم و تنوّع بحسب أنواع الأعیان و تصوّر بصور هذه الحقائق و أحوالها، فالأعیان باقیة علی عدمها و المشهود هو الوجود الحقّ لا غیر، انتهی.

و هو عبارة اخری عن قولهم بأنّ وجود الحقّ سار فی المخلوقات و أنه متخلّل فیها مثل تخلل اللون المتلوّن حسبما قدّمنا حکایته عنهما من الفصّ الابراهیمی و بیّنا فساده هناک.

و منها قوله علیه السّلام: غنیّ لا باستفادة

یعنی أنّ غناه بذاته لاتّصافه بالوجوب لا کساير الأغنیاء مستفیدا للغنی من الغیر، و إلاّ لزم أن یکون ناقصا بذاته مستکملا لغیره و هو محال، و هذا دلیل علی بطلان قولهم بأنّ الحقّ سبحانه من حیث ذاته الأحدیّة غنیّ عن العالمین، و لکن من حیث الالهیّة و الربّوبیّة و القادریّة و غیرها من الأسماء و الصّفات محتاج الیها و قد صرّحا بذلک فی مواضع من الفصوص و شرحه.

قال القیصری فی شرح الفصّ العیسوی: قد مرّ فی أوّل الکتاب أنّ الذّات الالهیّة من حیث أحدیتها موصوفة بالغنی عن العالمین و من حیث إلهیّتها و أسمائها موصوفة بالافتقار حیث قال: فالکلّ مفتقر ما لکل مستغن.

و قال محیی الدّین فی الفصّ الابراهیمی «ثمّ انّ الذّات لو تعرّت عن هذه النّسب لم تکن إلها».

قال القیصری: و اعلم أنّ الاله اسم الذّات من حیث هی هی مع قطع النّظر عن الأسماء و الصّفات باعتبار، و اسم الذّات مع جمیع الأسماء و الصّفات باعتبار آخر، و المراد هنا الاعتبار الثانی، و الالهیّة اسم مرتبة حضرة الأسماء و الصّفات الّتی

هى النّسب المتكثّرة باعتبارات و وجوه تحصل للذّات بالنظر إلى الأعيان الثابتة المتكثّرة الثابتة فى أنفسها و استعداداتها، لأنّ المرتبة كما يستدعى من يقوم بها كذلک يستدعى من يجرى عليها أحكامها كالسّلطنة و القضاء، فلو لم يعتبر هذه النّسب لم يبق إلاّ الذّات الالهيّة لا يشار اليها بوجه من الوجوه و لا يوصف بنعت من النّعوت، و هو مقام الهويّة الأحديّة الّتى تستهلک النّسب كلّها فيه فيكون الحقّ تعالى إلها أى فى مرتبة حضرة الأسماء و النّسب الالهيّة باعتبار أعياننا كما أنّ السّلطان سلطان بالنظر إلى الرّعيّة و القاضى قاض بالنّظر إلى أهل المدينة فتلحق هذه النّسب إليه بنا.

«و هذه النّسب أحدثتها أعياننا فنحن جعلناه بمألوهيّتنا إلها».

قال القيصرى أى هذه الصّفات إنّما ظهرت بأعيانها إذ لو لم يكن لما كان يظهر الخالق و الرّازق و القادر و لا السميع و البصير و غير ذلک من الأسماء و الصّفات الاضافيّة، و ليس المراد بالجعل الاحداث و الايجاد لأنّا مجعولون و موجودون فبجعل الحقّ و ايجاده إيّانا تظهر تلک الصّفات، و المراد بالمألوهيّة عند هذه الطايفة مرتبة العبوديّة و بالمألوه العبد لا المعبود لا كما يقول المفسّرون من أنّ الاله بمعنى المألوه و هو المعبود كالكتاب بمعنى المكتوب، و معناه نحن أظهرنا بعبوديّتنا معبوديّته و بأعياننا إلهيّته إذ لو لم يوجد موجود قطّ ما كان يظهر أنه تعالى إله كما نطق به: كنت كنزا مخفيا، الحديث فالجعل ليس على معناه الحقيقى بل على معناه المجازى و هذا ليس بلسان أهل الصّحو و فيه نوع من الشطح لما فيه من الرّعونة الغير اللايقة للمتأوبين بين يدى الرّحمن و نظيره كما يقول لسان الرّعيّة و المريد و التلميذ: إنّ السّلطان بوجودى صار سلطانا و بإرادتى و قراءتى عليه صار الشيخ شيخا و الاستاد استادا.

و قالا فى الفصّ الشعيبى و شرحه: «و أمّا الاشارة من لسان الخصوص فانّ اللّه وصف نفسه بالنفس بفتح الفاء و هو من باب التنفيس» أى وصف بلسان نبيّه فى قوله إنّى أجد نفس الرّحمان من قبل اليمن نفسه بأنّ له النّفس و هو مأخوذ من التنفّس لانّه إرسال الهواء الحارّ من الباطن و ايراد الهواء البارد لترويح المتنفّس عن

الكرب، فالمتنفس انّما يتنفّس دفعا للكرب فنسبة النفس الالهى بالنفس الانسانى و أضاف الكرب اليه لا من حيث إنّه غنىّ عن العالمين بل من حيث إنه ربّ لهم و كربه طلب الأسماء الالهية الباقية فى الذات الأحدية بالقوّة ظهورها و أعيانها فتنفس و اوجد أعيان تلك الأسماء فظهرت الالهية.

«و انّ أسماء الالهية عين المسمّى» أى من حيث الوجود واحدية الذّات و ان كانت غيرا باعتبار كثرتها «و ليس إلاّ هو» أى و ليس المسمى إلاّ عين هوية الحقّ «و انها طالبة ما تعطيه الحقائق» اى و أن الأسماء طالبة وجود ما تعطى الحقائق الكونية للحقّ من الأحكام و الصفات الكونية «و ليست الحقائق التى يطلبها الأسماء إلاّ العالم فالالوهية تطلب المألوه» و الربوبية تطلب المربوب لأنّ كلّ واحد من أسماء الصفات و الأفعال يقتضى محلّ ولايته ليظهر به، كالقادر للمقدور و الخالق للمخلوق و الرازق للمرزوق و هكذا غيرها، و الفرق بين الالوهية و الربوبية أنّ الالهية حضرة الأسماء كلّها اسم الذات و الصفات و الأفعال، و الربوبية حضرة أسماء الصفات و الأفعال، و لذا تأخرت عن المرتبة الالهية قال تعالى: «اَلْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ».

«و الاّ» اى و إن لم يكن الالوهية و الربوبية طالبة للمألوه و المربوب لا يكون شىء منها متحققا كما لا يتحقّق الابوّة إلاّ بالابن و البنوّة إلاّ بالأب لانهما من قبيل المتضايفين «فلا عين لها إلاّ به وجودا و تقديرا فلا عين للالوهية و الربوبية إلاّ بالعالم» سواء كان موجودا بالوجود الحقيقى أو مقدرا «و الحقّ من حيث ذاته غنىّ عن العالمين و الربوبية ما لها هذا الحكم» إذ لا غناء لها عن المربوب «فبقى الأمر بين ما تطلبه الربوبيّة ما لها هذا الحكم» إذ لا غناء لها عن المربوب «فبقى الأمر بين ما تطلبه الربوبيّة و ما يستحقّه الذّات من الغنىّ عن العالم» أى بقى الشأن بين الغنىّ الذّاتى و الافتقار الأسمائى فيجب أن ينزل كل منهما على مقامه فنقول: الغنى من حيث الذات لأنّ العالم كان أو لم يكن لا يحصل التغيّر فى الذات أصلا بل هى على حالها أزلا و أبدا عند وجود العالم و عدمه، و الافتقار من حيث الربوبية و الالوهية.

و لمّا كانت الربّوبيّة صفة الذات الغنية و الصّفة عين الموصوف فى الأحديّة قال:

«و ليست الربّوبيّة على الحقيقة و الاتّصاف إلاّ عين هذه الذات» فللذات الغنى عن

العالمين من وجه و هو وجه الأحديّة المتعالية عن النّسب و الاضافات و لها الافتقار إليهم من وجه و هو وجه الواحدية الطالبة للنّسب و مظاهرها، انتهى كلامهما هبط مقامهما و هو كما ترى صريح فى افتقاره تعالى فى صفاته المضافة إليه سبحانه سواء كانت صفة ذات كالعلم و الالوهيّة و القدرة و الربوبيّة و غيرها أو صفة فعل كالخلق و الرّزق و الارادة و الاماتة و الاحياء و نحوها ممّا هو معانى أسمائه الحسنى إلى غيره و إن كان غنيّا من حيث ذاته الأحدية العارية عن النسب و الاضافات.

و هذا زعم فاسد و وهم باطل لما قدّمنا فى المقدّمة التى مهّدناها سابقا للدليل العقلى من أنّ الواجب تعالى تامّ فوق التّمام، و قلنا إنّ المراد بتماميّته كونه جامعا للصّفات الكماليّة كلّها و كونها جميعا حاصلة له بالفعل بنفسه من دون حاجة إلى الغير، لأنّ الكمالات كلّها وجود و هو تعالى عين الوجود فكيف يكون ناقصا فى ذاته مستكملا بغيره و مفتقرا بذاته مستغنيا بمخلوقاته.

و هو معنى قول أمير المؤمنين عليه السّلام: غنىّ لا باستفادة، و قول الحكماء الالهيّين:

واجب الوجود بالذات واجب الوجود من جميع الجهات.

و الحاصل إنّا نقول: إنّه عزّ و جلّ إله و معبود عالم قادر قاهر غالب ربّ رحيم سميع بصير خالق رازق غير مفتقر فى اتّصافه بهذه الصّفات إلى مألوه و عابد و معلوم و مقدور و هكذا بل كان هذه الصّفات ثابته له فى الأزل قبل وجود المخلوقات.

و يدلّ على ذلك صريحا قول أمير المؤمنين عليه السّلام فى الخطبة الّتى رويناها عنه من الكافى فى شرح المختار المأة و الثامن و السبعين حيث قال فيها: كان ربّا إذ لا مربوب، و إلها إذ لا مألوه و عالما إذ لا معلوم و سميعا إذ لا مسموع.

و مثله بل أصرح منه قول الرّضا فى الحديث الاتى روايته تماما المروىّ عنه عليه السّلام فى البحار من التوحيد و العيون حيث قال فيه: له معنى الربوبيّة إذ لا مربوب و حقيقة الالهيّة إذ لا مألوه و معنى العالم إذ لا معلوم و معنى الخالق إذ لا مخلوق و تأويل السمع و لا مسموع ليس مذ خلق استحقّ معنى الخالق و لا باحداثه البرايا استفاد

معنى البرّائيّة.

قال المحدّث العلامة المجلسىّ: قوله عليه السّلام: له معنى الرّبوبيّة أى القدرة على التربية إذ هى الكمال، و قوله: إذ لا مألوه، أى من له الا له أى كان مستحقّا للمعبوديّة إذ لا عابد، و انّما قال و تأويل السمع، لأنّه ليس فيه تعالى حقيقة بل يؤوّل بعلمه بالمسموعات، و قوله: ليس مذ خلق استحقّ معنى الخالق، إذ الخالقيّة الّتى هى كماله هى القدرة على خلق كلّ ما علم أنه أصلح، و نفس الخلق من آثار تلك الصفة الكمالية و لا يتوقف كماله عليه و البرّائية، بالتشديد الخلاّقية.

فقد علم بذلك أنّ قول محيى الدّين: إنّ الذات لو تعرّت عن هذه النسب لم تكن إلها، و قوله: هذه النسب هى التى أحدثتها أعياننا، باطل جدا، و ما أعظم جسارته و أقبح هجره فى قوله: و نحن جعلناه بمألوهيّتنا إلها، و الشارح القيصرى لما رأى فرط شناعته و فظاعته أراد إصلاحه بصرفه عن ظاهره و لن يصلح العطار ما أفسد الدّهر.

و بالجملة فالقول بافتقار اللّه سبحانه فى ذاته أو صفاته أو أفعاله إلى مصنوعاته و نقصانه بذاته و التماسه التمام بمخلوقاته إلحاد و جحود و إنكار لوجوب الوجود.

فان قلت: لعلّ غرض هؤلاء إنّ الحقّ سبحانه كان متّصفا بتلك الصفات فى الأزل من دون حاجة إلى غيره، و لكن ظهور اتّصافه بها كان موقوفا على وجود المخلوق و محتاجا اليه، و بعبارة اخرى انه مستغن فى ذاته و صفاته عن غيره و لكن فى اظهار هذه الصّفات و تلك النّسب و الاضافات كان مفتقرا إلى ايجاد الموجودات.

قلت: نسبة الافتقار إلى اللّه تعالى شأنه بأىّ اعتبار كان غلط بيّن، نعم إن قلنا إنّه عزّ و جلّ كان متّصفا بصفات العظمة و الكمال غنيّا فى ذاته و صفاته عن غيره، ثمّ اقتضى العلم الأصلح و الحكمة البالغة ابداع الموجودات و ايجاد الممكنات فخلقهم و أبدعهم على ما شاء و أراد، و لمّا أفاض الوجود علينا و صرنا موجودين ظهر لنا بما أرانا فى الافاق و الأنفس من عجايب قدرته و بدايع صنعته وجوده و علمه و قدرته و حكمته و ارادته و ساير صفاته الكماليّة و علمنا علما يقينا جامعيّته لجميع الكمالات الّتى هى

معنى إلهيّته، كـان قولاـ حقّا دلّنـا عليه الكتـاب المبين، و أدلاـّء الحقّ من الأنبيـاء و المرسـلين، و الحجـج المعصومين سـلام اللّه عليهم أجمعين، و هذا هو الاعتقاد الصواب الّذى نطق به السّنة و الكتاب فيجب أن يدان به و يرفض غيره و اللّه الهادى الى سواء السبيل الحقّ.

و منها قوله عليه السّلام: يخبر لا بلسان و لهوات، و يسمع لا بخروق و أدوات، يقول

و لا يلفظ.

و هو مبطل لقولهم بأنّ الربّ يتكلّم و ينطق بلسان العبد و يسمع بسمعه لتجلّيه فيه و فى جوارحه عموما، و قد مرّ بيان ذلک تفصيلا.

و صـرّح محيى الـدّين بـذلک أى بـأنّ كلاـمه كلاـمه خصوصـا فى الفصّ العيسوى حيث قال فى تأويل قوله تعالى على رأيه الفاسـد خطابا لعيسى: «أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتَّخِذُونِى وَ أُمِّى إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ »، ما نصّ عبارته:

«فقال و قدم التّنزيه سبحانک فحدّد بالكاف الّتى تقتضى المواجهة و الخطاب».

قال القيصرى: أى نزّه الحقّ أولا عن مقام فيه و هو العبودية المنعوتية بالامكان و نقايصه اللازمة له، و ميّز بين مقام الالوهيّة و العبوديّة بكاف الخطاب و المواجهة كما خاطبه الحقّ بضمير الخطاب، و ذلک التّنزيه و التّميز هو التحديد كما مر فى الفصّ النّوحى.

لـذلک قال فحدّد بالكاف «ما يكون لى من حيث أنا لنفسـى دونک أن أقول ما ليس لى بحقّ أى ما يقتضـيه هويّتى و لا ذاتى» قد مرّ مرارا أنّ لكلّ موجود جهتين: جهة الربّوبيّة و جهة العبودية، و الثانى متحقّق بالأوّل فقوله: ما يكون لى أى لنفسـى من جهة العبوديّة و الانانيّة مجرّدة من جهـة الربّوبيّـة و الهويّـة الالهيّة، أن أقول ما ليس لى بحقّ ثابت فى نفس الأمر، و قوله: أى ما يقتضـيه هويّتى و لا ذاتى تفسـير لقوله: ما يكون لى، و معنـاه مـا يقتضـيه عينى و هويّتى أن يظهر بـدعوى الالوهيّـة من حيث نفسـها المتعيّنـة كالفراعنـة و إلاـّ مـا كنت نبيّا و لا من المرسلين.

«ان كنت قلته فقد علمته لأنک أنت القائل فى صورتى و من قال أمرا فقد علم

ما قال و أنت اللّسان الّذى أ تكلّم به» أى أنت القائل فى صورتى و أنت اللّسان الّذى أتكلّم به بحكم انّک متجلّى فى هويّتى و عينى، و محلّ لها بتلک الكمالات «الكلمات ظ»، فهى لک فى الحقيقـة و مالى إلاّ العـدم، فان قلت ذلک تكون أنت القائل و القائل لا بـدّ أن يعلم القول الّذى صدر منه.

فان قلت: قوله: لأنّک أنت القائل، يدلّ على أنّ الحقّ هو المتكلّم، و قوله:

و أنت اللّسان الّذى أتكلّم به، يدلّ على أنّ العبد هو المتكلّم لا الحقّ فبينهما منافاة.

قلت: الأوّل إشارة الى نتيجة قرب الفرائض، و الثانى إلى نتيجة قرب النوافل و فى الأوّل المتكلّم هو الحقّ بلسان العبد، و فى الثانى المتكلّم هو العبد بلسان الحقّ، فتغايرت الجهتان.

و لمّا فسّره بما هو مناسب الحديث الرّبّانى قال «كما أخبرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن ربّه فى الخبر الالهى فقال: كنت لسانه الّذى يتكلّم به فجعل هويّته عين لسان المتكلّم و نسب الكلام الى عبده» أى قال اللّه فى حقّ عبده، فاذا أحببته كنت سـمعه و بصره و لسانه فبى ينطق و بى يبصـر و بى يسمع فالمتكلم و السّميع و البصير هو العبد لكن بالحقّ و ذلک لأنّ هذا المقام أى مقام الفناء فى الصّفات مقام نتيجة النوافل لا مقام الفناء فى الذّات مقام نتيجة الفرائض.

«ثمّ تمم العبد الصالح الجواب بقوله: تعلم ما فى نفسـى» أى تعلم ما فى نفسـى من هويتک و كمالاتک المتسترّة فى هويتى و ما يخطر فى خاطرى «و المتكلم الحقّ» أى و الحال أنّ المتكلم بهـذا الكلم هو الحق من مقام تفصـيله بلسان عيسـى، و التاء للخطاب إلى مقام جمعه فهو السـامع كمـا أنه هو المتكلم «و لاـ أعلم مـا فيهـا فنفى العلم عن هويـة عيسـى من هويته لا من حيث هو قائل و ذو أثر» أى نفى الحقّ المتكلم بلسان عيسـى العلم عن هوية عيسـى حتى لا يكون العلم بها، و ذلک النفى من حيث هويته العدمية لا من حيث قائل أو قادر فانه من هذه الحيثية حق لا غير، و إنما قال و لا أعلم ما فيها و لم

يقل ما فى نفسک کما فى القرآن تنبيها على أنّ نفسه عين نفس الحقّ فى الحقيقة و إن كان غيره بالتعيّن، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

أقول: فيا للّه و لهـذين الجاهلين الضـليلين كيف يحرفون كلام اللّه و كلام رسوله عن مواضـعه ثمّ يقولون هـذا من عند اللّه و ما هو من عند اللّه، و يؤوّلون آيات الكتاب المجيد الواردة فى التوحيد و التمجيد و التنزيه من التشبيه و التحديد إلى كلمة الكفر و الشّرک و الضّلال زعما منهم أنّ هذا عين الاخلاص و التّوحيد الذى غاب عن غيرهم، و اختصّوا بعرفانه بالكشف و الشهود مع أنّه عين الشّرک و الالحاد و الجحود، و ويل لمن كفّره نمرود.

قال قطب الـدّين بن محيى الـدّين الكوشـكتارى و هو من أجلّ مشايـخ الصّوفيـة أيّما رجل من أهل الكشف وجـدنا اسـلوبه فى عبارته عن مكاشـفاته يغاير اسلوب صاحب الوحى علمنا أنّه مدخول و كشفه معلول، و أنّ الحرص و العجلة دعتاه إلى تركيب ما قذف فى قلبه من النّور البسـيط و التصرّف فيه و التخليط، ثمّ إنّ هذا الاسلوب الذى انتشر فى الأرض من صاحبى الفصوص و النّصوص اسلوب هو عن المناسبة و المشابهة باسـلوب صاحب الوحى بمعزل بالكلّية، فيحصل لنا بمقتضى ذلک القانون العلم بأنّهما معلولان و فى كشفهما مدخولان، فيكون سبيلنا مع كلامهما و كتبهما الهجران، انتهى.

و لنعم ما قال الفاضل الفيض ملاّ محسن القاسانى فى أواخر كتابه المسمّى بشارات الشّيعة ما عبارته:

هذا شيخهم الاكبر محيى الدّين ابن العربى و هو من أئمّة صوفيتهم و من رؤساء أهل معرفتهم يقول فى فتوحاته: إنّى لم أسأل اللّه أن يعرّفنى امام زمانى، و لو كنت سألته لعرّفنى، فاعتبروا يا اولى الأبصار.

فانه لما اسـتغنى عن هذه المعرفة مع سـماعه حديث من لا يعرف امام زمانه مات ميتة جاهلية المشـهور بين العلماء كافة كيف خذله اللّه و تركه و نفسه، فاستهوته الشّياطين فى أرض العلوم حيران، فصار مع وفور علمه و دقّة نظره و سيره فى أرض

الحقائق و فهمه للأسـرار و الدّقايق لم يسـتقم فى علم من علوم الشرائع، و لم يعرض على حدودها بضرس قاطع، و فى كلامه من مخالفات الشـرع الفاضـحة و مناقضات العقل الواضـحة ما يضـحک منه الصّبيان و تستهزئ به النسوان كما لا يخفى على من تتبّع تصانيفه و لا سيّما الفتوحات خصوصا ما ذكره فى أبواب أسرار العبادات.

ثمّ مع دعاويه الطويلة العريضة فى معرفة اللّه و مشاهدته المعبود و ملازمته فى عين الشهود و تطوافه بالعرش المجيد و فنائه فى التوحيد تراه ذا شـطح و طامات، و صـلف و رعونات فى تخليط و تناقضات تجمع الأضداد، و فى حيرة محيّرة تقطع الأكباد، يأتى تارة بكلام ذى ثبات و ثبوت، و اخرى بما هو أوهن من بيت العنكبوت و فى كتبه و تصانيفه من سوء أدبه مع اللّه فى الأقوال ما لا يرضـى به مسـلم بحال، فى جملة كلمات مزخرفة مخبّطة تشوّش القلوب و تدهش العقول و تحيّر الأذهان، و كأنه كان يرى فى نفسه من الصور المجرّدة ما يظهر للمتخلّى فى العزلـة فيظنّ أنّ لها حقيقة و هى له، فكان يتلقّيها بالقبول و يزعم أنها حقيقة الوصول، و لعله ربما يختلّ عقله لشدّة الرياضة و الجوع، فيكتب ما يأتى بقلمه مما يخطر بباله من غير رجوع، انتهى.

و لعمرى أنه كلام فى شـرح حال ابن العربى ليس فوقه كلام، و هـذا أيضا حال من حذا حذوه من تلامذته و متابعيه، و مع هذا كله فالعجب كلّ العجب من ادّعائهم أنهم العارفون باللّه و أنّ غيرهم لمحجوبون مع أنهم الجاهلون الضالون المكذّبون للأنبياء و المرسـلين، فويل لهم ثمّ ويل لهم مما كتبت أيديهم و ويل لهم مما يكسبون.

و لو أردت البسـط من مزخرفـاتهم لخرجنا عن وضع الكتاب، و فيما أوردناه من أحاديث الأئمـة الأطهار و الأطياب و نقلنا من خطب أمير المؤمنين عليه السّلام الواردة فى هذا الباب كفاية فى تسفيه أحلامهم، و ابطال مقالهم لاولى الألباب.

و أكثر الخطب تضمنا لهذا الغرض الخطبة المأة و الخامسة و الثمانون التى نقلنا منها هنا أخيرا عدّة فقرات، و من أراد زيادة البصيرة فليراجع أصل الخطبة.

ص:223

و تتلوها خطبة اخرى لأبى الحسن الرضا عليه السّلام و أكثر فقراتها و مضامينها مطابقة لخطبة جدّه سلام اللّه عليه و آله، و لمّا كانت خطبته عليه السّلام متضمنة لزيادات نفيسة و نكات بديعة خلت عنها خطبة أمير المؤمنين عليه السّلام أحببت روايتها.

و النّاقد المتوقّد الخبير المحيط خبرا بما قدّمناه من الأدلّة النّقلية فى ابطال مقال هؤلاء الجهّال من أهل الضّلال إن لاحظ هذه الخطبة بنظر الدّقّة و الاعتبار، و وصل إلى فحويها و عمق فى معناها عرف أنّها فى الحقيقة فذلكة تلك الأدلّة، و أنّها قالعة لأساس بنيان مذهب الصّوفيّة أصابهم حاصب و لا بقى منهم آبر حتّى لا يذكر من هذا المذهب ذاكر، و لا يسمر فيه سامر، فأقول و باللّه التّوفيق:

روى المحدّث العلامة المجلسى فى البحار من التّوحيد و العيون قال:

حدّثنا محمّدث بن الحسن بن الوليد رضى اللّه عنه، قال: حدّثنا محمّد بن عمرو الكاتب عن محمّد بن أبى زياد القلزمى عن محمّد بن أبى زياد الجدّى صاحب الصّلاة بجدّة، قال: حدّثنى محمّد بن يحيى بن عمر بن علىّ بن أبى طالب عليه السّلام قال: سمعت أبا الحسن الرّضا عليه السّلام يتكلّم بهذا الكلام عند المأمون فى التّوحيد.

قال ابن أبى زياد: و رواه لى أيضا أحمد بن عبد اللّه العلوىّ مولى لهم و خالا لبعضهم، عن القاسم بن أيّوب العلوىّ أنّ المأمون لمّا أراد أن يستعمل الرّضا عليه السّلام جمع بنى هاشم فقال: إنّى اريد أن أستعمل الرّضا على هذا الأمر من بعدى فحسده بنو هاشم و قالوا تولّى رجلا جاهلا ليس له بصر بتدبير الخلافة فابعث إليه يأتنا فترى من جهله ما تستدلّ به عليه، فبعث إليه فأتاه فقال له بنو هاشم: يا أبا الحسن اصعد المنبر و انصب لنا نعبد اللّه عليه.

فصعد عليه السّلام المنبر فقعد مليّا لا يتكلّم مطرقا ثمّ انتقض انتفاضة و استوى قائما و حمد اللّه و أثنى عليه و صلّى على نبيّه و أهل بيته ثمّ قال:

أوّل عبادة اللّه معرفته، و أصل معرفة اللّه توحيده، و نظام توحيد اللّه نفى الصّفات عنه، لشهادة العقول أنّ كلّ صفة و موصوف مخلوق، و شهادة كلّ موصوف

أنّ له خالقا ليس بصفة و لا موصوف، و شهادة كلّ صفة و موصوف بالاقتران، و شهادة الاقتران بالحدث، و شهادة الحدث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدث فليس اللّه من عرّف بالتشبيه ذاته، و لا إيّاه و حدّ من اكتنهه، و لا حقيقته أصاب من مثّله، و لا به صدّق من نهّاه، و لا صمد صمده من أشار إليه، و لا إيّاه عنى من شبّهه، و لا له تذلّل من بعّضه، و لا ايّاه أراد من توهّمه، كلّ معروف بنفسه مصنوع، و كلّ قائم فى سواه معلول، بصنع اللّه يستدلّ عليه، و بالعقول تعتقد معرفته و بالفطرة تثبت حجّته، خلقة اللّه الخلق حجاب بينه و بينهم، و مباينته إيّاهم مفارقته أينيتهم «انيّتهم» و ابتداؤه إيّاهم دليلهم على أن لا ابتداء له، لعجز كلّ مبتدأ عن ابتداء غيره، و أروه إيّاهم دليلهم على أن لا أداة فيه، لشهادة الأدوات بفاقة المادّين، فأسماؤه تعبير، و أفعاله تفهيم، و ذاته حقيقة، و كنهه تفريق بينه و بين خلقه، و غيوره تحديد لما سواه، فقد جهل اللّه من استوصفه، و قد تعدّاه من اشتمله، و قد اخطأه من اكتنهه، و من قال كيف فقد شبّهه، و من قال لم فقد علّله، و من قال متى فقد وقّته، و من قال فيم فقد ضمنه، و من قال إلى م فقد نهّاه، و من قال حتّى م فقد غيّاه، و من غيّاه فقد غاياه، و من غاياه فقد جزّاه، و من جزّاه فقد وصفه، و من وصفه فقد الحد فيه، لا يتغيّر اللّه بانغيار المخلوق كما لا يتحدّ بتحديد المحدود أحد لا بتأويل عدد، و ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجلّى لا باستهلال رؤية، باطن لا بمزايلة، مباين لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسّم، موجود لا بعد عدم فاعل لا باضطرار، مقدّر لا بجول فكرة، مدبّر لا بحركة، مريد لا بهمامة، شاء لا بهمة، مدرک لا بمجسّة، سميع لا بالة، بصير لا بأداة، لا تصحبه الأوقات، و لا تضمنه الأماكن، و لا تأخذه السنات، و لا تحدّه الصفات، و لا تفيده الأدوات، سبق الأوقات كونه، و العدم وجوده، و الابتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، و بتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، و بمضادّته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له، و بمقارنته بين الامور عرف أن لا قرين له، ضادّ النور بالظلمة، و الجلاية بالبهم، و الجسوء بالبلل، و الصرد بالحرور، مؤلّف بين متعادياتها، مفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها

على مفرّقها، و بتأليفها على مؤلّفها ذلک قوله عزّ و جلّ «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ففرّق بها بين قبل و بعد ليعلم أن لا ـ قبل له و لا بعد، شاهدة بغرايزها أن لا غريزة لمغرزها، دالة بتفاوتها أن لا تفاوت لمفاوتها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقّتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا ـ حجاب بينه و بينها غيرها، له معنى الرّبوبية إذ لا مربوب، و حقيقة الالهية إذ لا مألوه، و معنى العالم و لا معلوم، و معنى الخالق و لا مخلوق و تأويل السمع و لا مسموع، و ليس مذ خلق استحقّ معنى الخالق، و لا باحداثه البرايا استفاد معنى البرّائيّة، كيف و لا تغيّبه مذ، و لا تدنيه قد، و لا يحجبه لعلّ، و لا يوقّته متى، و لا يشتمله حين، و لا تقارنه مع، إنّما تحدّ الأدوات أنفسها، و تشير الالة إلى نظايرها و فى الأشياء يوجد فعالها، منعتها مذ القدمة، و حمتها قد الازلية، و جنبتها لو لا التّكملة، افترقت فدلّت على مفرّقها، و تباينت فاعربت عن مباينها، بها تجلّى صانعها للعقول، و بها احتجب عن الرّؤية، و إليها تتحاكم الأوهام، و فيها اثبت غيره، و منها انيط الدّليل، و بها عرّفها الاقرار، بالعقول يعتقد التّصديق باللّه، و بالاقرار يكمل الايمان به، لا ديانة إلاّ بعد معرفة، و لا معرفة إلاّ باخلاص. و لا إخلاص مع التّشبيه، و لا نفى مع إثبات الصّفات للتّشبيه «بالتشبيه خ ل» فكلّما فى الخلق لا يوجد فى خالقه، و كلّما يمكن فيه يمتنع فى صانعه، لا تجرى عليه الحركة و السكون، و كيف يجرى عليه ما هو أجراه، و يعود فيه ما هو ابتداه، إذا لتفاوتت ذاته، و لتجزّء كهنه، و لامتنع من الأزل معناه، و لما كان للبارى معنى غير المبرء، و لو حدّ له وراء إذا حدّ له أمام، و لو التمس له التّمام إذا لزمه النقصان، كيف يستحقّ الأزل من لا يمتنع من الحدث، و كيف ينشىء الأشياء من لا يمتنع من الانشاء، إذا لقامت فيه آية المصنوع، و لتحول دليلا بعد أن كان مدلولا عليه، ليس فى محال القول حجّة، و لا ـ فى المسألة عنه جواب، و لا فى معناه له تعظيم، و لا فى إبانته من الخلق ضيم إلاّ بامتناع الأزلىّ ان يثنى، و ما لا بدء له أن يبدء، لا إله إلاّ اللّه العلىّ العظيم، كذب العادلون باللّه و ضلّوا ضلالا بعيدا، و خسروا خسرانا مبينا، و صلّى اللّه على محمّد و آله الطاهرين.

ص:226

و رواه فی البحار أیضا من الاحتجاج مرسلا من قوله علیه السّلام: و کان المأمون لمّا أراد أن یستعمل الرّضا علیه السّلام إلی آخر الخبر.

و من أمالی الشّیخ عن المفید عن الحسن بن حمزة العلوی عن محمّد الحمیری عن أبیه عن ابن عیسی عن مروک بن عبید عن محمّد بن زید الطوسی الطبری قال: سمعت الرّضا علیه السّلام یتکلّم فی توحید اللّه فقال: أوّل عبادة اللّه معرفته إلی آخر الخطبة.

و من المجالس عن الحسن بن حمزة مثله بتغییر ما.

بیان

قال المحدّث العلامة المجلسیّ قد «ملیّا» أی طویلا و «الانتفاض» شبه الارتعاد و الاقشعرار.

قوله «أوّل عبادة اللّه معرفته» نظیر قول أمیر المؤمنین علیه السّلام فی الخطبة الاولی: أوّل الدّین معرفته، أی أشرف عبادته و أقدمها زمانا و رتبة، لأنّ طاعة المعبود بعد معرفة نفس المعبود، و قال بعض المحقّقین: المراد بالعبادة هنا العبودیة أن کون العبد عبدا، فانّه موقوف علی معرفة المولی، و أصل المعرفة التوحید إذ مع اثبات الشریک أو القول بترکّب الذّات، أو زیادة الصّفات یلزم القول بالامکان المنافی للوجوب، فالمشرک القائل بالتّعدد لم یعرف الواجب.

قوله «و نظام توحید اللّه نفی الصّفات عنه» قد عرفت معناه فی شرح الخطبة الاولی و نقول هنا إنّه علیه السّلام استدلّ علی نفی الصّفات الزائدة بقوله «لشهادة العقول» إلی قوله «من الحدث».

قال فی البحار: و یمکن تقریره بوجوه:

الأوّل أن یکون إشارة إلی دلیلین:

الأوّل أن کلّ صفة و موصوف لا بدّ أن یکونا مخلوقین لأنّ الصفة محتاجة إلی الموصوف لقیامها به و هو ظاهر، و الموصوف محتاج إلی الصفة فی کماله و الصفة غیره و کلّ محتاج إلی الغیر ممکن، فلا یکون شیء منهما واجبا و لا المرکب منهما، فثبت احتیاجهما إلی علّة ثالثة لیس بموصوف و لا صفة و إلاّ

لعاد المحذور.

الثانى أنّ الصانع لا بـدّ أن يكون كاملا أزلا و أبـدا، لشـهادة جميع العقول به، فلا بدّ أن تكون الصّـفات الزائدة مقارنة له غير منفكة عنه، و لا يجوز قدم الجميع لبطلان تعدّد القدماء، فيلزم حدوث الذّات و الصّـفات معا، فلا يكون شىء منهما واجبا، فالمراد بقوله: شهادة كلّ صفة و موصوف شهادة كلّ موصوف فرض صانعا و صفته أو الصّفات اللازمة للذّوات.

الوجه الثانى أن يكون إشارة إلى دليلين على وجه آخر:

الأوّل أنّه لو كانت له صفات زايدة لكانت ممكنة لامتناع تعدّد الواجب، و لا يجوز أن يكون الواجب موجدا لها إمّا لامتناع كون الشىء قابلا و فاعلا لشـىء واحد، أو لأنّ تأثير الواجب فيها يتوقّف على اتّصافه بتلك الصّـفات إذ لو لم يتوقف التّأثير فى تلك الصّـفات الّتى هى منشـأ صـدور جميع الممكنـات عليها لم يتوقّف التّأثير فى شـى عليها، فلا يثبت له تعالى شـىء من الصّـفات، فيكون معلولـة لغيره تعالى، و من كانت جميع صـفاته الكماليّة من غيره لا يكون واجبا صانعا لجميع الموجودات بالضّرورة الثانى أنّ التّوصيف اقتران خاصّ يوجب الاحتياج من الجانبين كما مرّ، و الاحتياج موجب للحدوث المنافى للأزليّة.

الوجه الثالث أن يكون راجعا إلى دليل واحد.

و تقريره أنّه لو كانت الصّـفات زايـدة لكانت الـذّات و الصّـفات مخلوقة، و هذا خلف، و بين الملازمة بقوله: و شـهادة كلّ صـفة و موصوف بالاقتران بنحو ما مرّ من الاحتياج المستلزم للامكان.

و قد يقرّر بوجه آخر و هو أنّ العقل مستقل بأنّ الموصوف و الصفة مخلوقان، لأنّ الذّات لو كانت عين الوجود و لم تكن محدودة بحدّ معيّن لم تكن فاقدة لجهة من جهات الكمال الطارية عليها، و لم يتميّز الموصوف عن الصّفة حينئذ، و كلّ محدود محتاج إلى محدّد غيره، و ذلک الغير لا بدّ أن يكون أحدىّ

الذّات منزّها عن الحدّ.

قوله عليه السّلام «فليس اللّه من عرّف بالتّشبيه ذاته» أى ليس من عرّف ذاته بالتّشبيه بالممكنات واجبا، لأنّه يكون ممكنا مثلها.

قوله «و لا إيّاه عنى من اكتنهه» أى من بين كنه ذاته أو أراد الوصول إلى كنهه، إذ لو كان يعرف كنهه لكان شريكا مع الممكنات فى التّركيب و الصفات الامكانيّة و هو ينافى التّوحيد، و بعبارة اخرى معرفة الكنه إنّما تحصل بالاحاطة بالحدود من الأجناس و الفصول، و قد عرفت أنّه سبحانه منزّه عن الحدّ، فغاية معرفته تعالى أنّا لا نعرفه بل نقول: إنّ الاحاطة بأنواع الممكنات على كثرتها و الاطلاع على شئوناتها الغير المتناهية غير ممكنة، مع أنّها محدودة فكيف بالذات المنزّهة عن الحدّ.

قوله «و لا حقيقته أصاب من مثّله» أى جعل له شخصا و مثالا قال الفيروز آبادى: مثّله تمثيلا صوّره له حتّى كأنّه ينظر إليه، أو المراد من مثّله فى ذهنه و جعل الصّورة الذهنيّة مثالا له، أو المراد أثبت له مثلا و شبّهه بغيره، و قد تقدّم فى شرح الخطبة المأة و الخامسة و الثّمانين تحقيق تنزّهه من الشّبه و المثل.

قوله «من نهّاه» بالتّشديد أى جعل له حدّا و نهاية، و من جعله كذلک لم يصدّق بوجوده بل بممكن غيره.

قوله «و لا صمد صمده» أى قصد نحوه «من أشار إليه» و قد مرّ تحقيق ذلک أيضا فى شرح الخطبة المذكورة.

قوله «و لا له تذلل من بعّضه» أى من أثبت أجزاء و أبعاضا فهو فى عبادته و عبوديّته لم يتذلّل للحقّ المنزّه عن ذلک، بل عرفه و هو غيره.

و قوله «و لا إيّاه أراد من توهّمه» أى من تخيّل له فى نفسه صورة أو هيئة و شكلا، فانّ ما ميّزه بوهمه مخلوق له مصنوع مثله.

و قوله «كلّ معروف بنفسه مصنوع و كلّ قائم فى سواه معلول» قد تقدّم تحقيقه فى شرح الخطبة المذكورة، و لما ذكر عدم إمكان معرفته بنفسه اتبعه

بقوله «بصنع اللّه يستدلّ عليه» إشارة إلى أنّ طريق معرفته هو الاستدلال عليه باثاره و صنايعه فقط.

و قوله «بالفطرة تثبت حجّته» أى بأن فطرهم و خلقهم خلقة قابلة للتصديق و الاذعان و المعرفة و الاستدلال، أو بتعريفهم فى الميثاق و فطرهم على ذلک التّعريف.

و قوله «خلقة اللّه الخلق حجاب بينه و بينهم» أى كونه خالقا و أنّ الخالق لا يكون بصفة المخلوق و يكون مباينا له فى الصّفات صار سببا لاحتجا به عن الخلق فلا يدركونه بحواسّهم و عقولهم و الحاصل أنّ كماله و نقص مخلوقية حجاب بينه و بينهم، و بتقرير آخر لما خلق اللّه الخلق محدودا و كان سبحانه منزّها عن الحدّ حسبما عرفت سابقا أوجب تحدّدهم و تنزّهه الاحتجاب.

و الحاصل أنّ المخلوقيّة علّة تامّة للاحتجاب، لأنّ الاشتمال على الحدّ من لوازم ذات المخلوق فيستحيل إلقاؤه للحدّ و وصوله إلى مرتبة الواجب أو اشتمال الواجب على الحدّ و تنزّله على مرتبة الممكن، فيبطل ما قاله الصوفيّة من ترقّى المخلوق إلى مرتبة الخالق، و تنزّل الخالق إلى مرتبة المخلوق فى قوس الصعود و النزول و احتجاب كلّ منهما بالاخر حسبما قدّمنا حكايته عن كلام محيى الدين فى الفصّ الابراهيمى و غيره.

و قوله «و مباينته إيّاهم مفارقته إينيّتهم» أى مباينته تعالى ليس بحسب المكان حتّى يكون فى مكان و غيره فى مكان آخر بل إنّما هى بأن فارق أينيّتهم فليس له أين و مكان و هم محبوسون فى مطمورة المكان، أو المعنى أنّ مباينته لمخلوقيه فى الصّفات صار سببا لأن ليس له مكان.

و رواه بعض مشايخنا المعاصرين: مفارقته إنيّتهم أى تحقّقهم و وجودهم يعنى أنّ مفارقة الخالق للمخلوقات ليس كافتراق المخلوقات بعضها عن بعض، لأنّ مفارقتها إنّما هو بالحدود المميّزة و إنما هو بمعنى أجلّ و أعلى و هو مفارقة وجوده

من حيث تنزّهه عن الحدّ لوجودها من حيث اشتمالها على الحدود، و هذا أيضا مبطل لقولهم: بأنّ الخلق عين الحقّ و الحقّ عين الخلق كما عرفت سابقا.

قوله «و أدوه إيّاهم دليل على أن لا أداة فيه» أى جعلهم ذوى أدوات يحتاجون إليها فى الأعمال من الأعضاء و الجوارح و القوى دليل على أنّه ليس فيه شىء منها، لشهادة الأدوات فيما يشاهد فى المادّين بفاقتهم و احتياجهم إليها، و هو منزّه عن الاحتياج، أو المعنى أنّ الأدوات الّتى هى أجزاء للمادّين تشهد بفاقتهم إلى موجد لكون كلّ ذى جزء محتاجا ممكنا فكيف تكون فيه تعالى.

قوله «فأسماؤه تعبير» أى ليست عين ذاته و صفاته حسبما يزعمه الصوفية على ما عرفت بل هى معبّرات عنها «و أفعاله تفهيم» ليعرفوه و يستدلوا بها على وجوده و علمه و قدرته و حكمته و رحمته.

قوله «و ذاته حقيقة» أى حقيقة مكنونة عالية لا تصل إليها العقول، بأن يكون التنوين للتفخيم أو جديرة بأن تتّصف بالكمالات دون غيرها أو ثابتة واجبة لا يعتريها التغيّر و الزّوال.

قوله «و كنهه تفريق بينه و بين خلقه» لعلّ الغرض بيان أنه لا يشترك فى ذاتى مع الممكنات بأبلغ وجه، أى كنهه يفرق بينه و بينهم لعدم اشتراكه معهم فى شىء، هكذا قال فى البحار، و الأظهر أنّ المراد به هو المراد بقوله المتقدّم: مباينته إياهم مفارقته إنيّتهم أى انه سبحانه بذاته مفارق لهم لأن كنهه هو التنزّه من الحدّ و كنه المخلوق الاكتناف بالحدود.

و يؤيّد ذلک قوله «و غيوره تحديد لما سواه» أى مغايرته له أوجب التحديد، يعنى أنّ مغايرته لما سواه ليس كمغايرة ما سواه من المخلوقات بعضها ببعض، فانّ مغايرتها بالحدود الذّاتيّة و مغايرة الحقّ لها إنّما هو بالتّنزّه من الحدّ لا غير.

و قوله «من استوصفه» أى طلب وصف كنهه أو سأل عن الأوصاف و الكيفيّات الجسمانيّة فقد جهل عظمته.

و قوله «و قد تعدّاه من اشتمله» أى تجاوز عنه و لم يعرفه من توهّمه شاملا

لنفسه، فيكون ردّا على القول بـالحلول و الاتّحـاد كما هو مـذهب الصّوفيّـة، و فى بعض النسـخ أشـمله أى جعله شاملا أو مشـمولا و على التقديرين ففيه أيضا دلالة على بطلان مذهبهم.

قوله «و قد أخطأه من اكتنهه» أى من توهّم أنّه عرف كنهه فقد أخطأ خطاء عظيما.

قوله «و من قال كيف فقد شـبّهه» أى من سأل عن الكيفيّات الجسـمانيّة فقد شبّهه بخلقه فى التكيّف بالكيفيّة «و من قال لـم فقد علّله» أى لـم صار قادرا و عالما أو لـم صار موجودا فقد علّل ذاته و صـفاته، و ليس لذاته و صفاته علّة و إنّما هو تعالى علّة العلل «و من قال متى فقد وقّته» لأنّ متى سؤال عن نسـبة الشىء إلى الزّمان فمن قال متى كان فقد وقّت أوّل وجوده و ليس له أوّل «و من قال فيم فقد ضمّنه» أى من سأل أنّه فى أىّ شىء فقد جعله فى ضمن ذلک الشىء و جعل ذلک الشىء متضمّنا له و هو من خواص الأجسام و اللّه سبحانه منزّه عن ذلک «و من قال إلى م فقد نهّاه» أى إلى أىّ شـىء ينتهى شخصه فقد جعله ذا نهاية و انقطاع «و من قال حتّى م» يكون وجوده «فقد غيّاه» أى جعل لبقائه غايـة و نهايـة «و من غيّاه فقـد غاياه» أى من جعل له غايـة فقد حكم باشتراكه مع المخلوقين فى الفناء فيصحّ أن يقال غايته قبل غاية فلان أو بعده «و من غاياه فقد جزّاه» أى من حكم باشتراكه مع المخلوقين و لو فى الجملة فقد جزّاه، لأنّ ما به الاشتراک غير ما به الامتياز، فلا بدّ أن يكون ذا أجزاء بعضها جهة امتياز و بعضها جهة اشتراک.

و يحتمـل أن يكون المراد أنّ السائل عنه تعالى بحتّام توهّم فى حقّه الغايـة و النهايـة و المتوهّم فى حقّه الغايـة جعله ذا نهايـة ينتهى إليها و الجاعل له النهاية جعله مركبا من الأجزاء، إذ النهاية من لوازم الكم المتصل و المنفصل و المتكمم المشـتمل على الأجزاء، و بعبارة اخرى الغاية و النهاية من عوارض الأجسام و ذات الأوضاع و المقادير و الأجزاء.

«و من جزّاه» أى أثبت له الجزء «فقد وصفه» بصفة الامكان و أثبت له صفات

الممكنات المتجزّأة و من حكم بذلک فقد ألحد فی ذاته.

و قوله «لا ـ یتغیّر اللّه بانغیار المخلوق کما لا ینحدّ بتحدید المحدود» أی لیس التغیّرات التی تکون فی مخلوقاته موجبة للتغیّر فی ذاته و صفاته الحقیقیة، بل انما التغیّر فی الاضافات الاعتباریة کما أنّ خلقه للمحدودین حدودا لا یوجب کونه متحدّدا بحدود مثلهم.

و یحتمل أن یکون المراد أنه لا یتغیّر کتغیّر المخلوقین و لا ینحدّ کتحدّد المصنوعین المحدودین، أی لا یتغیّر بمثل تغیّرهم و لا ینحدّ بمثل تحدّدهم، و المعنی الأوّل أظهر و یؤیده ما فی روایة المجالس: لا یتغیّر اللّه بتغیّر المخلوق و لا یتحدّد بتحدّد المحدود.

و قال بعض مشایخنا المحقّقین دام تأییده من اللّه: إنّ المراد به أنّ مغایرة المخلوق للخالق و قبوله للغیریة و انفعاله بذلک لا یوجب التغیّر فیه أصلا إذ لم یحدث فیه جهة موجبة لمغایرته لمخلوقه، بل کان کما کان و إنما حصلت الغیریة فی المخلوق و تمیز عن الخالق من أجل اتّصافه بالحدود و تحدّد کلّ نوع منه بحدّ مخصوص، و الواجب لم یخصّص بحدّ یوجب المغایرة و التمیّز به عن المخلوق و قوله کما لا ینحدّ آه بمنزلة الدّلیل علی ذلک، لأنّ التغیّر بانغیار المخلوق إنما ینتزع من الاختصاص بحدّ مخصوص فی قبال الحدّ الّذی فی المخلوق، کما أنّ تغایر المخلوقات بعضها ببعض علی ذلک الوجه أی من جهة أنّ لکلّ منها حدّا مخصوصا لیس فی الاخر، و اللّه سبحانه لمّا کان منزّها عن الحدّ لا یوجب انغیار المخلوق الحاصل له من الاکتناف بالحدود تغیّره البتّه.

و محصّله ما قاله أمیر المؤمنین فی الخطبة المأة و الخامسة و الثمانین: و خرج بسلطان الامتناع من یؤثّر فیه ما یؤثّر فی غیره.

و قوله «أحد لا بتأویل عدد» یعنی أنّه أحدیّ الّذات بسیط الحقیقة لا جزء له ذهنا و عقلا و خارجا، أو أنه واحد لیس کمثله شیء و لیست وحدته وحدة عددیّة لأنّ ما لا ثانی له لا یدخل فی باب الأعداد.

و قوله «ظاهر لا بتأویل المباشرة» أی لیس ظهوره بأن یباشره حاسّة من الحواسّ

أو ليس ظهوره بأن يكون فوق جسم يباشره كما يقال: ظهر على السّطح، بل هو ظاهر باثاره غالب على كلّ شيء بقدرته.

و قوله «متجلّى لا باستهلال رؤية» أى ظاهر ليس ظهوره من جهة الرؤية.

و قوله «باطن لا بمزايلة» أى ليس بطونه بمفارقة مكان بأن انتقل من مكان إلى مكان فخفى عنهم، أو بأن دخل فى بواطنهم حتّى عرفها بل لخفاء كنهه عن عقولهم و علمه ببواطنهم و أسرارهم.

و قوله «مباين لا بمسافة» أى ليس مباينته لبعده بحسب المسافة عنهم بل لغاية كماله و تمامه و نقصانهم و افتقارهم باينهم فى الذّات و الصّفات.

و قوله «قريب لا بمداناة» أى ليس قربه قربا مكانيا بالدّنوّ من الأشياء، بل بالعلم و الغلبة و التربية و الرّحمة.

و قوله «لطيف لا بتجسم» أى ليس لطفه بكونه جسما له قوام رقيق أو حجم لطيف أو تركيب غريب و صنع عجيب، بل لخلقه الأشياء اللطيفة و علمه بها أو لتجرّد ذاته.

و قوله «فاعل لا باضطرار» أى هو فاعل مختار ليس بموجب.

قوله «مقدّر لا بجول فكرة» أى ليس فى تقديره للأشياء محتاجا إلى جولان الفكر.

قوله «مدبّر لا بحركة» أى ليس فى تدبيره محتاجا إلى حركة ذهنية أو بدنيّة قوله «مريد لا بهمامة» أى بعزم و اهتمام.

قوله «شاء لا بهمة» أى ذو مشية لا بهمة و قصد و عزم.

قوله «مدرک لا بمجسة» أى ليس إدراكه بحسّ اليد و لمسها أو بالتجسّس و التفحّص.

قوله «لا تصحبه الأوقات» لكونه منزّها من الزّمان.

و قوله «لا تضمنه» بحذف إحدى التائين.

قوله «و لا تأخذه السّنات» كما قال تعالى «لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ »، لأنّهما من خواص الطبيعية الحيوانيّة.

قوله «و لا تحدّه الصّفات» أى لا تحدّه صفات الواصفين كما قال أمير المؤمنين عليه السّلام الحمد للّه الّذى لا يبلغ مدحته القائلون.

قوله «و لا تفيده الأدوات» أى لا ينتفع بها و لا يحتاج فى صنعه إلى الاستفادة منها كما هو شأن المخلوق.

و قوله «سبق الأوقات كونه» إلى قوله «لا مشعر له» قد مضى تحقيق ذلک كلّه فى شرح الخطبة المأة و الخامسة و الثمانين فليراجع ثمة.

و قوله «بتجهيره الجواهر عرف أن لا ـ جوهر له» أى بتحقيق حقايقها و ايجاد مهيّاتها عرف أنّها ممكنـة و كلّ ممكن محتاج إلى مبـدء فمبـدأ المبادى لا يكون حقيقة من هذه الحقائق.

و قوله «و بمضادّته بين الأشـياء» إلى قوله «لا قرين له» قـد تقدّم تحقيقه أيضا فى شـرح الخطبة المذكورة و لا حاجة إلى الاعادة و كذا تقدّم هناک معنى قوله «ضادّ النّور بالظّلمة و الجلاية بالبهم» إلاّ أنّ هناک و الوضوح بالبهمة، بدله.

و قوله «و الجسوء بالبلـل» قـال الفيروزآبادى: جسأ جسوء صـلب و جسـئت الأرض فهى مجسوءة من الجساء و هو الجلـد الخشن و الماء الجامد و فى الخطبة المذكوة:

و الجمود بالبلل، بدله.

و قوله «و الصّرد بالحرور» الصّرد بفتح الرّاء و سكونها البرد فارسىّ معرّب و الحرور بضمّ الحاء الحرارة و بفتحها الرّيح الحارّة.

و قوله «مؤلّف بين متعادياتها» إلى قوله «على مؤلّفها» قد تقدّم تحقيقه أيضا فى شرح الخطبة المذكورة.

و قوله: «ذلـک قوله عزّ و جـلّ: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » استشـهاد لكون التّأليف و التّفريق، دالّين على الصّانع بالتّقريب الّذى قدّمناه فى شـرح الخطبة المذكورة و قال بعض المفسّرين: المراد بالشـىء الجنس و أقلّ ما يكون تحت الجنس نوعان، فمن كـلّ جنس نوعان كالجوهر فمنه المادّى و المجرّد، و من المادّى الجماد و النّامى و من النّامى النّبات و المـدرک الصّامت و النّاطق، و كلّ ذلک دليل على أنّه واحد لا كثرة فيه و قيل: كلّ موجود دون اللّه ففيه زوجان اثنان:

كالمهيّة و الوجود، و الوجوب و الامكان، و المادّة و الصورة، و الجنس و الفصل،

و أيضا كلّ ما عـداه يوصف بالمتضايفين كالعليّـة و المعلوليّة و القرب و البعد و المقارنة و المباينة و التألّف و التّفرّق و المعاداة و الموافقة و غيرها من الامور الاضافيّة فقوله:

«لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى تعرفون من اتّصاف كلّ مخلوق بصفة التركيب و الزّوجيّة و التّضايف أنّ خالقها واحد أحد لا يوصف بصفاتها.

و قوله «ليعلم ان لا قبل له و لا بعـد» يدلّ على عدم كونه تعالى زمانيّا، و يحتمل أن يكون المعنى عرفهم معنى القبلية و البعديّة ليحكموا أن ليس شىء قبله و لا بعده.

و قوله «شاهـدة بغرائزهـا أن لا غريزة لمغرّزها» أى شاهـدة بطبايعها على أن لا طبيعـة لموجـد طبائعها و مفيضـها عليها، و يمكن حملها و أمثالهـا على الجعل البسـيط «و المفاوت» بصـيغة الفاعل من جعلها بينها التّفاوت «و توقيتها» تخصـيص حـدوث كلّ منها بوقت معيّن و بقائها إلى وقت معيّن.

و قوله «حجب بعضـها عن بعض» أى بالحجب الجسـمانيّة أو الأعمّ ليعلم أنّ ذلک نقص و عجز و هو منزّه عن ذلک، بل ليس لهم حجاب عن الرّب إلاّ أنفسـهم لا مكانهم و نقصهم و قال بعض المحقّقين: المراد أنّه قد قرّر لكلّ واحد من الممكنات حدا معيّنا لا يتعدّاه، فلا يمكن أن يكون أحـدها عين الاـخر، و بـذلک يعلم أن لا حجاب بين المخلوق و بين الخالق إلاّ نفس المخلوق، لأنّ المخلوق محـدود و الخالق منزّه عن الحدّ فالحجاب فى جهة المخلوق لا فى جهة الخالق.

قوله «له معنى الرّبوبيّة» إلى قوله «معنى البرّائيّة» قد تقدّم معناها قريبا فى أواخر ذكر الأدلة النّقليّة.

و قوله «كيف و لا تغيّبه مذ» أى كيف لا يكون مسـتحقّا لهذه الأوصاف و الأسـماء فى الأزل و الحال أنّه لا يصـير كلمة مذ الموضوعة لأوّل الزّمـان سـببا لأن يغيب عنه شـىء، فانّ الممكن إذا كان قبل ذلک المبـدأ أو بعـده يغيب هـذا عنه، و اللّه تعالى جميع الأشـياء مع أزمنتها حاضرة فى علمه فى الأزل، أو أنّه ليس لوجوده زمان حتّى يغيب عن غيره فيقال مذ كان موجودا كان كذا.

«و» لمّا لم يكن زمانيّا «لا تدنيه كلمة قد» الّتى هى لتقريب الماضى إلى الحال

أو ليس فى علمه شدّة و ضعف حتّى تقر به كلمة قد الّتى للتّحقيق الى العلم بحصول شىء «و لا تحجبه كلمة لعلّ» الّتى هى لترّجى أمر فى المستقبل، أى لا ـ يخفى عليه الا ـ مور المستقبلة «و ليس له أوّل» وقت «حتّى يقال له متى» وجد أو متى علم أو متى قدر و هكذا «و لا يشتمله حين و لا زمان» لأنّه خالق الحين و الزّمان فكيف يكونان شاملين له و محيطين به «و لا تقارنه مع» أى لا يوجب كلمة مع المفيدة للمصاحبة اقترانه بالأشياء زمانا أو مكانا، و لذلک قال أمير المؤمنين عليه السّلام: فى الخطبة الاولى:

مع كلّ شىء لا بمقارنة، أى معيّته للأشياء ليست بعنوان المقارنة الّتى فى المخلوقات بل بالعلم و الاحاطة و القيوميّة و التّربية.

و قوله «إنّما تحدّ الأدوات أنفسها» إلى قوله «لو لا التّكملة» قد تقدّم شرح هذه الفقرات و تحقيقها فى شرح الخطبة المأة و الخامسة و الثّمانين بما لا مزيد عليه.

و قوله «افترقت فدّلت على مفرّقها» أى افترقت الأدوات و الالات باختصاص إدراک كلّ منها بنوع خاصّ من المدركات، او اختصاص كلّ منها بحدّ مخصوص، فدلّت على مفرّق فرّقها و خصّصها بحدّ مخصوص.

و قوله «و تباينت فاعربت عن مباينها» أى تباينت بعضها مع بعض لاختصاص كلّ منها بوضع خاصّ فأظهرت عن صانعها الموجد للمباينة بينها أو عن صانعها المباين لها فى الصّفات و فى التّنزه عن الحدّ كما قال تعالى: «وَ مِنْ آياتِهِ »... «اِخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ ».

و قوله «بها تجلّى صانعها للعقول و بها احتجب عن الرّؤية» قد تقدّم معناهما أيضا فى شرح الخطبة المذكورة، و قال العلامة المجلسىّ: أى بالعقول احتجب عن الرّؤية لأنّ الحاكم بامتناع رؤيته هو العقل، و إلى العقل تتحاكم الأوهام عند اختلافها.

قوله «و فيها أثبت غيره» أى كلّما يثبت و يرتسم فى العقول أو فى المشاعر فهو غيره، و يحتمل أن يكون غيره مصدرا بمعنى المغايرة أى بالعقول يثبت مغايرته

تعالى للممكنات، و يمكن إرجاع الضّمير إلى الأوهام أى القول بالشريک له تعالى فعل الوهم لا العقل لكن فيه تفكيک.

و قوله «و منها انيط الدّليل» أى من العقول يستنبط الدليل على الخالق «و بها عرّفها الاقرار» أى بالعقول عرّف اللّه العقول أو ذويها الاقرار به عزّ و جلّ.

و قوله «لا ديانة إلاّ بعد معرفة» مثل قول أمير المؤمنين عليه السّلام فى الخطبة الاولى: أوّل الدّين معرفته، أى لا تديّن بدين للّه إلاّ بعد معرفة اللّه «و لا معرفة إلاّ باخلاص» أى باخلاص الحقّ مما لا يليق بذاته المقدّسة من نقايص الامكان «و لا إخلاص مع التّشبيه» له بمخلوقاته فى الذّات و الصّفات «و لا نفى» للتّشبيه «مع إثبات الصّفات» الزائدة على الذّات.

فقوله «للتّشبيه» متعلّق بالنّفى أى لم ينف التّشبيه من أثبت له الصّفات الزّايدة، و فى بعض النسخ بالتّشبيه بدل قوله للتّشبيه أى بنفى التّشبيه المستفاد من قوله: و لا إخلاص مع التّشبيه، فالمراد أن لا نفى له مطلقا بنفى التّشبيه أى لا يلزم النّفى المطلق مع إثبات الصّفات الكماليّة له على وجه لا يستلزم النّقص بنفى تشبيه لغيره كما نقول: شىء لا كالأشياء و عالم لا كعلم المخلوق و قادر لا كقدرتنا و هكذا، فيكون إشارة إلى وجوب إخراجه عن حدّ النّفى و حدّ التشبيه.

و قوله «فكلّما فى الخلق لا يوجد فى خالقه و كلّما يمكن فيه يمتنع فى صانعه» تفريع على ما سبق و تصريح بتنزّهه عن مشابهة مخلوقاته و نصّ فى ابطال مقال الصوفيّة القائلين بأنّ جميع ما للمخلوقات من الصّفات فهى صفات الخالق، لأنّهم مظاهر الحقّ و مجاليه حسبما عرفت فيما سبق.

و قوله «و لا يجرى عليه الحركة و السكون» إلى قوله «لزمه النقصان» قد تقدّم تحقيق معانى هذه الفقرات فى شرح الخطبة المأة و الخامسة و الثمانين أيضا.

و قوله «كيف يستحقّ الأزل من لا يمتنع من الحدث» استفهام فى معرض الانكار أى لو التمس التّمام و الاستكمال بالغير لزم اتّصافه بالكمالات الحادثة و عدم امتناعه من أن يحدث فيه تلک الحوادث، و من كان كذلک و كان محلاّ للحوادث

لا يكون أزليّا واجب الوجود.

و قوله «و كيف ينشىء الأشياء من لا ـ يمتنع من الانشاء» و هو أيضا فى معرض الانكار، أى لو التمس التّمام لاحتاج فى تماميّته إلى غيره لينشئ له صفات الكمال الموجبة لتمامه و كماله، و من كان كذلک كان ممكنا فلا يمكن أن يكون منشئا للأشياء أى الممكنات جميعا لأنّ إنشاءها من شأن الواجب.

ثمّ استدلّ عليه السّلام على جميع ما تقدّم بقوله «إذا لقامت فيه آية المصنوع و لتحول دليلا بعد ما كان مدلولا عليه» أى لو كانت فيه تلک الحوادث و التغيّرات و إمكان الحدوث لقامت فيه علامة المصنوع و لكان دليلا على وجود صانع آخر غيره كساير الممكنات لاشتراكه معهم فى صفات الامكان و ما يوجب الحاجة إلى العلّة لا مدلولا عليه بأنّه صانع.

و قوله «ليس فى محال القول حجّة» أى ليس فى إثبات هذا القول المحال أى إثبات الحوادث و الصّفات الزّايدة له حجّة «و لا فى المسألة عنه» أى فى السّؤال عن هذا القول لظهور خطائه و بطلانه «جواب و لا فى معناه له تعظيم» أى فى إثبات معنى هذا القول له تعالى و توصيفه بصفات الممكنات تعظيم له بل هو نقص فى حقّه حسبما عرفت «و لا فى ابانته من الخلق» و تنزيهه من صفاتهم «ضيم» أى نقص و ظلم فى حقّه تعالى شأنه «إلاّ بامتناع الأزلى أن يثنى و ما لا بدء له أن يبدء(1)» أى لا ـ نقص له فى ابانته من خلقه إلاّ ـ بأنّ الأزلى يمتنع من الاثنينيّة و بأنّ ما لا بدء أى لا مبدء له يمتنع من أن يبدء و يكون له مبدء، و ما نسبوه إليه تعالى ممّا مرّ مستلزم لكونه تعالى ذا مبدء و علّة.

و الحاصل أنّه لا ـ يتصوّر فى تفريقه تعالى من خلقه و من صفاتهم ظلم و نقص له تعالى إلاّ بهذا الوجه و الحال أنّه ليس بظلم أصلا و لا نقص، بل هو عين الكمال، و الاستثناء فى قوله عليه السّلام كما فى قول الشاعر:

1- (1) - عطف على الأزلى، منه.

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

و هو من قبيل إخراج المدح بما يشبه الذّم و قوله «كذب العادلون باللّه» أى الجاعلون له عديلا و شبيها و تعالى اللّه سبحانه عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا.

و أقول: يا اولى الألباب و الضمائر و ذوى الأبصار و البصاير إن تدبّرتم فى معانى هذه الخطبة الشّريفة حقّ التّدبّر وجدتموها كنزا مشحونا بأنواع الدّر و الجواهر، و بحرا موّاجا فى علم التّوحيد ليس له ساحل، و لو استقصيتم فيها النّظر و بذلتم عميقات الفكر عرفتم أنّ كلّ فقرة من فقراتها دليل مستقلّ فى بطلان مقالات أولياء الشيطان و اخوان عبدة الأوثان الزّاعمين أنهم أهل اليقين و العرفان، و الخلّصون فى التّوحيد و المعرفة و الايمان لقولهم بوحدة الوجود، و أن ليس غيره فى الحقيقة بموجود، و ذلک ظنّ الّذين كفروا فويل للّذين كفروا من النّار.

ثمّ أقول: أنت إذا أحطت خبرا بما قدّمنا علمت فساد القول بوحدة الوجود و سخافة ما يترتب على تلک الشّجرة الملعونة من الثّمرات الخبيثة، و عرفت أنّ وجوده سبحانه وجود خاصّ به قائم بذاته ممتاز عن ساير الموجودات بنفس ذاته و بكونه مبدء للكلّ و هو أيضا نفس ذاته و ممتاز عن المهيّات بكونه وجودا خاصّا بخلاف شىء من المهيّات، فانّه ليس وجودا أصلا لا خاصا و لا مطلقا، فليس له تعالى مهيّة و حقيقة يشارک بها شيئا من الممكنات، فلا يحتاج إلى مميّز ذاتىّ يميّزه عمّا به المشاركة الذّاتيّة مع غيره، فحقيقته هويّة بسيطة و وجود خاصّ ممتاز عن كلّ ما سواه بتجرّده و تنزّهه من الحدود، و يكون كلّ ما سواه محدودا، و لنقتصر فى هذه المسألة على ذلک و لنعد إنشاء اللّه تعالى إلى ذكر ساير عقايدهم الفاسدة، فأقول و باللّه التوفيق و الاعتماد.

ص:240

و منها

قولهم: بأنّ الكفّار غير مخلّدين فى النّار.

و هو خلاف اجماع المسلمين، و خلاف ما دلّت عليه آيات الكتاب المبين و أخبار الحجج المعصومين.

قال ابن العربى فى الفصّ اليونسى من الفصوص «و أمّا أهل النّار فمالهم إلى النعيم و لكن فى النّار إذ لا بدّ لصورة النّار بعد انتهاء مدّة العقاب أن يكون بردا و سلاما على من فيها و هذا نعيمهم فنعيم أهل النّار بعد استيفاء الحقوق نعيم خليل اللّه حين القى فى النّار».

قال القيصرى: أى و مال أهل النّار إلى النعيم المناسب لأهل الجحيم إمّا بالخلاص من العذاب أو الالتذاذ به بالتعوّد أو تجلّى الحقّ فى صورة اللطف فى عين النّار كما جعل النّار بردا و سلاما على إبراهيم، و لكن ذلك بعد انتهاء مدّة العقاب كما جاء ينبت فى قعر جهنّم الجرجير(1) و ما جاء نصّ بخلود العذاب بل جاء الخلود فى النّار و لا يلزم منه خلود العذاب.

و قال القيصرى أيضا فى شرح الفصّ الهودى: و اعلم أنّ كلّ من اكتحلت عينه بنور الحق يعلم أنّ العالم بأسره عباد اللّه و ليس لهم وجود و صفة و فعل إلاّ باللّه و حوله و قوّته، و كلّهم محتاجون إلى رحمته و هو الرّحمن الرّحيم و من شأن من هو موصوف بهذه الصّفات أن لا يعذّب أحدا عذابا أبدا و ليس ذلك المقدار من العذاب أيضا إلاّ لأجل ايصالهم إلى كمالاتهم المقدّرة لهم كما يذهب الذّهب و الفضة فى النّار لأجل الخلاص ممّا يكدّره و ينقّص عياره، فهو متضمّن لعين اللطف و الرّحمة كما قيل:

و تعذيبكم عدل و سخطكم رضى و قطعكم وصل و جوركم عدل

أقول: فلينظر العاقل إلى هذين الضّليلين كيف يخالفان اجماع المسلمين و ينبذان آيات الكتاب المبين وراء ظهورهما بارائهم الفاسدة و الاستحسانات الكاسدة

1- (1) - و الجر يجير و الجر جير بكسرهما بقلة معروفة، ق.

و يعتمدان فى ذلک على أخبارهم المجعولة و أحاديثهم الموضوعة.

و قد تبعهما فى حديثهم المرسل المجعول المتصوّف الجامى فى شرح منتخب الفصوص حيث نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ بعض أهل النار يتلاعبون بالنّار، و نقل عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا انّه قال: سيأتى على جهنّم زمان ينبت من قعرها أو من قفرها الجرجير.

و هذه الأحاديث مضافا إلى مخالفتها لصريح الايات و روايات المتواترة قد نصّ فى أخبارنا بأنّها مجعولة كاذبة كما نصّ على ردّ ما توهّموه من انقطاع العذاب و إنفاد العقاب.

فقد روى عن الكلينى فى الكافى باسناده عن أبى بصير مولى أبى عبد اللّه عليه السّلام عن موفق مولى أبى الحسن عليه السّلام قال: كان مولاى أبو الحسن عليه السّلام إذا أمر بشراء البقل يأمر بالاكثار منه و من الجرجير فيشرى له و كان يقول عليه السّلام: ما أحمق بعض الناس يقولون: إنّه ينبت فى وادى جهنّم، و اللّه عزّ و جلّ يقول: «وَقُودُهَا النّاسُ وَ الْحِجارَةُ »، فكيف ينبت البقل.

و روى عن البرقى فى المحاسن عن العبيدى عن الأهوازى عن النّضر بن سويد عن درست عن الأحول عن حمران قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: إنّه بلغنا أنّه يأتى على جهنّم حين يصطفق(1) أبوابها فقال: لا و اللّه إنه الخلود قلت:

خالدين فيها ما دامت السموات و الأرض إلاّ ما شاء ربّک، فقال عليه السّلام هذه فى الذين يخرجون من النار.

و أما ما قاله القيصرى: من أنه ما جاء نصّ بخلود العذاب بل جاء الخلود فى النار و لا يلزم منه خلود العذاب فناش من جهله بايات الكتاب فقد قال تعالى: «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ »، و أمثال هذه الاية كثيرة فى القرآن غير عزيزة.

و هل هذه الدّعوى الباطلة و المقالة الفاسدة فى مقابلة النصوص الصريحة

1- (1) - اصطفقت الاشجار اهتزت بالريح و هو كناية عن الخلو من الناس (منه)

المستفيضة بل المتواترة إلاّ الملاعبة بالدّين و التكذيب للأنبياء و المرسلين.

و أعظم من ذلک جرئتهم على تأويل الايات الواردة فى النقمة و العقاب للكفار و أهل العذاب بالرّحمة و الثواب، مثل ما تمحّله ابن العربى فى الفصّ الهودى فى الايات الواردة فى عاد قوم هود و هى قوله تعالى: «فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْ ءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاّ مَساكِنُهُمْ كَذلِکَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ »، قال ما لفظه «ألا ترى عـادا قوم هود كيف قالوا هـذا عارض ممطرنا فظنّوا خيرا باللّه» قال القيصـرى: أى ألا ترى أن قوم هود كيف قالوا لما تجلّى عليهم الحقّ فى صورة السـحاب ان هذا عارض أى سحاب ممطرنا و ينفعنا فظنوا أنّ اللّه تجلّى لهم بالحقّ و الرّحمة «و هو عند ظنّ عبده به فاضرب لهم الحقّ عن هـذا القول فأخبرهم بما هو أتمّ و أعلى فى القرب» أى أضـرب بقوله بل هو ما اسـتعجلتم به أى هو مطلوبكم الّذى يوصـلكم إلى كمالكم و يعطيكم الخلاص من انيّاتكم و يخرجكم من عالم التّضاد و الظّلمة إلى عالم الوفاق و الرّحمة.

و انّما كان هذا المعنى أتمّ و أعلى «فانّه إذا أمطرهم فذلک حظّ الأرض و سقى الحبّة» المزروعة فيها «فما يصلون إلى نتيجة ذلک المطر إلاّ عن بعـد لأنّ المطر إذا سـقى الحبّـة المزروعـة لا بـدّ ان يمضـى عليها زمان طويل و مـدّة كثيرة حتّى تحصل نتيجته و يحصل منها الغذاء الجسـمانى و هو من حظوظ أنفسـهم المبعّدة لهم عن الحقّ و هذا الاهلاک يوصـلهم فى الحال إلى ربّهم و يقرّبهم منه فقال لهم بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب» و انّما كان استعجالهم فى وصولهم إلى كمالهم و قربهم من غاية مرتبتهم.

و لمّا كان هذا المطلوب لا يمكن إلاّ بفنائهم فى الحقّ أهلكهم اللّه عن أنفسهم و أفناهم عن هياكلهم و هى أبدانهم الجسمانية الحاجبة لهم عن إدراک الحقائق «فجعل» أى الحقّ «الرّيـح إشارة إلى ما فيها من الرّاحـة فانّ بهـذا الرّيـح أراحهم من هذه الهياكل المظلمة و المسالک الوعرة و فى هذه الرّيح عذاب أى أمر يستعذبونه

إذا ذا قوه إلاّ أنّه يوجعهم لفرقة المألوفات» أى الرّيح المهلكة و إن كانت فى الظاهر مولمة موجعة لهم لاخراجهم عن العالم الجسمانى المتألّفة قلوبهم به لكن فيها لطف مستور، لأنّ فى كلّ قهر للّه تعالى ألطافا خفيّة يستعذبونه إذا وصلوا إليه عقيب الوجع «فباشرهم العذاب» أى اهلكهم «فكان الأمر إليهم أقرب ممّا تخيّلوه» أى الأمر الذى كان مطلوبهم بالحقيقة كان أقرب إليهم من المطلوب المتخيّل لهم و هو ما يحصل من المزروعات «فدمّرت كلّ شىء بأمر ربّها فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم أى جثثهم الّتى عمرتها أرواحهم الحقية».

و محصل كلامهما أنّ قوم هود عليه السّلام مع العتوّ و الكفر و الانكار لم يكونوا من المعذّبين بل صاروا بذلک من المقرّبين المنعمين و أوصلهم الكفر و الضّلال إلى درجة الفضل و الكمال، و استحقّوا بالجحود عظيم الزّلفى و حسن المال.

و الايات و إن كانت ظاهرة فى الاهلاک و التعذيب لكن الظّواهر غير مرادة بل المراد معنى آخر يعرفه أهل الكشف و الشّهود لا أهل الحجاب.

و هو أنّ الرّيح فى الاية مأخوذة من الرّوح و الرّاحة و العذاب من العذوبة و الحلاوة و الغرض من إهلاكهم بالرّيح التعجيل فى إراحتهم من العلايق البدنية و إخراجهم من الهياكل الجسمانية و ايصالهم إلى مرتبة القرب و الزلفى و البقاء بالفناء، و قد أعطاهم اللّه خيرا ممّا يرجون و أفضل ممّا يأملون، فانّهم لمّا رأوه عارضا ممطرا حسبوا أنّه ينزل منه المطر ينتفع به و يسقى به الحرث و الزّرع فقال تعالى: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ »، أى ليس هذا ما ذهبت إليه ظنونكم بل هو خير منه، فانّ العارض الممطر فيه منفعة مؤجّلة دنيويّة، و فى الرّيح منفعة معجّلة أخروية و الاولى قليلة فانية و الاخرى كثيرة باقية هذا حاصل مراد هذين الملحدين.

أقول يا أهل المروّة و الانصاف المجانبين للهوى و الاعتساف انشدكم باللّه العظيم هل يرتضى ذو شعور أن يكون مراده تعالى من تلک الايات ما قاله هذا الجاهل الزّنيم.

ثم أقول: يا قائد الجهّال و قطب أهل الضّلال هب أنّک خالفت اجماع المسلمين بل اتفاق جميع الملیّين و نابذت آيات الكتاب المبين فی مسألـة تخليـد الكفّار و المشـركين، و زعمت عـدم كونهم فی النّار مخلّدين معذّبين، فهلاّ اسـتحييت من اللّه ربّ العالمين أن جعلت آيات كتابه لعبة اللاّعبين و مسخرة المستهزئين؟! فما أقلّ حياؤک فی هتک ناموس الاسلام، و أعظم جرءتک فی هدم أساس ملّة سيّد الأنام.

أفيجوّز الجاهل السّفيه فضـلا عن العاقل النّبيه أنّ مراد الحقّ من هذه الايات الشّريفة هذه التأويلات السّخيفة؟ أم يتوهّم أنّ هذه الألفاظ و الكلمات قوالب تلک المعانی التّرهات؟ أ فيبقی بعـد البناء علی أمثال هذه المزخرفات اعتماد بالكتاب عند الضّرورة و الاحتياج؟ أو يمكن به الاستدلال فی الاصول و الفروع فی مقام الاحتجاج؟ ثمّ كيف يزعم من دان بكلمة الاسلام أن قوم عاد و ثمود و قوم نوح و لوط أقرب إلی اللّه من المؤمنين الموحّدين، حيث عجل فی إفناء الأولين ايصالا لهم إلی مراتب الزلفی و حبس الاخرين فی سـجن الـدنيا، و حرمهم من تلک النعمة العظمی حاشا ثمّ حاشا.

و العجب مع هـذا كلّه أنه اشـتبه فی حقّ نفسه و زعم أنه محيی الدّين و خاتم ولاية المحمديّين، و لعمری أنه ما حی الدّين بل مبطل أساس جميع شرايع النبيّين.

ثمّ العجب من القيصـری فانّه بعـد ذكر ما قـدّمناه قال: و الشـيخ يعنی ابن العربی إنّما يشـير فی أمثال هـذه المواضع إلی ما فيها من الرّحمة الحقّانيّـة، و هی من المطلعات المدركـة بالكشف، لا أنّه ينكر وجود العذاب و ما جاء به الرّسل من أحوال جهنّم فانّ من يبصـر بعينه أنواع التعذيب فی النشأة الدّنياويّة بسبب الأعمال القبيحة كيف ينكره فی النّشأة الأخراويّة و هو من أكبر ورثة الرّسل صلوات اللّه عليهم أجمعين، فلا ينبغی أن يسیء أحد ظنّه فی الأولياء الكاشفين لأسرار الحقّ بأمره، انتهی.

أقول: هذا مقام أن يقال:

يا ناعى الاسلام قم فانعه قد مات عرف و بدا المنكر

فانّک خبير بأنّه مع هذا الاصـرار المؤكّد كلّه من الشـيخ فى نشر كلمات الضّلال، لم يبق للحمل على الصّحة مجال، فهذا ليس موضع سوء الظنّ بل مقام علم اليقين، و كيف يكون المكـذّب للأنبياء و المرسـلين من أكبر ورثة النّبيّين؟ أم كيف يكون حامى الكفّار و المشـركين من الأولياء الكاشفين؟ لعن اللّه المضلّين و المبطلين، و عذّبهم عذابا لا يعذّبه أحدا من العالمين.

و أعظم من ذلک ما قالاه فى حقّ أشـقى الأولين و الاخرين المعارض الصّـريح فى سلطان ربّ العالمين، المعلن بقول أنا ربّكم الأعلى فى قبال ديّان الدّين أعنى فرعون المتمرّد عن طاعة الرّحمن المتمادى فى العتوّ و الكفر و الطغيان، حيث قالا:

إنه تـاب فطاب و نـدم و أناب و طهر و صار من أهل الايمان مع أنّ كونه من المخلّـدين نصّ آيات الكتاب المبين، و كونه من أهل التابوت و أشدّ الناس عذابا صريح أخبار سيد المرسلين، و سقوط ايمانه من درجة الاعتبار مفاد: «آلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ».

فيـا للّه مـا أجرء هـذين الضـالّين على اللّه، و كـاين لهمـا من يـد طولى فى تغيير معانى كتاب اللّه و تأويل الايات البيّنات على المـذاهب الفاسدة، و تطبيق النّصوص المحكمات بالمقالات الباطلة.

فقـد قالاـ فى الفصّ الموسوى و شـرحه «فقالت لفرعون فى حقّ موسـى انّه قرّة عين لى و لک فيه» اى فى موسـى «قرّة عينها بالكمال الّـذى حصل لها و كان قرّة عين لفرعون بالايمان الّذى أعطاه اللّه عند الغرق» و ذلک لأنّ الحقّ تكلّم بلسانها من غير اختيارها و أخبر بأنّه قرّة عين لها و لفرعون فوجب أن يكون كذلک فى نفس الأمر «فقبضه» أى الحق «طاهرا مطهّرا ليس فيه شىء من الخبث لأنّه قبضه عند ايمانه قبل أن يكتسب شـيئا من الاثام و الاسـلام يجبّ ما قبله و جعله آية على عنايته سـبحانه بمن شاء حتى لا ييأس أحد من رحمة اللّه فانه لا ييأس من رحمة اللّه إلاّ القوم الكافرون فلو كان فرعون ممن ييأس ما بادر إلى الايمان».

ص:246

قال الشارح: لما كان ايمان فرعون فى البحر حيث رأى طريقا واضحا عبر عليه بنو اسرائيل قبل التغرغر و قبل ظهور أحكام الدّار الاخرة مما يشاهدونه عند الغرغرة، جعل ايمانه صحيحا معتدّا به، فانه ايمان بالغيب لأنه كان قبل الغرغرة و هو بعينه كايمان من يؤمن عند القتل من الكفار، و هو صحيح من غير خلاف و انما كان ايمان المتغرغر غير صحيح لظهور أحكام الدار الاخرة له من النعيم و الجحيم و الثواب و العقاب، و جعله طاهرا مطهرا من الخبث الاعتقادى أى من الشرك و دعوى الربوبية لأن الاسلام يجبّ ما قبله كما ورد فى الخبر الصحيح، و لم يكتسب بعد الايمان شيئا من الاثام و العصيان، و قوله تعالى: «آلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ »، نوع من العتاب عند التوجه إلى الحق و الايمان به، و هو لا ينافى صحة ايمانه، إلى ان قال بعد تأويل جملة من الايات الدالة على خلوده و تعذيبه على(1) زعمه الفاسد:

و فايدة ايمانه على تقدير التعذيب عدم الخلود فى النار، و التعذيب بالمظالم و حقوق العباد مما لا يرتفع بالاسلام لا ينافى أيضا الاسلام و الطهارة من الشرك و خبث العقيدة، فلا ينكر على الشيخ ما قاله مع أنه مامور بهذا القول إذ جميع ما فى الكتاب مسطور بأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو معذور كما أنّ المنكر المغرور معذور، و قوله:

و جعله آية على عنايته، إشارة إلى قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »، و هذا أيضا صريح فى نجاته لأنّ الكاف خطاب له أى ننجيك مع بدنك من العذاب لوجود الايمان الصادر منك بعد العصيان، و اللّه أعلم بالسراير من كل مؤمن و كافر، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

و يتوجه عليهما وجوه من الكلام و ضروب من الملام.

الأول أنّ قوله تعالى: «وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً »، لا دلالة فيه على المدّعى، لأنها إنما قالت ذلك من جهة أنه لم يكن له ولد فأطمعته فى الولد بهذا الكلام، مع أنّ المروىّ عن ابن عباس فى تفسير الاية نقض صريح لقول ابن العربى.

1- (1) - متعلّق بالتاويل، منه

فقد روى فى مجمع البيان و غيره إنّ أصحاب فرعون لما علموا بموسى جاءوا ليقتلوه فمنعتهم، و قالت لفرعون: قرّة عين لى و لک لا تقتلوه، قال فرعون: قرّة عين لک، فأما لى فلا، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و الذى يحلف به لو أقرّ فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه به كما هداها، و لكنّه أبى للشّقاء الّذى كتبه اللّه عليه.

الثانى إنّ كفر فرعون محقّق و إيمانه لم يقم عليه دليل بل الدّليل إنّما قام على عدمه، و ذلک لأنّه إنّما آمن حيث لم ينفعه الايمان لكونه ايمان إلجاء لا يستحقّ به الثواب و لا ينجيه من العقاب لوقوعه حال الغرق و عند الاياس من الحياة و اليقين بالهلاک كما يشهد به قوله تعالى: «حَتّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ »، فأنكره عزّ و جلّ عليه و قال:

«آلآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ »، أى أ تؤمن الان حين لا ينفع الايمان و لا يقبل، لأنّه حال الالجاء و قد عصيت بترک الايمان فى حال ينفعک فهلا آمنت قبل ذلک، فلو كان ايمانه صحيحا مقبولا لما استحقّ التوبيخ و التقريع و الانكار.

و يشهد بذلک صريحا أى بعدم منفعة الايمان فى تلک الحال قوله تعالى: «فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْكافِرُونَ ».

روى فى الصّافى من العيون عن الرّضا عليه السّلام أنّه سئل لأىّ علّة غرق اللّه فرعون و قد آمن به و أقرّ بتوحيده؟ قال عليه السّلام: لأنّه آمن عند رؤية البأس، و الايمان عند رؤية البأس غير مقبول، و ذلک حكم اللّه تعالى ذكره فى السّلف و الخلف قال اللّه تعالى: «فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا »، الايتين.

و فيه من الكافى قدّم إلى المتوكّل رجل نصرانىّ فجر بامرأة مسلمة فأراد أن يقيم عليه الحد فأسلم، فقيل: قد هدم ايمانه شركه و فعله، و قيل: يضرب ثلاثة حدود، و قيل غير ذلک، فأرسل المتوكّل إلى الهادى عليه السّلام و سأله عن ذلک، فكتب عليه السّلام: يضرب حتّى يموت، فأنكروا ذلک و قالوا: هذا شىء لم ينطق به كتاب و لم

تجىء به سنّة، فسألوه ثانيا البيان فكتب هاتين الايتين بعد البسملة، فأمر المتوكّل فضرب حتّى مات.

و بهـذا الحـديث علم أيضا أنّ ايمان الكافر حين القتل ليس بصـحيح مطلقا كما قاله القيصـرى، و إنّما يصحّ ايمان من اريد قتله لأجل كفره مثل الكافر الحربى فانّه لو آمن حين القتل قبل ايمانه و يدرء عنه القتل بسبب الايمان.

الثالث أنّ قوله: حتّى لا ييأس أحـد من رحمـة اللّه فانّه لا ييأس أحـد من رحمة اللّه إلاّ القوم الكافرون، فيه إنّ الفرعون داخل فى المسـتثنى أعنى الكافرون الايسـين، لا فى المسـتثنى منه كما يـدلّ عليه صـريح قوله تعالى: «فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظّالِمِينَ وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هـذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ »، أى أردفناهم لعنة بعد لعنة و هى البعد عن الرّحمة و الخيرات.

و بالجملة رحمة اللّه سـبحانه قريب من المحسنين دون الكافرين، و هو سبحانه أرحم الرّاحمين فى موضع العفو و الرّحمة، و أشدّ المعاقبين فى موضع النّكال و النّقمة، و أعظم المتجبّرين فى موضع الكبرياء و العظمة.

الرّابع أنّ قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »، ليس المراد بالنّجاة فيه النّجاة من العذاب كما زعمه القيصـرى، و لا من كونه آية أنّه آية عنايته كما توهّمه ابن العربى، بل معناه نلقيك على نجوة من الأرض و هى المكان المرتفع ليراك بنو إسـرائيل لتكون لمن وراءك و هم بنو إسـرائيل آيـة أى علامـة يظهر لهم عبوديّتك و مهانتك و أنّ ما كنت تـدّعيه من الرّبوبيّة محال و كان فى أنفسـهم أنّ فرعون أجلّ شأنا من أن يغرق.

و عن تفسـير علىّ بن إبراهيم انّ موسى أخبر بنى إسرائيل انّ اللّه قد أغرق فرعون، فلم يصدّقوه فأمر اللّه عزّ و جلّ البحر فلفظه به على ساحل البحر حتّى رأوه ميّتا.

و فى الصافى من العيون عن الرّضا عليه السّلام فى حديث غرقه و قد كان فرعون من

قرنه إلى قدمه فى الحديد و قد لبسه على بدنه، فلمّا غرق ألقاه اللّه تعالى على نجوة على الأرض ببدنه ليكون لمن بعده علامة فيرونه مع تثقّله بالحديـد على مرتفع من الأرض، و سبيل الثقيل أن يرسب و لا يرتفع فكان ذلک آيـة و علامـة - إلى أن قال - و لئلا يشكّ أحد فى إهلاكه انّهم كانوا قوما اتّخذوه ربّا فأراهم اللّه عزّ و جلّ إياه جيفة ملقاة بالسّاحلّ ليكون لمن خلفه عبرة و عظة، هذا.

و العجب من القيصـرى، فانّه بعـد مشاهـدته لهذا الخبط العظيم كلّه من ابن العربى لم يرفع يده عن العصبية له و يقول إنه مأمور بهذا القول من جانب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما أنه مأمور من جانبه بجميع ما يقوله فى الفصوص فهو معذور.

أقول: و لقائل أن يقول له: يا أحمق الرّجال و مفتّن الجهّال أ يأمر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بنشـر الافک و الضّلال؟ أ فهذا من أسـرار الرّب المتعال؟ أم يأذن بتحريف آيات القرآن و العصبية فى حقّ فرعون و هامان أ هذا من مقتضـيات رحمة الرّحمن؟ لا و اللّه بل هو من امنيّـات الشّـيطان، و كيف يسوغ عبـادة يغوث و يعوق و اللاّـة و العزّى بزعم أنّ عبادتهـا عين عبادة العلىّ الأعلى و إنّ الحقّ تعالى فيها تجلّى إن هـذا الاّ اختلاق و افتراء، و قد نطق الكتاب المبين على رغم ابن العربى ما حى الدّين و رغم ساير الصوفيّين القائلين بوحدة الوجود و بأنّ عبادته يحصل لعبادة كلّ معبود:

«قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ وَ لا أَنَا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ ».

أبقى بعد هذا التفكيک الصّـريح، و البيان الفصـيح، و التّبيان النّصيح ريب فى بطلان القول بالوحدة و الاتّحاد أو معتذر للقائلين به فى عتبى ربّ العباد أم لا؟ فأنّى يؤفكون أم أين يصرفون تعالى اللّه عمّا يقول الظالمون، فمن أظلم ممّن افترى على اللّه كذبا ليضلّ النّاس بغير علم إنّ اللّه لا يهدى القوم الظالمين هذا.

و لنعد إلى ما كنّا فيه من مسألة تعذيب الكفّار و خلودهم فى النار فأقول:

إنّ ما ذهب إليه ابن العربى من نفيه العذاب فى حقّ قوم عاد و فرعون ذى الأوتاد و ساير الكفّار و المشـركين مبنىّ على أصل فاسد أسّسه فى الفصّ الاسماعيلى،

و هو أنّ خلف الوعد من اللّه غير جايز بخلاف خلف الوعيد قال:

«الثّناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد و الحضرة الالهية تطلب الثناء بالذّات المحمودة فيثنى عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل التّجاوز فلا تحسبنّ اللّه مخلف وعده رسله و لم يقل و وعيده بل قال و يتجاوز عن سيئاتهم مع أنّه توعد على ذلک فأثنى على إسماعيل بأنه كان صادق الوعد و قد زال الامكان فى حقّ الحقّ لما فيه من طلب المرجّح».

قال القيصرى: أى قد زال فى حقّ الحقّ إمكان وقوع الوعيد إذ لا شكّ أنّ الحقّ تعالى وعد بالتجاوز فقال: «وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ »، و قال: «إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً »، و قال: «وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » من السيئات و أمثال ذلک، و وقوع وعده واجب و هو التجاوز و العفو و الغفران، فزال امكان وقوع الوعيد، لأنّ وقوع أحد طرفى الممكن لا يمكن إلاّ بمرجّح، و ما ثم ما يطلب الوعيد إلاّ الذنب، و هو يرتفع بالتجاوز فزال سبب وقوع الوعيد و عدم العلّة موجب لعدم المعلول:

فلم يبق إلاّ صادق الوعد وعده و ما لوعيد الحقّ عين تعاين

أى إذا زال سبب الوعيد فلم يبق إلاّ تحقّق وعده وحده، لأنّه صادق فى وعده و ما بقى لوعيد الحقّ عين تعاين على البناء للمفعول لزوالها بالمغفرة و العفو فى حقّ العاصين، و أمّا فى حق الكافرين و المنافقين لانقلاب عذابهم بنعيم يناسبهم كما قال:

و إن دخلوا دار الشقاء فانّهم على لذّة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد فالأمر واحد و بينهما عند التجلّى تباين

أى مباين لنعيم جنّات الخلد، قوله: فالأمر واحد، إشارة إلى أنّ التجلّى الالهى على السّعداء و الأشقياء ليس إلاّ واحدا. و التباين إنّما يقع بحسب القوابل، و كلّ منها يأخذ بحسب استعداده و قابليّته كماء واحد نزل من السماء فصار فى موضع سكرا و فى موضع حنظلا.

يسمّى عذابا من عذوبة طعمه و ذاک له كالقشر و القشر صائن

أى يسمّى ذلک النّعيم الذى لأهل الشقاء عذابا لعذوبة طعمه بالنسبة إليهم فانّ العذاب مأخوذ من العذب فى الأصل، و ذاک أى لفظ العذاب له أى للعذب كالقشر و القشر صائن للّه من الافات، فلفظ العذاب يصون معناه عن إدراک المحجوبين الغافلين عن حقايق الأشياء، انتهى كلامهما هبط مقامهما.

و محصّل ما استدلاّ به وجوه:

الأوّل إنّ اللّه سبحانه يحمد و يثنى بالعفو و الغفران لا بالتّعذيب و الانتقام، و هو طالب للحمد و الثّناء، فيجب الصّدق فى الوعد بالثواب لا الوعيد بالعقاب.

الثانى إنّ اللّه تعالى قال: «فَلا تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ »، و لم يقل و وعيده فالخلف فى الوعيد جايز.

الثالث إنّه تعالى قال: «أُولئِکَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِى أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ »، فلا بدّ من وقوع التّجاوز عن السيئات لأنّه وعد الصدق، و ليس بمخلف وعده.

الرّابع أنّه إذا كان التجاوز عن السّيئات و الذنوب لازم الوقوع فلا يمكن وقوع الوعيد لأنّ بقاء المعلول من دون علّته محال، و قد كانت علّة الذنوب ارتفعت بالتجاوز.

أقول: و أنت خبير بأنّ هذا كلّه ممّا نسجه عدوّ اللّه الشّيطان اللّعين على لسان وليّه عدوّ رسول اللّه ماحى الدّين، إغراء للكفّار على الكفر و العدوان، و للعصاة على التّمرد و العصيان كما قال تعالى: «وَ كَذلِکَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ » و يبطل ما ذكره كلّه قوله تعالى: «إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَکَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ يَشاءُ »، و قول أمير المؤمنين عليه السّلام فى الخطبة المأة و الخامسة و السبعين: ألا و إنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، و ظلم لا يترک، و ظلم مغفور لا يطلب، فأمّا الظلم الّذى لا يغفر فالشرک

باللّه قال اللّه سبحانه: «إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ »، و أمّا الظلم الذى يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، و أمّا الظلم الذى لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا.

فانّ هـذه الايـة و الحـديث يخصّان التجاوز عن السـيئات فى الايـة السّابقـة بالمؤمنين و بغير مظالم العباد، فيبقى الوعيدات الواردة فى حقّ الكفّار و فى حقوق النّاس على حالها لعدم ارتفاع عللها.

و يستفاد هذا التّخصيص من صدر الاية السابقة أيضا، فانّ قوله تعالى:

«نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا »، يدلّ على أنّ المراد بالاية المؤمنون خاصّة، إذ الكافر ليس له عمل صالح حسن مقبول.

و أيضا لو أبقينا التجاوز عن السـيئات على عمومه لكان الوعيـدات الالهيّـة كلّها لغوا و عبثا، لاسـتحالة وقوعها بعد ارتفاع عللها، بل يلزم أن يكون اللّه سبحانه فى أخباره المتضمّنة للوعيد كاذبا، و من أصدق من اللّه قيلا، فتعالى اللّه عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا.

ثمّ إنّ صـدور أمثال هـذه المقالات من هـذه الطايفة و قبول أمثالهم تلك الخيالات منهم صار سـببا لغلط أعظم من غلطهم المتقدّم، و هو إثباتهم للمتصـلّبين من الكفّار مزّية و فضيلة بقدر تصلّبه و إصراره على الكفر و الجهالة حتّى أنّ بعضهم سمّى إبليس رئيس الموحّدين، مثل أحمد الغزالى فقد قال الشارح المعتزلى فى شرح الفصل الثانى عشر من الخطبة الاولى: و كان فى المسلمين ممّن يرمى بالزّندقة من ذهب إلى تصويب إبليس فى الامتناع من السجود و يفضّله على آدم عليه السّلام و هو بشار بن برد المرغث و من الشعر المنسوب إليه:

النّار مشرقة و الأرض مظلمة و النّار معبودة مذ كانت النّار

و كـان أبو الفتوح أحمـد بن محمّـد الغزالى الواعظ أخو أبى حامـد الغزالى الفقيه الشّافعى قاصّا لطيفا و واعظا مفوّها، و هو من خراسان من مدينة طوس و قدم إلى بغداد و وعظ بها و سلك فى وعظه مسلكا منكرا، لأنّه كان يتعصّب لابليس و يقول إنه سيّد الموحّدين.

و قال يوما على المنبر: من لم يتعلّم التوحيد من إبليس فهو زنديق أمر أن يسجد لغير سيّده فأبى.

و لست بضارع إلاّ إليكم و أمّا غيركم حاشا و كلاّ

و قال مرّة اخرى لمّا قال له موسى عليه السّلام: أرنى، فقال: لن، قال: هذا شغلک تصطفى آدم ثمّ تسوّد وجهه و تخرجه من الجنّة و تدعونى إلى الطور ثمّ تشمت بى الأعداء هذا عملک بالأحباب فكيف تصنع بالأعداء.

و قال مرّة اخرى و قد ذكر إبليس على المنبر لم يدر ذلک المسكين أنّ أظافير القضاء إذا حكّت أدمت، و أنّ قسىّ القدر إذا رمت أصمّت، ثمّ قال لسان حال آدم عليه السّلام ينشد فى قصّته و قصّة إبليس:

و كنت دليلى فى صعود من الهوى فلمّا توافينا ثبتّ و زلت

و قال مرّة اخرى: التقى موسى و ابليس عند عقبة الطور فقال موسى: يا إبليس لم لم تسجد لادم عليه السّلام؟ فقال: كلاّ ما كنت لأسجد لبشر كيف أوحّده ثمّ ألتفت إلى غيره، و لكنّک أنت يا موسى سألت رؤيته ثمّ نظرت إلى الجبل فأنا أصدق منک فى التوحيد.

و كان هذا النّمط من كلامه ينفق على أهل بغداد و صار له بينهم صيت مشهور و اسم كبير و حكى ابن الجوزى فى التّاريخ أنّه قال على المنبر: معاشر المسلمين كنت دائما أدعوكم إلى اللّه و أنا اليوم أحذّركم منه، و اللّه ما شدّت الزّنانير إلاّ فى حبّه و لا ادّيت الجزية إلاّ فى عشقه.

و قال أيضا إنّ رجلا يهوديّا أدخل عليه ليسلم على يده، فقال له: لا تسلم فقال له الناس: كيف يمنعهم من الاسلام، فقال: احملوه إلى أبى حامد يعنى أخاه ليعلمه، لا إلى المنافقين ثمّ قال: ويحكم أتظنّون أنّ قوله لا إله إلاّ اللّه منشور ولايته ذا منشور عزله، و هذا نوع يعرّفه الصوفيّة بالغلوّ و الشّطح.

و يروى عن أبى يزيد البسطامى منه كثير، فممّا يتعلّق بقصّة ابليس ما رووه

بعض من مردته عنه من قوله:

فمن آدم فی البین و من ابلیس لولاکا فتنت الکلّ و الکلّ مع الفتنة یهواکا

انتهی و قال عبد الرزاق الکاشی فی شرح الفصّ النّوحی من الفصوص: کلّما کان المدعوّ أصلب فی دینه و أشدّ إباء للدّاعی إلی ضدّ مقامه کان أشدّ طاعة و قبولا لأمر ربّه و حکمه، حتّی أنّ إباء ابلیس عن السجود و عصیانه و استکباره بحسب ظاهر الأمر عین سجوده و طاعته و خدمته و تواضع لرّبه باعتبار الارادة، انتهی.

و نقل بعضهم عن سهل بن عبد اللّه التّستری من مشاهیر مشایخهم أنّه رأی إبلیس فتکلّم معه و وبّخه علی عدم إطاعته فی سجدة آدم و ابعاد نفسه عن تناول الرّحمة، فقال له إبلیس: کیف تبعدنی عن رحمته هلاّ قرأت فی القرآن: «وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْ ءٍ »؟ و أنا داخل فی کلّ شیء فرحمته تسعنی بمقتضی وعده، فافحم الشیخ بذلک فسکت و فارقه ثمّ رجع إلی القرآن فوجد الایة مقیّدة بقوله: «فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ »، فدخلت الحسرة علیه بعدم تذکّر هذا القید حتّی یجیبه و یلزمه به، و کان یتمنّی أن یراه مرّة اخری فاتّفق ذلک و استبشر برؤیته فقال له: إنّ الایة التی تمسّکت به مقیّدة بقید، فقرأ تمام الایة و ظنّ أنّه غلب علیه و أفحمه بالحجّة من أجل خروجه بالقید، فضحک إبلیس و نظر إلیه نظر تعجّب من عقله و عرفانه و قال له: إنّ ثقتی بعرفانک کانت أکثر من ذلک، قال الشّیخ: و کیف؟ قال ابلیس اللّعین: إنّی کنت معتقدا بمعرفتک بأنّه لیس فی طرف الحقّ قید بل هناک الاطلاق کلّه و إنّما التّقیید من جهتک فتبیّن لی خلاف اعتقادی فی حقّک، فاعترف الشیخ بغلطه و اعتذر منه لمّا رأی أنّه یتکلّم علی اصطلاحهم و یستعمل الألفاظ الدائرة بینهم و علم أنه أعرف بمقاصدهم و مطالبهم منه.

و نقل عن المتصوّف الجامی فی بعض حواشیه علی کتاب نقد النصوص فی شرح نقش الفصوص نقل هذه القصّة بوجه إجمالی.

قال: إنّ سهلا التستری رأی إبلیس فقال له: هل ترجو رحمة من عند اللّه؟ قال: نعم لأنّ رحمته وسعت کلّ شیء، فقال سهل: لکنّه قیّدها بقوله: «فَسَأَکْتُبُها »

«لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ »، الاية فقال ابليس: مه يا سهل فانّ التقييد صفتک لا صفته، انتهى.

و أعجب من هذه أنّ الجامى قد نظم فى مبحثه مباحثة بين موسى عليه السّلام و بين إبليس من هذا القبيل و هذه منظومته:

پور عمران بدل آن غرقهٔ نور می شد از بهر مناجات بطور

دید در راه سر دوران را قائد لشکر مهجوران را

گفت گز سجدهٔ آدم بچه روی تافتی روی رضا راست بگوی

گفت عاشق که بود کامل سیر پیش جانان نبرد سجدهٔ غیر

گفت موسی که بفرمودهٔ دوست سر نهد هر که بجان بندهٔ اوست

گفت مقصود از آن گفت و شنود امتحان است محب را نه سجود

گفت موسی که اگر حال اینست لعن و طعن تو چراش آیین است

بر تو چون از غضب سلطانی شد لباس ملکی شیطانی

گفت کاین هر دو صفت عاریتند مانده از ذات بیک ناحیتند

گر بیاید صد از این یا برود حال ذاتم متغیّر نشود

ذات من بر صفت خویشتن است عشق او لازمهٔ ذات منست

تا کنون عشق من آمیخته بود در غرضهای من آویخته بود

داشت بخت سیه و روز سفید هر دمم دست خوش بیم امید

این دم از کشمکش آن رستم پس زانوی وفا بنشستم

لطف و قهرم همه یکرنگ شده کوه و کاهم همه همسنک شده

عشق شست از دل من نقش هوس عشق با عشق همی بازم و بس

و ترجمة ما نظمه: إنّ موسى بن عمران ذهب إلى الطور للمناجاة فرأى له إبليس اللّعين فى أثناء الطريق فقال عليه السّلام له: لم أبيت عن السّجدة لادم أجبنى صدقا، قال إبليس: العاشق الكامل فى السّير و السلوک لا يسجد غير معشوقه، فقال عليه السّلام: نعم و لكن العاشق الصّادق يطيع معشوقه فى كلّ ما يأمر و يريد، قال إبليس:

لم يكن المطلوب بالذّات من الأمر إلاّ الامتحان لا السّجود، فقال عليه السّلام: لو كان

ص:256

الأمر على ما زعمت لم صرت رجيما و استوجبت اللّعن و الطرد و الابعاد و لم انتزعت منک کسوة الملکية و تلبست بلباس الشيطنة؟ قال إبليس: کلّ من هذين الوصفين لباس العارية لا مدخليّة لهما فى اتّحاد الذّات و التغيّر فى الصّفات بالغة ما بلغت لا يوجب التّغيّر فى الذات و الذّات باقية بحالها فى جميع الصّور المتبدّلة و عشقه لازم لذاتى و کان عشقى غير ممحّض و أمرى دائرا بين الخوف و الرّجا حتّى إذ أبيت السّجود تمحّضت فى مقام التوحيد و عبوديّة المعبود، فلم يبق فرق بالنّسبة إلىّ بين القهر و الرّحمة و لا بين الجحيم و الجنّة.

أقول: الظاهر أنّ راوى هذه المناظرة هو نفس إبليس اللّعين رواها لأوليائه المتصوّفين و أثبت فيه غلبته على موسى عليه السّلام و تسليم موسى عليه السّلام له کما قال تعالى:

«وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً »... «وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ ».

و يظهر من ولعهم بروايته و نظمهم له فى أشعارهم ابتهاجهم بتلک المحاجّة و امتنانهم من إبليس، لکونه صوفىّ المذاق، بل يظهر من ذلک أنّ أصل المؤسس لمذهبهم هو إبليس حيث أسّس الأصل فى مسألة وحدة الوجود فأوحى بذلک إلى أوليائه الملحدين فأطاعوه و اتّخذوه لهم دينا و جعلوا أنفسهم للشيطان قرينا فساء قرينا، لعن اللّه الضّالين و المضلّين و الهادين و المهديّين و المرادين و المريدين و عذّبهم عذابا أليما.

و منها

قولهم بالجبر

کالأشاعرة:

و هو لازم القول بوحدة الوجود، فانّ الخلق إذا کان عين الحقّ و کان سمعه و بصره و لسانه و يده و رجله و جميع جوارحه على زعمهم حسبما عرفت فيما تقدّم فيکون جميع ما يصدر منه مستندا إليه تعالى کما تقدّم التّصريح بذلک

فيما حكيناه عن فصوص ابن العربى من الفصّ العيسوى، حيث قال هناک فى تأويل قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السّلام: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ »، لأنّک أنت القائل فى صورتى و من قال أمرا فقد علم ما قال، و أنت اللّسان الّذى أتكلّم به كما أخبرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن ربّه فى الخبر الالهى، فقال: كنت لسانه الّذى يتكلّم به فجعل هويته عين لسان المتكلّم، و نسب الكلام إلى عبده، و قد صرّح بمثل ذلک فى غير موضع من الفصوص، و تكرّر فى كلامه و كلام غيره أن لا فاعل إلاّ هو.

و قال شيخهم الشّيخ محمود الشّبسترى فى كتاب گلشن راز:

هر آن كس را كه مذهب غير جبر است نبى فرمود كو مانند گبر است

أقول: لمّا كان مذهبه الجبر فسّر الخبر المروىّ عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: القدريّة مجوس هذه الامة، بما فسّر و لا يخفى أنّ الجبريّة يقولون إنّ القدريّة هم المفوّضة لانكارهم قضاء اللّه و قدره فى أفعال العباد، و المفوّضة يقولون إنّ القدريّة هم الجبرية لقولهم بالقضاء الحتم و القدر اللاّزم فى أفعال العباد و الذى يستفاد من عدّة أحاديث أنّهم المفوّضة، و يستفاد من بعض الأخبار أنّهم الجبرية، و هو المستفاد من كلام أمير المؤمنين عليه السّلام الذى يأتى ذكره فى شرح أوائل باب الحكم عند شرح قوله و من كلام له عليه السّلام لما سأله سائل: أ كان مسيرنا إلى الشام بقضاء من اللّه و قدره آه، فانّا إن ساعدنا التّوفيق انشاء اللّه نروى هناک من الكافى و غيره عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال بعد إبطال الجبر: تلک مقالة إخوان عبدة الأوثان و خصماء الرّحمن و حزب الشيطان و قدريّة هذه الامة و مجوسها.

قال بعض الأفاضل: و الجمع بين الأحاديث يقتضى أن يكون الجبرية و المفوضة كلّهم قدرية و مجوس هذه الامة، و المؤمن المحقّ من قال بالأمر بين الأمرين.

و الحاصل أنّ الصوفية متّحدون مع الأشاعرة فى القول بالجبر إلاّ أنّ مشربهم فيه مختلف، فانّ مسلک كلّ من الطائفتين يخالف مسلک الاخر فى ذلک.

ص:258

قال السـيد حيدر بن علىّ العبيدى الحسـينى و هو من صوفية الشـيعة كما فى مجالس المؤمنين فى محكىّ كلامه من كتابه المسـمّى بجامع الأسرار و من شرحه على الفصوص:

إنّ بعض الناس توهم أنّ الأشاعرة الذين نسبوا أفعال العباد حسنا و قبحا إلى اللّه و القائلين بأنه لا فاعل إلاّ هو موافقون فى توحيد الأفعال مع أهـل الكشف و الحـال، مع أنّ ما قاله الأشاعرة خطاء محض، و ذلک لأنهم و إن كان بحسب ظاهر كلامهم و عبارتهم يقولون: لا فاعل إلاّ هو، كما يقوله أهل الكشف و لكن بحسب الباطن و المعنى بينهما بون بعيد، لأنّ الأشاعرة مختفية فى الظلمات محجوبة بالحجاب مشـركة بالشـرک الخفىّ، لأنهم لم يخلصوا بعـد من رؤيـة الغير، و لم يصـلوا إلى مرتبـة التوحيـد الوجودى الذى هو مشاهدة وجود الحقّ من دون ملاحظـة وجود الغير، و أما أهل الكشف و الحال فانهم قد تكلّموا بهذا الكلام و قالوا هذا القول بعد الفناء فى الحقّ و الفراغ عن رؤية الخلق قال شاعرهم:

قومى نه ز ظاهر نه ز باطن آگاه و آنگه ز جهالت بضلالت گمراه

مستغرق شر كند حقيقت گويند لا فاعل أصلا أبدا غير اللّه

هـذا و أنت بعـد ما عرفت بطلان القول بوحـدة الوجود من أصـله تعرف بطلان القول بالجبر الـذى يقوله الصوفيـة، لكون هـذه المسألـة من فروعات تلک المسألة، و مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثّت من فوق الأرض ما لها من قرار.

و أمـا بطلانه على ما يقوله الأشاعرة فسـتعرفه بما لا مزيـد عليه إنشاء اللّه تعالى فى باب المختار من الحكم إن ساعـدنا التوفيق و المجال، و وفقنا اللّه العزيز المتعال و اللّه هو الموفق و المعين على كلّ حال.

و منها

اعتقادهم بأنّ السالک إذا عبد اللّه و بلغ إلى مرتبة الوصول و اليقين سقطت

عنه العبادات

و لا يبقى له حاجة إليها لقوله تعالى: «وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتّى يَأْتِيَکَ الْيَقِينُ »،

ص:259

و اليقين عنـدهم هو العلم و العرفان و عنـد أهل البيت عليهم السّلام اليقين هو الموت و يشـهد بأنّ اعتقادهم ذلک ما قاله العلامـة الحلّی قدّس اللّه روحه فی کتاب نهج الحقّ حیث قال:

شاهدت جماعة من الصوفیة فی حضرة مولینا الحسین علیه السّلام و قد صلّوا المغرب سوی شخص واحد منهم کان جالسا و لم یصلّ، ثم صلّوا بعد ساعة العشاء سوی ذلک الشخص، فسألت بعضهم عن ترک ذلک الشخص لصلاته فقال: و ما حاجته هذا إلی الصلاة و قد وصل أ یجوز أن یجعل بینه و بین اللّه حاجبا، فقلت: لا فقال: الصلاة حاجب بین العبد و الربّ.

قال «قـد»: فانظر أیها العاقل إلی هؤلاء و عقایدهم فی اللّه تعالی کما تقدّم و عبادتهم کما سـبق و اعتذارهم فی ترک الصـلاة کما مرّ، و مع هذا فانهم عندهم الأبدال، فهؤلاء اسم أجهل الجهال، انتهی کلامه رفع مقامه.

و روی بعض أصحابنا عن ابن أبی جمهور الاحسائی فی کتابه الموسوم: مجلی مرآة المنجی قال: قال فی أواسط الکتاب المذکور:

من هـذا التقریر علم أنّ التکلیف البـدنی لا یتمّ بـدون التکلیف العقلی، و أنه متی خلا منه کان غیر صـحیح فالتوجّه و الاقبال و دوام الفکر شرط فی صـحة العبادة البدنیـة، و لا یکفی حصولها من البدن من دون ذلک التوجّه و الاقبال المسـتلزمین لدوام الفکر و الحضور المعنوی عند المعبود علی ما تحقّق عند أهل هذه الطریقة ردّا علی أهل الظاهر.

و علم أیضـا أنّ التوجّه و الاقبـال و الحضور المعنوی من دون الأعمـال الصّوریـة الظّاهرة بالقوی البـدنی غیر کاف، و لا مخرج من عهـدة التّکلیف العقلی، خلافـا للاباحیّـة القـائلین بـأنّ العارف الواصل لا یحتاج إلی هـذه الصّورة الظاهرة لانقطاعه عنها و وصوله إلی ما ورائها، فتکون حاجبـة له، و هو عنـد التّحقیق و أهل اللّه من الأوهام الشّیطانیّة، فانّ ملاحظـة الصّور کما لا یتمّ بـدون المعانی کذا لا یتمّ المعانی بدون الصّور، و الأعمال مظاهر هذه المعانی، فلا یتمّ حصولها بدون مظاهرها،

و المقصود من الوصول ترک ملاحظة العمل لا ترک العمل فتدبّره فانّه به تمّ هذا الموضع، و ما أحسنه من سرّ لا يطّلع عليه إلاّ بفكرة صادقة.

و به ينحلّ ما يرد من الشّكوک من جماعة الاباحيّة كما قد وقع لى مع بعض الاباحيّة من المباحثة فأجبته بهذا الجواب فانقطع.

و ذلک انّه قد ذكر لى و أنا يومئذ مقيم بأرض نجد ببلاد يقال لها الدّرعية إنّ فى جبل بها رجلا منقطعا عن النّاس معتزلا بنفسه عن مخالطة أحد من بنى نوعه و أنّه فى الأصل رجل من أهل اليمن ورد غريبا و انقطع إلى هذا الجبل.

فجئت إلى موضعه و سلّمت عليه فردّ السّلام فرأيت رجلا نبيلا حسن المنطق عليه أثر الصلاح، فحادثته فى فنون العلم فرأيت له ذوقا جيّدا.

فقلت له: ما أحسن ما أنت فيه من هذا الانقطاع إلاّ أنّى سمعت أنّک لا تصلّى الصّلاة الشّرعية بالصّورة الظاهرة الّتى جاء بها الشرع المحمّدى، أفلست على ملّته؟ فقال: بلى و لكن ما أعمل بهذه الصّورة الظاهرة أنّها حجاب للواصل مرتبة الحضور المنقطع عن هذه الصّور المشاهد الحقّانى الذى لم يفارق باب الملک، أو لا تعلم أنّ الصّلاة مشتقّة من الصّلة و بها يتوصّل المحجوب بالصّور إذ لاحظ بها القرب المعنوى؟ قلت: بلى فقال: فما احتياج الواصل إلى ما به يتوصّل إنّه قد استغنى بالوصول عن الموصل و ما يعمل الحاجّ بالرّاحلة إذا وصل إلى مكّة و تمّ نسكه و قصده المجاورة فانّه حينئذ لغنىّ عنها فقلت: و أنت من أهل الوصول و الاتصال بحضرة ذى الجلال؟ فقال: نعم.

فقلت: على تقدير تسليم وصولک فهل وصولک أتمّ من وصول نبيّک محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ و هل اتّصالک أعلى من اتّصاله؟

فقال: حاشا و كلاّ بل الواصل الحقيقى هو لا غيره و به يتّصل الكلّ و جميع الخاصّة و خاصّة الخاصّة عنه أخذوا مراتبهم و مقاماتهم فى النشأتين.

فقلت: فكيف هو مع ذلک الوصول التام و الاتصال الكامل لم يترک هذه الصور الظاهرة و لا العبادات الشرعية، بل كان دايم المواظبة عليها شديد العناية بها.

فقال: إنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وصل و ردّ و أنا وصلت و ما رددت.

فعجبت من كلامه و فهمت منه ظاهره و خفى علىّ فى بادى الحال باطنه، فقلت: إذا يلزمک أن تكون أفضل منه إذ لا يشكّ كل عاقل أنّ غير المردود أفضل من المردود.

فضحک عن تهافت فهمى عن إدراک ما أراد من معنى الرّد.

فقال لى: و هذا منک ضمّ جهل إلى جهل.

فقلت له: أبن لى عن مقصودک و افهمنى مرادک لأقوم لک بالعذر.

فقال: إنه ردّ إلى تكميل الخلق و ايصالهم إلى بارئهم و منشئهم على الطريقة المرضية لما علم اللّه فيه من القوّة الملكية و النفس القدسية البالغة فى حدّ الكمال إلى مرتبة القدرة على التكميل و الارشاد لهذا الخلق و الجمع بين الجانبين، فلا يمنعها الاشتغال بتكميل الخلق عن الحضور بين يديه فى أغلب أوقاته و أخذ ما يحتاج إليه الخلق منه، و لا يمنعها الحضور بين يديه و الاشتغال بخدمته عن هداية الأنام و تكميلهم لما فيه من القوّة الجامعة بين الأمرين، و أنا المسكين لما لم أكن فى هذه المرتبة بل و لا قريبا من بعض البعض منها لم أكن من أهل الردّ و لا من المستحقين له، بل شأنى و منتهى ما تقتضيه قوّتى لزوم باب الملک و الحضور بين يديه و التلقى لنفحات و ارداته، فأنا فى مرتبة قولهم: لو نطق العارف هلک، فهذا معنى قولى: إنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وصل و ردّ و أنا وصلت و ما رددت، لا كما ذهب إليه وهمک الرّدى و فهمک القاصر.

ثمّ قال: فاذا علمت أنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المردودين لتكميل الخلق و ايصالهم إليه بطريق الشريعة و الطريقة و الحقيقة على مراتبهم لم يحسن منه بل و لم يجز له ترک

الصورة الظاهرة و لا رفض الأعمال البدنية لأنه المقتدى به و المتبوع اثره فصلاته و عباداته لا للتوصّل و التقرّب بها، لأنه فى الحقيقة و اصل قريب بل هو الأقرب الـذى ليس وراء قربه قرب و لا بعـد وصوله وصول، بل لتقتـدى به العامـة و يتوصّل باثاره و أطواره الخاصة، و أما أنا فلا حاجة لى إلى هذه الصورة لانقطاعى عنها بمشاهدة الحقائق.

فسحرنى بكلامه و بهر عقلى بزخارف تقريراته حتى غلب علىّ الوهم أنه محقّ أو قريب من التحقيق، ثمّ أيّدنى اللّه بمنّه فرجعت إلى نفسى و ثـاب إلىّ عقلى و قلت له فى الحـال بلا إمهـال: ليس بـالوصول ينقطع العمـل، و لا لأجله يترك الأوامر الشـرعية، فانّ ذلک وهم شـيطانىّ مهلک، و خيال إبليسىّ مرد، بل الوصول عند أهل الوصول ترک ملاحظة العمل لا ترک العمل.

فسـكت و انقطع عن الجواب و بقى ساعـة متفكرا ثمّ قـال: يـا هـذا قـد أشـغلتنى عمّـا أنـا فيه فلا تكثر علىّ الكلام و لا تعاودنى بشـىء من الخطاب. فقم عنّى عجلا و دعنى و شغلى فما انقطعت فى هذه المفازة إلاّ خوفا من أمثالک.

فخرجت عنه و انقطعت حجّته و بان عجزه و علمت أنّ الوهم المردى هو الّـذى أهلكه، فعلم أنّ انقطاع حجج الاباحية إنّما يكون بملاحظة هذا السّر فلا تغفل عن تدبّره، انتهى.

أقول يا أهل البصـيرة و البصـر و اولى الاربـة و الفكر انظروا بنظر الدّقـة و العبر إلى عقيدة هذا الصوفى الذى عن الخلق اعتزل، و بزعمه إلى مقـام الزّلفى وصـل، و الحـال أنّه تـاه و ضلّ، و هو بمعزل عن الحقّ عزّ و جلّ، فليكفک من العيان السّـماع، و من الغيب الخبر، فقس على اعتقـاده عقيـدة من مضـى منهم و من غبر، تعرف بـذلک أنّ من دان بهـذه العقيـدة كالأنعام، بل أضلّ سبيلا، فلعن اللّه المتـديّن بها بكرة و أصيلا، و عذّبهم عذابا أليما و بيلا.

و العجب من ابن أبى الجمهور كيف سلّم لهذا الجاهل هذه التّرهات، و لـم يردعه من تلک السقطات، و لـم يكفّره فى أوّل الأمر و لـم يقل إنّ دعواک الوصول

نفخ بغير ضرم، و مشى بلا قدم. كنت تدعى أنک من المسلمين مع أنّک من المشركين، و تزعم أنک على ملّة سيد المرسلين و أنت فى تلک الدعوى من المبطلين.

لأنّ الواجب على المتديّن بدين الاسلام، و المستنّ بسنة سيّد الأنام أن يطيع اللّه و رسوله و أولياء أمره الكرام، فى جميع ما جاء به الكتاب و السنة من التكاليف و الأحكام.

و أعظم تلک التكاليف الصلاة التى هى عمود الدين، و معراج المؤمنين، و كم من آية متضمنة لخطاب أقيموا الصلاة، و كأيّن من رواية قائمة على وجوب إقامتها فى الأوقات الموظفات، بل ضرورة الدين قاضية بعدم جواز تركها فى شىء من الحالات، حتى حالة الاشراف على الموت و الاياس من الحياة، فما هذا شأنها كيف يمكن سقوطها فى حالة الوصول، مع أنّ الوصول بالمعنى الّذى تقول غلط غير مقبول.

و بالجملة فاللازم على ابن أبى الجمهور أن يجيب هذا الجاهل السّفيه المعتوه بمجرّد اعترافه بأنّه من المسلمين بأنّ وجوب الصّلاة فى جميع الحالات من ضروريّات الدّين، فأىّ دليل دلّ على سقوطها من الواصلين، بل لما جعلها سيّد المرسلين بمنزلة عمود الفسطاط كان تاركها هادما لفسطاط دينه متردّيا فى أسفل السّافلين.

و لكنّه لمّا كان صوفىّ المذاق و لذلک سلک فى كتبه مسلک الملاحدة اللّئام و المتصوّفة العوام أصغى إلى طول مقال هذا الجاهل، و أطال فى سؤاله و جوابه بلا طائل، ثمّ أجاب بمصطلحات الصّوفيّة على مقتضى مذاقه و سليقته، و لم يجبه بالأصول الشّرعية الممهّدة حسبما أجبناه، لأنّ الأرواح جنود مجنّدة، و إنّما الفيل يألف الفيلا.

فو اللّه العظيم جلّ جلاله إنّ الاباحية من الصوفية بل جميع المدّعين للوصول لناكبون عن طريق السداد، و زائغون عن نهج الرشاد، مستحقّون اللعن و الطرد و الابعاد، محجوبون عن حضرة ربّ العباد، و من أضلّ اللّه فما له من هاد،

و لنكتف من ذكر عقايدهم الفاسدة بما أوردناه و نعطف عنان القلم إلى ما سواه فأقول و باللّه التوفيق:

و أما الافعال و الاعمال

التى انحرفوا فيها عن النهج المقرّرة فى الشريعة و استبدّوا فيها بارائهم الفاسدة و عقولهم السخيفة فأكثر من أن تحصى و لنشر إلى بعضها فأقول:

منها

اعتمادهم على الأحاديث المجهولة و تأويلهم على الأخبار المجعولة

كما يظهر ذلک لمن راجع إلى كتبهم، بل يجوّز بعضهم وضع الأحاديث الكاذبة مع ما سمعوه من قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحديث المتّفق عليه بين الفريقين: من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار حسبما يأتى فى المختار الاتى.

و يشهد بتجويزهم للوضع ما قاله قاضى القضاة أحمد بن علىّ بن حجر العسقلانى القاهرى الشافعى فى شرح رسالة كتبها فى علم الدّراية و سمّاها بنخبة فى مصطلح أهل الأثر بعد ما ذكر بعضا من القراين التى يدرک بها الوضع:

و الحامل للواضع على الوضع إما عدم الدّين كالزنادقة أو غلبة الجهل كبعض المتعبّدين، أو فرط العصبيّة كبعض المقلّدين، أو اتّباع هوى بعض الرّؤساء أو الأحزاب بقصد الاشتهار و كلّ ذلک حرام باجماع من يعتدّ به.

إلاّ أنّ بعض الكرامية و بعض الصوفية نقل عنهم إباحة الوضع فى الترغيب و الترهيب، و هو خطاء من فاعله نشأ من جهل، لأنّ الترغيب و الترهيب من جملة الأحكام الشرعية و اتّفقوا على أنّ تعمد الكذب على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الكباير.

و بالغ أبو محمّد الجوينى فكفّر من تعمّد الكذب على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و اتّفقوا على تحريم رواية الموضوع إلاّ مقرونا ببيانه لقوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من حدّث عنّى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذّابين، أخرجه مسلم، انتهى.

ص:265

و قال السيد نظام الدّين أحمد بن إسحاق من كتاب الأربعين المسمّى بنظم اللّئالى الملاح فى الأحاديث العوالى الصّحاح:

لا فرق فى تحريم الكذب عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين ما كان فى الأحكام و فيما لا حكم فيه كالترغيب و الترهيب و المواعظ و غير ذلک، فكلّه حرام من أكبر الكبائر و أقبح القبايح باجماع المسلمين الذين يعتدّ بهم.

خلافا للكرامية المبتدعة فى زعمهم الباطل أنه يجوز وضع الحديث فى الترغيب و الترهيب، و تابعهم على هذا كثير من الجهلة المنتسبين إلى الزهد، و شبهة زعمهم الباطل أنه جاء فى رواية من كذب علىّ متعمدا ليضلّ به الناس فليتبوّأ مقعده من النار.

و قد أجاب العلماء عنه بأجوبة أحسنها و أخصرها أنّ قوله: ليضلّ به الناس زيادة باطلة باتّفاق الحفاظ على إبطالها و أنها لا تعرف صحيحة بحال.

الثانى جواب أبى جعفر الطحاوى أنها لو صحّت لكانت للتأكيد كقوله تعالى «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النّاسَ ».

الثالث أنّ اللام فى ليضلّ ليست لام التعليل بل هى لام الصيرورة و العاقبة معناه أنّ عاقبة كذبه و مصيره إلى الاضلال كما فى قوله تعالى: «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً »، و نظائره فى القرآن و كلام العرب أكثر من أن تحصى و على هذا يكون معناه فقد يصير أمر كذبه إضلالا.

و نقل الجامى فى شرحه على منتخب الفصوص: إنّ سلطان العارفين أبا يزيد البسطامى قال لبعض علماء الرسوم و نقلة الأحكام و الاثار و الأخبار: أخذتم علمكم ميّتا عن ميّت و أخذنا علمنا من الحىّ الّذى لا يموت.

أقول: و هذا تعريض منه على المحدّثين و رواة أحاديث المعصومين عليهم السّلام بل هو تصريح بنقصهم و انحطاط درجتهم سلام اللّه عليهم.

و نقل مثل ذلک الجزايرى فى الأنوار النعمانية قال: و قد كان فى زماننا رجل من الصوفيّة يزعم أنّه من علماء الشّيعة و كان يخطب أصحابه يوما فقال و هو على

المنبر: إنّی کتبت الاصول الأربعة یعنی الکافی و التهذیب و الاستبصار و الفقیه و قرأتها و صحّحتها و لمّا رأیتها عدیم الفایدة بعتها بدرهم واحد و رمیت ذلک الدّرهم بالماء، فانظر إلی ایمان هذا الرّجل علیه لعنة اللّه و الملائکة و النّاس أجمعین.

فقد علم بذلک أنّ الصّوفیة سنیّا کانت أو شیعیا لا جریحة لهم فی أمر الدّین، و لا مبالاة فی ملاحظة مدارک الشّرع المبین، فتارة یجوّزون وضع الأحادیث، و تارة یعتمدون علی الأخبار المرسلة و المجهولة، بل علی الموضوعة و المجعولة فی إثبات مطالبهم الفاسدة، و ثالثة یستخفون الأخبار المعتبرة و یستحقرون رواتها و یستهزءون لنقلة الأحادیث و الأخبار، و ذلک کلّه لبعدهم عن قوانین الشّریعة، و مع ذلک یزعمون أنّهم وصلوا الحقیقة، و الحال أنّهم لم یعرفوا الشّریعة فضلا عن الطریقة و الحقیقة.

و منها

التزامهم بکون ورودهم و صدورهم فی مقام السیر و السلوک بدلالة المرشد

زعما منهم أنه أعرف بطرق السیر و متابعته أسرع فی الایصال و الوصول، و ذکروا فی آداب السالک انه:

یجب أن یکون کامل الاعتقاد فی حقّ الشیخ بحیث لا یری أکمل منه فی عصره من حیث الارشاد و التربیة و التهذیب و التأدیب، إذ لو کان ضعیف الاعتقاد لم یکن له وقع عنده فلا یؤثر فیه أقواله و افعاله، و کلما کان اعتقاده به أشدّ کان تاثیر أقواله و أفعاله فیه آکد.

و یجب أیضا أن یقوم فی مقام التسلیم و الاذعان حتی لو رأی منه منکرا لا ینکره و لا یطعن به علیه و یذکر فی ذلک قصة موسی و الخضر علیهما السّلام.

و یجب أیضا أن یسلب عن نفسه بکلّیته الاختیار و یکون مطیعا له فی کلّ ما یأمر و ینهی من الأمور الدّنیویّة کالأکل و الشّرب و النّوم و اللّباس و القیام و القعود و الحرکة و السّکون و غیرها، أو الأمور الدّینیّة حتّی العبادات المندوبة

من الصّوم و الافطار و الاكثار من النّوافل و الاقتصار على الفرائض و الـذّكر و التلاوة و المراقبة و غيرها، فلا يقدم على شـىء منها إلاّ باذنه و لو رأى أنّه يكرهها لا يجوز إقدامه عليها.

و يجب أيضـا أن ينتظر و يترصّـد مـا يصـدر عن لسان الشّـيخ فيتبعه لكونه واسـطة كلام الحقّ إلى غير ذلک ممّا ذكروه فى آداب السّالک و محصّل ذلک كلّه أن يشـرب المريد قلبه حبّ الشّيخ و يكون راسخ الاعتقاد فى حقّه و يأخذ معالم دينه عنه، لأنّه صاحب الولاية الجزئية، و من مجالى الولاية الكليّة و للولىّ أن يكون نافذ التّصرف فى حقّ المولّى عليه.

و أوّل من أسّـس هـذا الأصل الفاسـد و ادّعى لنفسه الولايـة و تلقّاه أتباعه منه بالقبول هو الرّجس الخبيث ابن العربى، فانّه لكونه سـنيّا ضالاّ منحرفـا عن أوليـاء الـدّين و الحجـج المعصومين سـلام اللّه عليهم أجمعين ادّعى أنّه خـاتم الأولياء ثمّ سـرى ذلک الوهم الباطل و الغلط الفضيح منه إلى الأعقاب حتّى جهّال الشيعة المتصوّفة فسمّوا مرشديهم بالأولياء.

و ينبغى إشباع الكلام فى المقام لأنّه ممّا زلّت فيه أقدام أقوام من العوام فأقول:

زعم ابن العربى مـا حى الـدّين و هـادم أساس الشّـرع المبين أنّه خاتم الولايـة المحمّديّـة، و قـد أشار إلى ذلک فى مواضع من الفصوص و الفتوحات و لنشر إلى موضع واحد.

قال فى الفصوص فى الفصّ الشّيثى «و لما مثل النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم النّبوّة بالحائط من اللّبن و قد كمل سوى موضع لبنة واحدة فكان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تلک اللّبنة غير أنّه لا يراها إلاّ كما قال لبنة واحدة و أمّا خاتم الأولياء فلابدّ له من هذه الرّؤيا فيرى ما مثّله به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يرى فى الحائط موضع لبنتين و اللبنتان من ذهب و فضّة فيرى اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما و يكمل الحائط بهما لبنة ذهب و لبنة فضّة فلابد أن يرى نفسه تنطبع فى موضع تينک اللبنتين فيكمل الحائط»

قال القيصـرى: أى لمّا مثل خاتم الرّسل النّبوّة بالحايط و رأى نفسه تنطبع فيه لا بدّ أن يرى خاتم الولاية نفسه كذلک لما بينهما من المناسبة و الاشتراک فى مقام الولاية.

«و السبب الموجب لكونه رآها لبنتين انه تابع لشرع خاتم الرّسل فى الظاهر و هو» أى كونه تابعا «موضع اللبنة الفضيّة و هو ظاهر و ما يتبعه فيه من الأحكام» أى موضع اللبنـة الفضـيّة صورة متابعة خاتم الأولياء لخاتم الرّسل عن الأحكام و صورة ما يتبعه فيه و انطباعه موضع اللبنة يكمل المتابعة و لا يبقى بعده متابع آخر كما لا يبقى بعده وليّ آخر.

«كما هو آخذ عن اللّه فى السـرّ ما هو بصورة الظاهرة متّبع فيه» أى خاتم الولاية تابع للشرع ظاهرا كما أنه آخذ عن اللّه باطنا لما هو متّبع فيه للصورة الظاهرة «لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلابـدّ أن يراها هكـذا» أى لأنه مطلع على ما فى العلم من الأحكام الالهيـة و مشاهد له و إلاّ لم يكن خاتما «و هو موضع اللبنـة الذّهبيـة فى الباطن» أى كونه رائيا للأمر الالهى على ما هو عليه فى الغيب هو موضع اللّبنـة الـذّهبيّة «فانّه يأخذ من المعدن الّذى يأخذ منه الملک الّذى يوحى به إلى الرّسول» و هو الحق تعالى، هذا.

و نقل القيصرى عنه فى شرح هذا الفص انّه قال فى فتوحاته:

أنّه رأى حائطا من ذهب و فضّـة و قـد كمل إلاّ موضع لبنتين إحداهما من فضّة و الاخرى من ذهب، فانطبع موضع تلک اللّبنتين و قال فيه و أنا لا اشکّ انّى أنا الرّائى و لا أشکّ انّى أنا المنطبع موضعهما و بى كمّل الحائط، ثمّ عبّرت الرّؤيا بانختام الولاية بى و ذكرت المنام للمشايخ الّذين كنت فى عصرهم و ما قلت من الرّائى فعبّروا بما عبّرت به.

و الظّاهر ممّا وجدت فى كلامه فى هذا المعنى أنّه خاتم الولاية المقيّدة المحمّدية لا الولاية المطلقة الّتى لرتبته الكلّية.

ص:269

و لذلک قال فی أوّل الفتوحات فی المشاهدة: فرآنی أی رسول اللّه و رأی الختم لاشتراک بینی و بینه فی الحکم فقال له السّید هذا عدیلک و ابنک و خلیلک و العدیل هو المساوی.

قال فی الفصل الثالث عشر من أجوبة الامام محمّد بن علیّ التّرمدی: الختم ختمان ختم یختم اللّه به الولایة مطلقا، و ختم یختم اللّه به الولایة المحمّدیّة.

فأمّا ختم الولایة علی الاطلاق فهو عیسی علیه السّلام فهو الولیّ بالنبوّة المطلقة فی زمان هذه الامّة و قد حیل بینه و بین نبوّة التشریع و الرّسالة فینزل فی آخر الزمان وارثا خاتما لاولیّ بعده فکان أوّل هذا الأمر نبیّ و هو آدم علیه السّلام و آخره نبیّ و هو عیسی علیه السّلام أعنی نبوّة الاختصاص فیکون له حشران حشر معنا و حشر مع الأنبیاء و الرّسل.

و أمّا ختم الولایة المحمّدیة فهو لرجل من العرب أکرمها أصلا و بدءا و هو فی زماننا الیوم موجود عرفت به سنة خمس و تسعین و خمسمائة و رأیت العلامة التی قد أخفاها الحقّ فیه عن عیون عباده و کشفها لی بمدینة فامن حتّی رأیت خاتم الولایة منه و هی الولایة الخاصّة لا یعلمه کثیر من النّاس و قد ابتلاه اللّه بأهل الانکار علیه فیما تحقّق به من الحقّ فی سرّه.

و کما أنّ اللّه ختم بمحمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نبوّة التّشریع کذلک ختم اللّه بالختم المحمدی الولایة التی تحصل من الوارث المحمّدی لا الّتی تحصل من سایر الأنبیاء فانّ من الأولیاء من یرث إبراهیم و موسی و عیسی و هؤلاء یوجدون بعد هذا الختم المحمّدی، هذا ختم الولایة المحمدیّة و أمّا ختم الولایة العامّة الذی لا یوجد بعده ولیّ فهو عیسی.

و قال فی الفصل الخامس عشر منها: فانزل فی الدّنیا من مقام اختصاصه استحقّ أن یکون لولایته الخاصّة ختم یواطی(1) اسمه اسمه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یجوز خلقه و ما هو بالمهدی المسمّی المعروف المنتظر فهو ذلک من عترته و سلالته الحسّیة و الختم لیس من سلالته الحسّیة و لکن من سلالة أعرافه و أخلاقه و الکلّ إشارة إلی

1- (1) یشیر إلی نفسه لأنّ اسمه محمد بن علی العربی الاندلسی منه ()

نفسه، انتهى ما نقله القيصرى.

فقـد علم بـذلک کلّه أنّ هـذا الخبيث الملحـد قد ادّعى دعوى أعظم من فيه حيث إنّه ادّعى تارة أنّه خاتم الولاية، و اخرى أنّه عديل النّبوّة و مسـاو له صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى الرّتبـة، و ثالثـة أنّه أفضل من الأنبياء و الرّسل لتلقّيه الوحى بلا واسـطة من الحقّ و تلقّى الرّسل له بواسطة الملک كما قال فى آخر كلامه: فانّه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملک الّذى يوحى به إلى الرّسل و هو الحقّ تعالى و لمّا سمع أصـحابه منه هذه الهذيانات سـلموا له ذلک لما اسـتحوذ عليهم الشـيطان اللّعين و أضـلّهم عن السّبيل و سرى ذلک الفساد و الضّلال إلى الأعقاب و إلى أتباع كلّ ناعق من متصوّفة العامة فسمّوا مرشدهم بالشيخ و الولى و وصفوهم بالولاية.

ثمّ تعـدّى عنهم إلى جهّال الخاصّـة المتصوّفة فاحتذوا حذوهم و اتّخذ كلّ سلسـلة منهم مرشدا مخصوصا و وصـفوه بالولاية و فوّضوا عليه زمام امورهم الدّنيويّـة و الدّينيـة و عنه أخـذوا الاذكار المخترعـة و الأوراد المبتدعـة، و وقّروه و عظمّوه و مجّـدوه و زاروه، بل ربما ينقشون صورته المنحوسـة فى قرطاس أو لوح و يجعلونه فى مصـلاهم يزورن تلک الصورة و يقبّلونها و يضـعونها على رؤوسـهم فى الغدوّ و الرّواح يلتمسون بذلک الخير و البركة و التقرّب إلى اللّه تعالى، زعما منهم أنّ تقرّبه موجب لتقرّبه عزّ و جلّ كما قال عبدة الأصـنام: هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه.

و لم يدروا أنّ ذلک كلّه بدعة و ضلالة لكونه مخالفا للأصول الشرعيّة و لقواعد مذهب الامامية.

و ذلک لأنّ الولايـة الكلّيـة و السـلطنة الالهيـة و وجوب الاطاعـة بنصّ آيـة: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ » و آيـة: «أَطِيعُوا اللّهَ » الاية و غيرها من آيات الكتاب و أحاديث الأئمـة الأطياب منحصـرة فى اللّه سـبحانه و فى رسوله و اولى الأمر من ذرّيته أعنى الأئمة الهداة و القادة الدّعاة و السادة الولاة سلام اللّه عليهم أجمعين، فيجب طاعتهم و الرّجوع إليهم و أخذ معالم الدّين عنهم فى زمان حضورهم.

و أما فى زمان الغيبة الكبرى و الطامة العظمى فيجب الرّجوع إلى من

أرجعنا أولياء الأمر عليهم السّلام إليه و فرضوا علينا أخذ التكاليف الشرعية منه و أوجبوا علينا متابعته و طاعته، و هم المجتهدون الجامعون لشرائط الافتاء و القابلون لنيابة الامام فقط.

فلقد قال صاحب الأمر عجّل اللّه فرجه فى حقّهم: و أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فانهم حجّتى عليكم و أنا حجّة اللّه.

و قال الصادق عليه السّلام فى مقبولة عمر بن حنظلة الطويلة الواردة فى حقّ المتخاصمين:

ينظران إلى من كان منكم ممّن قد روى حديثنا و نظر فى حلالنا و حرامنا و عرف أحكامنا فليرضوا به حكما فانى قد جعلته عليكم حاكما فاذا حكم بحكم فلم يقبل منه فانما استخفّ بحكم اللّه و علينا ردّ و الرّاد علينا كافر رادّ على اللّه و هو على حدّ الشرك باللّه.

و نحوهما أخبار لا حاجة إليها فبمقتضى هذه الأخبار و ساير الأدلّة التى ذكرها أصحابنا رضى اللّه عنهم فى كتب الاصول لا يجوز التعويل و الاعتماد على غير هؤلاء.

فالصوفية الذين يتّخذون لهم مرشدا و دليلا و يسمّونه شيخا و وليا و يأخذون آداب السير و السلوك إلى اللّه منه مع كونه جاهلا ضالاّ عن طريق الهدى إلى سمت الرّدى مثلهم إنما مثلهم كمثل العنكبوت اتّخذت بيتا و إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، بل مثل من أسّس بنيانه على شفا جرف هارفا نهار به فى نار جهنم.

و ذلک لأنهم قد سلكوا الطريق بغير دلالة الدّليل الواجب الاتباع و هو المجتهد الجامع لشرائط الافتاء، بل قلّدوا جاهلا لا يعرف الباطل و الحقّ و لا يفرّق بين النعق و النهق، و لئن قلت لهم: أنتم قلّدتم هذا الجاهل فيستوحشون منه و ينكرون غاية الانكار مع أنّ التقليد ليس عبارة إلاّ عن أخذ قول الغير من غير مطالبة الدليل و هذا حالهم مع هذا الضليل.

و قد أشير إلى بطلان مثل هذه المتابعة و التقليد و إلى النهى عنها فى آيات

و أخبار كثيرة.

مثل ما رواه فى الوسايل عن الكلينى باسناده عن محمّد بن عبيد قال: قال لى أبو الحسن عليه السّلام: يا محمّد أنتم أشدّ تقليدا أم المرجئة؟(1) قال: قلت: قلّدنا و قلّدوا فقال عليه السّلام: لم أسألک عن هذا، فلم يكن عندى جواب أكثر من الجواب الأوّل فقال أبو الحسن عليه السّلام: إنّ المرجئة نصبت رجلا لم تفترض طاعته و قلّدوه و أنتم نصبتم رجلا و فرضتم طاعته ثمّ لم تقلّدوه فهم أشدّ منكم تقليدا.

و باسناده عن أبى بصير(2) عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قلت له: اتّخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللّه، فقال عليه السّلام: أما و اللّه ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم و لو دعوهم ما أجابوهم و لكن أحلّوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون.

و باسناده عن أبى بصير عن أبى عبد اللّه عليه السّلام فى قول اللّه عزّ و جلّ: «اِتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ » فقال عليه السّلام: و اللّه ما صاموا لهم و لا صلّوا لهم و لكن أحلّوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا فاتّبعوهم.

و باسناده عن عبد اللّه بن مسكان قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السّلام يقول: ايّاكم و هؤلاء الرّؤساء الذين يتراسون فو اللّه ما خفقت النّعال خلف رجل إلاّ هلک و أهلک.

و باسناده عن أبى حمزة الثّمالى قال: قال أبو عبد اللّه عليه السّلام إيّاک و الرّياسة و إياک أن تطاء أعقاب الرّجال، قلت: جعلت فداک أمّا الرّياسة فقد عرفتها و أمّا أن أطاء أعقاب الرّجال فما نلت ما فى يدى إلاّ ممّا وطئت أعقاب الرّجال، فقال عليه السّلام

1- (1) - و فى الأحاديث المرجىء يقول من لم يصل و لم يصم و لم يغتسل من الجنابة و هدم الكعبة و نكح امه فهو على ايمان جبرئيل و ميكائيل قال بعض أهل المعرفة بالملل: المرجئة هم الجبرية سمّيت مرجئة لانهم يؤخّرون أمر اللّه و يرتكبون الكبائر، و ذكر فى مجمع البحرين له معانى اخر. منه.

2- (2) - يعنى المرادى

لی: لیس حیث تذهب ایّاک أن تنصب رجلا دون الحجّة فتصدّقه فی کل ما قال.

و فی الوسائل من الاحتجاج فی حدیث طویل عن الحسن العسکری علیه السّلام قال: و کذلک عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر و العصبیة الشّدیدة و التکالب علی الدّنیا و حرامها فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل الیهود الّذین ذمّهم اللّه بالتقلید لفسقة علمائهم، فأمّا من کان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدینه مخالفا علی هواه مطیعا لمولاه فللعوام أن یقلّدوه، و ذلک لا یکون إلاّ بعض فقهاء الشّیعة لا کلّهم، فانّ من رکب من القبایح و الفواحش مراکب علماء العامة فلا تقبلوا منهم عنّا شیئا و لا کرامة، و إنّما کثر التّخلیط فیما یتحمّل عنا أهل البیت لذلک لأنّ الفسقة یتحمّلون عنّا فیحرّفونه بأسره لجهلهم و یضعون الأشیاء علی غیر وجهها لقلّة معرفتهم، و آخرون یتعمّدون الکذب علینا، إلی غیر هذه ممّا لا نطیل بروایتها.

و الحدیث الأخیر و إن کان فی حقّ العلماء السّوء و مقلّدیهم إلاّ أنه یشمل کلّ من یأخذ أمر دینه ممن لیس له قابلیة لأن یؤخذ منه مثل ذلک إما لجهله أو لفسقه کالصوفیة و مشایخهم الفسقة الجهال.

و أیّ فسق أعظم من تجویز التصفیق و الرّقص و الغناء و اختراع الأذکار و الأوراد المبتدعة بکیفیات خاصة و شرایط مقرّرة عندهم من حیث العدد و الوقت و الزّمان و المکان و غیرها مما لیس منها فی الکتاب و السنة عین و لا أثر.

ثمّ العجب أنّ أتباع هؤلاء الفسقة یقصدون بالتقرّب إلیهم و بتوقیرهم و تمجیدهم و تعظیمهم التقرّب إلی اللّه، و هکذا کانت حال عبدة الأصنام کما قال اللّه تعالی فی وصفهم: «وَ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیاءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِیُقَرِّبُونا إِلَی اللّهِ زُلْفی إِنَّ اللّهَ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ فِی ما هُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللّهَ لا یَهْدِی مَنْ هُوَ کاذِبٌ کَفّارٌ ».

و الضمیر فی یختلفون للکفرة و مقابلیهم أولهم و لمعبودیهم، فانهم یرجون شفاعتهم و هم یلعنونهم.

و أعجب من ذلک تبرّکهم بتمثال المرشد و تعظیمهم و تقبیلهم و زیارتهم له

و قد قال إبراهيم عليه السّلام لعبدة الأصنام: «ما هذِهِ التَّماثِيلُ الّتِى أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ ».

و منها

الغناء و الرّقص و التصفيق

، و هو أعظم عباداتهم يقومون بها فى الأوقات الشريفة المخصوصة و قد عاتب اللّه أهل الجاهلية الكفار بذلک فقال: «وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً »، أى يقيمون الصفير و التصفيق مكان الصلاة.

قال الصوفية فى أسباب حصول الجذبة و الحالة التى تحصل للمريد يلازم سماع الغنا.

قال الغزالى: اعلم أنّ السماع أوّل الأمر و يثمر السماع حالة فى القلب تسمّى الوجد و يثمر الوجد تحريک الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب و إما موزونة فتسمّى التصفيق و الرّقص.

قال أبو طالب المكّى: لم يزل الحجازيّون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة و هى الأيام المعدودات التى أمر اللّه عباده فيها بذكره كأيام التشريق، و لم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل المكة على السماع إلى زماننا، فأدركنا أبا مروان القاضى و له جوار يسمعن الناس التلحين و قد أعدّهنّ للصوفيّة.

قال: و قال الجنيد: ينزل الرّحمة على هذه الطايفة فى ثلاثة مواضع: عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلاّ عن فاقة، و عند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلاّ فى مقامات الصديقين، و عند السماع لأنهم يسمعون بوجد و يشهدون حقا.

قال بعد الاستدلال على حلّيته بالقياس و الاستحسانات العقلية الفاسدة و بالأخبار الموضوعة و بعد تفصيل الموارد الّتى يتغنىّ فيها مثل الغناء لتهيّج الحجيج و تشويقهم إلى الحجّ و لتحريض الغزاة على الجهاد و فى أيّام السّرور و العيد و نحوها و استقصاها إلى سبعة ما لفظه:

السّابع سماع من أحبّ اللّه و عشقه و اشتاق إلى لقائه، فلا ينظر إلى شىء

إلاّ رآه فيه سبحانه و لا يقرع سمعه قارع إلاّ سمعه منه أو فيه، فالسماع فى حقّه مهيّج لشوقه و مؤكد لعشقه و مور زناد قلبه، و مستخرج منه أحوالا من المكاشفات و الملاطفات لا يحيط بها الوصف يعرفها من ذاقها و ينكرها من كلّ حسّه عن ذوقها و تسمّى تلك الأحوال بلسان الصّوفيّة و جدا مأخوذ من الوجود و المصادفة أى صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع، ثمّ تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف و تتابع لها تحرق القلب بنيرانها و تنقيه من الكدورات كما تنقى النّار الجواهر المعروضة عليها من الخبث، ثمّ يتبع الصّفاء الحاصل به مكاشفات و مشاهدات و هى غاية مطالب المحبّين للّه فالمفضى إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصى و المباحات.

ثمّ ذكر آداب مجلس السّماع للغناء إلى أن قال:

الأدب الرّابع أن لا يقوم و لا يرفع صوته بالبكاء و هو يقدر على ضبط نفسه و لكن إن رقص و تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المرآة لأنّ التباكى استجلاب للحزن و الرّقص سبب فى تحريك السّرور و النّشاط فكلّ سرور مباح فيجوز تحريكه إلى أن قال:

و الأدب الخامس موافقة القوم فى القيام إذا قام واحد منهم فى وجد صادق من غير رياء و تكلّف أو قام باختيار من غير إظهار و جد و قامت له الجماعة، فلابدّ من الموافقة فذلک من آداب الصّحبة و كذلک إن جرت عادة طائفة بتنحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق فالموافقة فى هذه الامور من حسن الصحبة و العشرة إذ المخالفة موحشة و لكلّ قوم رسم و لا بدّ من مخالقة النّاس بأخلاقهم، و قول القائل: إنّ ذلک بدعة لم يكن فى الصحابة، فليس كلّ ما يحكم باباحته منقولا من الصحابة و إنما المحذورات ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة إلى أن قال:

و من الأدب أن لا يقوم للرّقص مع القوم إن كان يستثقل رقصه و لا يشوّش عليهم أحوالهم إذ الرّقص من غير إظهار التواجد مباح و المتواجد هو الذى يلوح

للجمع منه أثر التكلف و من يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع فقلوب الحاضرين اذا كان من أرباب القلوب محک للصدق إلى أن قال:

فقد خرج من جملة التفصيل السابق أنّ السماع قد يكون حراما محضا، و قد يكون مباحا، و قد يكون مكروها، و قد يكون مستحبا.

أما الحرام فهو لأكثر الناس من الشّبان و من غلبت عليهم شهوة الدّنيا، فلا يحرّک السماع منهم إلاّ ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة.

و أما المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين و لكن يتّخذه عادة له فى اكثر الأوقات على سبيل اللهو.

و أما المباح فهو لمن لا حظّ له منه إلاّ التلذّذ بالصوت الحسن.

و أمّا المستحبّ فهو لمن غلب عليه حبّ اللّه و لم يحرّک السماع منه إلاّ الصّفات المحمودة، انتهى ما أهمّنا نقله من لغويّات كلامه.

و إنّما أطنبنا بنقله تنبيها لک على سوء أعمالهم و أفعالهم و استباحتهم لما تثبت حرمته بالكتاب و السّنة بل حكمهم باستحبابه بمقتضا قياساتهم الفاسدة و الاستحسانات السّاقطة عن درجة الاعتبار، و كفانا مؤنة أدلّة التّحريم ذكر أصحابنا رضوان اللّه عليهم لها فى كتاب المكاسب من الفقه و فى كتب الأخلاق و غيرها، و لنعم ما قيل فى حقّ هؤلاء:

أيا جيل التّصوّف شرّ جيل لقد جئتم بشىء مستحيل

أ فى القرآن قال لكم إلهى كلوا مثل البهايم و ارقصوا لى

و إذا عرفت أقوالهم فى جواز التّغنّى و السّماع و الرّقص فلنذكر مواظبتهم بأعمالها فى مجالس ذكرهم لأنّ إلحاق ذكر الفعل بالقول و إقران العمل بالعلم أكمل و أبلغ فى ايضاح مذاق هؤلاء الفسّاق فأقول:

قال هبة اللّه بن محمّد فى شرح الحديث الخامس من رسالة المسمّاة بالأحاديث الخمسين المروّية عن آل يس: سمعت من قطب الأولياء و السّالكين ظهير الملّة و الدّين حكاية أبيه الشيخ الرّبانى نجيب الدّين علىّ بن يزعش الفارسى أنّه قد حضر

سماعا فی دار شـیخ مشایخ الاسـلام شهاب الملّة و الدین السّهروردی و کان الشیخ علی أعلی السطح، فلمّا شرع المطرب القول و الضّرب اقتصر الاصحاب علی السّماع المجرّد و هو بلا حرکة مبرّد، فصاح الشیخ من فوق و قال یا أصحابی:

السّماع بلا کشکش کبستان بلا مشمش.

فتواجد القوم کلّهم و أنشد مطربهم هذا:

أیا جبلی نعمان باللّه خلّیا نسیم الصّبا یخلص إلیّ نسیمها

فانّ الصباریح إذا ما تنسّمت علی قلب محزون تجلّت همومها

أجد بردها او تشف منی حرارة علی کبد لم یبق إلاّ صمیمها

ألا إنّ أو دائی بلیلی قدیمة و أقتل داء العاشقین قدیمها

و کان هناک فقیر قاعد فی الحاشـیة عند مواقف الحاشـیة إذ اقرء المطرب هذه الأبیات وقع فی الاضطراب علی أعجب الحالات و تلالا منه نور و حرقة بحیث أدهش جماعة الفرقة، فأخذوا فی الذّوق و البکاء و الجزع و الغلق إلی آخر المجلس فما أفاقوا.

قـال ذلک الفقیر: أ تـدرون یا صـحبی ما معنی جبلی نعمان و أیّ شـیء وقع فی خاطری من المناسـبة و ما المراد للفقراء عنـد إطلاق هـذا اللّفظ؟ فقال بعضـهم الخوف و الأمل، و قال بعضهم: النّفس الحیوانیّة و الطبیعیّة، و قال: بعضهم الملک و الشیطان، و قال بعضهم: الامّارة و اللّوامة، و هو ما التفت إلی هذه الأجوبة فقالوا قد رضینا بجوابک و سیرک فمرنا بأمرک فقال: ما أقول إلاّ بحضور الشیخ، فاستحضروا خدمة شیخهم و جلس و قال: أجب لهم یسـتفیدون منک فقال: إنّهما محمّد و إبراهیم صـلوات اللّه علیهما و شـرایعهما ما یخلیان أن یهب نسیم الرّوح إلی العشاق و قـد سدّ طرق الانبساط و الأذواق و وضـعا سـلاسل الأحکام علی أیدی الخواص و العوام، و رسـما مراتب العبادات و وسـما کلّ شـخص بسـمة فی الدّرجات و الدّرکات، فاستحسـنه الشیخ و أصحابه، و فتحوا للعیش أبوابه، و اشتغلوا بالسّماع إلی الصباح من المصباح، و أمر الشیخ بأنّ السّماع عند من له قلب و سمع من أشرف الطاعات بعیدا عن أرباب العادات انتهی.

ص:278

و هـذا المجلس أنموذج ساير مجالسـهم و به عرف أنّ الغناء الّذى اسـتحلّوه لأجل كونه مهيّجا للوجد و المكاشـفات على زعمهم لم يكن مهيّجا له بل منتجا للأقوال و الأباطيل و الهزل و الهذيان، و محصّلا لاعلان عداوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عداوة خليل الرّحمن، حيث قيّداهم بقيد الشريعة و لم يخليّاهم و أنفسهم كالبهائم المرسلة و الانعام المهملة يرتعون ما يشتهون و يعملون ما يشاءون تبعا لوليّهم الشيطان، و ذلک لأنّهم فى تحليل الغناء به اقتدوا و من بحره استقوا، و على منهاجه جروا.

كما يدلّ عليه ما عن العياشى فى تفسيره عن جابر عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال:

كان إبليس أوّل من ناح و أوّل من تغنّى و أوّل من حدا، قال صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: لمّا أكل آدم من الشّجرة تغنّى، فلمّا اهبط حدا به، فلمّا استقرّ على الأرض ناح فاذكره ما فى الجنّة الحديث، هذا.

و العجب كلّ العجب من متصوّفـة الاماميّة أنّهم مع اذعانهم بأئمّة الدّين و اعتقادهم بولاية الحجج المعصومين سـلام اللّه عليهم أجمعين قد أخذوا فى مقام العمل مسلک العامّة العميا المنحرفين عن أئمة الهدى و التّاركين للحنيفيّة البيضاء، فاحتذوا حذوهم فى أصل التّصوف و تشييد بنيانه، ثمّ فى الأخذ بفروعه و أغصانه، و أوردوا فى مؤلفاتهم نظما و نثرا ما هو مفيد لحسن السّماع و الرّقص، مع أنّه خلاف الاجماع و الكتاب و النّص، حسبما تعرفه فى ضمن الأخبار الاتية إنشاء اللّه قال بعض أقطابهم:

و حين يسمع ذكر اللّه سامعهم فى لحن داود عهد اللّه يدّكر

طوبى لهم يا جبال أوّبى معهم و الطير عن ذكره للسمع يبتدر

و حين يسمع الأشعار منصتهم من نظم امجاد أهل اللّه يبتدر

يتلو بنغمة حسن الصوت مطربهم نظما بديعا به يصّعّد الحجر

كلامهم من جنود اللّه يأخذ من هو الأسير لدى الدنيا و ينتصر

يكاد يندكّ من ألحانه طربا شمّ الجبال و منها يخضع الخدر

هم كالمجانين عند الغافلين و هم مسافرون و فى الرّجعى لهم سفر

و روى قطبهم الاخر فى كتابه أنّه أنشد بحضـرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شعر مشتمل على ذكر الحبيب فطفق صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يهتزّ و يهرول و يكرّر قول: يا حبيب يا حبيب، فقال معاويـة: ما أحسن لعبک يا رسول اللّه، فقال: مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتزّ بذكر الحبيب.

و لعلّه نقله من كتب العامّة و الاّ فليس الاهتزاز و الهرولة و اللعب بسماع الشعر لايقا به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بمنصب النبوّة.

و قد روى مثله فى كتب العامّة قالوا: و قد انشد شخص بحضرته:

لسعت حيّة الهوى كبدى فلا طبيب و لا راق

إلاّ الحبيب الذى كلفت به فانّه منيتى و ترياقى

فتمايـل عليه و سـقط رداؤه من أعلاـه فتقـاطعوه تبركا فوا عجبا من ركون قوم على الافک و الأباطيل، و عكوفهم على ترّهات الأقاويل، و من اعتمادهم فى الاصول و الفروع على الاخبار الموضوعة المجعولة، و إعراضـهم عن الصحاح و موثقات المقبولة، و اتّخاذهم ثقات العلماء و المحدّثين حربا، و الأفّاكين من الشـياطين حزبا، و من إقبالهم على النوافل و المندوبات، و إدبارهم عن الواجبات و المفروضات، و عنايتهم بالعبـادات المبتدعـة، و العـادات المخترعـة، و توقّيهم عن المكروهـات، و تقحّمهم فى الشّـبهات و المحرّمـات، إن سـألت أحـدهم عن أشـعارهم الجاهليّة و غزليّات الصوفيّة ينبسط و يجيب بلا مهل، و إذا سألت عن حدود الصـلاة المفروضة من الأجزاء و الأركان و السـهو و الشّک و الطمأنينة ينقبض و يرتطم ارتطام الحمار فى الوحل، يتركون الأدعية المأثورة بالاسناد المعتبرة، و يداومون بالأذكار الجليّة و الخفيّة المتلقّاة من مشايخهم الفجرة، و لو قرءوا القرآن فى بعض الأحيان من باب التقيّة يتغنّون فى تلاوته بجميع النّغمات الموسيقيّة.

فما أشبه حالهم بحال مولا جارية حكاه الزّمخشرى فى ربيع الأبرار عن أبى العيناء قال: رأيت جارية فى النّخاس تحلف لا ترجع إلى مولاها فقلت: لم؟ قالت:

يواقعنى من قيام، و يصلّى من قعود، و يشتمنى باعراب، و يلحن فى القرآن،

و يصوم الاثنين و الخميس و يفطر فى رمضان، و يصلّى الضّحى و يترک الفجر، هذا.

و أمّا ما ورد فى الأخبار العاميّة من قوله عليه السّلام: ما أذن اللّه لشىء كاذنه لنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتغنّى بالقرآن.

فالجواب عنه بعد الغضّ عن سنده ما أجاب به الشّريف الرّضى رضى اللّه عنه حيث قال فى محكىّ كلامه من كتابه الموسوم بمجازات الاثار النّبوية: و من ذلک قوله عليه السّلام ما اذن اللّه لشىء كاذنه لنبىّ يتغنّى بالقرآن، و هذا القول مجاز و المراد ما استمع اللّه لشىء كاستماعه لنبىّ يدوام تلاوة القرآن فيجعله دأبه و ديدنه و هجيرانه و شغله كما يجعل غيره الغناء متروّح حزنه و مستفسح قلبه ليس هناک غناء به على الحقيقة، و هذا كما يقول القائل: قد جعل فلان الصّوم لذّته و الصلاة طربه إذا أقامهما مقام شغل غيره باللّذّات و طربه إلى المستحسنات و قد قيل إنّ المراد بذلک تحزين القراءة ليكون أشجى للسّامع و آخذ بقلب العارف، فسمّى هذه الطريقة غناء على الاتّساع لأنّها يقوّد زيّنوا أصواتكم بالقرآن فى حديث آخر، و ليس المراد بذلک تلحين القراءة و تطريبها، فانّ الأخبار قد وردت بذمّ هذه الطريقة حتّى ذكر عليه السّلام فى أشراط الساعة امورا عدّدها ثمّ قال:

و أن يتّخذ القرآن مزامير.

و قال بعضهم: معنى يتغنّى بالقرآن إى يذكر القرآن، من قولهم تغنّى فلان بفلان إذا ذكره فى شعره إمّا هجوا و إمّا مدحا.

فأمّا الحديث الاخر و هو قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن، فليس المراد به هذا المعنى، و إنّما أراد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس منّا من لم يستغن بالقرآن عمّا سواه، و تغنّى ههنا بمعنى استغنى و هو تفعّل من الاستغناء لا من الغناء، قال العجاج:

أرى الغوانى قد غنين عنّى و قلن لى عليک بالتّغنّى

أى استغنين عنّى و قلن لى استغن عنّا كما استغنينا عنک، و هذا عند موت الشّباب و انقضاء الاراب، و يؤكّد ذلک الحديث الاخر و هو قوله عليه السّلام: من قرء

القرآن فرأى أنّ أحدا اعطى أفضل ممّا اعطى فقد عظّم صغيرا و صغّر عظيما، و لو كان المراد بالتغنّى فى هذا الخبر ترجيع الصوت بالقرآن لكان من لم يقصد هذه فى تلاوته و يعتمدها فى صلاته داخلا تحت الذّم و مقارفا للذنب، لأنّه عليه السّلام قال:

ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن، فبان أنّ المراد به الاستغناء لا الغناء، انتهى كلامه رفع مقامه.

و لبعض الأعلام كلام فى المقام ليس فوقه كلام فى ايضاح المرام فى ابطال ديدن الصوفيّة فى مسألة الغناء و كشف ساير سوآتهم و بيان نكتة سراية التّصوف من العامّة إلى الخاصّة، يعجبنى نقله تنبيها للمتصوّفة الخاصة من نومة الغفلة و الجهالة، و ايقاظا لهم من رقدة الضلالة فأقول:

قال الشيخ علىّ بن الشيخ محمّد العاملى فى محكىّ كلامه من كتاب الدّر المنثور من المأثور و غير المأثور عند شرحه الحديث السابع فى الغناء نقلا من الكافى ما هذه عبارته:

و من ذلک ما روى عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: اقرءوا القرآن بألحان العرب و أصواتها و إيّاكم و لحون أهل الفسوق و أهل الكباير فانّه سيجىء من بعدى أقوام يرجّعون القرآن ترجيع الغناء و النّوح و الرّهبانيّة لا تجوز تراقيهم قلوبهم مقلوبة و قلوب من يعجبه شانهم.

أقول: هذا الحديث يدلّ صريحا على أنّ الغناء يحصل بترجيع القرآن على النحو المتعارف فى هذا الزّمان، و يدلّ على تفسير الغناء بالتّرجيع المطرب و الطرب خفة تصيب الانسان لشدّة حزن أو سرور كما ذكره أهل اللّغة، و فى كون فعلهم كفعل أهل الفسوق و الكباير و عدم جوازه التراقى و قلب قلوبهم و قلوب من يعجبه ذلک ما هو ظاهر لمن عقله كيف لا؟ و هو كلام سيّد البشر صلوات اللّه و سلامه عليه و آله، و هل سمعت أو رأيت أحدا يقرأ القرآن بالمثانى و الطنبور و الأوتار و نحوها حتّى تخصّ الغناء بمثل ذلک و يسهل طريق سماع ما صار متعارفا شايعا بعد ما ظهر أنّه عناء فى غير القرآن أيضا لصدق الغناء عليه بما عرفته، و سنوضحه

فيما بعد و هل لذلک وجه غير إجابة الشيطان و ميل الطبع.

و قد سرى ذلک من صوفية المخالفين و ملاحدتهم ميلا إلى طريقتهم و اعتقادهم و كراهة لما ورد من طرقنا من النّهى عن مثله.

و قد خصّ المحرّم منه مثل الغزالى و أحزابه بما يستعمل فى مجالس الشرب و أهل الفسوق، فقلّده فى ذلک من أعجبه و أحسن الظّن به مع إساءة ظنّه بالأئمة عليهم السّلام و علماء شيعتهم، و لم ينظر إلى نصبه و عداوته للأئمّة عليهم السّلام و علمائهم، فالغناء إن كان هو الترجيع الـذى ذكره علماءنـا فهو صـادق على مثـل ذلک، و إن كان راجعا إلى العرف كما قيل كان صادقا أيضا فانّا لم نعرف فى عرف بلاد العرب إذا سمعوا من ينشـد الشـعر و غيره على الطريق المعهود إلاّ أنّهم يقولون هـذا يغنّى و هذا مغنّ و قد ذكر الصوفيّة فى أسـباب حصول الجذبة و الحالـة الّتى تحصـل للمريـد أنّه يلازم سـماع الغناء، و تارة يقولون: إنّ من أسـبابها سـماع الغناء، فهـذا اعتراف منهم بأنّ مثل ما يفعلونه و يسـمعونه غناء، فان قلت بالعرف فقـد اعترفوا به، و ان رجعت إلى التّرجيع المطرب فكونه كذلک بديهى، و إذا ثبت ما يتحقّق معه الغناء كان حراما على مذهب الاماميّة للأدلة الواردة فى الكتاب و السنّة و اتّفاق علمائنا.

فظهر أنّ تقسـيم الغناء إلى المحرّم و غيره لا يجامع مـذهب الاماميّـة بوجه، و قد اسـتثنا أهل شـرعنا من الغناء الحدى للابل بدليل خاصّ، فليت شعرى كون الحدى من الغناء عرفا و ما يدّعى انّه ليس منه هل هو إلاّ من حبّک الشّىء يعمى و يصمّ.

و مـا ورد من لفظ الألحان كما فى هـذا الحـديث و فهم المعنى المنهىّ عنه منه ناش من ضـيق الفطن عن معرفـة مواقع الألفاظ و مقامات استعمالها، و ذلک لتألف طبيعة أهل الغناء بكون مثل النغمة و الألحان تنصرف إلى المعنى المتعارف بينهم، كما يحمل بعض الحكمة فى مثل قوله تعالى: «وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً »

«كَثِيراً »، على حكمتهم فيتوهّمون أنّه قد يفارق الغناء فيكون الحانا و لا ـ يكون غناء و إلاّ فالألحان و النّغمات و الأصوات معان متقاربة تختلف معانيها باختلاف مقاماتها فتصدق من الغناء و غيره و الكلام فى لحن يصدق عليه الغناء او لا يصدق و ممّا يثبته من له قلب ما فى هذا الحديث من التّعبير بألحان العرب و لحون أهل الفسوق.

و بالجملة فميل النفس إلى شىء مع مساعدة الشيطان يزيّنان للانسان ارتكاب ما لا يحسن و لا يليق، و هذا شأن صاحب كلّ شيمة ركبت فى ذهنه و طبعه و كره النّزوع عنها، فانّه يتشبث لاثباتها بمثل هذه التّمحلات لئلاّ يغلب هواه على ما استقرّ عنده و دعاه.

و لو فرض عدم تحقّق كون مثل هذا غناء فاحتماله راجح أو مساو و من يميل إلى تقوى اللّه هل اللايق بحاله اجتناب مثله أم لا، كيف و ما ذكر سابقا من الحديث و غيره شاهد عدل على كون مثله غناء و قد سرى هذا و ما هو أعظم منه من معاشرة أهل الخلاف و من ضارعهم و مطالعة كتبهم و عدم تميز الغثّ منها من السمين و الميل إلى طريقتهم لما فيها من التساهل و غير ذلک، نسأل اللّه الهداية و نعوذ به من الخذلان و الاملاء و الغواية إنّه جواد كريم.

و اعلم أنّ هذا الاسم و هو التصوّف كان مستعملا فى فرقة من الحكماء الزّائغين عن طريق الصواب، ثمّ من بعدهم كان يستعمل فى جماعة من الزّنادقة و جماعة من أهل الخلاف بعد حصول الاسلام و كان أعداء آل محمّد كالحسن البصرى و سفيان الثورى و أبى هاشم الكوفى و نحوهم و من أعظم رؤسائهم حسين بن منصور الحلاج، و له قصص منقولة فى كتب أصحابنا ككتاب الغيبة و الاقتصاد للشيخ الطوسى و غيرهما، و ادّعى الالهيّة و ورد التوقيع من صاحب الأمر بلعنه كما فى كتاب الاحتجاج و غيره، و صنّف الشيخ المفيد كتابا فى الرّدّ عليه و على متابعيه.

و لم يستعمل هذا الاسم أحد من الاماميّة لا فى زمن الأئمة عليهم السّلام و لا بعد غيبة

صاحب الأمر عليه السّلام.

ثمّ لمّا انتهى الأمر إلى هذا الزمان و ما قاربه طالع بعض الامامیّة کتب الصّوفیّة فمنهم من أعجبه منها ما یلیق و لا منافاة له لقواعد الشّریعة فأعجبه ذلک لکن کان متمسّکا بقوانین الشّرع فلم یتجاوز ما هو موافق و لم یلتفت إلی ما سوی ذلک.

ثمّ سری الأمر إلی تعلّق بعض بجمیع طریقتهم و رأوا أنّ من تبع بعض مسالکهم کان من هذه الفرقة فصار لهم کالمستند فی ذلک فانتهت الحال إلی جعل الرّقص و الصّفق و الغناء من العبادة، بل صارت أفضلها و أکملها عندهم، و نسوا أو تناسوا ما ورد ممّن ینتسبون إلیهم ظاهرا من النّهی عن ذلک، و صار اعتقادهم فی النّواصب و الزّنادقة انّهم علی الحقّ فترکوا امور الشّریعة و أظهروا لضعیفی العقول و العوام حسن هذه الطریقة، و موّهوا علیهم أشیاء یدّعون أنّها من باب الکشف و الکرامات، و استخفّوهم لذلک فأطاعوهم و ساعدهم علی ذلک رفع المشاق التّکالیف الشّرعیة و میل الطبع إلی ما فیه لذّة النّفس حتّی النظر إلی صورة الذّکور الحسنة، و ادّعوا انّهم تنکشف علیهم الامور من غیر واسطة بشر أو غیره، فتبعهم رعاء النّاس و غثاؤهم، و أتعبوا أنفسهم فی الرّیاضات المنهیّ عن مثلها فی شرعنا لعلّ أذهانهم تصفو بذلک.

و لیت شعری لو حصل من هذا شیء ممّا یدّعون فأیّ فرق بین المؤمن و الکافر و المسلم و الزّندیق، فانّه قد شاع و ذاع أنّ کفار الهند و غیرهم لکثرة ما یرتاضون ربّما أخبروا بمثل ما یدّعونه بل بما هو أبلغ، و أهل التّسخیر و الشّعبدة و السحر ربّما ظهر منهم أشیاء فوق ما یدّعیه هؤلاء من غیر صحة لمن تفحّص و تحقّق ذلک.

و أهل الکرامات و المعجزات هم الذین کانت تظهر لهم هذه الامور من غیر الریاضة و لم یکونوا من أهل التّسخیر و الشّعبدة و السّحر و نحو ذلک، و أهل التّقوی الّذین هم محلّ لأن تظهر منهم الکرامات لم یدّعوا و لا ادّعی لهم شیء من ذلک، و کانت

تريدهم الدّنيا فيفرّون منها فرارک من الاسد.

و ترى هؤلاء يضيّعون العمر فيما يلبّسونه لغاية انقياد العوام إليهم ليبلغ ذلک الأكابر و الحكام و يشيع خبرهم فيصلون بهم و بخدمتهم و يجعلون ذلک وسيلة إلى التقرّب إليهم و جلبا لقلوبهم و سببا إلى التردّد إليهم، و مع ذلک يتوقّعون منهم و يأخذون منهم الأموال و ربّما تعزّز بعضهم بعدم قبول اليسير شركا لوقوع الكثير أو حبّا لثبات الجاه و بقاء الميل إليهم.

و لو كان تركهم الدّنيا للّه و للاخرة لم يكن شيء من ذلک و لعملوا:

بقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا يستكمل العبد الايمان حتّى يكون قلّة الشيء أحب إليه من كثرته و حتى يكون أن لا يعرف أحبّ إليه من أن يعرف.

و بقول الباقر عليه السّلام فى وصيّته لجابر: اغتنم من أهل زمانک خمسا: إن حضرت لم تعرف، و إن غبت لم تفتقد، و إن شهدت لم تشاور، و ان قلت لم يقبل قولک، و إن خطبت لم تزوّج الحديث و هو طويل و هذا و أمثاله هو الزّهد و التقوى كما قيل:

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثمّ وصل الأمر إلى أن صار التّصوف غير مشروط بالعلم و لو بعلمهم الذى يدّعونه، بل بمجرّد تغيير اللّباس المتعارف عند أكثر النّاس، و تلبيس الظاهر بذلک و ترک الباطن إمّا فارغا ممّا ينبغى أو مملوا ممّا يعلمه اللّه و صار من زهده و صلاحه بطريق الشّريعة ممقوتا عندهم و ما ذاک الاّ أنّه لو سئل لقال قال رسول اللّه و قال أمير المؤمنين و غيرهما، و هم يدّعون أنّهم يقولون قال اللّه من غير واسطة، و قد يقول بعضهم قال الرّسول و لكن بدعوى مشافهته له و ان كان بينهما ألف سنة فما زاد فيلبّس أنّه رآه فى صورة المثال و كذلک الأئمة عليهم السّلام و أنّهم يسألونهم عن كلّ ما يريدون و نحو ذلک من الخرافات الّتى لا تقبلها عقول المجانين.

نعم لا يبعد أنّ الشّياطين تترائى لهم فى صور مختلفة أو أنّه يحصل لهم خبط و تغيّر مزاج بحيث يرون ما يوهم مثل ما يدّعون و قد ينضمّ إلى ذلک استعمال بعض المغيّرات للمزاج الباعثة على مثل ذلک

و انی لأعجب ممّن یدّعون ذلک علی اختلاف مذاهبهم فکلّ یدّعی کشفا یوافق اعتقاده، فالغزالی مع دعواه الوصول إلی هذه المرتبة انکشف له فضل أبی بکر علی علیّ بن أبی طالب علیه السّلام بمراتب کما هو ظاهر علی من طالع إحیاءه الذی هو إحیاء الباطل.

و کما انکشف له عدم جواز سبّ یزید لعنه اللّه لأنه رجل مسلم و لو کان قاتلا للحسین علیه السّلام لم یجز ذلک، لأنّ غایة هذا أنّه فعل کبیره و ذلک لا یجوّز سبّه.

و انکشف له بطلان مذهب الامامیة بعد أن ترک التدریس و انقطع فی دمشق و مکّة المشرّفة نحو عشر سنین ملازما للخلوة فی آخر عمره، فصنف کتابا سمّاه المنقذ من الضلال، یتضمّن الرّد علی من یدّعی العصمة و ابطال مذهبهم و سمّاهم أهل التعلیم، و ضرب لهم مثلا بأخذهم عن المعصوم بمن تلوّث بجمیع النجاسات ثمّ طلب ماء یتطهر به منها و سعی فی ذلک، فلما انتهی إلی ذلک الماء لم یجده ماء یطهّره و یزیل عنه الاخباث فبقی مرتکسا فی النجاسات طول عمره و تکرّر منه فی الاحیاء و غیره: قالت الرّوافض خذلهم اللّه.

و قال فیه: إنه لو جاء إلینا رافضیّ و ادّعی أنّ له طلب دم عند أحد قلنا له:

دمک هدر، لأنّ استیفاءه مشروط بحضور إمامک فاحضره حتّی یستوفی لک، و مثل ذلک کثیر و ما نقلته مضمون کلامه و معناه کان بخاطری و لم یحضرنی عین ألفاظه و عباراته و إن لم تصدق فعلیک بالمراجعة.

و قد صرّح فی کتابه المنقذ أنّه کان یستفید من الأنبیاء و الملائکة مع مشاهدتهم علی وجه القطع کلّما یرید.

نعم ینسب إلیه کتاب یسمّی سرّ العالمین فیه مقالة(1) یظهر منها میله إلی الحقّ أو نطقه به لیکون حجّة علیه، فان کان سابقا فقد ضلّ بعده عن الحقّ،

1- (1) - و قد تقدّم لک المقالة فی أواخر المقدّمة الثانیة من مقدّمات الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقیة فلیراجع هناک (منه)

و ظاهر المنقذ انّه كتب فى أواخر عمره حتّى أنّ بعضـهم ينكر كون سـرّ العالمين له أو أنّ المقالة المذكورة تلحقه من غيره، فانّ بقيّة الكتاب ليس فيها شىء من هذا القبيل.

و لو فرض كونه له و أنّه كتبه آخر جميع ما كتب صار يستحقّ بذلک جميع ما يذكر فى شأنه، و كان ممّن قد صرفوا أعمارهم فى حفظ شريعة النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام و خاطروا بأنفسهم حتّى بلغت لذلک أمرهم على غير الحقّ بسبب سلوكهم غير هذا الطريق المظلم الّذى لا يستضاء فيه بمصابيح الدّنيا.

و حكى الشّيخ محيى الدّين فى فتوحاته: أنّه أسرى به مرارا أظنّها سبعا أو تسعا فى كلام طويل يتضمّن صورة الاسراء و ذكر فى هذا المقام أو ما يناسـبه أنّه رأى أبا بكر الصّدّيق لمّا وصل إلى العرش بعد أن كان يرى فى كلّ سماء واحدا من الأنبياء مثل نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و موسى و عيسى و إبراهيم صلوات اللّه عليهم، فكانت مرتبته أعلى من مرتبتهم و مساوية لمرتبته تعالى أو مقاربة لها.

و ادّعى فى أوّل الفصوص انّه من إملاء رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أمره له بعين ما كتبه، و سمّى نفسه خاتم الولاية لمنام رآه و غير ذلک له و لغيره مما يتعجّب منه.

فيا للّه العجب من مكاشـفات يظهر منها للناصبى أنه على الحقّ و للملحـد أنه على الحقّ و لعابـد الوثن، أنه على الحقّ، و للامامى أنه على الحقّ و كذا غيرهم فما أدرى أىّ حق و أىّ دين هذا؟ و أىّ مكاشـفة هذه؟ و ما وجه الجمع و التوفيق فى ذلک؟ فلو كانت هذه المكاشـفات للغزالى و نحوه حقا كان للامامى أن يعتقد بطلان مذهب الامامية إن قلّدهم و إن انكشف ذلک له كما انكشف لهم كان أظهر فى البطلان.

و من العجب الاعتقـاد فى مثـل هؤلاـء و الشّـهادة لهم بـالتحقيق و التّكفير أجلاّـء علمـاء الاماميّـة بـل كلّهم بكنايـات أبلغ من التّصـريح كتسميتهم: انّا وجدنا، يكون إشارة إلى قوله تعالى: «إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ »، و مثل

«يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا »، أى و لا تكن من الكافرين بعد التّشنيع عليهم بالخصوص كالسّيد المرتضى و الشّيخ المفيد و أمثالهما، و بما يقتضى شمول الجميع باستلزامه ذلک من حيث ثبوت ذلک لكلّ من خالف طريقته الّتى اخترعها، و لم يوجد من الاماميّة عالم سلک هذا الطّريق و حاصل بعضه انّه سلک طريقا لا يفضى إلى الاختلاف فى شىء كدعوى الغزالى فى كتابه المنقذ من الضّلال و الاختلاف جعله من أسباب التكفير.

و قد جعل الراسخين فى العلم الّذين يعلمون تأويل القرآن فى قوله تعالى «وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ »، الصّوفيّة و فى هذا ردّ على من خصّهم بالرّسول و الأئمة عليهم السّلام كما هو مذكور فى باب من الكافى و غيره مشتمل على أحاديث عنهم عليهم السّلام تدلّ على اختصاصهم بذلک.

و هذا سبيل من يدّعى العلم منهم و الكشف بسبب تحصيل هذا العلم و الرّياضة فما ظنّک بأقوام منهم و هم أكثرهم فى هذا الزّمان فانّک لو فتّشت عن حالهم و اختبرت حقيقة مقالهم وجدتهم كالبهائم الهائمة لا يعرفون مسألة من دين اللّه و لا حراما و لا حلالا، و لا يجدون لهم إلى حسن التكلّم مجالا، و ترى النّاس يقبلون عليهم و يهرعون إليهم و يكادون يسجدون لهم كفعل الكفّار بأصنامهم و مال اعتقادهم فيهم إلى ما قيل فى أبى بكر انه أفضل الصحابة لأمر وقر فى نفسه، و حاش البهايم أن يشبه بها مثل هؤلاء فانها ليست مكلّفة و تركت ما كلفت به بل منقادة لما سخّرت له مسبّحة بحمد ربها منزّهة عن مثل هذه الرّذايل.

و لقد شاهدت بعض هولاء و تفحّصت عمّن لم أره منهم فانكشف إلىّ من حالهم ما ليس من باب الكشف الذى يدّعونه أو يدّعى لهم، و قلّ تعجّبى ممّن يعبد الخشب و الحجر و زاد يقينى فى هوان الدّنيا و سوء أحوالها.

و من تأمل أحوال الدّنيا و خسّتها قديما و حديثا رأى لهذا نظائر و أشباها، و ليس من أعطاه اللّه العقل مع ارسال الرّسل و انزال الكتب و الأمر باتّباعهم بمعذور فى ترک التأمل و المتابعة و المجاهدة، فانّ كلا ميسّر لما خلق له و لا تكليف

لما لا يطاق.

و اعلم أنه لما سرت سيرة الصوفية إلى الامامية كان فى أوّل الأمر من يفرّق بين القشر و اللباب و الذّهب و التراب، فكان من يميل إلى طرف من مقالتهم يختار منه اللباب و يترک القشر إذا كان اللباب حسنا إما مأخوذا من كلام الأنبياء و الأوصياء أو من يحذو حذوهم من العلماء و الأتقياء، فانهم كانوا يدخلون مثل ذلک فى كتبهم و مؤلفاتهم ليحسن الظنّ بهم لكونه مثل كلام أمير المؤمنين و نحوه.

ثمّ بعد ذلک يترقّون إلى تأويله تدريجا بما يوافق مطالبهم و يناسب ماربهم، و كان من يختار و ينتخب ما ذكر بجعله وسيلة إلى تطهير النفس و تزكيتها و ابعادها عن الرّذائل، و مع ذلک فالمطلب الأسنى عنده و الخلّة الحسنى لديه سلوک طريق الشرع و إنفاد العمر فيه كما يراه من عرف حال مثل جدّى الشهيد الثانى و غيره من علماء الفرقة المحقة.

ثمّ تلاشى الأمر و وصل إلى ارتكاب ما سلكوه و الاعتماد على ما قالوه و لو بسماع بعضه من غير تميز و فرق إلى أن وصل الأمر إلى التنفّر من الشرع و أهله و دخل تحت هذا الاسم و هو الصوفيّة من يسمّى به، و ينتسب إليه فقط، فاقتصر المدّعى على ذلک و اكتفى المريد به فصار الملحوظ محض الاسم فى الغالب و إلاّ فلا مشاحة فى التّسمية إذا كان المسمّى مبنيا على أساس صحيح ثابت.

و هذا من مفاسد هذا الاسم المشتمل على ما ذكرناه، و لو بقى ما هو متعارف سابقا من الزّهد و الصّلاح و التّقوى و الورع و أمثال ذلک و هو الّذى كان شايعا بين أهل الايمان و ورد به القرآن و الأخبار لم يتطرّق إليه هذا الغشّ و لم يترتّب عليه هذه المفاسد الّتى ترتّبت على لفظ التّصوّف و معناه.

فدخل الغشّ فيهما و التبس على غير المميّز أمرهما بل على المميّز أيضا إذا لم يعمل بعقله و تميزه، و محک الفرق و التّميز الميل إلى جانب الشّرع و أهله و التّنفر منه و من أهله. و علامه التنفّر منه التنفّر من أهله و ربّما اظهروا التّنفر من أهله متعلّلين بتقصير يدّعونه فيهم، و هذه خدعة

إبليس، لأنّ التّنفر عن الشـرع ليس لهم فيه مصـلحة و لا صـرفة فأبطنوه و أخّروه إلى وقت يمكنهم اظهاره، و تعلّلوا بالقدح فى أهله فلو كان تقصير من حاملى الشّرع لا يلزم منه القدح منه فى الشريعة و عدم متابعتها.

و كأن هذا الزّمان الّذى ذكره سيّد المرسلين صلوات اللّه و سلامه عليه و آله فى وصايا طويلة لأبى ذرّ رضى اللّه عنه حيث قال من جملتها:

يا أبا ذرّ يكون فى آخر الزّمان قوم يلبسون الصّوف فى صيفهم و شتائهم يرون الفضل بذلک لهم على غيرهم اولئک تلعنهم ملائكة السماء و الأرض نقل ذلک ورّام ابن أبى فراس و غيره بالسّند المذكور فى محلّه و هى مشهورة فى كتب أصحابنا.

و من مواعظ عيسى عليه السّلام و حكمه من الانجيل و غيره و هى مشهورة مكرّرة فى كتب أصحابنا أيضا:

بحقّ أقول لكم إنّ شـرّ النّاس لرجل عالم آثر دنياه على علمه فأحبّها و طلبها و جهد عليها حتّى لو اسـتطاع أن يجعل الناس فى حيرة و ما ذا يغنى عن الأعمى سـعة نور الشّمس و هو لا يبصرها، و كذلک لا يغنى من العالم علمه إذا هو لم يعمل به، ما أكثر ثمار الشجر و ليس كلّها تنفع و لا ـ يؤكـل، و مـا أكثر العلمـاء و ليس كلّهم ينتفع بمـا علم، و ما أوسع الأرض و ليس كلّها يسـكن، و ما أكثر المتكلّمين و ليس كلّ كلا ـمهم يصـدق، فاحتفظوا من العلماء الكذبـة الـذين عليهم ثياب الصّوف منكسوا رؤوسـهم إلى الأرض يزوّرون بها الخطايا، يطرفون من تحت حواجبهم كما ترمق الـذّئاب، و قولهم يخالف فعلهم، و هل يجتنى من العوسـج العنب؟ و من الحنظل التّين؟ و كـذلک لا يثمر قول العالم الكاذب إلاّ زورا و ليس كلّ من يقول يصدق، انتهى المنقول من كلامه صلوات اللّه عليه.

فان قيل: كلام عيسى يدخل تحته كلّ عالم غير عامل و ترى كثيرا من علماء الشرع من هذا القبيل.

قلت: قـد ورد فى شأن العالم بغير عمل فى كلام غير عيسـى أيضا من كلام الأنبياء و الأئمّـة و الحـديث القدسـى ما يقصم الظهور كما هو معلوم لمن تتبّع،

و لكن علمـاء الشـرع إن تسـاهلوا فى العمل و مالوا إلى حبّ الـدّنيا و هم الأقلّون قبل هـذا الزّمان فانّهم مع تساهلهم فى العمل طريقهم و اعتقادهم فى العلم غير مستودع و إن كانوا ملومين غير معذورين بالنّسبة إلى العمل.

و هـذا بخلاف ترک ما هو طريق العمل فانّه مع عـدم العلم أو مع عـدم اعتقاد العلم يكون العمل مبنيّا على غير أساس إن حصل ما يسـمّى عملا فى الجملـة أو لم يكن عمل، على أنّ ما لا طريق له من العمل لا يسـتحقّ صـدق اسم العمل عليه فالّذى يفنى عمره فى مثل ذلک لا أرضا قطع، و لا ظهرا أتى و الأوّل يكون تاركا لأقبح القبيحين و الاخر تابع له و إن كان العلم مقرونا إلى العمل فان أجابه و الاّ ارتحل عنه.

و احتجاج أبى عبد اللّه عليه السّلام على الصوفيّة لمّا دخلوا إليه فيما ينهون عنه من طلب الرّزق بما يتعلّق بسفيان الثورى و غيره مشهور فى الكافى و غيره، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول هـذا كلام جيّد فى توضـيح المقام و رفع الحجاب عن وجه المرام لكنّه ينبغى أن نفصّل بعض ما أجمله و ننبّه على ما أهمله من خبط الغزالى و ابن العربى و غلطهما، فأقول:

تذييل

أمّا محيى الدين فقد نقلنا فى إبطال القول بوحدة الوجود فصلا وافيا من كلامه و أردفناه بالتّنبيه على هفواته و آثامه، و أمّا دعويه الاسراء به إلى السـماء فهو من ثمرات رياضاته و نتايج مجاهداته الّتى حصـلت له مرض الخيالات الّتى نشأت منه أمثال تلک الخرافات، و يشهد بصحّة ما ادّعاه رؤيته أبا بكر فى أعلى الطبقات و الأنبياء فى أدناها، كدعوى الثعلب و الشاهد عليه ذنبها.

و أمّا الغزالى فما أشار إليه من أغاليطه و أباطيله و ترّهاته و هذياناته امور

الاول

عدم تجويز اللّعن على يزيد

.

و أنـا أتقرّب إلى اللّه و إلى رسوله بلعنهمـا كليهمـا و أقول: عليهمـا لعـاين اللّه و الملائكـة و النّـاس أجمعين بما لا مزيـد و على من حـذا حذوهما من كلّ كفّار عنيد و شيطان مريد.

و تفصيل ما قاله فى ذلک العنوان ما ذكره فى إحياء العلوم فى باب آفات اللّسان حيث قال:

الافـة الثّامنـة اللّعن و اللّعن عبـارة عن الطرد و الابعـاد من اللّه تعـالى، و ذلـک غير جائز إلاّ على ما يتّصف بصـفة تبعـده من اللّه تعالى و الصّفات المقتضية ثلاثة:

الكفر، و البدعة، و الفسق. و اللّعن فى كلّ واحدة منها ثلاث مراتب.

الاولى اللّعن بالوصف الأعمّ كقولک: لعنة اللّه على الكافرين و المبتدعين و الفسقة.

الثّانية اللّعن بأوصاف أخصّ منه كقولک: لعنة اللّه على اليهود و النّصارى و المجوس و على القدرية و الخوارج و الرّوافض.

الثّالثة اللّعن للشّخص المعيّن، و هذا فيه خطر كقولک: زيد لعنه اللّه و هو كافر أو فاسق أو مبتدع.

و التّفصيل فيه أنّ كلّ شخص ثبتت لعنته شرعا فيجوز لعنته كقولک:

فرعون لعنه اللّه و أبو جهـل لعنه اللّه، لأنّه ثبت أنّ هؤلاء ماتوا على الكفر و عرف ذلک شـرعا أمّا شـخص بعينه فى زماننا كقولک: زيـد لعنه اللّه و هو يهوديّ مثلا فهذا فيه خطر لأنّه ربّما يسلم فيموت مقرّبا عند اللّه فكيف يحكم بكونه ملعونا.

فان قلت: يلعن لكونه كافرا فى الحال كما يقال للمسلم: رحمه اللّه لكونه مسلما فى الحال و إن كان يتصوّر أن يرتدّ.

فاعلم أنّ معنا قولنا: رحمه اللّه أى ثبّته اللّه على الاسـلام الّذى هو سبب الرّحمة و على الطاعة، و لا يمكن أن يقال: ثبت اللّه الكافر على ما هو سـبب اللّعنـة، فـانّ هـذا سؤال الكفر و هى فى نفسه كفر بـل الجـايز أن يقـال: لعنه اللّه إن مـات على الكفر و لا لعنه اللّه إن مات على الاسلام، و ذلک غيب لا يدرى، و المطلق تردّد بين الجهتين.

ففيه خطر.

و إذا عرفت هذا فى الكافر ففى زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى إلى أن قال:

فلا خطر فى السّكوت عن لعن إبليس مثلا فضلا عن غيره.

فان قيل: هل يجوز لعنة يزيد لكونه قاتل الحسين أو آمرا به؟ قلنا: هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال إنّه قتله أو أمر به ما لم يثبت فضلا عن اللعنة، لأنّه لا يجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق.

فان قيل: فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه اللّه أو الامر بقتله لعنه اللّه قلنا: الصّواب أن يقال قاتل الحسين إن مات قبل التّوبة لعنه اللّه، لأنّه يحتمل أن يموت بعد التّوبة، فانّ وحشيا قاتل الحمزة قتله و هو كافر ثمّ تاب عن الكفر و القتل جميعا و لا يجوز أن يلعن و القتل كبيرة و لا تنتهى إلى رتبة الكفر فاذا لم يقيّد بالتّوبة و اطلق كان فيه خطر و ليس فى السكوت خطر و هو أولى انتهى كلامه لعنه اللّه تعالى و خذله و ضاعف فى عذابه.

أقول: لمّا صادف نقل كلام هذا النّاصب اللّعين فى ليلة القدر و هى الليله الثالثة و العشرون من شهر الصّيام كما يستفاد من أكثر أخبار الأئمة عليهم السّلام و كان النّاس مشتغلين وقتئذ فى المساجد الجامعة و المشاهد المشرّفة بالعبادات و الطاعات، متقرّبين إليه تعالى بالتلاوة و التّسبيح و التّقديس و الدّعوات، مبتهلين متضرّعين إليه عزّ و جلّ فى غفران الذّنوب و الزّلات، فرأيت اشتغالى بما يلوح من المطاعن على هذا النّاصب الملعون أهمّ و أحرى، و أحتسب بذلک الأجر و الزّلفى لديه تعالى و أتقرّب به إلى أئمة الهدى تعصّبا لخامس آل العباء سلام اللّه عليه و عليهم تترى، و أستشفع بهم إلى اللّه سبحانه أن يثبت ما أكتبه هنا فى صحايف حسناتى، و يجعله ممحاة سيئاتى، و يحشرنى فى زمرة موالى و ساداتى إنّه مجيب الدّعوات، و وليّ الخيرات و الحسنات، و هو الغفور الرّحيم و الشّكور الكريم.

فأقول: يتوجّه على هذا النّاصب وجوه من الكلام و ضروب من المثالب و الملام:

الاول أنّ اللعن فى اللغة هو الطرد و الابعاد من اللّه و رحمته، و من الخلق طلب الطرد و الدعاء بالعذاب، فمعنى قولنا: لعن اللّه الكافرين و الظالمين و المبتدعة

و النّواصب و منهم الغزالى باعـدهم اللّه من رحمته و ضاعف عليهم العذاب لاسـتحقاقهم له بما صدر عنهم من الكفر و الظلم و النصب و البدعـة، و الكتـاب و السـنة مشـحونة بلعن هؤلاء و قـد ثبت الاذن و التّرخيص لنا قولا و فعلا و تقريرا فى لعنهم، و لا فرق فيه بين الأنواع و الأشخاص.

و التّفرقة بين النّوع و الشخص بتجويزه فى الأوّل دون الثانى كما توهّمه النّاصب شطط من الكلام و غلط.

أمّـا اوّلا ـ فلأـنّ احتمال توبـة الشّـخص الكافر و جواز رجوعه إلى الاسـلام لا يوجب رفع اليـد عن لعنه المترتّب على كفره المحقّق كساير الأحكام المترتّبة على كفره، لأنّ اليقين لا تنقض إلاّ بيقين مثله، و لو كان مجرّد الاحتمال كافيا لجاز الصّلاة عليه و دفنه فى مقابر المسلمين و تجهيزه و تكفينه مثل ساير المسلمين و ليس فليس.

و أمّـا ثانيـا فلأنّ معنى لعن أشـخاص الكفّار طلب العـذاب فى حقّهم لاسـتحقاقهم بالفعل له، و تجويز توبتهم لا يمتنع من جواز الـدّعاء عليهم، لتبدّل الأحكام بتبدّل الموضوعات، ألا ترى أنّ اللّه يكره الفاسق و يبغضه حال فسقه و يحبّه حال توبته مع أنّه عالم بما يؤل أمره.

و أمّا ثالثا فلأنّ قوله: معنى قولنا رحمه اللّه أى ثبّته اللّه على الاسـلام الّذى هو سـبب الرّحمة و لا يمكن أن يقال ثبّت اللّه الكافر على ما هو سبب اللّعنة فيه أنّه لم يفهم معنى الرّحمة و اللعنة إذ ليس معناهما طلب التثبيت على الاسلام و الكفر، بل طلب الثواب لمن كان ثابتا على اسلامه، و طلب العقاب على من كان ثابتا على كفره.

و أمّـا رابعـا فلأنّه لا فرق بين جواز اللعن على اليهود عموما و بين جوازه على أشخاصـهم، لأنّه إن كان معناه طلب الثبات و الاسـتمرار على الكفر على ما توهّمه فلا يجوز مطلقا، و إن كان المراد منه الابعاد عن رحمة اللّه فالكلّ بعيد منها حالة اليهوديّة الأشخاص و الانواع، و جواز التّوبة كما يمكن فى حقّ الشخص يمكن

فی حقّ النوع، و القرب و البعد لا یتفاوت فیه أحکام الشریعة، و بالجملة النّوع لیس إلاّ عبارة عن الأشخاص المجتمعة، و التفرقة بینهما سفسطة.

الثانی أنّ قوله: فلا خطر فی السّکوت عن لعن إبلیس فضلا عن غیره، یظهر منه أنّ بینه و بین إبلیس محابّة و اخوّة لا یرضی بلعنه، و لا غرو فی ذلک لأنّه قائد الضّلال بوسوسته و هذا قائد الضلال بسفسطته، و هو کافر باللّه، و هذا کافر بولایة ولیّ الاله، فلهما اشتراک فی المذهب، و مشارکة فی المذاق و المشرب، و إلاّ فلم لا یرضی بلعنه مع أنّ استحقاق الکفّار و الظالمین للعن و الطرد و الابعاد إنّما هو لأجل الکفر و الظلم و هذا الملعون أوّل کافر باللّه کما یدلّ علیه قوله تعالی:

«أَبی وَ اسْتَکْبَرَ وَ کانَ مِنَ الْکافِرِینَ ».

و أیضا فلنا برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اسوة حسنة، و کلّما جری علی لسانه الشّریف ذکر هذا الملعون أردفه بالطعن و اللعن فیجب لنا اتّباعه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أقواله و أفعاله، و لو کان السّکوت عن لعنه حسنا لم یتّخذه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، سنّة.

مع أنّ التّبری من أولیاء الضلال ظاهرا و باطنا بأیّ نحو کان واجب، و اللعن من جملة أنحاء التبرّی کالاهانة و الاذلال و التّوهین و السبّ و الازراء و نحوها.

الثالث ما قاله فی حقّ یزید اللّعین ابن اللّعین من أنّه لم یثبت کونه آمرا بقتل الحسین علیه السّلام دلیل علی جهله بکتب التّواریخ و السّیر الّتی صنفها علماؤهم فضلا عن علمائنا، إذ لم ینکر أحد منهم ذلک و لا خلاف بینهم فی أنّ یزید ولّی ابن زیاد علیه اللعنة و العذاب علی العراقین لهذا الغرض، و أنّه أنهض العساکر و عبّأ الجیوش و الکتائب لقتاله سلام اللّه علیه و أمره بالقتل أو البیعة فال الأمر إلی ما آل.

و قد قیل لبعض القضاة: کیف یستحقّ یزید اللعن علی قتل الحسین بن علیّ و کان فی الشام و قتل هو بالعراق؟ فأنشد:

سهم أصاب و رامیه بذی سلّم من بالعراق لقد أبعدت مرماک

فاذا ثبت أمره بقتله ثبت وجوب لعنه، لأنّ فرط محبّة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للحسين و لأخيه الحسن عليهما السّلام و مزيد اختصاصهما به غنىّ عن البيان، مستغن عن البيّنة و البرهان.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهما: من أبغضهما أبغضته و من أبغضته أبغضه اللّه أصلاه جهنّم و سائت مصيرا، رواه المحدّثون فأوجب النّار فى بغضهما فكيف لقتلهما.

و قد روت الخاصّة و العامّة حتّى الغزالى قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهما: هما وديعتى فى امّتى.

و رووا أيضا قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اللّهم إنّى أستودعكهما و صالح المؤمنين.

و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنا من حسين و حسين منّى إلى غير ذلک ممّا لا حاجة إلى ذكرها.

و يدلّ ذلک كلّه على أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤذيه ما يوذى الحسين عليه السّلام فضلا عن قتله و الّذين يؤذون رسول اللّه لهم عذاب أليم كما فى آية التّوبة، و فى آية الأحزاب «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّهُ فِى الدُّنْيا وَ الآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً » الرابع قوله: لا يجوز نسبة المسلم إلى كبيرة من غير تحقيق.

أقول: هذا مسلّم و لكن كفر يزيد و ظلمه و ارتكابه ما لم يرتكبه أحد من الكفّار بلغت مبلغ اشتهار الشّمس فى رابعة النّهار، لأنّ زمان ذلک الملعون كان كلّه ظلما و فتنة، فانّه بعد قتل الحسين عليه السّلام و قتل من قتل معه جهّز الجيوش إلى ابن الزّبير و بعث بها إليه مع عقبة بن مسلم إلى مدينة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هى حرمه الّذى حرّمه كما أنّ إبراهيم حرّم مكّة و لعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أحدث فى المدينة حدثا فقتل أهلها، و أباح قتلهم ثلاثة أيّام يقتل فيها الرّجال و يسبى النّساء و تنتهب الأموال، ثمّ سار إلى مكّة فمات فى طريق مكّة لعنه اللّه تعالى فولى يزيد ابن الحصين مكانه، فانتهى إلى مكّة فأباحها و أضرم النّار فى أستار الكعبة فاحترقت و أحرق سقفها و سقط جدارها و هى حرم اللّه الّذى حرّمه و عظّمه غاية التعظيم و قال فى حقّه: «وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ».

و لم يقدم المشركون مع شركهم و لا أهل الجهالة على جهالتهم على أدنى شيء مما فعل تعظيما له و رعاية لحرمته، و من هذا شأنه فكيف يكون مسلما.

نعم هذا الملعون كأبيه و جدّه معاوية و أبى سفيان الملعونين أظهر الاسلام توسلا به إلى ارابه و أبطن الكفر و قد نقل أنه ذكر عنده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوما فقال الملعون:

تلاعب بالبريّة هاشميّ بلا وحى أتاه و لا كتاب

و هذا منه قدح قديح فى النبوّة و سنذكر مثله منه فى الأشعار الاتية.

الخامس أنّ قوله: الصواب أن يقال قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه اللّه لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة فيه: أنّ مجرّد الاحتمال غير كاف فى ارتفاع اللعن و الطعن و الويل و النكال.

و كيف يكون تائبا و قد صدر منه بعد قتله سلام اللّه عليه ما هو أعظم خزيا من الحركات الشنيعة فى حقّ العترة الهاشمية من سبى الحريم و النساء و أمره بأن يسار بهم فى سكك الشام على أقتاب بغير وطاء سوق السبايا و الاماء ثمّ إحضارهم إلى مجلسه مكرّرا ابتهاجا به و فخرا و سرورا.

و يكشف عن عدم ندمه مضافا إلى هذا وضعه الرّأس الشريف بين يديه و تمثله بقول ابن الزّبعرى:

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

لأهلّوا و استهلّوا فرحا ثمّ قالوا يا يزيد لا تشل

لست من حندف إن لم انتقم من بنى أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء و لا وحى نزل

أ فى حقّ من بتلك الأشعار يتمثّل يجوز الندم و يحتمل و لنعم ما قال ابن هانى المغربى:

بأسياف ذاك البغى أوّل سلّها أصيب علىّ لا بسيف ابن ملجم

و بالحقد حقد الجاهلية أنه إلى الان لم يذهب و لم يتصرّم

فلعن اللّه تعالى على يزيد بن معاوية عدد الحجر و المدر و النبات و الشجر

و على المتعصّبين له من أمثال الغزالى اللعين ذوى الأنفس الخبيثة، و العقول المختلّة، و العقائد الفاسدة، و الهمم الساقطة، و الأديان المدخولة، و الأحلام الطايشة، و الأقوال الواهية، و القلوب التى لا تهتدى إلى رشاد، و العيون التى لا تنظر إلى سداد، و قد غطى عليها الغين، و فيهم يقال: أعمى القلب و العين، و من كان فى هذه أعمى فهو فى الاخرة أعمى و أضلّ سبيلا.

الثانى من اغلاط الغزالى

دعويه أنه يستفيد من الملائكة و الأنبياء و مشاهدته لهم على وجه القطع

كلما يريد.

و على ذلک الغلط جرت سيرة الصوفية فانک ترى كثيرا منهم يستندون ما يأفكون إلى الأنبياء و الرسل، و يدّعون رؤيتهم إما بالكشف و الشهود، و إما فى المنام، بل ربما يترقّى بعضهم و يدّعى رؤية اللّه تعالى ظاهرا بحسّ البصر، و لا بأس بنقل بعض خرافاتهم.

فأقول: من أعظم مشايخ هذه الفرقة محيى الدّين الملحد و الغزالى الناصب و قد نقلنا من كلام الأوّل فيما سبق كثيرا.

و أعظم مما مرّ كلّه ما نقله أبو الفتح محمّد بن مظفر الدّين المعروف بالشيخ المكى فى كتابه المسمى بالجانب الغربى فى حلّ مشكلات ابن العربى قال فى محكىّ كلامه من خاتمة الكتاب المذكور عند ذكر كراماته.

و منها أنّ الشيخ - يعنى محيى الدّين - قال: كان محبوبى يتجسّد لى كما أنّ جبرئيل يكون مجسّدا لرسول اللّه و أنا لا أقدر على النظر إليه، و كان يتكلّم بى و أنا أسمع كلامه و أفهمه، و كان مشاهدته يمنعنى من الغذاء عدّة أيام، و كلما احضرت المائدة كان يقف فى جانب منها و يقول بلسان أسمعه: تأكل و أنت تشاهدنى، و كان ذلک مانعا لى من الطعام، و ما كنت أجد ما كان بى من الجوع و كان النظر إليه عوضا عن الغذاء و الماء، و هكذا كان حالى فى أكثر الأيام لا أذوق فيها شيئا و لا يكون محبوبى غايبا عن نظرى، و كان يقوم لقيامى و يقعد

لقعودی، انتهی.

و هذه منه دعوی مشاهدة الرّب تعالی و تقدّس بالصورة الجسمیة بعین الکشف و لا یبعد أنّ شیطانه تجسّد له لیحکّم إغواءه و یشدّد إضلاله حسبما نشیر الی تفصیله تحقیقا إنشاء اللّه.

و أما رؤیته للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد ادّعاه فی دیباجة الفصوص حیث قال:

أما بعد فانی رأیت رسول اللّه فی مبشرة(1) اریتها فی العشر الاخر من المحرّم لسنة سبع و عشرین و ستّمأة بمحروسة دمشق و بیده کتاب فقال لی: هذا کتاب فصوص الحکم خذه و اخرج به إلی الناس ینتفعون به، فقلت: السمع و الطاعة للّه و لرسوله و اولی الأمر منّا(2).

و ادّعی أیضا رؤیته و رؤیة ساير الأنبیاء جمیعا فی الفصّ الهودی قال هناک:

و اعلم أنه لما اطلعنی الحقّ و أشهدنی أعیان رسله و أنبیائه کلّهم البشریین من آدم إلی محمّد صلوات اللّه علیهم أجمعین فی مشهد(3) أقمت فیه بقرطبة(4) سنة ستّ و ثمانین و خمسمائة ما کلّمنی أحد من تلک الطایفة إلاّ هود علیه السّلام فانه أخبرنی بسبب جمعیتهم و رأیته رجلا ضخما فی الرّجال حسن الصورة لطیف المحاورة عارفا بالامور کاشفا لها.

قال القیصری: قیل: کان سبب جمعیتهم إنزاله مقام القطبیّة لیکون قطب الأقطاب فی زمانه و کلام هود علیه السّلام بشارته انه خاتم الولایة المحمدیة و وارث الأنبیاء و المرسلین کما ذکره من نفسه فی مواضع من فتوحاته تصریحا و تلویحا.

و أما رؤیة الغزالی للرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد نقل عن شرح المثنوی انه قال:

إنّ الامام أبا حامد الغزالی المشهور قال لأخیه أحمد الغزالی یوما: نعم الفقیه أنت لو اجتهدت فی الشریعة أکثر من هذا، فقال له الشیخ أحمد: و نعم

1- (1) - أی رویا مبشرة.

2- (2) - أی من جنسنا و أهل دیننا، شرح الفصوص

3- (3) - أی مقام حصل هذا الشهود فیه، قیصری.

4- (4) - مدینة ببلاد المغرب

العالم أنت لو اهتممت فی الحقیقة أکثر من هذا، فقال الامام: ازعم أنّ لی السّبق فی مضمار الحقیقة، فقال الشّیخ: متاع التّصوّر و الحسبان لیس کثیر رواج فی سوق الاسرار، فقال: و لیکن بیننا حکم، فقال الشیخ: و حکم هذا الطریق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال الامام: و کیف لنا به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتّی نری مکانه و نسمع بیانه، قال: و لما یجد حظّا من الحقیقة من لم یره حیث أراد و لم یسمع من أسراره و حقایقه فاشتعل من أثر هذا الملام نائرة الغیرة فی باطن الامام.

ثمّ إنّهما جعلا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حکما لأنفسهما و افترقا، حتّی إذا جاء اللّیل أخذ کلّ منهما طریق تعبّده.

فبالغ الامام فی التّضرّع و البکاء و التّوسّل إلی أن سخنت عیناه، فرأی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دخل علیه مع رجل من أصحابه و بشّره بشرف المعرفة بهذا الأمر و کان علی یدی ذلک الصحابی طبق من الرّطب، ففتح عن طرف منه و أعطاه من ذلک تمیرات، فلما أفاق الامام رأی تلک التّمیرات موجودة فی یده علی خلاف ساير مناماته، فقام مبتهجا مسرورا إلی حجرة أخیه، و جعل یدقّ الباب بقوّته فاذا هو یقول من وراء الباب: لا ینبغی مثل هذا العجب و الّدلال علی تمیرات معدودة.

فزاد تحیّر الامام من دهشة هذا القول: فلمّا دخل علی أخیه فقال: و کیف علمت ما لحقنی من التشریف؟ فقال الشّیخ: و لم یعطک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما أعطاک حتّی لم یعرضه علیّ سبع مرّات، و إن لم تصدّقنی فی ذلک فقم إلی رفّ الحجرة و انظر ما ذا تری.

فلمّا قام الامام رأی ذلک الطّبق الّذی کان علی یدی الصّحابی هناک و قد نقص من طرف منه بمقدار تلک التّمیرات، فعلم أنّ ما بلغه منه أیضا کان من برکات أنفاس الشّیخ.

ثمّ إنّه أخذ فی طریقة السّیر و السّلوک و استکشاف أسرار الحقائق إلی أن صار مقتدی أصحاب الطریقة بلا کلام، انتهی.

ص:301

أقول: هـذه القصة إمّا مجعولة من ناقلها، أو من المنامات الشّيطانية و إلاّ فكيف يتصوّر من رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عنايته و موادّته لمن حادّ اللّه و رسوله؟ و قـد منع اللّه سـبحانه المؤمنين من موادّتهم و قال: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ».

و من أعظم محـادّة للّه تعالى و لرسوله من النّاصب المتعنّت؟ و قـد علمت نصب أبى حامـد الغزالى بما لا مزيـد عليه و نصب أخيه أحمد يعلم ممّا ذكره القاضـى نور اللّه فى مجالس المؤمنين عند ترجمة أخيه أبى حامد، بل قد علمت سابقا كفره و الحاده حيث حكينا عنه تعصّبه لابليس عليه اللّعنة و تسميته له: بسيّد الموحّدين و غير ذلک من ترّهاته.

و كم للصّوفية من دعوى أمثال تلک المكاشفات و ادّعاء مشاهدة النّبىّ و الأئمة عليهم السّلام إما بالرّؤية أو بالرّؤياء.

و أعظم من ذلک دعوى رؤساء كلّ طبقـة و الكملين منهم على زعمهم تجلّى الرّب تقدّس و تعالى فيهم و معاينتهم له سـبحانه بالكشف و الشـهود، مع أنّ بعضـهم مؤمن و بعضـهم ملحد و بعضـهم شـيعى و بعضـهم سنّى و الشيعى أيضا بعضهم إمامى و بعضهم غير إمامى، و السنّى بعضهم ناصبى و بعضهم غير ناصبى.

على أنّ كلاّ من هـذه الفرق على اختلاف مـذاهبهم و لعن بعضـهم بعضـا و تـبرّى بعضـهم من بعض مشـاربهم فى السـير و السـلوک و الرّياضات و الأوراد و الأذكار و العبادات المبتدعة أيضا مختلفة.

فبعضهم جلالىّ، و بعضهم خاكسارىّ، و بعضهم نقشبندىّ، و بعضهم طيفورىّ و بعضهم نعمة اللهىّ، و بعضهم ذهبى، و بعضهم سفارىّ إلى غير هذه من سلاسـلهم الكثيرة، و كلّ سلسـلة يخطىء السلسلة الاخرى، فلو كانت هذه المكاشفات التى يدّعيها الكلّ صحيحة صادقة لصحّت مذاهب هذه الفرق كلّها و لم تكن الناجية

منحصرة فی واحدة.

مع ان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال فی الحدیث الذی رواه الکلّ: إنّ امة موسی افترقت بعده علی احدی و سبعین فرقة فرقة منها ناجیة و سبعون فی النار، و افترقت امة عیسی بعده علی اثنتین و سبعین فرقة فرقة منها ناجیة و احدی و سبعون فی النار و انّ امتی ستفترق بعدی علی ثلاث و سبعین فرقة فرقة منها ناجیة و اثنتان و سبعون فی النار.

فعلم بذلک کلّه أنّ ما یدّعون کلّه تدلیس و تلبیس و تمویه و تخریق و تزویق(1) کسراب بقیعة یحسبه الظمان ماء حتی إذا جاءه لم یجده شیئا و وجد اللّه عنده فوفّاه حسابه و اللّه سریع الحساب.

فان قیل: سلّمنا هذا کلّه و لکن یستبعد جدا اتّفاق هؤلاء علی کثرتهم علی الکذب فی دعوی المعاینة.

قلت: هو کذلک و لکن مرجع تلک الدّعوی إلی أحد أمور:

الاول أنهم بما اعتادوه من تحمل المشاقّ و الریاضات المبتدعة و الجلوس فی بیت مظلم أربعین یوما و التزام ترک الحیوانی و نحو ذلک ربما یحصل لهم خبط و تغیر مزاج مضافا إلی شرب بعضهم للبنج و نحوه من الأدویة المسبتة، فیوجب ذلک الاختراعات الخیالیة فیتوهّم المتخیّل محسوسا مع أنه لا أصل له کالسراب الذی یراه الناظر من بعد ماء.

و قد أشار الی ذلک النفیسی فی شرح الأسباب حیث قال: و قد یبلغ الفساد فی بعضهم إلی حدّ یظنّ أنه یعلم الغیب و کثیرا ما یخبر بما سیکون قبل کونه، و قد یبلغ الفساد فی بعضهم إلی حدّ یظنّ أنه صار ملکا، و قد یبلغ فی بعضهم إلی أعلا من ذلک فیظنّ أنه الحقّ تعالی عن ذلک، و اکثرهم یرون انهم یلزمون التقوی و حسن السیرة بتوحّشهم و انصرافهم عن الناس، و قال بعد شطر من کلامه:

1- (1) - موه الشیء طلاه بذهب أو فضة و تحته نحاس أو حدید، و التخریق کثرة الکذب و التزویق التحسین و التزیین (منه).

قد عرض هذا المرض لكثير من الفلاسفة كأفلاطون و نظرائه.

و قال الطبرى: قد رأيت جماعة من الأفاضل تفرّدوا بأنفسهم و تركوا الاشتغال بغير العلوم و لزموا مجانبة الناس فاحترقت أخلاطهم و حدث بهم الماليخوليا، منهم الفارابى فانه كان لا يختلط بالناس و يتجنبّهم و اذا عاب إنسانا عابه بأنه يجالس العامة و السوقة، فحدث به ضرب من الماليخوليا كان يخرج إلى السوق و يقعد و يهذى بالمنطقيات و يلعب به الصبيان و السوقة، انتهى مجملا.

الثانى أنهم لانحرافهم عن النهج القويم و عدولهم عن الصراط المستقيم و أخذهم بالبدعات و ركوبهم للضلالات، شملهم من اللّه الخذلان، و ترى لهم الشيطان و تجسّم فى نظرهم و حضر فى مجلسهم و تكلّم معهم و خاطبهم، فأسمعهم و تلاطف بهم تثبيتا لما أسّسوه من بنيان الزّيغ و الضلال، و تشييدا لما أقاموه من أركان الوزر و الوبال و قد أشار إلى ذلک الشيخ على سبط الشهيد الثانى قدّس اللّه روحهما فى محكى كلامه من كتابه المسمّى بالسهام المارقة من أغراض الزّنادقة حيث قال: نعم لا يبعد أنّ الشيّاطين تترائى لهم فى صور مختلفة فربّما يغويهم الشيطان و يقول لهم: أنا امامكم بل أنا إلهكم، و حضور الجنّ و الشّياطين عند أهل الرّياضيات و التسخير و غيرهم شايع مشهور و لا بعد فيه من جهة العقل و النّقل.

و فى الأحاديث تكرّرت تشكّل الجنّ بأشكال بنى آدم فاستبعاد هذا أو نفيه نفى و استبعاد لكمال قدرته تعالى و ردّ لأحاديث أهل بيت العصمة عليهم السّلام.

قال: و حكى فى بلادنا جماعة عن رجل قريب من هذا العصر أنّ أباه كان يخبر بأخبار البلاد المتباعدة و ما يقع بها و يرسل كتابات يصل من مثل الشّام إلى مكّة فى أوقات يسيرة يعلم ذلک من تاريخها، و كان الناس يتعجّبون من ذلک و نحوه، فلمّا توفّى الأب أخبر الولد أنّ بعد وفات أبيه جاء شخص بصورة عبد أسود طويل فقال له: أنا كنت خادما لأبيک فى حياته فان أردت أن أكون لک كما كنت لأبيک فعلت

إن تقوم بشرط كان بينى و بينه، و هو أنّى شرطت عليه أن يسجد لى دون اللّه فقبل و فعل، فامتنع الولد من ذلک فانصرف و لم يره بعده نقل جماعة و أظنّ أنّ بعضهم حكى أنّه أدرک ذلک الولد.

قال «ره» و لا بعد أيضا فى أنّه يحصل لهم خبط و تغيّر مزاج بحيث يرون ما يوهم مثل ما يدّعون، و قد ينضمّ إلى ذلک تناول كثير من التّراكيب المغيّرة للمزاج الباعثة على مثل ذلک و نحوها من المغيّرات، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: ما قاله قدّس سرّه من ترائى الشّياطين لهم فى صور مختلفة فهو نصّ الكتاب الكريم و الأخبار الكثيرة الدّالّة على ظهورهم و ترائيهم لأولياء الضّلال قال سبحانه: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ » أى تنزّل الشّياطين على كلّ كذّاب فاجر كثير الاثم.

قال الطبرسى: يلقون السّمع معناه أنّ الشّياطين يلقون ما يسمعونه إلى الكهنة و الكذابين و يخلطون به كثيرا من الأكاذيب و يوحونه إليهم.

و فى الصّافى أى الأفّاكون يلقون السّمع إلى الشّياطين فيتلقون منهم ظنونا و امارات لنقصان علمهم فيضمون اليها على حسب تخيّلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها، انتهى.

و لعمرى أنّ الصّوفيّة هم أظهر مصاديق هذه الاية، و كذا الاية الاخرى فى سورة الجاثية و هو قوله تعالى «وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آياتِ اللّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِى عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِياءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ».

و من أحاط خبرا بما قدّمناه من افک ابن العربى و أباطيله الكثيرة كدعويه رؤية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تجلّى الحقّ فيه و إسرائه الى السّماء و تلقّيه الأحكام من المعدن الّذى يأخذ منه الملک الّذى يوحى به إلى الرّسل، و ادّعائه أنّه خاتم الولاية

و استهزائه بايات اللّه و تأويله لها على المعانى الباطلة و تصحيحه لعبادة من دون اللّه من الأصنام و الأوثان إلى غير ذلک ممّا قدمناه نقله منه، عرف أنّ ذلک الملحد أظهر أظهر مصاديق تلک الاية.

و أما الاخبار فمنها ما رواه فى الكافى عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام فى حديث طويل قال: ليس من يوم و ليلة إلاّ و جميع الجنّ و الشياطين تزور أئمة الضّلال و يزور امام الهدى عددهم من الملائكة حتّى إذا أتت ليلة القدر فيهبط فيها من الملائكة إلى وليّ الأمر خلق اللّه أو قال قيض اللّه عزّ و جلّ من الشّياطين بعددهم، ثمّ زاروا اولى الضّلالة فأتوه بالافک و الكذب حتّى لعلّه يصبح فيقول: رأيت كذا و كذا فلو سئل وليّ الأمر عن ذلک لقال رأيت شيطانا اخبرک بكذا و كذا حتّى يفسّر له تفسيرا و يعلمه الضّلالة.

و منها أنّ الحسن البصرى و هو رئيسهم مرّ به أمير المؤمنين بعد حرب الجمل و هو يتوضّأ فقال عليه السّلام: يا حسن اسبغ الوضوء، فقال يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس اناسا يشهدون أن لا إله إلاّ اللّه و أنّ محمّدا عبده و رسوله و يصلّون الخمس و يسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين عليه السّلام: قد كان ما رأيت فما منعک أن تعين علينا عدوّنا؟ فقال: و اللّه صدّقتک يا أمير المؤمنين لقد خرجت فى أوّل يوم فاغتسلت و تحنّطت و صببت عليّ سلاحى و أنا لا أشّک فى أنّ التخلّف عن امّ المؤمنين كفر فلمّا انتهيت إلى موضع من الخريبة نادا مناديا حسن إلى أين ارجع فانّ القاتل و المقتول فى النّار، قال عليّ عليه السّلام: صدقت، أ فتدرى من ذلک المنادى؟ قال:

لا، قال عليه السّلام: أخوک ابليس و صدقک أنّ القاتل و المقتول منهم فى النّار.

و قد مرّ رواية ذلک الحديث بتمامه من الاحتجاج عن ابن عبّاس فى شرح المختار الثالث عشر فليراجع هناک.

و يفهم منه أنّ الشياطين ربّما ينادون أولياءهم و يخاطبونهم من غير أن يظهروا لهم.

و يدل على ذلک ما قدّمنا روايته فى التّذييل الثانى من شرح الفصل الثانى

من فصول المختار المأة و الحادى و الثمانين عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى قصّة أصحاب الرّس بعد ما ذكر أنّه كانت لهم اثنتى عشرة قرية و فى كلّ منها صنوبرة يعبدونها.

قال عليه السّلام و قد جعلوا فى كلّ شهر من السّنة فى كلّ قرية عيدا يجتمع اليه أهلها فيضربون على الشّجرة الّتى فيها كلّة من حرير فيها أنواع الصّور، ثمّ يأتون بشاة و بقر يذبحونها قربانا للشجرة و يشعلون فيها النّيران بالحطب، فاذا سطع دخان تلک الذّبايح و قتارها فى الهواء و حال بينهم و بين النّظر إلى السّماء خرّوا سجّدا يبكون و يتضرّعون إليها أن ترضى عنهم، فكان الشياطين يجىء فيحرّک أغصانها و يصيح من ساقها صياح الصّبى أن قد رضيت عنكم فطيبوا نفسا فيرفعون رؤوسهم عند ذلک إلى أن قال عليه السّلام: حتّى إذا كان عيد قريتهم العظمى اجتمع اليه صغيرهم و كبيرهم فضربوا عند الصنوبرة و العين سرادقا من ديباج عليه من أنواع الصّور و جعلوا له اثنى عشر بابا كلّ باب لأهل قرية منهم و يسجدون للصّنوبرة خارجا من السّرادق و يقرّبون لها الذبائح أضعاف ما قرّبوا للشجرة فى قربتهم، فيجىء ابليس عند ذلک فيحرّک الصّنوبرة تحريكا شديدا و يتكلّم من جوفها كلاما جهوريّا، و يعدهم و يمنّيهم بأكثر ما وعدتهم و منّتهم الشياطين كلّها، فيرفعون رؤوسهم عن السجود و لهم من الفرح و النشاط ما لا يفيقون و لا يتكلّمون الحديث، و الأخبار فى هذا المعنى كثيرة و لا حاجة إلى الاطالة.

الثالث تعمّد بعضهم فى الكذب و الافک و ادّعائه ما ليس له أصل أصلا.

فانهم لانحرافهم عن جادّة الشريعة و ضلالهم عن الحقّ و اضلالهم كثيرا من العوام كالأنعام و الرّعاع الدين يصغون إلى كلّ ناعق بما أظهروه من خوارق العادات التى نشير إلى منشئها إنشاء اللّه، نسبوا إلى أنفسهم ما لا أصل له من رؤية الأنبياء و الأئمة عليهم السّلام، تثبيتا لمتابعيهم المفتتن بهم على ما اعتقدوه فى حقّهم من مقام القطبية و الولاية.

و نظير ذلک ما نقل من أنّ أبا الطيب المتنبى الشاعر المعروف ادّعى لنفسه النّبوة بحبسه للمطر، فافتتن به كثير من أهل أطراف الشّام.

نقل عن الخطيب التبريزى أنّه قال فى شـرح ديوان أبى الطّيب، قال أبو عبد اللّه معاذ بن إسماعيل اللاذقى، قدم المتنبّى اللاذقيّة فى سنة نيّف و عشرين و ثلاثمأة، وضوى(1) إلىّ فـأكرمته و عظمته لما رأيت من فصاحته و حسن سـمته، فلما تمكّن الانس بينى و بينه و خلوت معه فى المنزل اغتناما لمشاهـدته و اقتباسا من أدبه و أعجبنى ما رأيت، قلت و اللّه إنک لشابّ خطر تصـلح لمنادمـة ملک كبير، فقال لى: ويحک أ تدرى ما نقول؟ أنا نبىّ مرسل، فظننت أنه يهزل، ثم ذكرت أنى لم احصل عليه كلمة هزل منذ عرفته، فقلت له: ما تقول؟ فقال: أنا نبىّ مرسل، فقلت له:

مرسل إلى من؟ قال: إلى هذه الامّة الضّالّة المضلّة، فقلت تفعل ما ذا؟ قال:

املئهـا عـدلا كمـا قـد ملئت جورا، فقلت: بماذا؟ قال: بإدرار الأرزاق و الثواب العاجل و الاجل لمن أطاع و أتى، و ضـرب الأعناق و قطع الأرزاق لمن عصى و أبى فقلت: إنّ هذا أمر عظيم أخاف منه عليک و عذلته على قوله، فقال بديها:

أيا عبد الاله معاذ أنّى خفىّ عنک فى الهيجا مقامى

القطعة، فقلت له: ذكرت أنّک نبىّ مرسل إلى هذه الامّة أ فبوحى يوحى إليک؟ قال: نعم قلت: فاتل علىّ شـيئا من الوحى إليک، فأتى بكلام ما مرّ بسـمعى أحسن منه، فقلت: و كم اوحى عليک من هذا؟ فقال: مأئة عبرة و أربع عشر عبرة، فقلت: و كم العبرة؟ فأتى بمقدار أكبر الاى من كتاب اللّه تعالى، فقلت: ففى كم مدّة اوحى اليک؟ قال: جملة واحدة، قلت: فاسـمع فى هذه العبرات كلّ طاعة فى السّماء فما هى قال: حبس المـدرار لقطع أرزاق العصاة و الفجار قلت: أتحبس من السـماء قطرها؟ قال: أى و الّـذى فطرها أ فما هى معجزة؟ فقلت: بلى و اللّه، قال: فان حبست ذلک عن مكان تنظر اليه و لا تشكّ فيه هل تؤمن بى و تصدّقنى على ما أتيت به من ربّى؟ قلت: اى و اللّه، قال: سأفعل فلا تسألنى عن شىء بعدها حتّى آتيک بهذه المعجزة و لا نظهر شيئا من هذا الأمر حتّى يظهر، و انتظرت ما وعدنيه من غير أن أسأله.

فقال لى بعد أيّام: أتحبّ أن تنظر الى المعجزة الّتى جرى ذكرها؟ فقلت:

1- (1) - أى أتى ليلا. م.

بلى و اللّه، فقال لى: إذا أرسلت احد العبيد فاركب معه و لا تؤخّر و لا يخرج معک أحد قلت: نعم.

فلما كان بعـد أيام تغيّمت السـماء فى يوم من أيّام الشـتاء و إذا عبده قد أقبل فقال: يقول اركب للوعد، فبادرت بالرّكوب معه و قلت أين ركب مولاک؟ قال:

إلى الصحراء، و لم يخرج معه أحد غيرى و اشتدّ وقع المطر فقال: بادربنا حتّى نستكنّ معه من هذا المطر فانّه ينتظرنا بأعلى تلّ لا يصيبه فيه المطر، قلت: و كيف عمل قال: أقبل ينظر إلى السماء أوّل ما بدء السحاب الأسود و هو يتكلّم بما لا أفهم ثمّ أخذ السّوط فأدار به فى موضع ستنظر اليه من التّل و هو يهمهم و المطر ممّا يليه و لا قطرة منه عليه.

فبـادرت معه حتّى نظرت اليه و اذا هو على تـلّ على نصف فرسـخ من البلـد فـأتيته و إذا هو قـائم ما عليه من ذلک المطر قطرة واحـدة و قد خضت فى المـاء إلى ركبتى الدّابّـة و المطر فى أشـدّ مـا يكون، و نظرت إلى مـأتى ذراع فى مثلها من ذلک التّل يابس ما فيه نـدى و لا قطرة مطر، فسلمت عليه فردّ علىّ فقال لى: أ ترى؟ قلت:

ابسط يدک فانى اشهد أنّک رسول اللّه، فبسط يده فبايعته بيعة الاقرار بنبوّته.

ثمّ قال لى: ما قال هـذا الخبيث لما دعى بک يعنى عبـده فشـرحت له ما قال لى فى الطريق لما اسـتخبرته، فقتل العبد و قال و قد جاوز حدّ الاساءة:

أىّ محلّ ارتقى أىّ عظيم اتّقى.

و كلّ ما قد خلق اللّه و ما لم يخلق محتقر فى همّتى كشعرة فى مفرقى

و أخـذت بيعته لأهلى، ثمّ صـحّ بعد ذلک أنّ البيعة قد عمّت كلّ مدينة بالشّام، و ذلک بأصـغر حيلة تعلّمها من بعض العرب و هى صدحة المطر يصـرفه بها عن أىّ مكان أحبّ بعد أن يحوى عليه بعصا و ينفث بالصّدقة الّتى لهم و رأيت لهم كثيرا منهم بالسّكون و حضـرموت و السّاسک من اليمن يفعلون هذا و لا يتعاظمونه حتّى أنّ أحدهم يصدح عن غنمه و ابله و بقره و عن القرية من القرى، فلا يصـيبها من المطر قطرة و يكون المطر ممّا يلى الصّدقة، و هو ضرب من السحر،

و رأيت لهم من السّحر ما هو أعظم من هذا و سألت المتنبّى بعد ذلک هل دخلت السّكون؟ فقال: نعم و والدى منها أما سمعت قولى؟

أمنسى السّكون و حضر موتاو والدتى و كندة و السبيعا

فقلت: و من ثمّ استفاد ما جوّزه على طغام أهل الشّام، و جرت له أشياء بعد ذلک من الحروب و الحبس و الانتقال من موضع إلى موضع حتّى حصل عند سيف الدّولة، انتهى.

أقول: و إلى مثل ذلک يرجع خرافات أكثر رؤساء الفرق الثلاث الضالّة المضلّة:

الصّوفيّة، و الشيخيّة، و البابيّة خذلهم اللّه جميعا هذا كلّه تحقيق ما يتعلّق بالمكاشفة بعنوان الشهود و الرّؤية و العيان.

و أمّا الكشف بالرّؤيا و المنام و عليه مدار أكثر دعاوى المتصوّفة و أباطيلها حيث إنّ أعظم بضاعتهم: اريت البارحة و قد جرت عادتهم على أنّهم ينقلون ما يرون فى المنام إلى مرشديهم فيعبّره على ما هو مناسب لمذاق التّصوّف.

فتحقيق الكلام فيه ما أفاده المفيد قدّس اللّه سرّه.

فقد روى فى البحار من كنز الفوايد للكراجكى قال: وجدت لشيخنا المفيد رضى اللّه عنه فى بعض كتبه أنّ الكلام فى باب رؤيا المنامات غزير، و تهاون أهل النّظر به شديد، و البليّة بذلک عظيمة، و صدق القول فيه أصل جليل.

و الرّؤيا فى المنام تكون من أربع جهات:

إحداها حديث النفس بالشىء و الفكر فيه حتّى يحصل كالمنطبع فى النفس فيخيّل إلى النّائم ذلک بعينه و أشكاله و نتائجه، و هذا معروف بالاعتبار.

و الجهة الثانية من الطباع و ما يكون من قهر بعضها لبعض، فيضطرب له المزاج و يتخيّل لصاحبه ما يلايم ذلک الطبع الغالب من مأكول و مشروب و مرئى و منكوح و ملبوس و مبهج و مزعج، و قد ترى تأثير الطبع الغالب فى اليقظة و المشاهد حتّى أنّ من غلبت عليه الصفراء و يصعب عليه الصعود إلى المكان العالى يتخيّل إليه وقوعه منه و يناله من الهلع و الزّمع ما لا ينال غيره، و من غلبت عليه السوداء يتخيّل به أنّه

قد صعد فی الهواء و ناجته الملائکة و یظنّ صحّة ذلک حتّی أنّه ربما اعتقد فی نفسه النّبوّة و أنّ الوحی یأتیه من السّماء و ما أشبه ذلک.

و الجهـة الثالثـة ألطاف من اللّه عزّ و جلّ لبعض خلقه من تنبیه و تبشـیر و اعذار و انذار، فیلقی فی روعه ما ینتج له تخیلات امور تدعوه إلی الطاعة و الشکر علی النعمة و تزجره عن المعصیة و تخوّفه الاخرة و یحصل له بها مصلحة و زیادة فایدة و فکر یحدث له معرفة.

و الجهة الرّابعة أسـباب تأتی من الشـیطان و وسوسته یفعلها الانسان یذکّره بها امورا تحزنه و أسبابا تغمّه و تطمعه فیما لا یناله أو تدعوه علی ارتکـاب محظور یکون فیه عطبه، أو تخیّـل شـبهة فی دینه یکون منهـا هلاکه، و ذلک مختصّ بمن عـدم التوفیق لعصـیانه و کثرة تفریطه فی طاعات اللّه، و لن ینجو من باطل المنامات و أحلامها إلاّ الأنبیاء و الأئمة صلوات اللّه علیهم و من رسخ فی العلم من الصالحین.

و قد کان شیخی رضی اللّه عنه قال لی: کلّ من کثر علمه و اتّسع قلّة مناماته فان رأی مع ذلک منامات و کان جسمه من العوارض سلیما فلا یکون منامه إلاّ حقّا، و یرید بسـلامة الجسم عدم الامراض المهیّجة للطّباع و غلبة بعضها علی ما تقدّم به البیان، و السّکران أیضا لا یصحّ له منام و کذلک الممتلی من الطعام لأنّه کالسّکران.

و لـذلک قیل: إنّ المنامات قلّ ما یصـحّ فی لیالی شـهر رمضان، فأمّا منامات الأنبیاء فلا یکون إلاّ صادقة و هی وحی فی الحقیقة و منامات الأئمة جاریة مجری الوحی و إن لم تسمّ وحیا و لا تکون قطّ إلاّ حقّا و صدقا و إذا صحّ منام المؤمن لأنّه من قبل اللّه کما ذکرناه.

و قد جاء فی الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّه قال: رؤیاء المؤمن جزء من سبعة و سبعین جزء من النّبوة.

و روی عنه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه قال: رؤیا المؤمن تجری مجری کلام تکلّم به الرّب عنـده فأمّا وسوسـة شـیاطین الجنّ فقـد ورد السّمع بذکرها، قال اللّه تعالی: «مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنّاسِ اَلَّذِی یُوَسْوِسُ فِی صُدُورِ النّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النّاسِ » و قال: «وَ إِنَّ الشَّیاطِینَ »

«لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ » و قال: «شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً » و ما ورد به السّمع فلا طريق إلى دفعه.

فأمّا كيفيّة وسوسة الجنّى للانسى فهو إنّ الجنّ أجسام رقاق لطاف فيصحّ أن يتوصّل أحدهم برقّة جسمه و لطافته إلى غاية سمع الانسان و نهايته فيوقّر فيه كلاما يلبّس عليه إذا سمعه و يشبّه عليه بخواطره، لأنه لا يرد عليه ورود المحسوسات من ظاهر جوارحه و يصحّ أن يفعل هذا بالنائم و اليقظان جميعا و ليس هو فى العقل مستحيلا.

و روى جابر بن عبد اللّه أنه قال: بينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يخطب إذ قام اليه رجل فقال: يا رسول اللّه إنى رأيت كأنّ رأسى قد قطع و هو متدحرج، فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

لا تحدث بلعب الشيطان بک. ثمّ قال: إذا لعب الشيطان بأحدكم فى منامه فلا يحدّثنّ به أحدا.

و أما رؤية الانسان للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أحد الأئمة عليهم السّلام فى المنام، فانّ ذلک عندى على ثلاثة أقسام:

قسم أقطع على صحّته، و قسم أقطع على بطلانه، و قسم أجوّز فيه الصحّة و البطلان فلا أقطع فيه على حال.

فأما الذى أقطع على صحّته فهو كلّ منام رأى فيه النبىّ أو أحد الأئمة عليهم السّلام و هو فاعل لطاعة أو آمر بها و ناه عن معصية أو مبيّن بقبحها، و قائل لحقّ أو داع اليه، و زاجر على باطل أو ذامّ لمن هو عليه.

و أما الذى أقطع على بطلانه فهو كلّما كان ضدّ ذلک لعلمنا أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الامام صاحبا حقّ و صاحب الحقّ بعيد عن الباطل.

و أما الذى اجوّز فيه الصحّة و البطلان فهو المنام الذى يرى فيه النبىّ و الامام و ليس هو آمرا و لا ناهيا، و لا على حال يختصّ بالدّيانات مثل أن يراه راكبا أو ماشيا أو جالسا و نحو ذلک.

فاما الخبر الذى يروى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قوله: من رءانى فقد رءانى فانّ

الشـيطان لاـ يتشـبّه بى، فـانه إذا كان المراد به المنام يحمل على التخصـيص دون أن يكون فى كلّ حال، و يكون المراد به القسم الاوّل من الأقسام الثلاثة لأنّ الشيطان لا يتشبّه بالنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى شىء من الحقّ و الطاعات.

و أما ما روى عنه من رءانى نائما فكأنما رءانى يقظانا، فانّه يحتمل الوجهين.

أحدهما أن يكون المراد به رويا المنام، و يكون خاصّا كالخبر الأوّل على القسم الأوّل الّذى قدّمناه.

و الثانى أن يكون أراد رؤية اليقظة دون المنام، و يكون قوله: نائما حالا للنّبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليست حالا لمن رآه، فكأنّه قال: من رآنى و أنا نائم فكأنّما رآنى و أنا منتبه، و الفائدة فى هذا المقام أن يعلّمهم بأنّه يدرک فى الحالتين إدراكا واحدا فيمنعهم ذلک إذا حضروا عنده و هو نائم أن يغيظوا فيما لا يحسن أن يذكروه بحضرته و هو منتبه.

و قد روى عنه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه غفى ثمّ قام يصلّى من غير تجديد وضوء، فسئل عن ذلک فقال: إنّى لست كأحدكم تنام عيناى و لا ينام قلبى، و جميع هذه الرّوايات اخبار آحاد، فان سلمت فعلى هذا المنهاج.

و قد كان شيخى رضى اللّه عنه يقول: إذا جاز من بشر أن يدّعى فى اليقظة أنّه إله كفرعون و من جرى مجراه مع قلّه حيلة البشر و زوال اللبس فى اليقظـة فما المانع أن يـدّعى ابليس عنـد النّائم بوسوسـته له انّه نبىّ مع تمكّن ابليس بما لا يتمكّن عنه البشـر و كثرة اللّبس المعترض فى المنام.

و ممّا يوضح لک أنّ من المنامات الّتى يتخيّل للانسان أنّه قد رأى فيها رسول اللّه و الأئمة صلوات اللّه عليهم ما هو حقّ و منها ما هو باطل:

أنّک ترى الشّيعى يقول: رأيت فى المنام رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام يأمرنى بالاقتداء به دون غيره و يعلمنى أنّه خليفة من بعده و أنّ أبا بكر و عمر و عثمان ظالموه و أعداؤه، و ينهانى من موالاتهم و يأمرنى بالبراءة منهم و نحو ذلک ممّا يختصّ بمذهب الشيعة.

ثمّ يرى النّاصبى يقول: رأيت رسول اللّه فى النّوم و معه أبو بكر و عمر و عثمان و هو يأمرنى بمحبّتهم و ينهانى عن بغضهم و يعلمنى أنّهم أحقّاء فى الدّنيا و الاخرة و أنّه معهم فى الجنّة و نحو ذلک ممّا يختصّ بمذهب النّاصبيّة.

فنعلم لا محالة أنّ أحد المنامين حقّ و الاخر باطل فأولى الأشياء أن يكون الحقّ منهما ما ثبت الدّليل فى اليقظة على صحّة ما تضمّنه، و الباطل ما أوضحت الحجّة عن فساده و بطلانه، و ليس يمكن الشّيعى أن يقول للناصبى: إنک كذبت فى قولک إنّک رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنه يقدر أن يقول له مثل هذا بعينه.

و قد شاهدنا ناصبيّا تشيّع و أخبرنا فى حال تشيّعه بأنه يرى منامات بالضدّ مما كان يراه فى حال نصبه، فبان بذلک أنّ أحد المنامين باطل و أنه من نتيجة حديث النفس أو من وسوسة إبليس و نحو ذلک، و أنّ المنام الصحيح هو لطف من اللّه سبحانه لعبده على المعنى المتقدّم وصفه.

و قولنا فى المنام الصحيح: إنّ الانسان رأى فى نومه النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنما معناه انه كان قد رآه، و ليس المراد به التحقيق فى اتصال شعاع بصره بجسد النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أىّ بصر يدرک به حال نومه، و إنما هى معان تصوّرت فى نفسه تخيّل له فيها امر لطف اللّه تعالى له به قائم مقام العلم، و ليس هذا بمناف للخبر الذى روى من قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

من رءانى فقد رءانى، لأنّ معناه فكأنما رءانى و ليس يغلط فى هذا المكان إلاّ من ليس له من عقله اعتبار، انتهى كلامه رفع اللّه تعالى فى أعلا عليّين مقامه.

و انما نقلناه بطوله لاشتماله على فوايد جمة و فيه قلع أساس منامات الصوفية حيث إنهم يستندون أكثر أباطيلهم إلى الرّؤياء و المنام، فان كانوا صادقين فى أصل الرّؤياء فانّما هى من أضغاث الأحلام و عمل الشيطان.

و كفى بذلک شاهدا أنّ محيى الدّين حسبما نقلناه عنه سابقا نسب كتاب الفصوص الذى هو من كتب الضلال يقينا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذكر فى أوّل الكتاب أنه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام بمحروسة دمشق و بيده كتاب فقال له: هذا كتاب فصوص الحكم خذه و اخرج به إلى الناس ينتفعون به، و قد ذكر فى الكتاب المذكور

مضافة إلى ساير أباطيله منامات كلّها مخالفة لدين الاسلام و شريعة سيد الأنام كما يعرفه من رجع إليه من ذوى البصاير و الأفهام.

و منها

منعهم من طلب الرّزق

زعما منهم أنه مناف للتوكل.

و قولهم بذلک إفراط حيث إنهم يحرّمون ما أحلّ اللّه كما أنّ تجويزهم للغناء و الرّقص و نحوهما تفريط و تحليل لما حرّم اللّه.

قال آية اللّه فى العالمين العلاّمة الحلّى قدّس اللّه روحه و جعل مقامه فى أعلا عليّين فى كتاب مناهج اليقين فى اصول الدّين:

منع الصوفيـة من طلب الرّزق لأـنّ الحلاـل قـد اختلـط بـالحرام بحيث لا يمكن تمييزه فيجب اجتنابه، و لأنّ فيه مساعـدة الظالمين لطلب الخروج و الضـمان، و لأنه تعالى أمر بالتوكل و هو ينافى الطلب، و هذا خيال ضـعيف، فانّ المكلف إذا عرف الشـىء المعيّن قد اختلط فيه الحلال بالحرام اجتنبه اما مع فقد العلم فلا، و المساعدة ليست مقصودة بالذات، و التوكل لا ينافى الطلب.

و قال الشـيخ مقـداد فى كتابه إرشاد الطالبين إلى نهـج المسترشدين عند شـرح قول العلامة قدّس اللّه روحه: و يجوز طلبه، يعنى الرّزق لأنه يندفع به الضرر و لقوله تعالى: «فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ » و غير ذلک من الايات ما لفظه:

اعلم أنّ الرّزق يجوز طلبه بل قـد يجب كما إذا لم يكن ثمّ وجه غيره، و قـد يسـتحبّ، و قـد يباح، و قد يحرم كما إذا اشـتمل على وجه نهى الشّارع عنه، و قد يكره كما إذا اشتمل على ما ينبغى التنزّه عنه.

ثمّ إنّ الرزق قد يكون تفضـلا منه تعالى بأن لا يكون للمكلّف فيه لطف و قد يكون فيه لطف و ذلک فيما يجتهد فى تحصيله، و وجه لطفيّته أن يحصل للطّالب عقيدة بأنّ المنافع الدّنيويّة إنّما تحصل بالتّعب و كذا الاخروية، و ذهبت الصّوفية إلى أنّه لا يجوز السّعى فى طلبه

و الدّليل على ما قلناه من وجوه:

الأوّل أنّ طلب الرّزق ممّا يدفع به الضّرر عن النّفس و دفع الضّرر عن النّفس واجب.

الثّانى قوله تعالى: «فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ »، و قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » و قال المفسّرون: الابتغاء التّكسّب و الفضل الرّزق و غير ذلک من الايات.

الثّالث قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سافروا تغنموا، و قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الرّزق عشرة أجزاء تسعة منها فى التجارة، و غير ذلک من الأخبار.

و احتجّت الصوفية بوجوه:

الأول أنّ الحلال مختلط بالحرام و لا يتميّز فلا يجوز طلبه.

الثانى أنّ فى الطلب مساعدة للظالم باعطائه الطمغاء و غيرها و مساعدة الظالم حرام فكذا ما يؤدّى إليها.

الثالث قوله تعالى: لو توكّلتم على اللّه حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغد و خماصا و تروح بطانا، و إذا كان التوكّل مأمورا به كان الطلب منهيا عنه.

و الجواب عن الأول إن أردتم أن كلّ الحلال مختلط فهو ممنوع، و إن أردتم بعضه فمسلّم لكن التكليف مشروط بالعلم فمع عدم العلم لا حرمة خصوصا و اليد ظاهرة فى الملک، و أورد عليهم شيخنا سالم بن محفوظ أنه يلزم من هذا أنه لا يجوز أكله كما لا يجوز طلبه، و لهم أن يقولوا إنا نأكل قدر الضرورة لكن الواقع منهم بخلافه.

و عن الثانى أنّ المساعدة ليست مقصودة و لا مرادة بل تؤخذ قهرا.

و عن الثالث أنّ التوكّل لا ينافى الطلب و المكتسب فى حال طلبه متوكّل أيضا و لهذا أردفه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالغدوّ، مع أنه ليس فى الحديث نهى عن الطلب الذى هو مناط البحث بل بيّن فيه أنكم لو اشتغلتم بالطاعة عن الطلب لرزقكم ما يقيم به أبدانكم كما يرزق الطير ما يقيم به أبدانها بتهية الأسباب، لكن أردفه بالغدوّ الذى

هو الطلب، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: و يرد على دليلهم الأوّل أيضا أنّ قولهم: الحلال مختلط بالحرام، إن أرادوا به الحلال و الحرام الواقعين ففيه أنا لسنا مكلّفين بتحصيل الحلال الواقعى و لا بترك الحرام الواقعى لعدم السبيل إليهما، و إن اريد بهما ما هو حلال و حرام فى ظاهر الشرع فالاختلاط إنما هو فى بعضها لا الجميع و على ذلك فكلّ شىء فيه حلال و حرام فهو لنا حلال حتى نعرف الحرام منه بعينه فندعه، و لو كان جميع الحلال مختلطا بالحرام لم يقل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: حلال بيّن و حرام بيّن و شبهات بين ذلك، و لا قال أمير المؤمنين عليه السّلام مثل ذلك، فتقسيمهما الأشياء إلى ثلاثة أقسام دليل على وجودها جميعا، و قد حققه الأصحاب فى كتب اصول الفقه بما لا مزيد عليه، نعم لو كان المختلط شبهة محصورة لوجب الاجتناب أيضا و التفصيل فى محلّه.

و الأخبار فى طلب الرّزق كثيرة:

منها ما رواه فى مجمع البيان عن عمرو بن زيد عن أبى عبد اللّه عليه السّلام أنه قال إنى لأركب فى الحاجة التى كفاها اللّه ما أركب فيها إلاّ التماس أن يرانى اللّه اضحى فى طلب الحلال أما تسمع قول اللّه عزّ اسمه: «فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ» أرأيت لو أنّ رجلا دخل بيتا و طين عليه بابه ثمّ قال:

رزقى ينزل علىّ كان يكون هذا؟ و نقل عن كتاب نور الحقيقة و نور الحديقة لوالد شيخنا البهائى قدّس سرّهما قال: ذكر جماعة عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجلا بخير فقالوا يا رسول اللّه خرج معنا حاجّا فاذا انزلنا منزلا لم يزل يصلّى حتّى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر اللّه تعالى حتّى ننزل، فقال، من كان يكفيه علف ناقته و صنع طعامه؟ فقالوا: كلّنا، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلّكم خير منه.

و عن الكافى عن عدّة من أصحابنا عن البرقى عن محمّد بن علىّ عن هارون بن حمزة عن علىّ بن عبد العزيز قال: قال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام ما فعل عمر بن مسلم؟ قلت: جعلت فداك أقبل على العبادة و ترك التّجارة، فقال: ويحه أما علم أنّ

تارک الطلب لا یستجاب له إنّ قوما من أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما نزلت: «وَ مَنْ یَتَّقِ اللّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ » أغلقوا الأبواب و أقبلوا علی العبادة و قالوا: قد کفینا، فبلغ ذلک النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فأرسل إلیهم فقال: ما حملکم علی ما صنعتم؟ فقالوا: یا رسول اللّه تکفّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا علی العبادة، فقال:

إنّه من فعل ذلک لم یستجب له علیکم بالطلب.

و الأخبار فی هذا المعنی کثیرة جدّا لا حاجة الیها، و نعم ما قیل: الزّهد فی الدّنیا قصر الأمل لا لبس العبا، و لیس الزّاهد من لا یملک شیئا و لکنّه الذی لا یملکه شیء، و إنّ الدّراهم مراهم لأنّها تداوی کلّ جریح و یشتری بها الاخرة کما یشتری بها الدّنیا.

إذا عرفت ذلک فاستمع لما نحکیه علیک من عجیب مزخرفات ابن العربی فی فتوحاته، قال فی محکی کلامه من الباب التّاسع و العشرین من الفتوحات.

کلّ عبد إلهیّ توجّه لأحد علیه حقّ من المخلوقین فقد نقص من عبودیته للّه سبحانه بقدر ذلک الحقّ فان ذلک المخلوق یطلبه بحقّه و له علیه سلطان فلا یکون عبدا مخلصا للّه، و هذا هو الّذی یرجّح عند المنقطعین إلی اللّه انقطاعهم عن الخلق و لزومهم السّیاحات و لزومهم البراری و السّواحل و الفرار من النّاس و الخروج من ملک الحیوان، فانّهم یریدون الحرّیّة من جمیع الأکوان و لقیت منهم جماعة کثیرة فی أیّام سیاحتی.

و من الزّمان الّذی حصل لی هذا المقام ما ملکت حیوانا أصلا و لا الثّوب الّذی ألبسه فانّی لا ألبسه إلاّ عاریة لشخص معیّن أذن لی فی التّصرف فیه، و الزّمان الذی أتملّک الشیء فیه أخرج عنه ذلک الوقت إمّا بالهبة أو بالعتق إن کان ممّا یعتق.

و هذا حصل لی لمّا أراد التحقّق بعبودیّة الاختصاص للّه.

قیل لی: لا یصحّ ذلک حتّی لا یقوم لأحد علیک حجّة.

قلت: لا و اللّه و لا للّه إنشاء اللّه.

قیل لی: و کیف یصحّ أن لا یقوم للّه علیک حجّة؟

قلت: إنّما يقوم الحجج على المنكرين لا على المعترفين، و على أهل الدّعاوى و أصحاب الحظوظ لا على من قال ما لى حقّ و لا حظّ، انتهى كلامه هبط مقامه.

اقول: و يتوجّه على هذا الجاهل:

أوّلا أنّ المخلص للعبوديّة للّه سبحانه هو من يستنّ بسنّة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يسلك مسلكه و يكون له فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اسوة حسنة، و الرّهبانية و الانقطاع عن الخلق و السياحة خلاف سنّته، و قد قال عليه السّلام: إنّ سياحة امّتى و رهبانيّتهم الجهاد و يأتى انشاء اللّه أخبار كثيرة فى هذا المعنى.

و ثانيا أنّ الخروج من ملك الحيوان و إرادة الحرّية من جميع الأكوان محال عادة، و قد خلق اللّه سبحانه الانسان مدنيّا بالطبع و جعل كلّ فرد منه محتاجا إلى غيره و لو فى أقلّ ضروريات العيش، فكلّ من قام بحاجة غيره و هيّأ أسباب معيشته و رفع عنه الضرورة و الحاجة و لو فى أقلّ مراتبها التى لا يمكن التّعيش و البقاء بدونه يكون له بقدر ما قام بمحاويجه حقّا عليه و إن كان الحقوق فى الحقيقة كلّها للّه سبحانه إلاّ أن من لم يشكر الخلايق لم يشكر الخالق.

و قد ورد فى الحديث: من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه، فارادة الحرّية من جميع الأكوان و الخروج من ملك الحيوان لا يصدر إلاّ عن سفيه جاهل.

ثمّ الحقوق ليست منحصرة فى الحقوق الماليّة، بل للوالد حقّ على الولد و للولد حقّ على الوالد، و للأرحام حقّ و للجار حقّ و للمعلّم حقّ و للمتعلّم حقّ و للاخوان المؤمنين حقّ، بل لكلّ من أعضائك و جوارحك من قرنك إلى قدمك عليك حقّ كما أشار إليه الأئمة عليهم السّلام فى أبواب الحقوق، فالانقطاع عن الخلق لا يبطل تلك الحقوق، ثمّ القيام بها من أجل أمره سبحانه و تعالى به من جملة العبادات فلا ينافى العبوديّة و الاخلاص كما توهّم.

و ثالثا أنّ قوله: فانّى لا ألبس الثوب إلاّ عارية لا ملكا عجيب جدّا.

إذ لو كان المراد به أنّ للثّوب المملوك حقّا على لابسه دون المستعار فهو

غلط بل يجب فى العاريـة من الحفظ و المواظبـة و عدم التّفريط ما ليس فى الثّوب الّذى هو له، لأنّه مال الغير و لا يجوز الخيانة فيه بخلاف ماله مع أنّ للعارية حقا للمعير على المستعير حقّ الاسترداد و حقّ الضّمان لو فرّط، و ليس فى الثوب المملوک له لأحد حقّ عليه.

و إن كان المراد به أنّه كان يلبس العاريـة دون الملک لزهـده و تركه ملاذ الدّنيا ففيه أنّ الملک و العارية لا مدخليّة لهما فى الزّهد و عدمه، و قد كان أزهد الزّاهدين فى الدّنيا رسول اللّه و أمير المؤمنين عليهما السّلام و لم نسمع منهما إلى الان أنّهما يلبسان اللباس عارية لا ملكا، و قـد كان عليه السّلام يشـرى لباسا و يلبسه و يقول: الحمد للّه الّذى ألبسـنى من الرّياش ما أتجمّل به فى الناس و أوارى به عورتى و رابعا أنّ ادّعاءه أن ليس للّه حجّة عليه لكونه من المعترفين لا من المنكرين فهو ناش من خبطه و سـفهه و جهله و ضلاله و عجبه، فما أعظم جرءته و أشدّ جسارته حيث لم يدّع هذا المقام أحد من الأنبياء و المرسلين و الحجج المعصومين على عصمتهم و جدّهم فى مقام العمل و بلوغهم الغاية فى المعرفة.

و قد تقدّم فى شـرح الخطبة المأة و الثانية و التسـعين عند شـرح قوله عليه السّلام فى وصف المؤمنين: و لا يستكثرون الكثير فهم لأنفسهم متّهمون و من أعمالهم مشفقون أخبار نافعة فى المقام.

منها قول أبى الحسن موسـى عليه السّلام لبعض ولده: يا بنىّ عليک بالجدّ و لا تخرجنّ نفسک من حدّ التّقصير فى عبادة اللّه عزّ و جلّ فانّ اللّه لا يعبد حقّ عبادته.

و قول أبى جعفر عليه السّلام ثلاث قاصمات الظهر: رجل استكثر عمله و نسى ذنوبه و أعجب برأيه.

و قول أبى عبد اللّه عليه السّلام قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حديث: قال موسى بن عمران لابليس: أخبرنى بالذّنب الذى إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه و استكثر عمله و صغر فى عينه ذنبه إلى غير هذه ممّا لا نطيل باعادتها.

ثمّ أقول: لو لم يحتجّ اللّه عليه إلاّ بعدم معرفة إمام زمانه على ما اعترف به نفسه حسبما حكينا من فتوحاته فيما تقدّم و بادّعائه أنّه خاتم الولاية و أنه يتلقّى الوحى بدون واسطة من اللّه عزّ و جلّ فضلا عن قوله بوحدة الوجود و عن ساير أباطيله المتقدّمة حكايتها، لكان فى ذلک الاحتجاج ما لا يقوم به السماوات و الأرض و لتدكدک من نكاله الجبال، نعوذ باللّه من الضلال و سوء الخاتمة و المال و عظيم العقوبة و النّكال، و الحمد للّه الّذى هدانا إلى الصراط المستقيم و ما كنّا لنهتدى لو لا أن هدانا اللّه، و نصلّى و نسلّم على محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلم و خلفائه الذين هم أولياء اللّه.

المقام الرابع

اشارة

فى نبذ من صلائف الصوفية

(1)

و واقعاتهم العجيبة و هذياناتهم المفرطة التى تضحک منها الثكلى و تعجب لها الصّبيان، و الظاهر أنّ منشئها إفراط الخبط و شدّة الأمراض الخياليّة.

فمنها

ما عن شيخهم برهان الدّين الماليقى و هو من أعاظم مرتاضيهم و أكابر مشايخهم و مشاهيرهم لا سيّما فى بلاد الهند و نحن نذكر عنه من كتاب الواقعات له ثلاثا منها لتكون أنموذجا لما طوينا عن ذكرها، قال:

الواقعة الاولى

أمّا بعد حمد اللّه تعالى و الصلاة و السلام على حبيبه محمّد و آله:

لمّا برزت الاشارة المولوية الشيخيّة الرّبانيّة أنّ كلما حدث من الواقعات فى أثناء السّلوک ينبغى أن تقيّد بالكتابة امتثل هذا الحقير أوامره الشريفة و كتب ما بقى منها فى خاطره بعد التّعوذ و الاستعانة باللّه تعالى.

1- (1) الصلف التمدّح بما ليس عندک أو مجاوزة قدر الظرف و الادّعاء فوق ذلک تكبرا، ق.

لما كان اليوم الثانى من أيام بعض الخلوات كنت فى الذّكر مستغرقا إذا رأيت كأنّى فى البرّ و شخص واقع كأنّه ملک و ستر معلّق من السّماء إلى الأرض و كأنّ شـخصا يقول لى: إلى أين تذهب؟ قلت: إلى الحقّ، فقال: بين الحقّ و العبد سـبعون ألف حجابا بحماية من تذهب إليه؟ فقلت: بحماية الشيخ نور الدين عبد الرّحمن، فلمّا سمع كلام العبد لم يثن عليه القول و حضر الشيخ فى الحال.

فلمّا رأى هـذا الحقير أنّ أمر المريد لا يتيسّر بدون شـيخ مرشد و الشّيخ المرشد لا بدّ له من ولاية الحماية إذا توجّه إليه المريد حضـر فى الحال بالعناية الرّبانيّة فلمّا توجّه العبد نحوه رآه حضر و بيده عصا و هو واقف.

و قد ظهر بهذا الحقير أنواع من الصّور الشـيطانيّة المختلفة و غيره يقصده و الشيخ يدفعها عنه بعصاه، و فى أثناء ذلک حضر شخص بخارى يقال له النّور البيمارسـتانى و كان لهذا الحقير به قديما يسـير إرادة و قصد نحو هذا الحقير فحمل الشـيخ بعصاه فهرب، ثمّ قصد هذا الحقير ثانيا فحمل الشـيخ عليه ثانيا بعصاه فهرب فلمّا قصد نحو هذا الحقير ثالثا ضرب الشيخ بالعصا رأسه فكأنّه شجّه فرمى نفسه على أقدام الشيخ ثمّ هرب.

فلمّا رأى هـذا الحقير أنّ اللّه أظهر له ولايـة الشـيخ على هـذه الصورة التجأ إليه سـبحانه و تعالى أن يلهم الشـيخ القعود حيث طال قيامه، فجلس الشـيخ كمن جلس على صـفة و ولىّ برجليه الأرض مسـتنفذا، فلم يطمئنّ القلب لذلک حتى التجأ إليه سبحانه ثانيا و طلب سكون الشـيخ و قراره بالقعود عنده، فتربّع الشيخ بعد ذلک عنده فالتجأ إليه سبحانه ثالثا أن يقرّ الشيخ عنده على صورة لا يهاب منها المخالفة فرأى كأن الشيخ دخل باطن هذا الحقير دخول لابس ثوب و يدا هذا الحقير كمّاه.

فلمّا لبس الشيخ هذا الحقير صار الشيخ هو و فنى هو فى الشيخ بحيث لم يبق منه شىء سوى العلم بوجود الشيخ و فناء نفسه فيه.

ثمّ هذا الحقير سأل الشيخ بتوفيق اللّه إيّاه و قال: أيّها الشيخ ما سبب أن

صرت هذا الحقير؟ فأجاب و قال: لمّا لم يكن قوّة صيرورة نفسک إيّای صيّرت نفسی إيّاک لتصير إيّای.

ثمّ بعد ذلک كان اللّه تعالى أظهر لهذا الحقير أنّ الشيخ قد جلس فی باطن هذا الحقير مرّبعا كما رأى ظاهرا أوّلا، و كلّما ذكر اللّه تعالى ذكر الشيخ أيضا فی باطنه، فاذا شرع فی ابتداء الذّكر يقول الشيخ فی باطنه: اذكر فانّک حسن الذّكر.

فلمّا استقرّ بفضل اللّه تعالى سرّ الشيخ فی باطن هذا الحقير تواترت عليه الالهامات الرّبانية الرّوحانية ساعة فساعة، فلو حصل اذن الحقّ سبحانه و تعالى إلهاما بذكر الالهامات كلّها و تحقيق كونها ليست من الالهامات الرّوحانية و الملكية و غيرها بل هی ربّانيّة حقّا لأمتثل انشاء اللّه تعالى.

الواقعة الثانية

كان هذا الحقير فی أثناء الذّكر ليلة و الشيخ فی باطنه متمكّن إذا رأى كأنّه تولّد من باطنه من جانبه الأيسر ممّا يلی القلب جرو(1) كلب أبيض اذناه سود و فی ظهره عند ذنبه سواد و كان تارة يقعد و تارة ينام و لا يقرّ قلقا من ذكر هذا الحقير.

فحصل لهذا الحقير من ذلک خوف فالتجأ إلى الحضرة الالهية و استمدّ من باطن الشيخ خفارة(2) الالتجاء، لأنّ كلّ دعاء و التجاء لا خفارة له لا وصول له إلى الحضرة، و لذلک صار الاخلاص خفير جميع العبادات قال اللّه تعالى: «وَ ما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » و لمّا لم يجد للالتجاء به اخلاصا استمدّ بالعناية الالهيّة من باطن الشيخ خفارة ذلک الالتجاء، فنظر فی الحال إذا الشيخ قد مدّ يده و أخذ ذلک الجرو من باطن هذا الحقير و مضى، فتبعه الحقير فی اثره فرأى فی عنق الجرو حبلا أبيض و رأس

1- (1) - الجرو بتثليث الجيم صغير كلّ شیء و غلب على ولد الكلب و الاسد، و العجب أنّ النسخة فی جميع المقامات بالدّال. المصحح.

2- (2) - الخفارة شدة الحياء و خفره و به و عليه خفرا اجاره و منعه و آمنه و الخفر المجار و المجير و تخفّر اشتدّ حياؤه و به التجأ و سأله ان يكون له خفيرا، ق.

الحبل بيد الشيخ.

فلمّا مشـينا قليلا قتل الشـيخ ذلک الجرو و مسح قدمه به و مع ذلک يخاف هذا الحقير أن يعيش ثانيا، فلمّا مسح الشيخ رجله به صار الجرو المقتول تحت رجله طينا، فلمّا رجع رجله عنه عاش ثانيا فأخـذه الشـيخ ثانيا ليقتله فلم يمكّنه من نفسه و كان حقيرا فى العين قوّيا فى نفسه، فوقع على هـذا الحقير منه خوف فرأى كـأنّ الشـيخ قلع رأسه من بـدنه و رمى به و خرق بطنه بسـكّين فرمى به أيضا إلى الأرض و وضع عليه حجرا ثقيلا و مع هذا كان مفتوح العين ينظر الى هذا الحقير سرّا، فوضع الشيخ قدمه إليه فصار تحت قدمه طينا لكن الخوف غالب على هذا الحقير أن يعيش ثالثا فما التفتّ إلاّ و قد رمى بالحجر عن نفسه و خرج من تحته فأخذه الشيخ ثالثا و قتله.

فقال هذا الحقير: ينبغى أن يحرق، فأخذ و جعل فى تنّور و كان كلّما احترق يعود كما كان حيّا، فأخذه الشيخ و أحرقه مرّة بعد اخرى إلى أن احترق و صار رمادا.

فقال الشيخ: ما ذا ينبغى أن يفعل بعد هذا؟ فقال هذا الحقير: ينبغى أن يرمى بالرّماد إلى الماء الجارى، فلمّا رمى صار الرّماد كلّه على رأس الماء و أمطرت السّماء فقال هذا الحقير: أيّها الشيخ ينبغى أن نتبع اثر هذا الماء كيلا يعيش هذا الجرو مرّة اخرى، فتقدّم الشيخ و هذا الحقير فى اثره فوصل ذلک الماء الجارى إلى بحر فقال الحقير للشيخ: نخاف أن يعيش هذا الجرو فلينظر هذا البحر إلى أين ينتهى، فنزل الشيخ إلى البحر و هذا الحقير فى أثره فرأى كان ماء البحر يدخل فى شقّ فوقف الشيخ على رأس الشّق و هذا الحقير فى خدمته إلى أن دخل جميع ماء البحر ذلک الشّق، فظهر فى قعر البرء حوض و فيه ماء فابتلعت الأرض ماء البحر فظهر فى أسفل الحوض سمكة صغيرة فقتلها الشيخ.

و قال: ما ذا ينبغى أن يفعل بعـد هذا؟ فالتمس الحقير من الشـيخ أن يطلع الشّـمس حتّى ييبس طين البحر، فلما أن طلعت الشـمس و يبس الطين.

ص:324

قال الشيخ ما ذا ينبغى أن يفعل؟ فقال هذا الحقير: يمكن أن ينبت من هذا نبات ينبغى أن نحرقه فالتفتّ فاذا بالحشيش قد نبت.

فقال الشيخ: ما ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: نحصد الحشيش و نحرقه فحصدناه و تركناه فى الشمس حتّى يبس ثمّ أحرقناه ثمّ قال الشيخ ما ذا ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: ينبغى أن يرمى برماد الحشيش إلى شقّ الجبل ثمّ قال الشيخ ما ذا ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: ينبغى أن نملأ الحوض بالحجارة ليعتدل من الأرض و نسدّ باب الشقّ بالحجارة فلمّا فعل الشيخ ذلک كلّه.

قال الشيخ: ما ذا ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: لو امطرت السّماء بماء يغتسل فيه هذا الحقير و ابتلعت الأرض ذلک الماء كان حسنا كلّ ذلک من غلبة الخوف من ظهور آثار ذلک الجرو، فالتفتّ فاذا بالغيث قد نزل و سال و دخل جميعه فى ثقب قد لا يسع انسانا من ضيقه فلمّا اغتسل الحقير و اذا به قد حضر عنده من العناية الالهيّة ثوب أبيض فلبسه.

فقال الشيخ أيضا ما ينبغى أن يفعل؟ و فى تكرار قول الشيخ ما ينبغى أن يفعل سرّ يعرفه الشيخ، فقال الحقير: نقصد الكعبة المعظمة، فتقدّم الشيخ و الحقير فى أثره إلى أن وصلنا الكعبة و دخلنا الحرم الشريف، فاغتسل الحقير بماء زمزم و حضر ثوب أبيض فلبس الحقير بين يدى الشيخ و دخلنا الكعبة و صلّينا فيه.

ثمّ قال الشيخ: ما ذا ينبغى أن يفعل؟ فقال هذا الحقير بالعناية الالهيّة ينبغى أن نذهب إلى التّنور الّذى أحرقنا فيه الجرو و الحجر الّذى وضعناه على رأسه و الموضع الّذى قتلناه فيه و نأخذ الجميع و نلقى فى الثّقب الّذى كان الماء يدخله كيلا يبقى فى هذا الموضع للجرو أثر، فتقدّم الشيخ و الحقير فى أثره و جئنا و جمعنا كلّ ذلک فأراد الحقير أن يحمله فاذا بحبشىّ قد ظهر فى الحال و جعلنا الكلّ فى وعاء و حملناه إيّاه فلمّا دخلنا إلى الثّقب الّذى دخله تلک الماء العظيمة

ألقيناه فيه ثمّ قتل هذا الحقير بالعناية الالهيّة ذلک الحبشىّ، و ألقيته فى الثّقب أيضا.

ثمّ قال الشيخ: ما ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: نرجع إلى الكعبة المعظمة، فتقدّم الشيخ و الحقير فى أثره قد دخلنا الحرم الشّريف و اغتسل الحقير ثانيا بماء زمزم و كان الشيخ يغسله ثمّ بعد الغسل حضر ثوب صوف أخضر فلبسه الحقير و صلّينا فى مقام إبراهيم عليه السّلام ثمّ دخلنا الكعبة فلمّا أن صلّينا فيه.

قال الشيخ: ما ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: ينبغى أن نشدّ رأس الثقب الّذى ألقينا فيه الحبشىّ المقتول و التّنور و الحجر كيلا يظهر منه أثر، فتقدّم الشيخ و الحقير فى أثره فجئنا و شددنا رأس الثّقب.

ثمّ قال الشيخ: ما ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: نرجع إلى الكعبة المعظمة فتقدّم الشيخ و الحقير فى أثره فدخلنا الحرم الشّريف و جئنا إلى بئر زمزم فخلع الحقير ثوبه و وضعه على ميزاب الكعبة و اغتسل بماء زمزم و كان الشيخ يغسله.

ثمّ قال الحقير بالعناية الالهيّة للشيخ: اقطع بطن الحقير و اغسل بهذا الماء قلبه و كبده و باطنه كيلا يكون قد بقى فى باطن هذا الحقير شىء من أثر الجرو، فقطع الشيخ بطن هذا الحقير بالسّكين و غسل باطنه بالماء.

فبينا الشيخ كذلک إذ ألقى اللّه سبحانه فى نفسى منّى نفرة عظيمة فضربت عنقى بالعناية الالهيّة و أخذت باحدى يدى شعر رأسى و بيدى الاخرى رجلى و رميت به خارج الحرم و لم أزل أضرب برأسى الّذى بيدى عتبة الحرم إلى أن نفيت و رميت به خارج الحرم و دخلت الحرم و اغتسلت بماء زمزم بحضور الشيخ و حضر ثوب ازرق و عمامة بيضاء فلبستهما.

ثمّ قال: ما ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: نصعد سطح الكعبة، فتقدّم الشيخ و الحقير فى أثره فصعدنا سطح الكعبة.

فقال الشيخ: ما ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير: ينبغى أن نصعد السماء، ففى أثناء هذا الكلام حضر فرسان بسرجيهما فركب الشّيخ أحدهما و الحقير الاخر، فلما وصلنا

إلى السّماء الاولى فاذا ملكان جالسان، فدخل الشّيخ بلا اذن و الحقير فى أثره فسأل أحد الملكين صاحبه من هذا؟ فقال له: الشّيخ عبد الرّحمن و مريده، و كان الشّيخ أماما يخرق السّماء و يصعد و الحقير فى أثره ينظر فرآه كيلا يصل بنا أثر الجرو فيرى مواضع عروجنا يعود كما كان مسدودا فاطمئنّ لذلک باطنه.

فلمّا وصلنا إلى السّماء الثّالثة كان الملائكة كانوا يمنعون الحقير و يأمرونه بالتّجريد، و يعدهم الحقير بذلک، و كان الشّيخ قد أخذ بعناق فرس الحقير و يمدّه، فلم يبق لهم إمكان منع الحقير.

و كان الشّيخ كلّما عرج إلى السّماء يقول: أين تذهب؟ فيقول الحقير إلى الجنّة، و لون السّماء و كيفيّاتها كما ذكرها العلماء فى كتبهم فلا حاجة إلى ذكرها.

و كان الشّيخ كلّما جاء إلى باب السّماء يدخل بلا اذن الملائكة و لا يلتفت إليهم و إن حصل فى بعض أبواب السّماوات تمانع يأخذ بعنان هذا الحقير و يمدّه و يدخل و كان سبعة و كلّ باب من أبواب السّماوات أضيق من الذى قبله، و كان فى اثناء العروج فى السّماوات السّبع يأتى خيول مختلفة الألوان بسروجها غير الّتى قبلها.

فلمّا عرجنا إلى السّماء السّابعة و وصلنا إلى الجنّة الاولى و دخلناها جائتنا خيول غير تلک الخيول بسروجها، و كانت الحور العين يتعلّق بالشيخ و فرسه و لم يلتفت اليهنّ أصلا، و كان كلّما وصل إلى باب جنّة من الجنّات يستقبلنا خزنتها و يدخل الشيخ الجنّة بلا التفات إلى أحد منهم.

فلمّا وصلنا إلى جنّة الفردوس استقبلنا خزنتها بالاطباق أو بالطّباق المغطاة الرّؤوس و كان فى طبق منها الفاكهة مكتوب فيها: اللّه، و فى طبق منها فاكهة أيضا مكتوب فيها: الحقّ، فأكل هذا الحقير جميعها.

فلمّا قربنا من جنّة الفردوس دخل الشّيخ و الحقير فى اثره فلمّا أراد الشّيخ أن يدخل جنّة الفردوس و كانت طبقتين ردّوا باب طبقة منها، فأخذ الشيخ

بيـد الحقير و أدخله اليها و هكـذا إلى أن عبرنا ثمانى جنّات كلّما حصل تمانع من واحـد منها إمّا أن يأخذ الشـيخ بيد الحقير و إمّا أن يأخذ بعنان فرسه و يدخله و ادخلنا إلى أربع جنات منها ركبانا و الى أربع منها مشاة.

و كان فى أثناء عروجنا من هذه الجنات الثمانية تأتينا خيول مختلفة الألوان خضر و صفر و زرق بسروجها.

فلما عبرنا من الجنات الثمانيـة كلّها قال الشـيخ: أين تـذهب؟ قال الحقير إلى العرش و الكرسـى، و كنا نرى فى أثناء ذلک الملائكـة عليهم السلام بعضهم فى القيام و بعضهم فى الرّكوع و بعضهم فى السجود و الشيخ و الحقير راكبان يعبران.

و كلما حصل تمانع من الملائكـة لهذا الحقير كان أكثره من قبل التجريد و كان الحقير يتقبل لهم به و الشـيخ يدفعهم عنه بالعناية الالهية، حتى وصلنا إلى العرش.

فقال الشـيخ: ما ينبغى أن يفعل؟ فقال الحقير نصـعد فوق العرش، فحضر طيران على شكل النعامة و عليها سرجان فركب الشيخ أحدهما و ركب الحقير الاخر و كأنه كان كلما حركنا جناحهما قطعنا مسافة الشـرقية أقلّ و أكثر إلى أن عيبا، و حضر طيران آخران على شكل الطاوس و عليهما سرجان و كان الخطاب يصل ساعة فساعة من الحقّ: تجرّد لتصير محفوظا بتجلّياتى و اجلسک على العرش فتجرّد الحقير بالعناية الالهيـة و رمى بالمحقر الـذى كان معه من جيفـة الدّنيا و مع حقارته و قلّته كان حجابا عظيما، سـبحان من هذا بعض مقدوراته تارة يجعل التجريد حجابا، و تارة يجعل عدم التجريد حجابا أعوذ باللّه من اللّه فى جميع الأحوال.

ثمّ بعد ذلک رقاه الحقّ الى العرش الشـيخ أمامه و الحقير فى أثره فلما صعدنا العرش طلب من الحقّ سبحانه موضع نعلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فاشـير إلى موضع معين و كـان الحقير يقبّـل الموضع و يعفّر خـدّه فيه، ثمّ صـلينا ركعتين فيه كـان الشـيخ إماما و الحقير مأموما، و قرء فى الرّكعة الاولى إنا فتحنا و فى الثانية الم نشـرح و اذا جاء نصـر اللّه، فان وقعت الاشارة من الحقّ سـبحانه أن يذكر عبور بحر النارى

و سير دركات الجحيم طبقة بعد طبقة امتثلت بالتوفيق الالهى بالسمع و الطاعة انشاء اللّه تعالى.

الواقعة الثالثة

و هذه الواقعة انما كتبت باشارة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و فى أثناء الاشارة استخار الحقير من النبىّ صلوات اللّه و سلامه عليه فى أنه يلقب نفسه المسكين أو الحقير فاختار لى الحقير و أشار به.

رأى هذا الحقير مرّة كأنه يأكل الكعبة المعظمة زادها اللّه شرفا و كان الكعبة تمطر من هذا الحقير و فى أثناء ذلک صار الحقير الكعبة و بمقتضى الحكمة الربانية ظهر هذا الحقير على سطحها و ظهر عند ذلک أيضا روح النبىّ صلى اللّه عليه و على آله و سلم مع أرواح جميع الأنبياء صلوات اللّه عليهم على سطح الكعبة المعظمة ثمّ إن الأرواح الشريفة النبوية نزلت كلّها من السطح باذن اللّه تعالى سوى روح نبينا محمّد صلّى اللّه عليه و على آله و سلم، ثمّ بعد ذلک أوحى اللّه تعالى إلى الأنبياء عليهم السّلام أن هذه كعبتى طوفوا حول كعبتى، فطاف الأنبياء كلّهم عليهم السلام، ثمّ أوحى اللّه إليهم أن آمنوا به و اسجدوا فقالوا كلّهم: آمنا باللّه و سجدوا حول الكعبة و الكعبة فى الوسط.

ثمّ بعد ذلک رأى كأنّ الحقّ سبحانه و تعالى من التشبيه و التعطيل بيده عصا ضرب بها سطح الكعبة المعظمة، فصارت شجرة كأنها تمطر منها كلمة لا إله إلاّ اللّه.

ثمّ ظهر من حيطان الكعبة أيد لا يعلم عددها إلاّ اللّه تعالى و قد التزم بكلّ يد منها نبىّ من الأنبياء و يقول: أنا النبىّ الفلانى حتّى أن نوحا عليه السّلام ملتزم بيد منها يقول: أنا النوح النبىّ، و كلّ منهم يقول مشيرا نحوى يا برهان قد جعلک اللّه مشيرا فاعمل أعمال الأنبياء و الأولياء، و كذا الأولياء رحمهم اللّه على ما ذكرنا و هذه الأيدى باذن اللّه تعالى يجذب بعضها المتعلق بها إليها و بعضها يقطع رأس المتعلق بها و يرميه ثمّ بعد ذلک خرج هذا الحقير من تلک الصورة و ظهر باذن اللّه تعالى و هو سبحانه فوق رأسه كرحمته تعالى عن التكيّف و التمثيل، و روح النبىّ صلّى اللّه عليه و على

آله جالس متمكن، انتهى كلامه هبط مقامه.

أقول: يـا أهـل المعرفـة و الايمان و العلم و الأيقان و ذوى الفطن الثاقبـة، انظروا إلى مقالات هـذه الطايفـة و عقايـد اخوان عبـدة الأوثان و الصائبة كيف زيّن لهم أعمالهم الشيطان و صدّهم عن السبيل.

ثمّ انظروا إلى هذيانات هذا الجاهل السـفيه النجس المرتكس فى أحداثه و الملحد المغتذى من أرواثه، كيف ارتقى مرتقى صعبا دحضا، و ادّعى تارة رفعا و اخرى خفضا، و خبط خبطة عشواء، و ركب ركاب الجاهلية الجهلاء.

فوا عجبا عجبا من تلبيسات ابليس و تدليسات النفس و طول باع الشـيطان فى فنون الاغواء و الاضلال، و قوّة تصرّفه فى أوهام الجهال، و من شدّة تصاريف قوّة المتخيّلة و سـعة مجال القوّة المتوهّمة كيف نسـجت على ألسـنتهم نسـيجات العنكبوت و حيّرتهم فى ظلمات الجهل و الغياهب، و اغرقتهم فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض و من لم يجعل اللّه له نورا فما له من نور، نعوذ باللّه من فساد الاعتقاد و الانحراف عن السّداد و الالحاد فى المبدأ و المعاد بمحمّد و آله الأمجاد.

المقام الخامس

فى كرامات الصوفية و حماقاتهم

و مـا نسـبوه اليهم من الأفعال و الأحوال الخارقـة للعادة و الكرامات التسـلم «كـذا» يتّفق مثلها لاولى العزم من الرّسل، و فيما ادّعاه بعض متصلّفيهم و احموقيهم من الصّلف و الرّعونة و الشّطح الّذى ليس منشأه الاّ الحمق و الجنون و السّفاهة.

قال القيصرى فى شرح الفصّ الهودى من الفصوص:

قال: - اى محيى الدّين فى فتوحاته - إنّ اللّه تجلّى لى مرارا و قال: انصح عبادى، و قال:

قال فی آخر الباب الثانی عشر من الفتوحات: و قد ورد أنّ المؤذّن یشهد له مدی صوته من رطب و یابس، و الشرائع و النّبوات من هذا القبیل مشحونة و نحن زدنا مع الایمان بالأخبار الکشف، فقد سمعنا «رأینا خ ل» الأحجار تذکر اللّه رؤیة عین بلسان نطق تسمعه آذاننا منها و تخاطبنا مخاطبة العارفین بجلال اللّه ممّا لیس یدرکه کلّ انسان.

و قال فی شرح الفصّ النوحی: ظواهر العالم من الانسان و الحیوان و النبات و الجماد و غیرهم یثنی بألسنتهم و ألسنة قویهم الرّوحانیة و الجسمانیّة علی روحه الحقیقی الذی هو الحقّ و تسبّحه و تنزّهه عن النقائص اللاّزمة لهم اللاّحقة بهم، و لکن لا یقصد هذا التّسبیح و التّنزیه إلاّ من تنور باطنه بنور الایمان أوّلا، ثمّ الأیقان ثانیا، ثمّ العیان ثالثا ثمّ یوجدان نفسه و روحه ساریا فی عین کلّ مرتبة و حقیقة کلّ موجود حالا و علما و شهودا فقط کسریان الحقّ فیها: فیدرک تسبیح الموجودات بذلک النّور و یسمعه إلی أن قال:

قال الشیخ فی آخر الباب الثانی عشر من الفتوحات: فانّ المسمّا بالجماد و النّبات عندنا لهم أرواح بطنت عن إدراک غیر أهل الکشف إیّاها فی العادة، فلا یحسّ بها مثل ما یحسّ بها من الحیوان، فالکلّ عند أهل الکشف حیوان ناطق غیر أنّ هذا المزاج الخاص یسمّی إنسانا لا غیر، و نحن زدنا مع الایمان بالأخبار الکشف، فقد سمعنا الأحجار تذکر اللّه رؤیة عین بلسان نطق تسمعه آذاننا منها و تخاطبنا مخاطبة العارفین بجلال اللّه ممّا لیس یدرکه کلّ إنسان قال:

و قال فی موضع آخر منه: و لیس هذا التّسبیح بلسان الحال کما یقوله أهل النّظر ممّن لا کشف له، هذا شأن من تحقّق بالمراتب الثلاث الاول. و أمّا صاحب المقام الرّابع فهو مسبّح لرّبه بلسان تلک الحقائق و حامد له فی تلک المراتب، فهو العبد التّام للّه یعبده فی کلّ موطن و مقام عبادة جمیع العالم، و یحمده حمدهم و یری جمیع ما یراه بالبصر و بالبصیرة عند تحقّقه بمقام الجمادیة و یسمع ما کان یسمع. و یعقل ما کان یعقل من غیر خلل و نقصان، و فی هذا المقام

يطوى الزّمان و المكان، و يتصرّف فى جميع الأكوان تصرّف النّفوس فى الأبدان و يظهر فى الحالة الواحدة فى مراتب الأرواح النّورانية و النفوس القدسية الروحانية و الأجسام الكثيفة الظلمانيّة، و لهذه المراتب أسرار غامضة جدّا يحرم كشفها، انتهى كلامه قاتله اللّه.

و هو كما ترى صريح فى أنّ هؤلاء الزّنادقة فضلا عن دعويهم سريان هوية الحقّ فى حقايق الأشياء ادّعوا سريان هوية المكاشفين منهم أيضا فى حقايقها.

فلم يبق بينهم و بينه سبحانه على زعمهم فصل و لا له عليهم فضل، قاتلهم اللّه فأنّى يؤفكون.

و قد صرّح بذلک القيصرى فى الفصل الثامن من ديباجة شرح الفصل حيث قال فى تحقيق أن حقايق العالم فى العلم و العين كلّها مظاهر للحقيقة الانسانية الّتى هى مظهر لاسم اللّه بعد جملة من الكلام ما لفظه:

و لذلک قيل: الانسان الكامل لا بدّ أن يسرى فى جميع الموجودات كسريان الحقّ فيها، و ذلک فى السفر الثالث من الحقّ إلى الخلق بالحقّ، و عند هذا السّفر يتمّ كماله و به يحصل حقّ اليقين من المراتب الثلاث و قال الجامى فى رسالته الّتى كتبها فى تحقيق مذهب الصوفيّة و المتكلمين و الحكماء المتقدّمين، يروى عن قضيب البان الموصلى أنّه كان يرى فى زمان واحد فى مجالس متعدّدة مشتغلا فى كلّ بأمر غير ما فى الاخر، و لمّا لم يسع هذا الحديث أوهام المتوغّلين فى الزّمان و المكان تلقّوه بالرّد و العناد و حكموا عليه بالبطلان و الفساد، و أمّا الّذين منحوا التّوفيق للنّجاة من هذا المضيق فلمّا رأوه متعاليا عن الزّمان و المكان علموا أنّ نسبة جميع الأزمنة و الأمكنة إليه نسبة واحدة متساوية، فجوّزوا ظهوره فى كلّ زمان و مكان بأىّ شأن شاء و بأىّ صورة أراد، انتهى كلامه خذله اللّه تعالى سبحانه و قال محيى الدين فى الفصّ العيسوى: إنّ أبا يزيد نفخ فى النّملة الّتى قتلها فحييت، فكان عيسوى المشهد.

ص:332

و قـال الغزالی فی احیـاء العلوم: قیل لبعض العارفین بلغنا انّک تری الخضـر علیه السّـلام؟ فتبسّم و قال: لیس العجب ممّن یری الخضـر و لکن العجب ممّن یرید الخضر أن یراه فیحتجب عنه.

قـال: و قیـل لأبی یزیـد البسـطامی مرّة: حـدّثنا عن مشاهـدتک من اللّه تعالی، فصاح ثمّ قال: ویلکم لا یصـلح لکم أن تعلموا ذلک، قیل: فحـدّثنا بأشدّ مجاهدتک لنفسک فی اللّه تعالی فقال: هذا أیضا لا یجوز أن اطلعکم علیه، قیل: فحدّثنا عن ریاضة نفسک فی بدایتک، فقال: نعم دعوت نفسی إلی اللّه فجمحت علیّ فعزمت علیها أن لا أشرب الماء سنة و لا أذوق النّوم سنة فوفت لی بذلک.

قال: و یحکی عن یحیی بن معاذ أنّه رأی أبا یزید فی بعض مشاهداته من بعد صـلاة العشاء الی طلوع الفجر مستوفزا علی صدور قدمیه، رافعا أخمصیه مع عقبیه عن الأرض، ضاربا بذقنه علی صدره، شاخصة بعینیه لا یطرف.

قال: ثمّ سـجد عنـد السّـحر فأطاله، ثمّ قعـد فقال: اللّهم إنّ قوما طلبوک فأعطیتهم طیّ الأرض فرضوا بذلک و إنّی أعوذ بک من ذلک، و إنّ قوما طلبوک فأعطیتهم المشـی فی الماء و المشـی فی الهواء فرضوا بذلک و إنی أعوذ بک من ذلک و انّ قوما طلبوک فأعطیتهم کنوز الأرض فرضوا بذلک و انّی أعوذ من ذلک حتّی عدّ نیفا و عشرین مقاما من کرامات الأولیاء، ثمّ. التفت فرآنی فقال:

یحیی؟ فقلت: نعم یا سـیّدی، فقال: مذ متی أنت ههنا؟ قلت: منذ حین، فسـکت فقلت: یا سـیّدی حدّثنی بشیء فقال: أحدّثک بما یصلح لک.

أدخلنی فی الفلک الأسفل فدوّرنی فی الملکوت السّفلی و أرانی الأرضین و ما تحتها إلی الثری ثمّ أدخلنی فی الفلک العلوی فطوف بی فی السـماوات و أرانی ما فیها من الجنان إلی العرش، ثمّ أوقفنی بین یدیه فقال: سـلنی أیّ شـیء رأیت حتّی أهبه لک، فقلت: یا سیدی ما رأیت شیئا أستحسنه فأسألک ایّاه، فقال: أنت عبدی حقّا تعبدنی لأجلی صدقا لأفعلنّ بک و لأفعلنّ، فذکر أشیاء.

قال یحیی: فهالنی ذلک و امتلأت به و عجبت منه فقلت: یا سیّدی لم لا سألته

المعرفة به و قد قال لک ملک الملوک: سلنی ما شئت، قال: فصاح بی صیحة و قال: اسکت ویلک غرت علیه منّی حتّی لا احبّ أن یعرفه سواه.

قال الغزالی: و حکی أنّ أبا تراب الخشبی کان معجبا ببعض المریدین فکان یدنیه و یقوم بمصالحه و المرید مشغول بعبادته و مواجدته، فقال له أبو تراب یوما:

لو رأیت أبا یزید فقال: إنّی عنه مشغول، فلمّا أکثر علیه أبو تراب من قوله لو رأیت أبا یزید هاج و جد المرید. فقال: ویحک ما أصنع بأبی یزید قد رأیت اللّه فأغنانی عن أبی یزید.

قال أبو تراب: فهاج طبعی و لم أملک نفسی فقلت ویلک تغترّ باللّه عزّ و جلّ لو رأیت أبا یزید مرّة واحدة کان أنفع لک من أن تری اللّه سبعین مرّة قال: فبهت الفتی من قوله و أنکره فقال: و کیف ذلک؟ قال له: ویلک أما تری اللّه عندک فیظهر لک علی مقدارک و تری أبا یزید عند اللّه قد ظهر له علی مقداره، فعرف ما قلت فقال:

احملنی إلیه فذکر قصّة قال فی آخرها فقال:

فوقفناه علی تلّ نتظره لیخرج الینا من الغیضة و کان یأوی إلی غیضة فیها سباع، قال: فمرّ بنا و قد قلب فروة علی ظهره. فقلت للفتی: هذا أبو یزید فانظر إلیه، فنظر إلیه الفتی، فصعق فحرّکناه فاذا هو میّت، فتعاونا علی دفنه فقلت لأبی یزید: یا سیّدی نظره إلیک قتله، قال: لا و لکن صاحبکم صادقا و استکنّ فی قلبه سرّ لم ینکشف له بوصفه، فلمّا رآنا انکشف له سرّ قلبه فضاق عن حمله لأنّه فی مقام الضّعفاء المریدین فقتله ذلک.

قال الغزالی: و لمّا دخل الزّنج البصرة فقتلوا الأنفس و نهبوا الأموال اجتمع إلی سهل إخوانه فقالوا: لو سألت اللّه دفعهم، فسکت ثمّ قال: إنّ للّه عبادا فی هذه البلدة لو دعوا علی الظالمین لم یصبح علی وجه الأرض ظالم إلاّ مات فی لیلة واحدة و لکن لا یفعلون، قیل: لم؟ قال: لأنّهم لا یحبّون ما لا یحبّ، ثمّ ذکر من إجابة اللّه أشیاء لا یستطاع ذکرها حتّی قال و لو سألوه أن لا یقیم السّاعة لم یقمها، و هذه امور ممکنة فی أنفسها فمن لم یحظ بشیء منها فلا ینبغی أن یخلو

عن التّصديق و الايمان بامكانها، فانّ القدرة واسطة و الفضل عميم، و عجايب الملک و الملکوت کثيرة، و مقدورات اللّه تعالى لا نهاية لها، و فضله على عباده الّذين اصطفى لا غاية له.

و لذلک کان أبو يزيد يقول: إن أعطاک مناجاة موسى و روحانية عيسى و خلّة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلک أضعافا مضاعفة فان سکنت إلى ذلک حجبت به، و هذا بلاء مثلهم و من هو فى مثل حالهم لأنّهم الأمثل فالأمثل.

و قد قال بعض العارفين: کوشفت بأربعين حوراء رأيتهنّ يتساعين فى الهواء عليهنّ ثياب من ذهب و فضّة و جوهر يتخشخش و ينثنى معهنّ، فنظرت إليهنّ نظرة فعوقبت أربعين يوما، ثمّ کوشفت بعد ذلک بثمانين حوراء فوقهنّ فى الحسن و الجمال، و قيل لى: انظر إليهنّ قال فسجدت و غمضت عينى فى سجودى لئلاّ أنظر إليهنّ و قلت: أعوذ بک ممّا سواک لا حاجة لى بهذا، فلم أزل حتّى صرفهنّ اللّه عنّى.

و فى کتاب قوائم الأنوار تأليف قطب السّلسلة الذّهبيّة المسمّى بميرزا أبو القاسم الشّهير ميرزا بابا الذّهبى ألّفه بالفارسيّة قال فى الشّطر الثالث فى بيان حقيقة العشق الالهى ما ترجمته مخاطبا لابنه محمّد و هو رئيس السّلسلة الّذهبيّة و قطبهم فى زماننا هذا:

يا بنىّ إن شئت أن تطّلع على سير السّلاّک و المجذوبين و العشاق الالهيّين فاستمع قصّة سلطان العارفين الشيخ أبى يزيد البسطامى فى سير معراجه قال الشيخ: إنّى بعد ما خدمت مأئة و ثلاثين شيخا من المشايخ الکملين، و لازمت الرّياضة و المجاهدة ثمانين عاما آتانى اللّه تعالى عينا من نور وحدانيته و جناحين من آثار قدرته، فطرت ثلاثين ألف عام فى عالم الواحدانيّة، و ثلاثين ألف عام فى مرتبة الفردانيّة، و ثلاثين ألف عام فى مرتبة الصّمديّة، فشاهدت قد بقيت بقيّة من الانيّة فاهتزنى غيرة شوق الوحدة فطرت أربعين ألف عام آخر فى الوحدة فبلغت غاية ما يمکننى من السّير فشاهدت أنّ وجودى المتوّهم لم ينعدم بعد، فعجزت و قلت: إلهى أعلم أنّ

وجودی بوجودک شرک و أنا لا أقدر الوصول الیک بوجودی فکیف لی فی فناء وجودی قال سبحانه: ضع رأسک علی عتبة باب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

قال أبو یزید: فغلبنی شوقه فقلت أحالنی سبحانه إلی بابه فطرت بجناحی الهمة و العشق حتّی وصلت أرواح الأنبیاء علیهم السّلام فسلّمت علی کلّ واحد منهم و سلّموا علیّ حتی جاوزت من الأنبیاء و سعیت فی الطّیران إلی أن وصلت فناء حضرت محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فرأیت مأئة آلاف ألف بحر من نار لا بدّ من العبور منها، ثمّ نظرت فرأیت آلاف ألف حجاب من حجب النور و علمت أنّه ما لم أعبر من بحار النار لا یمکن لی الوصول إلی حجب النّور، و لو أضع قدمی علی أوّل بحر منها لاحترقت و هلکت، ثمّ أمعنت النظر فرأیت أطناب سرادق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مضروبة فی منتهی حجب النّور، فقلت: هذا هو الّذی قاله رؤساء الدّین: إنّ الوصول إلی اللّه سهل و إلی الرّسول صعب فلمّا یئست من الوصول إلی حضرته، فقلت: باب الرّسول فی هذا العصر هو ابنه جعفر الصّادق علیه السّلام، فقدمت إلی حضرته فقلت: یا مولای جعلت فداک إنّ اللّه تعالی بعد ثمانین عاما من المجاهدات و الرّیاضات فی سلوک طریقه و خدمة مأئة و ثلاثین من الأولیاء أحالنی إلی بابک و إنّی بعد طول الرّیاضة فی هذه المدّة و المواظبة علی العبادة و الانقطاع من الخلق و العزلة و التفرید و التجرید جئت إلی بابک غیر معجب بشیء من ذلک، فهب أنّی مجوسیّ أو یهودیّ أو نصرانیّ جئت إلی حضرتک لطلب دین الحقّ فأدخلنی فی الاسلام، فقال علیه السّلام: قل لا إله إلاّ اللّه.

قال أبو یزید: فلمّا قلت لا إله کلمة النّفی فشاهدت المحو و الفناء فی جمیع العالم حتّی فی وجودی، فلمّا قلت: إلاّ اللّه کلمة الاثبات فظهرت صورة الصّادق علیه السّلام فقلت: سبحان اللّه الفناء و البقاء و المحو و الاثبات الّذی کنت أطلبه فی تسعین عاما مع طول الرّیاضات و المجاهدات و خدمة مأئة و ثلاثین من الأولیاء و سیر مأئة و ثلاثین ألف عام فی الوحدة قد حصل لی فی دقیقة واحدة بتلقینه علیه السّلام کلمة لا إله إلاّ اللّه.

فلزمت حضرة الصادق علیه السّلام و سألت أن یفوّض إلیّ بعض خدماته ففوّض سقایة

بيته الشريف إلىّ فكنت سقاء فى بيته سبع سنين، فقال الصّادق عليه السّلام لى يوما من الأيام:

يا طيفور هات الكتاب من الرّف، فقلت: جعلت فداک و أين الرّف؟ فقال: فوق رأسک و قد كنت منذ سنين عندنا فى هذه الدّار و البيت و ما رأيت الرّف فوق رأسک؟ فقلت: باللّه الّذى أجلسک فى مسند الخلافة شغلى بک و بأنوارک منعتنى عن هذا، فقال عليه السّلام: قد تمّ لک الأمر امض إلى بسطام و ادع النّاس إلى اللّه سبحانه و إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أوليائه، و أرسل معه بعض ولده فقدما متّفقين إلى بسطام و دعى أهله إلى الصّادق عليه السّلام، و كان يوم الجمعة مشغولا بارشاد الخلق و هدايتهم إلى السّير و السلوک و ساير أيّام الاسبوع مشغولا بالفتاوى و الأحكام، انتهى ما نقله بطوله.

أقول: هذه القصّة لم أجدها فى مؤلّفات أحد من المتصدّين لنقل كرامات الصّوفيّة حتّى فى كتاب تذكرة الأولياء لهم أيضا مع أنّ أصل مقصود صاحب التذكرة من تأليفه ليس إلاّ ذكر أمثال ذلک، و العهدة فى ذلک على ناقله، نعم كون أبى يزيد سقاء فى دار الصادق عليه السّلام قد ذكره صاحب التذكرة و غيره.

لكن ردّه الشيخ نور الدين المحدّث كما حكاه القاضى نور اللّه فى مجالس المؤمنين عنه، فانّه بعد ما حكى كونه سقّاء فى داره عن جماعة قال:

و قال الشيخ نور الدين أبو الفتوح المحدّث إنّه صحّ عن علماء التاريخ أنّ وفاة مولينا الصّادق عليه السّلام كانت فى سنة ثمان و أربعين و مأئة و أنّ وفاة السلطان أبى يزيد المذكور فى سنة احدى و ستّين و مأتين، و لم يختلف أحد من العلماء فى هذين التاريخين مع أنّ التفاوت ما بينهما مأئة و ثلاثة عشر سنة، و لم يذكروا أيضا عمر أبى يزيد أكثر من الثمانين، فاحتمل أن يكون ملازمته فى الخدمة لباب مولينا علىّ بن موسى بن جعفر الرّضا عليهم السّلام و وافقه على ذلک المحقّق الشريف فى شرح المواقف حيث قال: و أما أبو يزيد فلم يدرک جعفرا عليه السّلام بل هو متأخّر، و لكنّه استفاض من روحانيّة جعفر و لذا اشتهر انتسابه اليه انتهى.

و كيف كان فقد نسبت إلى أبى يزيد ذلک كرامات كثيرة و قد أطروا فى حقّه

حتّى قال جنيدهم البغدادى: إنّه كان بين الأولياء كجبرئيل بين الملائكة.

و لكن هذا كلّه ينافى ما رواه غير واحد من العامّة و الخاصّة منه من قوله:

سبحانى ما أعظم شانى فانّه تنزيه يليق بالخالق و يختصّ به دون المخلوق.

و أعظم من ذلک ما رواه بعضهم عنه من قوله: ليس فى جبّتى سوى اللّه، و روى بعضهم ذلک من حسين بن منصور الحلاج، و الظاهر صدور هذا الهذيان من خبيث لسان كلا الرّجلين بلا اختصاص له بأحدهما، لأنّه مقتضى القول بوحدة الوجود و من لوازمه، و العجب من بعض المتصوّفة أنّه بعد نقل هذه الخرافات عن الرّجلين الجلفين جاء إلى مقام الاعتذار.

قال أبو حامد الغزالى فى محكىّ كلامه من كتاب مشكاة الأنوار بعد ما ذكر فصلا طويلا فى حال الحلاج: إنّ قوله: أنا الحق و ما فى الجبّة إلاّ اللّه من فرط المحبّة و شدّة الوجد، و هذا مثل قول القائل:

أنا من أهوى و من أهوى أنا فاذا أبصرتنى أبصرتنا

و تبعه على ذلک قطب الذّهبيّة فى كتابه قوائم الأنوار، قال فى ذكر الشرط الخامس من شرايط السلوک بعد جملة كلام له ما ترجمته: إنّ السالک بعد ترقّيه إلى غاية مقام القرب من الحضرة الأحديّة لا يبقى له طريق التّرقى إلى ما فوق ذلک و هو باب الولاية الالهيّة، و لا يمكن له دخول ذلک الباب بالرّياضات و المجاهدات إلاّ بجذبة عناية إلهيّة تفوح من مكمن الغيب الّذى هو باطن باب الولاية و تجذب السالک حتّى تدخله فى ذلک الباب و تجعله عارفا بأسرار الولاية العلويّة روح العالمين فداه، و هذه الأسرار هى الّتى برزت من أولياء أهل العصمة كما أنّ السلطان با يزيد البسطامى الّذى كان سقاء الصّادق عليه السّلام قال فى خلساته و عند استغراقه فى نور الولاية من غير اختيار منه: ليس فى جبّتى سوى اللّه، و كان الحسين بن منصور الحلاج يسجد تراب عتبته عليه السّلام و يقول من غير شعور: أنا الحقّ، و بعد ما قتلوه و أحرقوا جسده و صار رمادا ألقوا رماده فى دجلة فكانت حبا باب الدّجلة متشكل بشكل: اللّه اللّه، و كانت دماؤه المتقاطرة على وجه الأرض تنقّش بنقش: أنا الحقّ

و ذلک لأنّهم لمّا لم يسمعوا كلام مواليهم المعصومين عليهم السّلام فى عدم إذاعة أسرارهم فأذاعوها من غير اختيار منهم فى الاذاعة ذاقوا ألم الحديد و نالوا بالشهادة و لا يعلم أسرار ولايتهم عليهم السّلام الّتى هى ولاية اللّه إلاّ اللّه سبحانه و الّذين تنصّوا فمن جرى على لسانه اختيارا هذه كلمات الكفر فهو كافر بلا ريب، و أمّا هؤلاء فقد جرى على لسانهم من غير اختيار، و الدّليل على عدم الاختيار انتقاش الدّم و الرّماد بنقش أنا الحقّ و اللّه اللّه و قد رأى بعضهم الحلاّج فى المنام فسأل عنه كيف عومل معک؟ قال:

عاتبنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال لى: لم ثلمت ثلمة فى شريعتى؟ فقلت: جعلت فداک و إن ثلمت و لكن جعلت رأسى موضع الثلمة حتّى لا يجترى على ذلک أحد من بعدى فعفا عنّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انتهى كلامه.

أقول: و يتوجّه على المعتذرين لا سيّما على الثّانى منهما وجوه من الكلام و ضروب من الملام.

أمّا أوّلا فلأنّ كون هذه الكلمات من كلمات الكفر كما اعترفا به أيضا ليس عليه غبار، و الاعتذار بأنّ صدورها من الرّجلين لم يكن بالاختيار باطل لمنع عدم الاختيار، و على تقدير تسليمه فأقول:

افّ و تفّ على مذهب و طريقة يكون أعلى أعلى مقام ترقّياتها و غاية غايات جذباتها و وجدها أن يخرج سالكها عن حدّ التميز و العقل و الشعور و الاختيار و يتكلّم بالهجر و الهذيان، أ بهذا أمرهم صاحب الشريعة؟ معاذ اللّه ثمّ معاذ اللّه من الضّلال و الخذلان و إغواء الشيطان.

ثمّ العجب كلّ العجب ممّا ذكره الثانى فى تعليل عدم الاختيار من انتقاش الدّم و الرّماد، و قد ذكره غيره أيضا من أولياء هذا المقتول الملحد المرتدّ و أتباعه تعالى اللّه عمّا يقول الظالمون علوا كبيرا و كيف يذهب و هم العاقل إلى صدق ذلک فضلا عن الاعتقاد به.

و الذى يدلّ على بطلانه ضرورة و أنه افک محض أنّ ثانى سيدى شباب أهل الجنة و درّة صدف الطهارة و العصمة و سبط رسول الامة الموصوف و المخصوص بالكرامة

صاحب الولاية المطلقة سابق مضمار المعرفة و المحبة القائل فى مناجاته:

تركت الخلق طرّا فى هواكا و أيتمت العيال لكى أراكا

فلو قطّعتنى فى الحبّ إربا لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

سلام اللّه عليه و على جدّه و أبيه و امّه و أخيه و ذريّته و بنيه مع كونه مجاهدا فى دين اللّه مقتولا فى سبيل اللّه و كون دمه الطاهر المطهّر ثار اللّه و كون ثائره هو اللّه عزّ و جلّ، لم ير و لم يرو احد فى دمه الانتقاش، و لو جاز فى حقّ أحد ذلک لكان هو أحرى بذلک بمقتضى معرفته الكاملة و محبّته التّامة البالغة لا الدّم النجس للرّجس السّاحر الكافر الملحد المشعبد حسبما تعرف كفره و الحاده و شعبدته تفصيلا إنشاء اللّه.

و أمّا ثانيا فلأنّ ارتكاب التأويل فى كلمات هذه الكفرة قد ورد فيه النهى الصريح من الأئمّة عليهم السلام.

مثل ما رواه مولينا الأردبيلى فى كتاب حديقة الشيعة عن أحمد بن محمّد بن أبى نصر البزنطى قال: قال رجل للصّادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام: قد ظهر فى هذا الزّمان قوم يقال لهم الصّوفيّة فما تقول فيهم؟ قال عليه السّلام إنّهم أعداؤنا فمن مال اليهم فهو منهم و يحشر معهم و سيكون أقوام يدّعون حبّنا و يميلون إليهم و يتشبّهون بهم و يلقّبون أنفسهم بلقبهم و يؤوّلون أقوالهم ألا فمن مال إليهم فليس منّا و إنّا منهم برءاء، و من أنكرهم و ردّ عليهم كان كمن جاهد الكفّار بين يدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، هذا.

مضافا إلى أنّ فتح باب التّأويل كما قيل أوّل مراتب الالحاد و بدء الضّلال عن السّداد، إذ بانفتاح تلک الأبواب و قبول الاحتمالات السخيفة فى التكلّم و الخطاب و مقام السّؤال و الجواب ينهدم أساس الدّين و ينثلم أحكام الشرع المبين و يبطل إقامة التعزيرات و الحدود على المستحقّين لها من أهل الفسق و الارتداد و الجحود كما يبطل تكفير المتشرّعين لسائر الكفّار إذا تكلّموا بكلمات الكفر ثمّ اعتذروا بعدم الاختيار أو ادّعوا الخذف و الاضمار.

و ظاهر أنّ بناء علماء الاسلام بل ساير الملّيين على خلاف ذلک فى جميع الأعصار

فانّهم لا يقبلون تأويلا من غير دليل و بمجرد سماع كلمة الكفر يحكمون بالتكفير و التّضليل.

و قد ورد فى الحديث المعتبر المتين عن أولياء اليقين و الحجج المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين إنّ لنا فى كلّ خلف عدولا ينفون عن الدّين تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين.

فالى اللّه نشكو من فقد نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و غيبة وليّنا و كثرة عدوّنا و شدّة الفتن بنا و تظاهر الزّمان علينا.

إذ بغيبة الامام عليه و على آبائه آلاف التحيّة و السلام و الاكرام و بموت نوّابه الكرام و نقصان خلفائه العظام من العلماء الأعيان و المشايخ و المجتهدين الأعلام فى الأصقاع و البلدان، ثلم ثلمة عظيمة فى الاسلام، و اشتدّت البليّة و عظمت الرّزيّة و عاد الزمان زمان الجاهليّة فتفرّق أهلها أيادى سبا و أيدى سبا باتّباع الأهواء و اختلاف الاراء و اقتداء الاباء، فسلك كلّ منهم مسلكا و سبيلا، و اتّخذوا الشيطان لهم ملاكا و دليلا.

فتاه بعضهم فى بادية البابيّة و ركب آخرون مركب المغيريّة(1) و الخطابية، و مال ثالث إلى الحلاجيّة، و شرب راجع من قدح الشيخية، و ارتوى خامس من كأس التّصلّف و الكشفيّة، كلّ ذلك لقصورهم عن العروج إلى معارج العلم و اليقين، و فتورهم عن نهج مناهج المجتهدين، و جهلهم بقوانين الاجتهاد و التقليد فى الاصول و فروع الدّين.

و العجب من بعض رؤساء هذه الفرق حيث إنّه على جهله و بلادته و عدم تميزه بين(2) الهرّ و البرّ، و تفرقته بين الشعير و البرّ، يؤلف كتابا و رسائل و يودع

1- (1) - المغيرية طائفة منسوبة إلى مغيرة بن سعيد، خرج على أبى جعفر (عليه السلام) و قال:انه كان يكذب علينا، و كان يدعو الى محمد بن عبد اللّه بن الحسن (عليه السلام) و الخطابية طائفة منسوبة الى الخطاب محمد بن وهب الاسدى، و كانوا يدينون بشهادة الزور على من خالفهم مجمع البحرين.

2- (2) - فلان لا يعرف هرا من بر ما يهره مما يبره، أو القط من الفار أو دعاء الغنم من سوقها أو العقوق من اللطف، أو الكراهية من الاكرام، ق

فيها ما ألقاه الشيطان فى روعه من الضّلال، و أجراه على لسانه من مقالات الجهّال و ترّهات الأقوال الّتى تضحک من سخافتها الثّکلى، و تسقط الطير من السّماء، ثمّ يذيعها على سخافتها بين أتباعه الجهلة العوام الّذين هم کالأنعام، و ينشره بين الهمج الرّعاع الّذين يصغون إلى کلّ ناعق و يتبعون على کلّ حمار ناهق، فهم الأخسرون أعمالا الّذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدّنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا.

و نسأل اللّه سبحانه من فضله الواسع و کرمه العميم السابغ بمقتضى ما جرت عادته عليه فى البلاد و العباد عند غلبة الضّلال و الفساد و إشراف آثار الشريعة من الاندراس، و قرب شموس العلوم الحقّة من الانطماس:

أن يرسل شهابا ثاقبا من کبراء المجتهدين و الفقهاء المجدّدين على الضالين و المضلّين من أولياء الشياطين الّذين يکاد أن يهدم أساس الشريعة بکيفيّات خيالهم و يسقط أعلام الشيعة بکشفيّات مقالهم ليقذفهم من کلّ جانب دحورا حتّى لا يدعوا ثبورا واحدا بل يدعون ثبورا کثيرا، و ليکون حاميا لبيضة الدين، ماحيا لاثار المفترين ناشرا لناموس الهداية، کاسرا لناقوس الغواية، متمّما للقوانين العقلية متقنا للفنون النقلية مجدّدا لماثر الشريعة المصطفوية، محدّدا لجهات الطريقة المرتضويّة، فانّ فقيها واحدا کما قال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أشدّ على ابليس من ألف عابد إذ به ارغام(1) کلّ شيطان مارد، و ادغام کلّ ملحد معاند.

و أمّا ثالثا فلأنّ ما يستفاد من کلام ثانى المتعذرين من کون أبى يزيد و الحلاج من أولياء أهل العصمة عليهم السلام و حامل أسرارهم، فيه منع ظاهر.

أما أبو يزيد فانّه و ان اختلف فى کونه من أهل زمن الصادق عليه السّلام و فى کونه سقاء فى داره کما هو المشهور أو من أهل زمن الرضا أو الجواد عليهما السّلام کما قاله بعضهم و اشتهر أنه شيعى المذهب، أمّا أنّه من الکاملين من ولاية الأئمة عليهم السّلام و من جملة حملة الأسرار فلا، إذ الکامل فى مقام الولاية لا بدّ أن يکون فى أقواله و أفعاله و حرکاته

1- (1) - أرغمه اللّه أسخطه و أدغمه سوّده، ق

و سكناته تابعا لمولاه.

و هذا الرّجل و إن نقل منه ما يفيد متابعته لهم عليهم السلام و مواظبته على الوظايف الشرعية.

مثل ما نقله أبو القاسم القشيرى عنه أنّه قال: لو نظرتم إلى رجل اعطى من الكرامات حتّى تربع فى الهواء فلا تغترّوا به حتّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر و النهى و حفظ الحدود و آداب الشريعة.

و قال القشيرى أنّه سئل بأىّ شىء وجدت هذه المعرفة؟ قال ببطن جايع أو بدن عارى.

قال: و قيل: لم يخرج أبو يزيد من الدّنيا حتّى استظهر القرآن بمعنى حفظه من ظهر القلب.

قال: أخبرنا أبو حاتم السجستانى قال: أنبانا أبو نصر السّراج قال: سمعت طيفور البسطامى يقول: سمعت المعروف بعمىّ البسطامى - بفتح العين المهملة و كسر الميم و تشديد الياء - يقول: سمعت أبى يقول قال أبو يزيد: قم نبا حتّى ننظر إلى هذا الرّجل الذى قد شهر نفسه بالولاية و كان رجلا مقصورا مشهورا بالزهد، فمضينا فلما خرج من بيته و دخل المسجد رمى ببزاقه تجاه قبلة فانصرف أبو يزيد و لم يسلم عليه، و قال: هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكيف يكون مأمونا على ما يدّعيه.

و بهذا الاسناد قال أبو يزيد: لقد هممت أن أسأل اللّه أن يكفينى مؤنة الاكل و مؤنة النساء ثمّ قلت: كيف يجوز لى أن أسأل اللّه هذا و لم يسأله رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلم أسأله، ثمّ إنّ اللّه سبحانه كفانى مؤنة النساء حتّى لا ابالى استقبلنى امرأة أو حايط.

و فى تذكرة الأولياء نقل أنّه كان بين داره و بين المسجد أربعون قدما و لم ير منه أن يرمى ببزاقه إلى الأرض رعاية لحرمة المسجد، إلى غير ذلک ممّا رووه عنه من مواظبته بحدود الشريعة و آدابها.

لكنه كلّه ينافى ما قدّمنا نقله عنه من معراجه و ساير صلائفه، و من قوله:

ليس فى جبّتى سوى اللّه، و قوله: سبحانى ما أعظم شأنى كما نقله غير واحد.

و ما نقله فى تذكرة الأولياء من أنّه عزم الحجّ و سار منازل عديدة ثمّ رجع فقيل له ما رأينا منک فسخ العزم فما بدا لک؟ قال: رأيت فى الطريق امرأة سلّت سيفها و قالت لى: ارجع و إلاّ ضربت عنقک تركت اللّه ببسطام و قصدت البيت الحرام؟ و فى التذكرة أيضا انه رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليلة فى المنام فقال: يا رسول اللّه خدمت مأئة و ثلاثة عشر شيخا و ما وجدت ما طلبته من الكمال، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: اذهب إلى أهل بيتى و اخدمهم حتى تكمل، فاستيقظ من منامه و ذهب إلى المدينة فرأى الصادق عليه السّلام و هو ابن سبع سنين مع أطفال يتلاعبون و هو ينظر اليهم قال ابو يزيد:

فتردّدت بين السلام عليه من حيث كونه ابن رسول اللّه و بين عدم السلام من حيث كونه طفلا صغيرا ثمّ سلّمت عليه فرّد علىّ السلام ثمّ قال: يا أبا يزيد طب نفسا تعال نلعب معک، فقال: يا ابن رسول اللّه أىّ لعب نلعب؟ فقال: غب أنت فأنا أجدک ثمّ أغيب أنا فأنت تجدنى، فغاب أبو يزيد أوّلا فدار الامام عليه السّلام تمام وجه الأرض فلم يجده، ثمّ ذهب إلى السّماوات فطلبه فى السماء الاولى و الثانية و الثالثة فلم يجده فيها، و وجده فى السماء الرابعة فى عين الشمس و أخذ بيده و جاء به إلى الأرض فقال له: ها أغيب الان فلتجدنى، فغاب عليه السّلام فطلبه أبو يزيد فلم يجده فى تمام الأرض ثمّ طلبه فى السماوات السبع و لم يجده فيها، ثمّ رجع إلى الأرض و عجز عن طلبه، فقال: يا ابن رسول اللّه إنى عجزت عن وجدانک فأظهر لى نفسک بعميم كرمک، فخرج الصادق عليه السّلام من قلب أبى يزيد، فقال: أنا معک فاين تدور و كان هذا إشارة منه عليه السّلام و ارشادا له فهداه إلى ما طلب و فتح له بابا انغلق.

إلى غير ذلک مما نقلوه عنه من هذا النمط و الاسلوب المخالف للاصول الشرعية و المنافى لطريقة صاحب الشريعة.

و لا يكاد ينقضى عجبى منه حيث إنه لاحظ رمى البزاق فى المسجد و فى طريق المسجد مع أنه إما مكروه أو مباح، و لم يلاحظ كلمة الكفر الجارية على لسانه من قوله:

ليس فى جبّتى سوى اللّه، و نحو ذلک، و ليت شعرى فى أىّ مقام و أىّ حديث رخّص

صاحب الشّريعة بالتفوّه بهذه الهذيانات.

هذا كلّه بناء على التّنزل و المماشاة و إلاّ فأقول: يكفى فى كفره و الحاده و كونه سنّيا شهادة مثل مولينا المقدّس الأردبيلى «قد» على ذلک.

قال فى حديقـة الشّـيعة: إنّ هذه الطايفة أى الصوفيّة كانوا يؤدّون فى المجالس بعض أسـرارهم الكفرّية بالرّمزوا لاشارة إلاّ أبا يزيد، فانّه يقول مكررا غير هائب و لا محتشم: ليس فى جبّتى سوى اللّه و سـبحانى سـبحانى ما أعظم شأنى، و رأيت اللّه فى المنام فى صورة شـيخ هرم، و كان هو فى الاصول ظاهرا علىّ التّشبيه و الحلول و فى الفروع عاملا بمـذهب مالک، و كان فى الباطن زنـديقا ملحـدا و كونه سـقّاء فى بيت الصادق عليه السّـلام من مفتريات العامّة بل كان ذلک الشّـقى معاصـرا للحسن العسـكرى عليه السّـلام و خدم عدّة أيّام للجعفر الكذّاب، انتهى كلامه رفع مقامه.

و اما الحلاج فلا خفاء فى كفره و الحاده و بعده عن طريقة الموحّدين و قربه من أهواء الملحدين، و يظهر ذلک بشرح حاله فأقول:

قال فى روضات الجنّات: إنّه كان جـدّه مجوسـيّا كما فى الوفيات و يا ليته كان على دين جدّه، و أصـله فارسـيّا بيضاويّا لم يصل البياض إلى صفحة قلبه و خدّه و توجّه فى حداثة سنّه إلى ديار الأهواز فاشتغل بها على الشيخ أبى محمّد سهل بن عبد اللّه التسترى زمانا، ثمّ إلى العراق و هو ابن ثمانى عشرة سنة و خالط بها الصوفية و صحب الجنيد البغدادى و أبا الحسين الثورى و غيرهما.

ثمّ رجع إلى تستر و تأهل، فخرج منها بعد زمان فى جمع من خلطائه إلى بغداد، و منها إلى مكّة المشـرّفة ثمّ لما رجع منها إلى بغداد بقصد زيـارة الجنيـد و دخل عليه سأله عن مسألـة فلم يجبه، و قال له: أنت مـدّع فى سؤلک، فتكـدّر منه الحلاجّ و عاود إلى تستر و حصل له وقع عظيم فى هذه المرّة عند أهلها بحيث قد خاف على نفسه فاستتر عنهم نحوا من خمس سنين، و كان فى هذه المدّة يتردّد إلى بلاد خراسان و ما وراء النّهر و سجستان و فارس، و يظهر لهم الدّعوة و يصنّف فيهم الكتب حسبما يريد، و كان يدعا عندهم بأبى عبد اللّه الزاهد.

ثمّ لمّا رجع فى هذه الكرّة إلى الأهواز نطقوا عنه بحلاج الأسرار لكثرة ما كان يخبر عن ضمائرهم إلى أن جعل له الحلاج لقبا على التدريج، فسافر منها إلى البصرة و منها إلى مكّة ثانيا و هكذا إلى تمام أربعة أسفار إليها بينهنّ سفر منه إلى طرف الهند و الصّين و بلاد التّرک، و تشنيع شديد من الشيخ أبى يعقوب النهر جورى عليه.

ثمّ رجع إلى بغداد و كان قد توّفى الجنيد فتوطن هناک فى هذه الكرّة إلى أن تغيّر عليه وجوه الفقهاء و القضاة و آل أمره إلى ما آل إلى أن قال:

و العجب أنّ كلّ من كان له أدنى فائحة من نسيم الجنّة و رايحة من شميم الكتاب و السّنة لم يذكره إلاّ لسوء الرّأى و فساد العقيدة و نهاية التّزوير و المهارة فى فنون التّسخير و التقرير إماميا كان أو سنيّا و ظاهريا كان أم صوفيا و كأن ذلک لأنّه اختصّ بقبايح امور فى هذه الشريعة لم يعهد مثلها لأحد من المتصوّفة الاسلاميّين.

منها أنّه أظهر الدّعاوى الشديدة من عند نفسه و أيّة دعاو.

ففى بعض المواضع أنّه ادّعى الرّبوبية و العياذ باللّه العظيم مرارا كثيرة، و فى بعضها أنّه ادّعى قطبيّة الأرض و علوم الغيب و الاتحاد مع اللّه تعالى شأنه العزيز، و فى بعضها أنّه لمّا ورد قم كان مدّعيا لرؤية صاحب الزّمان و النّيابة عنه و البابية له، فلم يتهنّأ له فيها العيش فخرج منها إلى مكّة المشرّفة و هو يدّعى الامامة لنفسه و قطبيّة الأرض ثمّ لمّا دخل مكّة زاد فى طنبور ملعنته نغمة إلى داعية الرّبوبية، قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون.

و منها أنّه لم يمت إلاّ و قد ظهر منه خلافات و انكشف منه خرافات بحيث لم يبق لأحد من العقلاء شكّ فى فساد عقيدته و بطلان طريقته.

و ذلک أنّ شيخنا الأقدم المفيد رضوان اللّه تعالى عليه قد عمل فى الرّد على الحلاجيّة كتابا، و فتح الصدوق ابن بابويه القمى فى كتاب اعتقاداته الحقّة إلى كفر اولئک بابا، و رفع شيخنا الطوسى أيضا فى كتاب الغيبة و الاقتصاد عن وجه هذا المرام حجابا و نقابا، حيث عدّه فى الأخير من السحرة الكافرين، و قال فى الأول:

و منهم يعنى و من الكـذّابين الملعونين بلسان أهل البيت لادّعائهم الرّؤيـة و البابية بعد الغيبة الكبرى و وفاة خاتمة السـفراء و المقرّبين، هو الحسين بن منصور الحلاج.

أخبرنا الحسـين بن إبراهيم عن أبى العباس أحمـد بن علىّ بن نوح عن أبى نصـر هبة اللّه بن محمّد الكاتب ابن بنت امّ كلثوم بنت أبى جعفر العمرى قال: لمّا أراد اللّه أن يكشف أمر الحلاج و يظهر فضـيحته و يخزيه وقع له أنّ أبا سـهل إسـماعيل ابن على النوبختى رضـى اللّه عنه ممّن تجـوز عليه مخرفته و تتمّ عليه حيلته، فوجه إليه يسـتدعيه و ظنّ أنّ أبـا سـهل كغيره من الضّعفاء فى هـذا الأـمر بفرط جهله و قـدر أن يسـتحبره إليه فيتمخرق و يتسوّف بانقياده على غيره فيتطيب له ما قصد إليه من الحيلة و البهرجة على الضّعفة لقدر أبى سهل فى أنفس الناس و محلّه من العلم و الأدب أيضا عندهم و يقول له فى مراسلته إيّاه: إنّى وكيل صاحب الزّمان عليه السّلام و بهذا أوّلا كان يستجرّ ثمّ يعلو منه إلى غيره و قد أمرت بمراسلتک و إظهار ما تريده من النّصرة لک لتقوّى نفسک و لا ترتاب بهذا الأمر.

فأرسل إليه أبو سـهل رضـى اللّه عنه يقول لک إنّى أسألک أمرا يخفّ مثله عليک فى جنب ما ظهر على يـديک من الدلائل و البراهين و هو: إنّى رجل احبّ الجوارى و أصـبوا اليهنّ و لى منهنّ عدّة أتخطاهنّ و الشّيب يبعدنى منهنّ و أحتاج إلى أن أخضـبه فى كلّ جمعة و أتحمّل منه مشـقّة شديدة لأستر عنهنّ ذلک و إلاّ انكشف أمرى عندهنّ فصار القرب بعدا و الوصال هجرا، و اريد أن تغنينى عن الخضاب و تكفينى مؤنته و تجعل لحيتى سوداء فانّنى طوع يـديک و صائر إليک و داع إلى مذهبک مع مالى فى ذلک من البصـيرة و لک من المعونة فلمّا سـمع ذلک الحلاج من قوله و جوابه علم أنّه قـد أخطأ فى مراسـلته و جهل فى الخروج إليه بمذهبه و أمسک عنه فلم يرد إليه جوابا و لم يرسل إليه رسولا.

و صيّره أبو سهل رضى اللّه عنه احدوثة و ضحكة و تطرءة عند كل أحد

و شهّر أمره عند الصّغير و الكبير، و كان هذا الفعل سببا لكشف أمره و تنفير الجماعة عنه.

و أخبرنى جماعة عن أبى عبد اللّه الحسين بن علىّ بن الحسين بن موسى بن بابويه: أنّ الحلاج صار إلى قم و كاتب قرابة أبى الحسن يستدعيه و يستدعى أبا الحسن أيضا و يقول: أنا رسول الامام و وكيله.

قال: فلمّا وقعت المكاتبة فى يد أبى رضى اللّه عنه خرقها و قال لموصلها اليه:

ما أفرغک للجهالات، فقال له الرجل و أظنّ انّه قال أنّه ابن عمّته أو ابن عمّه:

فانّ الرّجل قد استدعانا فلم خرقت مكاتبته و ضحكوا منه و هزئوا به، ثمّ نهض الى دكانه و معه جماعة من أصحابه و غلمانه.

قال: فلمّا دخل الى الدّار الّتى كان فيها و كأنّه نهض له من كان هناک جالسا غير رجل رآه جالسا فى الموضع فلم ينهض له و لم يعرفه أبى، فلمّا جلس و اخرج حسابه و دوائه كما تكون التجار أقبل على بعض من كان حاضرا فسأله عنه فأخبره فسمعه الرّجل يسأل عنّى فأقبل عليه و قال له: تسأل عنّى و أنا حاضر، فقال له أبى: أكبرتک أيّها الرّجل و أعظمت قدرک أن أسألک، فقال له: تخرق رقعتى و أنا اشاهدک تخرقها فقال له أبى: فأنت الرّجل اذا ثمّ قال: يا غلام برجله و بقفاه، فخرج من الدّار العدوّ للّه و لرسوله، ثمّ قال له: أتدّعى المعجزات عليک لعنة اللّه أو كما قال فاخرج بقفاه فما رأيناه بعدها بقم، انتهى.

أقول: المراد بأبى الحسن هو علىّ بن موسى والد الصدوق و انّما كنّى به لمكان ابنه الأوسط الذى كان مشتغلا بالعبادة و الزّهد لا يختلط بالناس و لا فقه له بخلاف الأخويين الباقيين أبى جعفر محمّد و أبى عبد اللّه الحسين راوى هذا الحديث، فانهما كانا فقيهين ماهرين فى الحفظ يحفظان ما لا يحفظه غيرهما من أهل قم، لأنهما ولدا بدعاء الامام عليه السّلام على ما فى كتاب الغيبة للصدوقين القمّى و الطوسى «فهما» و غيرهما بل هذا أمر مستفيض عند أهل قم.

و قال العلامة «قد» الحلّى فى محكى كلامه من خلاصته: الحسين الحلاج ابن

المنصور ظهر ببغداد و كان أعجميّا و ادّعى أنّه الباب و ظفر به الوزير عليّ بن عيسى فضربه ألف عصا و فصّل أعضاءه و لم يتأوّه و كان كلّما قطع منه عضو قال:

و حرمة الودّ الّذى لم يكن يطمع فى إفساده الدّهر

ما قدّ لى عضو و لا مفصل إلاّ و فيه لكم ذكر

و قال فى فوائد الخلاصة: إنّه من الكذّابين، و ذكر الشيخ له أقاصيص و مراده بالأقاصيص ما نقلناه آنفا.

و قال مولينا المقدّس الأردبيلى «قد» فى كتابه حديقة الشّيعة: أما حسين بن منصور الحلاج فقد أفرط و جاوز الحدّ فى الفضاحة و أظهر الكفر و الالحاد بلا حجاب و خرج التّوقيع بلعنه و من جملة من أفتى بقتله و كتب خطه فى وجوب قتله هو الحسين بن روح رضى اللّه عنه وكيل صاحب الزّمان عليه السّلام.

و قال أبو ريحان البيرونى السّندى من أكابر المنجمين فى تاريخه حين ذكر تاريخ المتنبّين و اممهم المخدوعين عليهم لعنة ربّ العالمين: ثمّ ظهر رجل متصوّف من أهل فارس يعرف بالحسين بن منصور الحلاج، فدعى إلى المهدى أوّلا و زعم أنّه يخرج من الطالقان الّذى بالدّيلم فاخذوا دخل مدينة السّلام، و حبس شهرا فاحتال حتّى تخلّص من السّجن، و كان رجلا مشعبدا متصنعا مازجا نفسه بكل انسان على حسب اعتقاده و مذهبه، ثمّ ادّعى حلول روح القدس فيه و تسمّى بالاله، و صارت له رقاع إلى أصحابه معنونة بهذه الألفاظ.

من الهوهو الأزلىّ الأوّل النّور السّاطع اللامع و الأصل الأصلى و حجّة الحجج و ربّ الأرباب و منشىء السّحاب و مشكاة النّور و ربّ الطّور و المتصوّر فى كلّ صورة إلى عبده فلان.

و كان أصحابه يفتتحون كتبهم إليه بسبحانک يا ذات الذّوات و منتهى غاية اللّذات يا عظيم يا كبير أشهد أنّک البارى القديم المنير المتصوّر فى كلّ زمان و أوان و فى زماننا بصورة الحسين بن منصور عبيدک و مسكينک و فقيرک و المستجير بک و المنيب إليک و الرّاجى رحمتک يا علاّم الغيوب يقول كذا و كذا.

و صنّف كتابا فى دعواه مثل كتاب نور الأصل و كتاب جمّ الأكبر و كتاب جمّ الأصغر، فعثر عليه المقتدر باللّه فى سنة إحدى و ثلاثمأة للهجرة و ضربه ألف سوط و قطع يديه و رجليه و ضرب عنقه، ثمّ زرقه بالنّفط حتّى احترقت جثته و رمى برماده فى دجلة و لم يتكلّم بحرف فيما فعل به و لم يقطب وجهه و لم يحرّك شفته و بقيت بقيّة من أتباعه منسوبون إليه يدعون إلى المهدى و أنه يخرج بالطالقان انتهى و قال الشّيخ محمّد الشّهير بحاجى مؤمن الخراسانى: و الّذى اعتقد فيه يعنى الحلاج الرّد عليه و على أصحابه، لأنّ كلّ حقيقة ردّته الشريعة فهى مردودة كما حقّقناه و قد ردّ عليه كبار المشايخ المتقدّمين و المتأخّرين كالجنيد، و الشيخ أبى جعفر محمّد ابن علىّ بن الحسين بن بابويه القمّى رئيس المحدّثين المتألّهين، و شيخ الطائفة أبى جعفر محمّد بن الحسن الطّوسى، و الشّيخ الطّبرسى، و الشّيخ المفيد، و السيّد المرتضى علم الهدى، و الشّيخ جمال الدّين المطهّر الحلّى، و السيّد ابن طاوس صاحب المقامات و الكرامات، و الشّيخ أحمد بن فهد الحلّى المتألّه شيخ المتأخرين رضى اللّه عنهم، و كلهم اتّفقوا على أنّه من المذمومين و بعضهم على أنّه خرج من النّاحية توقيع بلعنه و أنت إذا تأمّلت أدنى تأمّل وجدت أكثر من ينتمى إلى الحلاّج و يعتقد رأيه قائلين بالحلول و التّجسيم و التّشبيه و الزندقة و ترك الشرائع و الأحكام و الأمر و النّهى، و يدّعى الوصول إلى أعلى مرتبة العرفان و التّوحيد و الاباحة و ينفى الحلال و الحرام كالفرقة المردفية المشركة المجوسيّة، انتهى.

أقول: و يؤيّد ما ذكره أخيرا من المتصوّفة الحلاجيّة ما قاله الصّدوق فى اعتقاداته: علامة الحلاجيّة من الغلاة دعوى التجلّى بالعبادة مع تديّنهم بترك الصّلاة و جميع الفرائض، و دعوى المعرفة بأسماء اللّه العظام، و دعوى انطباع الحق(1) لهم و أنّ الولى إذا خلص و عرف مذهبهم فهو عندهم أفضل من الأنبياء عليهم السّلام، و من علامتهم أيضا دعوى علم الكيميا و لا يعلمون منه إلاّ الدّغل و التلفيق بالشّبه و الرّصاص على المسلمين، اللهمّ لا تجعلنا منهم و العنهم جميعا. انتهى كلامه

1- (1) - الجن خ ل.

رفع مقامه.

و فی کتاب روضات الجنّات من کتاب روض المناظر فی علم الأوائل و الأواخر تألیف الشّیخ محبّ الدّین الحنفی ألّفه فی بیان سوانح کلّ سنة من لدن زمن أنبیاء بنی إسرائیل إلی سنة ثلاث و ثمانمائة قال:

إنّ فی سنة تسع و ثلاثمأة قتل حسین بن منصور الحلاج کان یخرج فاکهة الشّتاء فی الصّیف و بالعکس و یمدّ یده فی الهواء و یعیدها و فیها دراهم و علیها مکتوب قل هو اللّه أحد، یسمّیها دراهم القدرة و یخبر النّاس بما صنعوا فی بیوتهم و یتکلّم بما فی ضمائرهم، و فتن به خلق کثیر و اختلفوا فیه اختلاف النّصاری بالمسیح، و کان یصوم الدّهر و یفطر علی ماء و ثلاث عضاة من قرص.

قدم من خراسان إلی العراق و صار إلی مکّة و جاور بها سنة ثمّ عاد إلی بغداد فالتمس حامد الوزیر من المقتدر أن یسلمه إلیه، و جدّ الوزیر فی قتله و استنطقه عدّة مجالس بحضرة العلماء آخرها أنّه ظهر منه بخطه کتاب یتضمّن أنّ من لم یمکنه الحجّ إذا أفرد فی داره بیتا نظیفا و لم یدخله أحدا فطاف حوله أیام الحجّ و فعل ما یفعله الحاج ثمّ جمع ثلاثین یتیما و أطعمهم أجود الطعام فی ذلک البیت و کساهم و أعطی کلّ واحد منهم سبعة دراهم کان کمن حجّ.

فقال القاضی أبو عمرو الحجاج من أین لک هذا؟ فقال: من کتاب الاخلاص للحسن البصری، فقال القاضی: کذبت یا حلال الدّم قد سمعناه بمکة و لیس فیه هذا، فطالبه الوزیر بکتابة خطه أنه حلال الدّم أیاما ثمّ أجابه و کتب باباحة دمه و وافقه جماعة من العلماء، فقال الحلاج: ما یحلّ لکم دمی و دینی الاسلام و مذهبی السنة و لی فیها کتب موجودة یکون عند الوراقین، فاللّه اللّه فی دمی و لم یزل یردّد هذا.

و عن تاریخ حبیب السیر أنه قال بعد ذکره لهذه الواقعة بالفارسیة إلی قوله و مذهبی السنة: و تفضیل الخلفاء و العشرة المبشرة، و لی فی السنة کتب موجودة یکون عند الوراقین، فاللّه اللّه فی دمی، و لم یزل یردّد هذا و هم یکتبون خطوطهم حتی استکملوا ما أرادوا، و نهضوا من المجلس.

فحمل الحلاج إلى السجن و كتب الوزير إلى المقتدر باللّه الخليفة فهرست الوقايع، فصدر منه الجواب بعيد ساعة بأنّ قضاة البلد إذا كانوا قد أفتوا بقتل الرجل فليسلم إلى صاحب الشرطة و ليتقدم إليه يضربه ألف سوط فان هلک و إلاّ يضربه ألفا آخر و يضرب عنقه.

فسلّمه إلى الشرطى و أخبره بما رسم به المقتدر و قال: فان لم يتلف بالضرب فاقطع يده ثمّ رجلاه ثمّ نحر رقبته و تحرق جثته، و إن خدعک و قال أنا أجرى لک الفرات و دجلة ذهبا و فضة فلا تقبل ذلک منه، و لا ترفع العقوبة عنه.

فتسلّمه الشرطى ليلا فأصبح يوم الثلثا لسبع بقين من ذى القعدة سنة تسع و ثلاثمأة فأخرجه الى باب الطاق و كان يتبختر فى قيوده و اجتمع عليه من العامة خلق كثير لا يحصون.

فضربه الجلاّد ألف سوط فلم يتأوّه شيئا بل قال للشرطى لما استوفى ستّ مأئة:

ادع بى إليک فانّ لک عندى نصيحة تعدل فتح قسطنطنية الروم فقال له: قد قيل لى: إنک تقول هذا الكلام و أكثر منه و ليس الى رفع السياط عنک سبيل، فلما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة ثمّ جزّ رأسه و أحرق جثته بالنار، و لما صارت رمادا ألقاها فى دجلة و نصب رأسه على الجسر و اتفق أن ارتفع ماء دجلة فى تلک السنة فادّعى بعض أصحابه أن ذلک ببركة ما القى فيها من الرماد، و تواعدوا فى أنفسهم أيضا على السرّ أنه سيعود إليهم بعد أربعين يوما من ذلک التاريخ، و ادّعى بعضهم أنه لم يقتل و إنما ألقى شبهه على عدوّ له فقتل.

ثمّ إن فى تاريخ روض المناظر أنه قتل و حرق و نصب رأسه ببغداد قال: و قد ترجمه الذّهبى فى عدّة أماكن من كتبه و كذا الخطيب و غيره ترجمة قبيحة و أنّه كان ساحرا مشعبدا محلولا و اللّه أعلم، انتهى.

و فى وفيات الأعيان نقلا عن أبى بكر بن ثوابة القصرى انه قال: سمعت الحسين ابن منصور و هو على الخشبة يقول:

طلبت المستقرّ بكلّ أرض فلم أر لى بأرض مستقرّا

أطعت مطامعی فاستعبدتنی و لو أنّی قنعت لکنت حرّا

فقـد علم بذلک کله أنّ الرّجل من أهل الغلوّ و الالحاد، و الحلول و الاتحاد فکیف یکون من أولیاء أئمة الدّین سـلام اللّه علیهم أجمعین، و لو کان من أهل الولایـة لورد فیه منهم علیهم السّلام ما یـدلّ علی مـدحه و فضـله و علوّ شأنه، لا ما یدلّ علی لعنه و طعنه قال فی روضات الجنّات: لو شـئت زیادة بصـیرة بأحوال و أباطیل الملاحدة من هذه الطایفة فعلیک بمراجعة رسالة الشـیخ الحرّ العاملی الموضوعة للتشـنیع علیهم و تحـذیر أهل الاسـلام من اتباعهم، و بیان جملـة من قبایـح أفعالهم، فانّها البالغة حدّ الکمال فی هذا الباب، و کذلک کتاب مولینا محمّد طاهر القمی المعاصـر له المشـنع علی المولی محسن الفیض الکاشـی صاحب الوافی فی میله إلی هذه الطایفة، بل المکفّر إیاه من هذه الجهة، و رسالتی الشـیخ علیّ بن الشیخ محمّد الشهیدی و المولی إسماعیل الخاجوئی بالعربیة و الفارسیّة، فی تخطئتهم و تنفیر قلوب عوام الناس عنهم، و غیر ذلک من تضاعیف مصـنّفات الشـیعة و أهل السنّة و الجماعة، فانّهم فی الحقیقة مصداق قوله تعالی «مُذَبْذَبِینَ بَیْنَ ذلِکَ لا إِلی هؤُلاءِ وَ لا إِلی هؤُلاءِ » و منکرون لأساس الشّریعة الغرّاء، أعاذنا اللّه و جمیع المؤمنین و المؤمنات من متابعة أهوائهم و سلوک سبیلهم آمین ربّ العالمین.

المقام السادس - فی منشا الکرامات و خوارق

اشارة

العادات الصادرة من هذه الطائفة

کالإخبار عن المغیبات و استجابة الدعوات و تأثیر الأنفاس و طیّ الأرض و نحوها، ممّا رویت عنهم و نسبت الیهم فی کتبهم المدوّنة لهذا الغرض مثل کتاب تذکرة الأولیاء و غیره فأقول و باللّه التّوفیق:

إنّ ظهور الکرامات من أولیاء اللّه الجامعین بین مرتبتی العلم و العمل علی اصطلاح المتشرّعة و بین الشریعة و الطریقة و الحقیقة و المعرفة

و بعبارة اخرى علم اليقين و عين اليقين و حقّ اليقين و برد اليقين على اصطلاح المتصوّفة، غير قابل للانكار و ليس عليه غبار، لأنّ العبودية جوهرة كنهها الربوبيّة.

و قد نقل من أصحاب النّبى و اتباع الأئمة عليهم السّلام الكاملين فى مقام المعرفة و الولاية، و من العلماء الرّاسخين و غيرهم من عباد اللّه الصالحين المتّقين المتصفين بالصّفات المتقدّمة فى الخطبه المأة و الثانية و التّسعين فى حديث همام و غيرها كرامات متجاوزة عن حدّ الاحصاء، و ظهورها منهم عناية خاصّة من اللّه عزّ و جلّ بهم، و لطف مخصوص فى حقّهم إكراما لهم و إظهارا لشرفهم لديه و قربهم إليه.

و أمّا غير هؤلاء من أهل التّصنع و التّكلف و التصوّف و التصلّف، فظهور بعض خوارق العادة منهم مستند إلى أحد امور:

منها الشعبدة

و هى حركات سريعة تترتّب عليها أفعال عجيبة بحيث يخفى على الحسّ الفرق بين الشىء و شبهه لسرعة الانتقال منه إلى شبهه فيحكم الرائى له بخلاف الواقع.

فالمشعبد الحاذق يظهر عمل شىء يشغل أذهان الناظرين و يأخذ عيونهم إليه حتّى إذا اطمأنّ باستغراق نظرهم إليه عمل شيئا آخر بسرعة شديدة، و بذلک يحصل عند الناظر أمر عجيب، و سببه الاشتغال بما أظهره أوّلا و السرعة المزبورة.

و هذا هو المراد بقولهم: إنّ المشعبد يأخذ بالعيون، لأنّه فى الحقيقة يأخذ بالعيون إلى غير الجهة الّتى يحتال، و كلّما كان أخذه للعيون و جذبه للخواطر إلى سوى مقصوده أقوى كان أحذق فى عمله.

و لها أقسام اخر معروفة بين المشعبدين من الافرنج و غيرهم

و منها التنجيم

و هو الاستدلال بحركات النّجوم على بعض الحوادث الواقعة فقد أخبر آذر بطريق النجوم على إبراهيم.

قال الصادق عليه السّلام فى المروىّ عنه فى تفسير علىّ بن إبراهيم: إنّ آذر أبا إبراهيم كان منجّما لنمرود بن كنعان فقال له: إنّى أرى فى حساب النّجوم أنّ هذا الزّمان يحدث رجلا فينسخ هذا الدين و يدعو الى دين آخر، فقال نمرود: فى أىّ

بلاد يكون؟ قال: فى هذه البلاد، الحديث.

و عن صاحب كتاب التجمل أنّ آذر كان منجّما لنمرود فقال: له يوما:

رأيت فى النّجوم أمرا عجيبا، قال: و ما هو؟ قال: رأيت مولودا يولـد فى زماننا يكون هلاكنا على يديه و لا يلبث إلاّ قليلا حتّى يحمل به، قال: فتعجّب من ذلک ثمّ قال: هل حملت النّساء؟ قال: لا، فحجب الرّجال عن النساء و لم يـدع امرأة إلاّ جعلها فى المدينـة قال: فوقع آذر على أهله فحملت بابراهيم فظنّ أنّه صاحبه فأرسل إلى قوابل ذلک الزّمان و كنّ أعلم الناس بالجنين فنظرن فالزم ما فى الرحم الظهر فقلن ما نرى فى بطنها شيئا، قال: و كان ممّا اوتى من العلم أنّ المولود سيحرق بالنّار و لم يؤت أنّ اللّه سينجيه منها.

و قد تضـمّنت كتب التّواريخ و غيرها الأخبار بنبوّة موسـى و رسالته من النّجوم، و كذا نبوّة نبيّنا صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و ظهور العرب على الفرس كما لا يخفى على من لاحظها.

و الاخبار النّجوميّة للمنجّمين من الوقايع المسـتقبلة فوق حـدّ الاحصاء، و قد مرّ فى شـرح الكلام الثامن و السّبعين مطالب نافعة فى هذا المقام.

و منها الكهانة

و هى عمل تقتضى طاعة بعض الجانّ.

قال العلامة «قد» فى محكى القواعد: الكاهن هو الّذى له رائد من الجنّ يأتيه بالأخبار.

و عن النهايـة الكهانـة هى تعاطى الأخبار عن الكائنات فى مسـتقبل الزّمان، و قـد كان فى العرب كهنة فمنهم من كان يزعم أنّ له تابعا من الجنّ يلقى إليه الأخبـار، و منهم من كـان يزعم أنّه يعرف الامـور بمقـدّمات أسـباب يسـتدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله.

و منها السحر

قال فخر المحقّقين فى المحكى عن الايضاح: إنّه اسـتحداث الحوادث و الخوارق، إما بمجرّد التّأثيرات النفسانية و هو السّحر، أو بالاستعانة بالفلكيّات فقط و هو دعوة الكواكب، أو على تمزيج القوى السّماوية بالقوى

الأرضيّة و هو الطلسمات أو على سبيل الاستعانة بالأرواح السّاذجة و هو العزائم، و يدخل فيه النّيرنجات و الكلّ حرام فى شريعة سيد المرسلين.

و فى الجواهر أنّه عبارة عن ايجاد شىء تترتّب عليه آثار غريبة و أحوال عجيبة بالنسبة إلى العادة بحيث تشبه الكرامات و توهم أنّها من المعجزات المثبتة للنّبوات من غير استناد إلى الشّرعيات بحروز أو دعوات أو نحوها من المأثورات.

و منها استخدام الجن و الشياطين

و عن المسالک دخوله فى الكهانة و فى الدّروس دخوله فى السّحر قال: يحرم الكهانة و السحر بالكلام و الكتابة و الرقعة و الدّخنة بعقاقير الكواكب و تصفية النفس و التصوير و العقد و النّفث و الأقسام و العزائم بما لا يفهم معناه و يضرّ بالغير فعله.

و من السّحر الاستخدام للملائكة و الجنّ و الاستنزال للشياطين فى كشف الغايب و علاج المصاب.

و منه الاستحضار بتلبس الرّوح ببدن منفعل كالصّبى و المرأة و كشف الغائب على لسانه.

و منه النّيرنجات، و هى اظهار غرايب خواص الامتزاجات و اسرار النّيرين و يلحق به الطلسمات و هى تمزيج القوى العالية الفاعلة بالقوى السافلة المنفعلة ليحدث عنها فعل الغرائب، فعمل هذا كلّه و التّكسب به حرام أمّا علمه ليترقى أو لئلا يعتريه فلا، و ربّما وجب على الكفاية لدفع المتنبّى بالسّحر و يقتل مستحلّه، انتهى.

و عن الصادق عليه السّلام أنّه لمّا سأله الزّنديق عن السحر ما أصله و كيف يقدر الساحر على ما يوصف من عجايبه و ما يفعل؟ قال: إنّ السحر على أقسام وجوه شتّى، منها بمنزلة الطب كما أنّ الأطباء وضعوا لكلّ داء دواء فكذلک علماء السحر احتالوا لكلّ صحة آفة و لكّ عافية سقما و كلّ معنى حيلة و نوع منه آخر خطفة و سرعة و مخاريق و خفة و نوع منه ما يأخذ أولياء الشياطين منهم.

ص:356

و ذكر بعضهم أنه على أقسام:

الاول سحر الكذابين

و هم قوم يعبدون الكواكب و يزعمون أنّها المدبّرة لهذا العالم إلاّ أنهم فرق ثلاث:

الاولى

زعمت أنّ الأفلاک و الكواكب واجبة الوجود لذاتها، و هى المدبّرة لهذا العالم و الخالقة له.

و الثانية

أنّها مخلوقة إلاّ أنها قديمة لقدم العلّة التّامة المؤثرة فى وجودها فالساحر عند الفرقتين هو الذى يعرف قوى العالية الفعالة بسايطها و مركباتها، و يعرف ما يليق بكلّ واحد من العوالم السفلية، و يعرف المعدّات ليعدّها، و يعرف العوائق لينحيها معرفة بحسب الطاقة البشرية، و بذلک يكون متمكنا من استجذاب ما يخرق العادة.

الفرقة الثالثة

أنها حادثة مسبوقة بالعدم إلاّ أنّ خالقها خلقها عاقلة مختارة، و فوّض تدبير العالم إليها و الساحر حينئذ من عرفته بالتقريب السابق

القسم الثانى سحر أصحاب الأوهام و النفوس القوّية

، و هو يكون بتجريد النفس عن الشواغل البدنية و عن مخالطة الخلق و امورهم، و به يحصل تأثيرها فى جميع ما تريده من الأشياء، و توجد صورته فى ذهنها و يقتدر بذلک على الاتيان بما هو خارق للعادة، نعم النفوس فى ذلک مختلفة.

فمنها القوية المستعلية على البدن الشديدة الانجذاب إلى عالم السماوات، بل كأنّها من الأرواح السّماوية، و هذه لا تحتاج التّاثير إلى هذا العالم إلى آلة و أداة.

و منها ما لا يكون كذلک، فيحتاج إلى تصفية و تجربة، و ربّما استعانت على ذلک بالرّقى المعلومة ألفاظها بل و غير المعلومة باعتبار حصول دهشة للنّفس و حيرة، و ربّما حصل فى أثناء ذلک انقطاع عن المحسوسات و إقبال على ذلک الفعل و جدّ عظيم، و يقوّى التاثير النّفسانى و ربّما استعانت على ذلک أيضا بالدّخنة على الوجه الّذى سمعته فى الرّقى.

الثالث الاستعانة بالأرواح الأرضيّة و هى الجنّ

، فانّ اتّصال النّفوس

ص:357

النّاطقة بها أسهل من اتّصالها بالأرواح السّماويّة، لشدّة المشابهة و المشاكلة و إن كان التأثير مع الاتّصال بتلك الأرواح أعظم بل هو كالقطرة بالنّسبة إلى البحر، و قد قالوا: إنّ الاتّصال بها يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرّقى و الدّخن و التجريد، و هذا النّوع هو المسمّى بالعزائم و عمل تسخير الجنّ، انتهى.

أقول: و هذا كلّه من فروعات علم السّيميا الّذى قيل فى تعريفه: هو علم بامور يتمكّن به الانسان من إظهار ما هو مخالف للعادة أو منع ما هو موافق للعادة، بعضه متعلّق بالطّلسمات، و بعضه بدعوة الكواكب و تسخير السيارات، و بعضه بتسخير الوحوش و الطيور، و بعضه بالتعظيم و التنجيم و استخدام الجنّ و الانس و الشّياطين بأعمال و شرايط مقرّرة عند أهل هذا الفنّ و هو علم طويل عريض عميق و الوصول إليه و القيام بشرايطه فى غاية الصعوبة و عجايبه لا تحصى.

فقد نقل عن بعض التفاسير أنّ سبب تمرّد نمرود اللّعين عن طاعة اللّه تعالى أنّ الحكماء قد عملوا فى مقرّ سلطنته أرض بابل طلسمات ستّة تحار فيها العقول:

أوّلها بطة من نحاس إذا دخل فى البلد سارق أو جاسوس كانت هذه البطّة تصوّت بأعلى صوت يسمعه كلّ من بالبلد، و يعرفون علّة تصويته فيطلبون الداخل و يدركونه.

الثانى طبل إذا ضلّل أحدهم شيئا يجىء إلى ذلك الطبل و يضربه بعود فيخرج منه صوت و يعرّفه مكان الضّالة.

الثالث مرآة كلّ من كان أهل البلد له غايب لا يعرف خبره و أراد أن يطلع عليه جاء إلى هذه المرآة فينظر فيها و يشاهد فيها الغايب بحالته الّتى هو عليها و العمل الّذى هو مشتغل به و بالمكان الّذى هو فيه.

الرّابع حوض كان نمرود فى كلّ سنة يجلس يوما عنده للعيش و يجتمع إليه بطانته من الامراء و الوزراء و الأشراف، و يأتى كلّ منهم بأشربة مختلفة و يصبّونها جميعا فى الحوض، فاذا امتلاء أمر نمرود سقايته فيسقونهم منه و يشرب كلّ

منهم ما جاء به من الشّراب.

الخامس غدير ماء إذا ورد فيه المتخاصمان كان الماء يعلو المبطل منهما، فان أناب إلى الحقّ و الاّ غرق.

السّادس شجرة فى بابه يستظل بها تمام جيشه و جنوده.

و نقل عن أرسطاطاليس أنّه كان بين برهماطوس و بيداغوش منازعة فى أرض بابل، قال بيداغوش: كيف تقاومنى و مرّيخ و زحل عاجزان من مقاومتى؟ فلمّا سمعه برهماطوس دخن اترجة و استعان بروح المرّيخ و أحرق بيداغوش و استراح النّاس من شرّه بدون حاجة إلى المحاربة.

و نقل عن أبى معشر البلخى أنّه قال: كان فى بلاد الهند ملک عالم بأسرار النّجوم و قد سخّر المرّيخ فقصده ملک آخر للحرب فلم يهتم به، و كلّما قال له وزراؤه و أتباعه: قد وصل الخصم لم يلتفت إليهم حتّى إذا دنا من بلده و كان الملک مشغولا مع ندمائه فى مجلس العيش فرجع إلى المريخ و استعان منه على دفع الخصم، فما مضت هنيئة إلاّ و رأوا شيئا هابطا من السّماء، فاذا هو مرآة من نحاس مثلّث الشّكل و معه رأس مذبوح، فلمّا رأوه هابوا منه و هربوا، فضحک الملک ثمّ أحضرهم و قال لهم: ابشروا هذا رأس من كان قاصدا لبلادكم، فقد دفعت شرّه بعلم كنتم تلومونني فى تحصيله و تنسبونني إلى الحمق و السّفه و الجنون.

و فى نفايس الفنون أنّ بهذا العلم يتمكّن من رؤية الأشياء المتباعدة غاية البعد و لو بمقدار ألف فرسخ و يتمكّن من التّصرف فيها.

قال ثابت بن قرّة: كان من أهل هذا العلم من صنع كحلا إذا اكتحل به يرى الأشياء من الأماكن البعيدة و كنت أنا و قسطاء بن لوقا أردنا امتحانه فجلسنا فى بيت و كتبنا فيه خطّا بغاية الخفاء لا يكاد يقرأ، و كان ذلک الرّجل جالسا فى بيت اخر فكان يقرأ كلّما نكتب حرفا حرفا، و لو رام غيره أن يقرأه لا يمكن له ذلک لخفائه، و سأله قسطاء من حال أخيه و كان غايبا منه فقال: انّه مريض و قد

تولّد له ولد و طالعه الثّور بثلاث درجات فاستخبرنا منه و كان كما قال: الى غير هذه ممّا نقل من عجايب هذا العلم.

و هذه المنقولات و ان لم تكن محلّ اعتماد يصلح التّعويل عليها، و لكنّها مثل العجايب المنقولة من مشايخ المتصوفة لا تفاوت بينهما فى الصحّة و البطلان و الرّد و القبول.

فقد علم بما ذكرنا أنّ ظهور بعض الامور الخارقة للعادة من أحد من هؤلاء الطّايفة أو من غيرهم لا يدلّ على كونه عارفا باللّه كاملا فى معرفة اللّه و من أهل الزّلفى و الكرامة لديه، لما عرفت من أنّ جلّ مدارک الخوارق و عمدة أسبابها امور غير شرعيّة.

فانّ الشّعبدة و السّحر و الكهانة و علم السّيميا و النّيرنجات كلّها محرّمة بالأدّلة الشّرعيّة المحكمة، كما فصلها فقهاؤنا رضوان اللّه عليهم فى أبواب المكاسب من الفقه.

و أعظم أسباب ظهور الخوارق من هذه الطايفة من جانب وليّهم ابليس، فانهم لأخذهم فى الاصول و الفروع خلاف مسلک أهل الشّرع كان للشيطان بهم مزيد عناية، و فى اعداد معدات ضلالهم و خذلانهم زيادة اهتمام، فيوحى اليهم زخرف القول غرورا حسبما عرفت سابقا، و ينطق على لسانهم و يريهم العجائب و ينبّههم بالغرائب ليطيب بذلک أنفسهم و ليقرّوا به عينا، و يفرحوا به ليثبتوهم على ما دانوا به من الدّين الفاسد، و لتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالاخرة و ليقترفوا ما هم مقترفون و لئن سلّمنا أنّ صدور العجائب و الغرائب منهم مستند الى اللّه سبحانه كاستجابة دعواتهم و تأثير أنفاسهم فهو أيضا لا يدلّ على القرب و الزّلفى مع زيغهم عن نهج الهدى و ضلالهم عن الحنيفية البيضاء، لجواز كون ذلک من قبيل الاستدراج.

بيان ذلک أنهم لما تحملوا المشاق و ارتاضوا بالرّياضات الشاقة نيلا إلى ما طلبوه من الارباب الدنيوية، فلا يبعد أن يؤتيهم اللّه ما طلبوه بمقتضى رحمته الرحمانية فانه تعالى لا يضيع عمل عامل برا كان أو فاجرا كما ورد فى الأخبار، و قال فى كتابه

الكريم: من كـان يريـد حرث الـدنيا نزد له فى حرثه و مـا له فى الآخرة من خلاق و قال: «فَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِى الـدُّنْيا وَ ما لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النّارِ أُولئِکَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمّا كَسَبُوا ».

و يقرب ما ذكرناه أنّ الشـيطان بعد ما عبد اللّه تعالى فى السـماوات سـتة آلاف سنة، ثمّ صار رجيما بإبائه عن السجود لادم أعطاه اللّه النظرة جزاء لعمله، و سلّطه على ابن آدم و أعطاه ساير ما سأل حسبما عرفته فى شرح الخطبة الاولى.

و مثله أنّ فرعون اللعين مع قوله: أنا ربكم الأعلى، أمهله اللّه أربعمائـة عام لحسن خلقه و كونه سـهل الحجاب، و اسـتجاب دعاءه فى إجراء النّيـل، فـانّه لمّـا غـار النّيل و أتاه أهل مملكته و سألوه إجراءه فخرج معهم إلى الصّـعيد و تنحّى عنهم حيث لا يرونه و لا يسـمعون كلامه، فألصق خـدّه بالأرض و أشار بالسّـبابة و قال: اللهمّ إنّى خرجت اليک خروج العبد الذّليل إلى سـيّده و إنّى أعلم أنّک تعلم أنّه لا يقدر على إجرائه أحـد غيرک فأجره، قال: فجرى النّيل جريا لم يجر مثله، فأتاهم و قال لهم: إنّى قد أجريت لكم النّيل فخرّوا له سـجّدا، رواه فى البحار من علـل الشـرائع و أوضـح من ذلـک كلّه أنّ كفّار الهنـد مع ما هم عليه من الكفر و الجحود ربما يخبرون بالمغيبات إذا تكلّفوا بالمشاق و الرّياضات.

قال السّـيد المحدّث الجزائرى فى الأنوار النّعمانيّة: و ربّما جرت على أيديهم الأفعال العجيبة و الامور الغريبة و ليس هذا إلاّ جزاء لأفعالهم و رياضاتهم الّتى زعموا أنّها عبادة، و قد شاهدت فى اصـفهان فى عشـر السّبعين بعد الألف رجلا من كفّار الهند رافعا يديه إلى السّماء و قد يبسـتا و صارت أظفاره كالمناجل فرأيت الكفّار يعظّمونه و يسـجدون له فسألتهم عن أحواله فقالوا له سـبع سـنين على هذه الحالة و بقى له خمس سـنين حتّى يكون المجموع اثنا عشر سنة فاذا بلغ إلى هذا العدد و هو على هذا الحال صار شيخا فى العبادة يخبر بالأخبار الغايبة و تنكشف له الامور، و رأيت انسانا جالسا إلى جانبه و الكفّار تعظّمه أيضا فقيل لى: إنّ هذا وقف

على رجليه اثنى عشر سنة لم يجلس على الأرض إلى غير ذلک من الرّياضات، انتهى فقد تحصل ممّا ذكرنا كلّه أنّ ظهور العجايب و الغرايب تارة يكون مستندا إلى أسباب صحيحة و اخرى إلى مقدّمات فاسدة و أنّ المدار فى الكرامات على صحّة الاعتقاد و مواظبة الرّياضات الشّرعيّة.

و على ذلک فاذا رأيت من أحد امورا خارقة للعادات أو إخبارا عن الغايبات أو استجابة للدّعوات، فلا تحكم بمجرّد رؤية ذلک على أنّه من أهل الزهد و الصلاح و الفوز و الفلاح و أنّ ذلک من فضل اللّه عليه، بل انظر إلى عقيدته و عمله.

فان كان موافقا للاصول الشرعيّة و القواعد لمذهب الحقّة الاماميّة، فاعلم أنّ ما ظهر منه كرامة و تفضّل من اللّه الكريم إليه و لطف ربّانى فى حقّه و ذلک فضل اللّه يؤتيه من يشاء و اللّه ذو الفضل العظيم.

و ان لم يكن كذلک سواء كان كافرا أو مسلما سنيّا أو اماميّا آخذا فى سلوک طريق العبوديّة غير ما قرّره صاحب الشّريعة، فليس ما يظهر منه بكرامة و إنّما هو وزر و وبال، معقّب لويل و نكال لاستناده إمّا إلى مقدّمات فاسدة و أسباب محرّمة أو إلى إضلال شيطانى أو إلى استدراج رحمانى كما قال تعالى: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ »

المقام السابع - فى مطاعن الصوفية

اشارة

و ذكر ما ذكره أساطين علمائنا الأعلام و مشايخنا العظام قدّس اللّه ضرايحهم و طيّب اللّه أرماسهم، و ما صدر من غيرهم من علمائنا الأبرار و فقهائنا الأخيار من الفرقة النّاجية الامامية رضوان اللّه عليهم، و من علماء العامّة العمياء أيضا من الطّعن و الازراء على هذه الطايفة و كشف سوءاتهم و فضايحهم بعناوين مختلفة بعضها بعنوان العموم و بعضها بعنوان الاختصاص بطايفة خاصّة منهم، و بعضها على صوفية زمانه، و بعضها على شخص معيّن منهم خذلهم اللّه جميعا، فأقول و باللّه التوفيق:

منهم رئيس المحدّثين و المتألهين الشّيخ الصّدوق أبو جعفر محمّد بن علىّ بن

الحسين بن بابويه القمّى قدّس اللّه روحه فقد قال فى اعتقاداته حسبما نقلنا عنه فى المقام الخامس:

علامة الحلاجيّة من الغلاة دعوى التجلّى بالعبادة مع تدينهم بترك الصّلاة و جميع الفرائض، و دعوى المعرفة بأسماء اللّه العظام، و دعوى انطباع الحقّ لهم فانّ الولىّ اذا خلص و عرف مذهبهم فهو عندهم أفضل من الأنبياء، و من علامتهم أيضا دعوى علم الكيميا و لا يعلمون إلاّ الدّغل و تلفيق الشّبه و الرّصاص على المسلمين اللهمّ لا تجعلنا منهم و العنهم جميعا.

و منهم الحبر المتبحّر الفريد الشيخ المفيد محمّد بن محمّد بن النعمان بن عبد السلام رفع اللّه فى عليّين له المقام.

فقد ألف فى الرّد على الحلاجيّة كتابا مخصوصا كما ذكره النّجاشى و ساير علماء الرّجال فى تضاعيف تعداد كتبه، و لم أظفر بعد على أصل نسخة الكتاب و نقلنا عنه فى أوائل المقام الثّالث من شرح عقايده للصّدوق كلاما متضمّنا للطعن عليهم.

و منهم شيخ الطائفة الحقّة و رئيس الفرقة المحقّة الشيخ المطلق محمّد بن الحسن الطّوسى قدّس سرّه القدّوسى.

فقد نقلنا عنه من كتاب الغيبة له فى المقام الخامس من الطّعن و الازراء على الحلاج ما عرفت.

و قال فى ذلک الكتاب أيضا قال الصّفوانى: سمعت أبا علىّ بن همام يقول:

سمعت محمّد بن علىّ العزاقرى الشلمغانى يقول. إنّ الحقّ واحد و إنّما تختلف قمصه، فيوم يكون فى أبيض، و يوم يكون فى أحمر، و يوم يكون فى أزرق، قال ابن همام: فهذا أوّل ما انكرته من قوله لأنّه قول أصحاب الحلول.

أقول: و هذا مثل ما قاله بعض متأخّرى الصّوفيّة فى كتابه المسمّى بمنهاج الولاية: تفطّن للذّة أهل العشق الانسانى من رؤية معشوقهم، فانّ اللّه تجلّى فى صورة العاشق بالعاشقيّة، و فى صورة المعشوق بالمعشوقيّة بحيث يتصوّر العاشق معشوقه غيره تصوّرا صحيحا، لأنّهما غيران فى تعيّنهما و إن كان الحقّ المتجلّى

فيهما واحـدا ليحصل اللّذة الأتمّ الأكمل، يسـمّى أهل المحبّة ذلک التجلّى الثنوى تجلّى المكر و الخديعـة، لأنّه يتجلّى لنفسه بنفسه فى مظهرين بحث لا يعلمان اتّحاد المتجلّى و المتجلّى له.

عاشق خود كه بود معشوق خود بهر لذّت در دو پيكر سرزند

انتهى و هـذا كفر عظيم و الحاد قبيـح لا يتصوّر فوقه كفر، لعن اللّه القائل به و المعتقد له ملاء السـماوات و الأرضـين و عذّبه عذابا اليما لا يعذّبه أحدا من العالمين.

و عن شرح كتاب التّوحيد للشّيخ أبى منصور الماتريدى شيخ الطايفة الماتريديّة قال:

قال قوم من الصّوفيّة: إذا رأيت غلاما أمرد حسنا فانّه ربّک، و قال بعضهم:

و يسـمّون بالحلوليّة إنّ الغلام الّذى هو حسن الوجه قد حلّه بعض صفات اللّه تعالى فمن ثمّ ظهر فيه آثار القدرة و يسمّونه شاهدا و يقولون: إنا نشاهد فيه بعض الصفات و يحبّونه و يعانقونه و يقبّلونه و يقولون: إنّ محبتنا إياه لهذا المعنى، انتهى.

و فى وصف حالهم و الفرق بين الأمرد و الملتحى قال بعض الشعراء:

إذا ما التحى الانسان طار جماله فلحيته ريش يطير به الحسن

و منهم آية اللّه فى العالمين جمال الملّة و الدّين العلامة الحلّى أعلى اللّه مقامه فى محكى كلامه من رسالته التى سماها بالسعدية:

إنّ اللّه تعالى لا يحلّ فى غيره و لا يتّحد بغيره، هذا مذهب طوايف المسلمين إلاّ ما نقل خواجه نصير الملة و الحقّ و الدّين قدّس اللّه روحه عن الصوفيـة أنهم يـذهبون إلى أنّ اللّه يحلّ أبـدان العارفين و يتّحـد بهم، و هذا مذهب ردىّ، لأنّ الضـرورة قاضـية ببطلان الاتحاد، فانه لا يعقل صـيرورة شـيئين شـيئا واحـدا بغير ممازجـة و لا انفعال و لا زيادة فى مقـدار أو كمّ، و الحلول غير معقول فى حقّ واجب الوجود، فانّ المجرّد لـذاته لاـ يمكن أن يحـلّ الماديـات و لاـ غيرهـا، و لأنّ الحالّ مفتقر فى قيامه إلى المحلّ فكلّ مفتقر ممكن و واجب الوجود ليس بممكن فلا يكون حالاّ،

و إذا بطل هذا المذهب ثبت الأول.

و قال أيضا فى كتاب نهج الحقّ: إنّ اللّه لا يتّحد بغيره، و الضرورة قاضية ببطلان الاتحاد، فانه لا يعقل صيرورة الشيئين شيئا واحدا، و خالف فى ذلک جماعة من الصوفية من الجمهور، فحكموا أنّ اللّه تعالى يتّحد بأبدان العارفين حتى تمادى بعضهم و قال: انه تعالى نفس الوجود، فكلّ موجود هو اللّه تعالى، و هذا عين الكفر و الالحاد، الحمد للّه الذى فضلنا باتباع أهل البيت عليهم السّلام دون أهل الأهواء الباطلة.

ثمّ قال رضى اللّه عنه: و انه تعالى لا يحلّ فى غيره لأنه من المعلوم القطعى أنّ الحالّ مفتقر إلى المحلّ، و الضرورة قاضية بأنّ كلّ مفتقر إلى الغير ممكن، فلو كان اللّه تعالى حالاّ فى غيره لزم امكانه فلا يكون واجبا هذا خلف.

و خالفت الصوفية من الجمهور فى ذلک، و جوّزوا عليه الحلول فى أبدان العارفين تعالى اللّه عن ذلک علوّا كبيرا.

فانظر إلى هؤلاء المشايخ الّذين يتبرّكون بمشاهدهم كيف اعتقادهم فى ربّهم و تجويزهم عليه تارة الحلول و اخرى الاتحاد، و عبادتهم الرّقص و التصفيق و الغناء، و قد عاب اللّه تعالى على أهل الجاهلية الكفار فى ذلک فقال عزّ من قائل: «وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً » أى تغفيل أبلغ من تغفيل من يتبرّک بمن يتعبّد اللّه بما عاب به الكفار، فانها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

و منهم الشيخ السعيد و القطب المجيد الفقيه المتبحّر الاكمل المعروف بالشهيد الأوّل شمس الملة و الدّين أبو عبد اللّه محمّد بن جمال الدّين المكى رفع اللّه درجته كما شرف خاتمته، فى الدّروس فى كتاب الوقف منه فى بيان مصارف الوقف:

و الصوفية المشتغلون بالعبادة و المعرضون عن الدّنيا و الأقرب اشتراط الفقر و العدالة فيهم لتحقّق المعنى المقتضية للفضيلة و أولى منه اشتراط أن لا يخرجوا عن الشريعة المحقّة، و فى اشتراط ترک الحرفة تردّد، و يحتمل استثناء التوريق و الخياطة و ما يمكن فعلها فى الرّباط، و لا يشترط سكنى الرّباط و لا لبس الخرقة من الشيخ و لا زىّ مخصوص، انتهى.

ص:365

فانّ اشتراطه للعدالة و عدم الخروج من الشريعة المحقّة صريح فى أنّ الفاقد.

للوصفين ليس له من التّصوف إلاّ الاسم و لا فضيلة له أصلا.

و قد أفصح عن ذلک فى أشعاره الرّائقة الفائقة المحكيّة عنه فى روضات الجنات برواية السيّد محمّد العاملى رحمة اللّه عليه قال:

بالشوق و الذّوق نالوا عزّة الشرف لا بالدّلوف و لا بالعجب و الصّلف

و مذهب القوم أخلاق مطهّرة بها تخلّقت الأجساد فى النّطف

صبر و شكر و ايثار و مخمصة و أنفس تقطع الانفاس باللّهف

و الزّهد فى كلّ فان لا بقاء له كما مضت سنّة الأخيار و السلف

قوم لتصفية الأرواح قد عملوا و أسلموا عرض الأشباح للتّلف

ما ضرّهم رثّ أطمار و لا خلق كالدّر ما ضرّه مخلولق الصّدف

لا بالتخلّق بالمعروف تعرفهم و لا التّكلّف فى شىء من الكلف

يا شقوتا قد تولّت امّة سلفت حتّى تخلفت فى خلف من الخلف

ينمّقون تزاوير الغرور لنا بالزّور و البهت و البهتان و السرف

ليس التّصوف عكّازا و مسبحة كلاّ و لا الفقر رؤيا ذلک الشرف

و ان تروح و تغدو فى مرفّعة و تحتها موبقات الكبر و السرف

و تظهر الزّهد فى الدّنيا و أنت على عكوفها كعكوف الكلب فى الجيف

الفقر سرّ و عنک النفس تحجبه فارفع حجابک تجلو ظلمة التّلف

و فارق الجنس و اقر النفس فى نفس و غب عن الحسّ و اجلب دمعة الأسف

و اتل المثانى و وحّد إن عزمت على ذكر الحبيب وصف ما شئت و اتّصف

و اخضع له و تذلّل إذ دعيت له و اعرف محلّک من اباک و اعترف

وقف على عرفات الذّل منكسرا و حول كعبة عرفان الصفا فطف

و ادخل إلى خلوة الأفكار مبتكرا وعد إلى حانة الأذكار بالصحف

و إن سقاک مدیر الرّاح من یده کأس التجلّی فخذ بالکأس و اغترف

و اشرب و اسق و لا تبخل علی ظمماء فان رجعت بلا ریّ فوا أسفی

ص:366

أقول ما ذكره «قـد» فى مطلع القصـيدة و ذيلها هو الزّهد الحقيقى و روح الفقر و حقيقة العرفان الّذى حثّ عليه الرّسل و الأنبياء و ندب إليه الحجج و الأولياء، و لأجله انزال الصّحف و الكتب من السّماء فان كان التّصوّف عبارة عن ذلک فنفسى للمتّصفين به الفداء و أجزل اللّه لهم الجزاء.

و إن كان عبارة عن التصـنّع و التكلف و الرّياء و التّصـلّف و التّطريب بالغزليات و الاشـعار و التّرنّم بمخترعات الأذكار بخفيّها و جليّها آناء الليل و أطراف النّهار، مثل النّهيق و الشّهيق للحمار فويل لمن حاله ذلک من النار، ثمّ ويل له من سخط القهّار.

ثمّ أقول: للّه درّ الشـهيد فانّه مع كونه من العلماء الأعيان و الفقهاء الأركان انظر إلى غاية ارتفاعه فى مراتب الذوق و العرفان، و أخذه لقصب السّبق فى مضـمار القريض و البيان، و تدبّر فى لطايف نظمه من بديع الاسـلوب و محاسن البلاغة و حسن الانسـجام و الرّقة و السـلاسة و النّظام، و لعمرى أنّه أرقّ و أروح من نسـيم السّحر، و آخذ لقلوب العارفين من سحر السّاحر إذا سحر، و أحلى عند أهل الذّوق من الشّهد و الشكر.

و منهم الشـيخ الامام و العلم العلاّم و قدوة علماء الاسلام الغائص فى بحار المعالى و المعانى المشتهر بالشهيد الثانى زين الدّين ابن علىّ بن أحمد بن محمّد بن علىّ العاملى الشّامى أفاض اللّه على تربته سـجال رحمته، و أسكنه فى بحبوحة جنّته قال فى محكى كلامه من شرح رسالته الّتى كتبها فى علم دراية الحديث عند ذكر أصناف الواصفين «الواضعين ظ» للأحاديث الكاذبة:

و أعظمهم ضررا من انتسب منهم إلى الزّهد و الصّلاح بغير علم فاحتسب بوضعه أى زعم أنّه وضعه حسبة للّه و تقرّبا اليه ليجذب بها قلوب النّاس إلى اللّه بـالتّرهيب و التّرغيب، فقبل النّاس موضوعاتهم ثقـة منهم بهم، و ركونا اليهم لظاهر حالهم بالصّلاح و الزّهـد، و يظهر لک ذلک من أحوال النّاس الّتى وضعها هؤلاء فى الوعظ

و الزّهـد، و ضـمّنوها أخبار عنهم و نسـبوا اليهم أفعالا و أحوالا خارقة للعادة، و كرامات لم يتّفق مثلها لاولى العزم من الرّسل بحيث يقطع العقل بكونها موضوعـة و ان كانت كرامات الأولياء ممكنة فى نفسـها - إلى آخر ما يأتى نقله فى شـرح المختار الاتى إنشاء اللّه تعالى، و فى آخر كلامه حسبما يأتى تصريح بأنّ مراده بهذه الطايفة هو الصوفية.

و قال فى كتاب منيـة المريد: عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنه قال: إذا مررتم فى رياض الجنّة فارتعوا، قالوا: يا رسول اللّه و ما رياض الجنّة؟ قال: حلق الذّكر،(1) فانّ للّه سيّارات من الملائكة يطلبون حلق الذّكر، فاذا أتوا عليهم حفّوا بهم.

قال بعض العلماء: حلق الذّكر هى مجالس الحلال و الحرام كيف يشترى و يبيع و يصلّى و يصوم و ينكح و يطلق، انتهى.

فانه صريح فى الطعن على الصوفية القائلين بأنّ المراد بحلق الذكر مجالس الذّكر الجلىّ لهم.

و قـد صـرّح بـذلک فى البحار حيث قال: حلق الـذكر المجالس التى يـذكر فيها اللّه على قانون الشـرع و يذكر فيها علوم أهل البيت عليهم السّلام و فضايلهم و مجالس الوعظ الـذى يـذكر فيها وعده و وعيده، لا المجالس المبتدعة المخترعة التى يعصـى اللّه فيها، فانها مجالس الغفلة لا حلق الذكر، انتهى.

و العجب من المتصوّفة الذهبية يزعمون أنّ الشهيد «قد» منهم و يذكرون فى تأليفاتهم أنه من طبقاتهم قصدا بذلک رواج بدعاتهم و إن هذه النسبة إلاّ اختلاق و افتراء، و أين الثرى من الثرياء، و أعيان العلماء من الجاهلية الجهلاء، و الظلام من الضياء، و أىّ نسبة بين الزّبد و السيل، و النهار و الليل، و السهل و السهيل.

و كيف يكون مثل الشهيد الذى عقمت النساء أن يلدن مثل هذا الدّر اليتيم

1- (1) - قوله: حلق الـذكر و هو بكسـر الحاء و فتح اللام جمع حلقة كقصـعة و قصع و هو الجماعة من الناس يسـتديرون كحلقة الباب و غيره، هكذا فى النهاية، و قال الجوهرى: جمع الحلقة حلق بفتح الحاء، منه.

الفريـد المتقلّب فى فنون العلوم الدّائر فى أدوار الفروع و الاصول، و السائر فى أطوار المعقول و المنقول، الصّاعد مصاعد الدّقايق، و العارج معارج الحقائق، الموزع أوقاته فى اصـلاح أمر المعاش و المعاد، الموظف نهاره فى التّصنيف و التّأليف و التدريس و البحث و الاجتهاد، و ليله فى الاحتطاب لقوت عياله و الصّلاة و الدّعاء و مناجاة ربّ العباد، من الصّوفية الّذين لا يعرفون من الشريعة إلاّ الاسم، و من الطريقة إلاّ الرّسم، و بين مذاق المجتهدين و الصّوفيّين بون بعيد بعد المشرقين.

فانّ مـدار الأولين فى مقام العلم على الاسـتدلال و الاجتهاد و الاسـتنباط، و الأخذ بظواهر المحكمات من الايات و الرّوايات، و فى مقام العمل على العبادات الموظفات و الأذكار المأثورات.

و مـدار الاخرين فى مقام العلم على دعوى الكشف و الشـهود و الأخـذ بالمتشابهات فى ترويج بضاعتهم المزجاة، و فى مقام العمل على بدعات العادات و الرّياضات، و مخترعات الأذكار و العبادات.

و بالجملة فالمدار على الحقيقة دون الاسم، و على المعنى دون اللفظ.

فمن كـان سالكـا مسالـک الشـريعة آخـذا بحـدودها و قوانينهـا المتقنـة فى الاـصول و الفروع، مواظبا على الحلال و الحرام، و التكاليف و الأحكام، فنعم الرّجل هو.

و من كان بخلاف ذلک فبئس الرّجل، فان كان المسـمّى بلفظ الصوفى و المراد به حيثما يطلق هو الأوّل فلا مشاحة فى التّسمية، و إن أرادوا به الثانى فويل لمن حاله ذلک، ثمّ ويل له من وقوعه فى المهاوى و المهالک.

و منهم عمـدة العلماء المتّقين، و نخبـة الأتقياء المرتقين محمّد تقىّ بن مقصود علىّ المشـتهر بالمجلسـىّ الأوّل أفاض اللّه على روحه من شابيب الرّحمة، قال فى محكى كلامه من شرح الفقيه عند شرح ما رواه الصّدوق عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قوله:

بادروا إلى رياض الجنّة قالوا: يا رسول اللّه و ما رياض الجنّة؟ قال: حلق الذّكر:

قوله: حلق الذّكر، أى المجامع الّتى يطلب فيها العلوم الدّينيّة، فانّ الحلق الّتى وصـلت إلينا من طرق الأصـحاب إلى النّبىّ و الأئمّة صلوات اللّه عليهم هى

هذه أو مجامع الوعظ كما روى عنهم عليهم السّلام أنّهم كانوا يعظون.

و أمّا الّتى اشتهرت من الاجتماع للذّكر الجلى فلم يصل علينا عنهم صلوات اللّه عليهم و هذه بطرق العامّة أشبه، كما رواه الكلينى فى القوى عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال: من ذكر اللّه فى السّر فقد ذكر اللّه كثيرا إنّ المنافقين كانوا يذكرون اللّه علانية و لا يذكرونه فى السّر، فقال عزّ و جلّ: «يُراؤُنَ النّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاّ قَلِيلاً » إلى آخر ما أورده رضى اللّه عنه فيه من الأحاديث الدّالة على نفاقهم و فساد طريقتهم و مناقضتها لطريقة أصحاب الأئمّة صلوات اللّه عليهم، و ا شوقاه إلى تلك الأشباح، سلام اللّه على تلك الأرواح، رحل اولئک السّادة، و بقى قرناء الوسادة، انتهى كلامه رفع مقامه.

أقول: و هذا الرّجل كان أفضل أهل عصره فى فهم الحديث، و أحرسهم على إحيائه، و أعلمهم برجاله، و أعملهم بموجبه، و أعدلهم فى الدّين، و أقواهم فى النفس، و أجلّهم فى القدر، و أزهدهم فى الدّنيا، و أكملهم فى التّقوى، و أوقفهم لدى الشّبهات، و أجهدهم فى العبادات.

و قد كتب حاشية نافعة على الفقيه و شرحا جامعا على الخطبة المأة و الثّانية و التسعين المسوقة لوصف حال المتّقين، بل قيل: إنّه أوّل من نشر حديث الشيعة بعد انتهاء السّلطنة إلى سلاطين الصّفويّة.

و مع ذلک كلّه فالعجب أنّه اشتهر بين الصّوفية نسبته إلى التّصوف، و ربّما ينسب إليه كتاب صغير مؤلّف على مذاق المتصوّفة، و هو بعيد منه غاية البعد، بل الظّاهر أنّه افتراء فى حقّه.

و يشهد بذلک ما قاله ابنه المحدّث العلامة المجلسى الثانى قدّس اللّه رمسه فى آخر رسالة اعتقاداته ما صريح عبارته:

و ايّاک أن تظنّ بالوالد العلامة نور اللّه ضريحه أنّه كان من الصوفيّة و يعتقد مسالكهم و مذاهبهم، حاشاه عن ذلک، و كيف يكون كذلک؟ و هو كان آنس أهل زمانه بأخبار أهل البيت، و أعملهم و أعملهم بها، بل كان مالک الزّهد و الورع، و كان

فی بدو أمره یتسمّی باسم التصوّف لیرغب الیه هذه الطایفة و لا یستوحشوا منه فیردعهم عن تلک الاقاویل الفاسدة و الأعمال المبتدعة، و قد هدی کثیرا منهم إلی الحقّ بهذه المجادلة الحسنة، و لما رأی فی آخر عمره أنّ تلک المصلحة قد ضاعت و رفعت أعلام الضلال و الطغیان و غلبت أحزاب الشیطان و علم أنهم أعداء اللّه صریحا تبرّء منهم، و کان یکفرهم فی عقایدهم الباطلة، و أنا أعرف بطریقته و عندی خطوطه فی ذلک، انتهی کلامه رفع اللّه مقامه.

و شهادة مثل العلامة المجلسی علی براءة ساحة رجل أجنبی من دنس نسبة ردیة کافیة فی تزکیته و طهارته، فکیف فی حقّ والده مع خبرویته بسرّه و علانیته، فانّ الولد سرّ أبیه، و أهل البیت أدری بما فیه.

و منهم غوّاص بحار أنوار الأخبار، ناشر ماثر الأطهار الأخیار، مروّج مذهب الشیعة فی الأصقاع و الأقطار، محیی شریعة سید المرسلین، راغم انوف المخالفین و المعتدین، دامغ صولات أضالیل المبطلین، و أباطیل المبدعین، سیما الصوفیة المبتدعین محمّد باقر بن محمّد تقی المتقدّم الذکر المشهور بالعلامة المجلسی أفاض اللّه علی روحه نور القدوسی.

فانّه قد بثّ فی تصانیه من مطاعن الصوفیّة ما هو فوق حدّ الاحصاء، متجاوز عن طور الاستقصاء و لا بأس بالاشارة إلی بعضها، فأقول:

منها ما ذکره فی رسالة اعتقاداته تصریحا و تلویحا بل یفهم من دیباجتها أنّ أصل غرضه من وضع تلک الرّسالة إبطال مذهب هذه الفئة الضالّة حیث قال بعد حمد اللّه و ثنائه و الصلاة عن رسول اللّه و آله:

أمّا بعد فیقول المفتاق إلی ربّه الغافر ابن محمّد تقی محمّد باقر اوتیا کتابهما یمینا و حوسبا حسابا یسیرا: إنّه قد سألنی بعض من هداه اللّه إلی طلب مسالک الحقّ و الرّشاد، و أودع قلبه خوف المعاد أن ابیّن له ما هدانی اللّه الیه من طریق النّجاة فی هذا الزّمان الّذی اشتبه علی النّاس الطرق، و أظلم علیهم المسالک، و استحوذ الشّیطان علی أولیائه فأوردهم المهالک، فنصب الشّیطان و أحزابه من الجنّ و الانس

على طريق السّالكين فخوخهم و مصائدهم يمينا و شمالا، و مشوا لهم على مثال الحقّ بدعة و ضلالا، فوجب علىّ أن ابيّن لهم مناهج الحقّ و النجاة بأعلام نيّرة و دلائل واضحة و إن كنت على وجل من فراعنة أهل البدع و طغاتهم.

فاعلموا يا اخوانى أنّى لا الوكم نصحا و لا أطوى عنكم كشحا فى بيان ما ظهر لى من الحقّ و ان ارغمت منه المراغم، و لا أخاف فى اللّه لومة لائم.

و ساق الكلام فى فضل النّبى و أهل بيته سلام اللّه عليه و عليهم و كونهم المقصودين من ايجاد عالم الوجود و المخصوصين بالشفاعة الكبرى و المقام المحمود و انّهم وسايط الفيوضات النّازلة و النّعم الواصلة من اللّه سبحانه إلى عباده فى هذه النّشأة و النّشأة الاخرة، إلى أن ذكر وجوب متابعة النّبى بنصّ قوله تعالى: «وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فى اصول الدّين و فروعه و امور المعاش و المعاد ثمّ ذكر أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أودع حكمه و معارفه و أحكامه و آثاره و ما نزل عليه من الايات القرآنية و المعجزات الرّبّانيّة فى أهل بيته، ثمّ إنّهم تركوا بيننا أخبارهم فليس لنا فى هذا الزّمان إلاّ التّمسک بأخبارهم و التّدبّر فى آثارهم، فترک النّاس فى زماننا آثار أهل بيت نبيّهم و استبدّوا بارائهم، فمنهم من سلک مسلک الحكماء الّذين ضلّوا و أضلّوا و لم يقرّوا بنبىّ و لم يؤمنوا بكتاب، و اعتمدوا على عقولهم الفاسدة و آرائهم الكاسدة فاتخذوهم أئمّة و قادة، و معاذا اللّه أن يتكل النّاس على عقولهم فى اصول العقائد فيتحيّرون فى مراتع الحيوانات إلى أن قال:

و طائفة من أهل دهرنا اتّخذوا البدع دينا يعبدون اللّه به و سموه بالتصوّف فاتّخذوا الرّهبانية عبادة مع أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد نهى عنها و أمر بالتزويج و معاشرة الخلق و الحضور فى الجماعات و الاجتماع من المؤمنين فى مجالسهم و هداية بعضهم بعضا و تعلّم أحكامها و تعليمها، و عيادة المرضى و تشييع الجنائز و زيارة المؤمنين و السّعى فى حوائجهم و الأمر بالمعروف و النّهى عن المنكر و إقامة حدود اللّه و نشر

أحكامه، و الرّهبانيّة الّتى ابتدعوها تستلزم ترک جميع الفرائض و السّنن ثمّ انّهم فى تلک الرّهبانية أحدثوا عبادات مخترعة.

فمنها الـذّکر الّـذى هو عمل خاصّ على هيئة خاصّة لم يرد به نصّ و لا خبر و لم يوجد فى کتاب و لا أثر، و مثل بدعة محرّمة بلا شکّ و لا ريب قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم کلّ بدعة ضلالة و کلّ ضلالة سبيلها إلى النّار.

و منها الذّکر الجلىّ الّذى يتغنّون فيه بالاشـعار و يشهقون شهيق الحمار، يعبدون اللّه تعالى بالمکاء و التّصدية، و يزعمون أن ليس عبادة إلاّ هـذين الـذّکرين المبتدعين، و يتركون جميع السّـنن و النّوافل و يقنعون من الصّـلاة الفريضة بنقرة کنقرة الغراب و لو لا خوف العلماء لکانوا يتركونها رأسا.

ثمّ إنّهم امّـة لا يقنعون بالبـدع، بل يحرّفون اصول الـدّين و يقولون بوحدة الوجود، و المعنى المشـهور فى هذا المسـموع من مشايخهم کفر باللّه العظيم، و يقولون بالجبر و سقوط العبادات و غيرها من الاصول الفاسدة السخيفة.

فاحذروا يا اخوانى و احفظوا ايمانکم و أديانکم من وساوس هؤلاء الشّـياطين و تسويلاتهم، و ايّاکم أن تنخدعوا عن أطوارهم المتّصفة الّتى تعلّقت بقلوب الجاهلين.

فهـا أنا ذا احرّر مجملا ما تبيّن لى من الأخبار المتواترة من اصول المـذهب لئلا تضـلّوا بخـدعهم و غرورهم، و اتمّم حجّـة ربکم عليکم و اؤدّى ما وصل إلىّ من مواليکم إليکم ليهلک من هلک عن بيّنة و يحيى من حى عن بيّنة، و أتلو عليکم ما أردت ايراده فى بابين:

البـاب الأوّل فيما يتعلّق باصول العقائـد، و ساق الکلام فيه على اصول المتشـرّعة، و قال فى تضاعيفه و القول بحلوله تعالى فى غيره کما قال بعض الصوفية و الغلاة أو اتّحاده مع غيره کما قاله بعض الصّوفيّة کفر إلى أن قال:

الباب الثّانى فيما يتعلّق بکيفيّـة العمل، قد علمت يا خليلى ما أثبتناه أوّلا من لزوم متابعة أهل بيت العصـمة سـلام اللّه عليهم فى أقوالهم و أفعالهم و التّدبّر

فی أخبارهم و آثارهم.

فاعلم انّ الخیر کلّ الخیر وجدنا فی أخبارهم إذ ما من حکمة من الحکم الالهیّة إلاّ و هی فیها مصرحة مشروحة لمن أتاها بقلب سلیم و عقل مستقیم، لم یعوج عقله بسلوک طریق الضّلال، و لم یأنس فهمه بأطوار أهل الزّیغ و الرّدی.

و طریق الوصول إلی النّجاة و الفوز بالسّعادات ظاهرة بینة فیها لمن رفع غشاوة الهوی عن بصیرته، و توسل إلی ربّه فی تصحیح نیته، و قد قال اللّه تعالی:

«وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا » و محال أن یخلف اللّه وعده إذا أتی اللّه من الأبواب التی أمر اللّه أن یؤتی منها.

فالذی یجب أوّلا للسالک إلی اللّه أن یصحّح نیته، لأنّ مدار الأعمال فی قبولها و کمالها علی مراتب النیات و لا یتأتی ذلک إلاّ بالتوسل التام بجنابه تعالی و الاستعاذة من شرّ الشیاطین و غلبة الأهواء إلی أن قال: فاذا توسل السالک بجنابه تعالی و صحّ نیته بقدر الجهد فی بدو الأمر یطلب ما یعلم أنّ خیر آخرته فیه و لا یبالی بأن یعدّه أهل الزّمان و جهلة الدّوران حشویا أو قشریا أو زاهدا خشکا أو ینسبونه إلی الجهل.

و إذا کان بهذه المنزلة یظهر له الحقّ عیانا فینبغی أن یبتغی بعد ذلک معلما مستأنسا بکلام أهل البیت و أخبارهم مصدّقة إلیها لا من یؤوّل الأخبار بالاراء بل من صحّ عقایده عن الأخبار و یشرع فی طلب العلم ابتغاء وجه اللّه و طلب مرضاته و یتدبر فی أخبار أهل البیت علیهم السّلام و یکون مقصده التحصیل، فلا العمل ینفع بدون العلم کما ورد عن الصادق علیه السّلام أنّ العامل علی غیر بصیرة کالسائر علی غیر الطریق لا یزیده سرعة السیر إلاّ بعدا، و لا العلم ینفع بدون العمل کما روی من عمل بما علم ورّثه اللّه علم ما لم یعلم.

ثمّ ساق الکلام فی المواظبة علی العلم و العمل من الصلاة و الأدعیات المأثورات و المناجاة المعروفة بالانجیلیة و دعاء کمیل النخعی و غیرها و الصحیفة الکاملة جلّها بل کلّها إلی أن قال:

ص:374

ثمّ انّ أعظم سعادات النفس الأخلال الحسنة الزكية من المصافاة و الجود و السخاوة و الاخلاص و المسكنة و غيرها من الأخلاق الحسنة التى استحسنها الشرع و العقل.

و أقوى مهلكات النفس الأخلاق الذميمة الردية من البخل و الجبن و الكبر و العجب و الرّياء و الغضب و الحقد و غيرها من الملكات الرّدية التى استقبحها العقل و الشرع، فيجب على الانسان التخلّى عن الأخلاق السيئة و التحلّى بالأطوار المرضية.

و زعمت الصّوفيّة أنّها يحصلان بترک المألوفات، و الاعتزال عن الخلق و ارتكاب المشاق، و ملازمة الجوع المنهمک و السّهر الدّايم و ساير ما هو طورهم و دأبهم.

و إنّى وجدت من يقاس تلک الشّدايد منهم تزيد أخلاقها الرّدية و تقل أخلاقها الحسنة إذ يغلب عليه السّوداء فلا يمكن لأحد أن يتكلّم معهم بكلمة لسوء خلقهم و يقوى تكبّرهم و عجبهم بحيث يظنّون أنّهم تجاوزوا عن درجة الأنبياء و يبغضون جميع الخلق و يستوحشون منهم و كذا ساير صفاتهم لكن لا يظهر ذلک للخلق لعدم معاشرتهم و معاملتهم معهم.

و منها ما قاله فى ديباجة مرآت العقول فى شرح أخبار آل الرّسول:

إنّى لمّا ألفيت أهل دهرنا على آراء مشتّتة و أهواء مختلفة قد طارت بهم الجهالات إلى أركانها، و قاصت بهم الفتن فى غمارها، و جذبتهم الدّواعى المتنوّعة إلى أقطارها و حيّرتهم الضّلالة فى فيافيها و قفارها.

فمنهم من سمّى جهالة أخذها من حثالة من أهل الكفر و الضّلالة لشرايع النّبوّة و قواعد الرّسالة حكمة، و اتّخذ من سبقه فى تلک الحيرة و العمى أئمة يوالى من والاهم، و يعادى من عاداهم، و يفدى بنفسه من اقتفى آثارهم، و يبذل نفسه فى إنكار من أنكر آراءهم و أفكارهم، و يسعى بكلّ جهد فى إخفاء أخبار الأئمّة الهادية صلوات اللّه عليهم و إطفاء أنوارهم، و يأبى اللّه إلاّ أن يتمّ نوره و لو

كره المشركون.

و منهم من يسلک مسلک أهل البدع و الأهواء المنتهمين إلى الفقر و الفناء فليس لهم فى دنياهم و آخرتهم إلاّ الشّقاء و العناء، فضحهم اللّه عند أهل الأرض كما خذلهم عند أهل السّماء، فهم اتّخذوا الطعن على أهل الشرائع و الأديان بضاعتهم و جعلوا تحريف العقائد الحقّة و صرف النّواميس الشرعيّة من سماتها بضمّ البدع إليها صناعتهم.

و منهم من تحيّر فى جهالته يخطفهم شياطين الجنّ و الانس يمينا و شمالا، فهم فى ريبهم يتردّدون عميانا و ضلالا فبصر اللّه نفسى بحمده تعالى هداها فألهمها فجورها و تقويها، فاخترت طريق الحقّ إلى آخر ما قال.

و منها ما ذكره فى أواخر كتاب عين الحياة الّذى ألّفه بالفارسيّة فى شرح قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأبى ذرّ رضى اللّه عنه: يا با ذر يكون فى آخر الزّمان قوم يلبسون الصّوف فى صيفهم و شتائهم يرون أنّ لهم الفضل بذلک على غيرهم اولئک يلعنهم ملائكة السّماوات و الأرض، يا با ذر ألا اخبرک بأهل الجنّة؟ قلت: بلى يا رسول اللّه قال: كلّ أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه به(1) لو أقسم على اللّه لأبرّه قال (ره) ما ترجمته:

اعلم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا كان عالما بالوحى الالهى بجميع العلوم، و مطلعا بالامور الغيبيّة فمدح الفقر و التواضع لعلمه بأنه يأتى بعده قوم من أهل البدعة و الضلالة يلبسون هذا اللّباس أى لباس الصوف مكرا و تذويرا ليخدعون الناس فذكر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علامتهم و أنهم ملعونون لئلا يغترّ الناس بهم، و هذه العلامة مخصوصة بالفرقة الضالة المبتدعة الصوفية.

و هذا الكلام من جملة معجزاته حيث أخبر بهم قبل وجودهم فلا ريب فى حقيّة هذا الكلام المتضمّن للاعجاز فمن أنكره فعليه لعنة اللّه تعالى و رسوله.

و ليس منشاء استحقاقهم للّعن هو لبس الصوف بل لما كان يعلم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالوحى

1- (1) - أى لا يلتفت إليه م

الالـهى أنّ هـذه الفرقـة يبطلون شـرعه و يهـدمون أساس دينه و يعتقـدون فى العقائـد بالكفر و الزّندقـة و يتركون فى مقام العمل الموظفات الشـرعية و يعملون البـدعات و المخترعات و يصـرفون الناس عن العبادات، لعنهم لـذلک و وصـفهم بعلامتهم ليعرفهم الناس و يحـذروا منهم.

فاكشف أيها العزيز عصابـة العصبيّة من عينک، و انظر بنظر الانصاف و الاعتبار إلى كلامه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فانّه كاف فى ظهور بطلان مذهب هذه الطّايفة فضلا عن الأحاديث الكثيرة الواردة تصريحا و تلويحا فى بطلان أطوارهم و أعمالهم، و ذمّ مشايخهم و أكابرهم.

و قد ذمّهم أكثر علماء الشيعة من المتقدّمين منهم و المتأخرين و صنّف بعضهم كتابا فى الرّدّ عليهم.

مثل علىّ بن بابويه «قـد» الّذى كان بينه و بين صاحب الأمر عليه السّلام مكاتبات، و ولده الصّدوق محمّد بن بابويه رئيس المحدّثين الّذى كانت ولادته ببركة دعاء صاحب الأمر عليه السّلام و هذا الدّعاء متضمّن لمدحه أيضا.

و مثل شـيخ المفيد عماد مذهب الشّيعة الّذى كان أكثر الفضـلاء و المحدّثين من تلامذته و خرج التّوقيع من صاحب الأمر صـلوات اللّه عليه و هذا التّوقيع أيضا متضمّن لمدحه.

و مثل الشيخ الطوسى «قد» الّذى هو شيخ الطايفة المحقّة و أكثر أحاديث الشيعة إليه منسوبة.

و مثل العلامة الحلّى «قد» المشهور علما و فضلا فى الافاق.

و مثل الشـيخ الشهيد، و الشيخ على فى كتاب مطاعن المجرميّة، و ابنه الشيخ حسن فى كتاب عمدة المقام، و الشيخ العالى القدر جعفر بن محمّد الدوريستى فى كتاب الاعتقاد، و ابن حمزة فى كتب عديدة، و السـيّد مرتضـى الرازى فى كتب متعدّدة، و زبدة العلماء و المتورّعين مولينا المقدّس أحمد الأردبيلى قدّس اللّه أرواحهم و شكر اللّه مساعيهم و غيرهم من علماء الشّيعة رضوان اللّه عليهم

و نقـل كلاـم هؤلاء الأفاضل و الأعيان و ما أوردوه من الأخبار فى ذلک الباب موجب لتطويل المقال، و أكتب إنشاء اللّه كتابا مسـتقلا فى ذلک.

فان كنت معتقدا بيوم الدّين فأعد حجّتک لغدک حتّى يكون لک جواب صحيح و عذر مقبول إذا احتجّ اللّه سبحانه و تعالى عليک.

و ما أدرى بعد ورود الأخبار الصـحيحة الصّـريحة من أهل بيت الرّسالة عليهم السّـلام و شهادة هؤلاء الأعاظم و الأجلّة من علماء الشيعة على بطلان طريقة هذه الطائفة بأىّ عذر تعتذر عند اللّه سبحانه فى متابعتهم.

أ فتقول: كنت تابعا للحسن البصـرى الّذى قد وردت أحاديث عديدة فى لعنه؟ أو تابعا لسـفيان الثّورى المعلن بعداوة الصّادق عليه السّلام و المعارض له دائما؟ أو تابعا لأبى حامـد الغزالى النّاصب يقينا الّـذى كان يقول فى كتبه بالمعنى الّـذى كان علىّ إماما أنا أيضا إمام؟ و يقول: اللاّعن على يزيد لعنه اللّه مذنب، و كتب كتبا فى اللّعن و الرّد على الشيعة مثل كتاب المنقذ من الضّلال و غيره.

أو تابعـا لأـخيه الملعون أحمـد الغزالى الّـذى كـان يقول: إنّ الشّـيطان من أكابر أولياء اللّه؟ أو متشـفعا بالملا الرّومى الّـذى يقول: إنّ أمير المؤمنين يشـفع لابن ملجم المرادى عليه اللعنـة و العذاب و يدخله الجنّة و كان عليه السّـلام يقول له: لم يكن لک ذنب و إنّما كان المقدّر ذلک و كنت مجبورا فى هـذا العمل يعنى قتله عليه السّـلام، و ليست صـفحة من صـفحات المثنوى إلاّ مشـعرة بالجبر أو وحدة الوجود أو سقوط العبـادات أو غيرها من العقائـد الفاسـدة، و كما هو المشـهور بين أتباعه و تلقوه منه بالقبول: أنّ الـدّفّ و الطنبور و المزمار من جملة العبادات.

أو كنت ملتجئا بمحيى الدّين الملعون الّذى سمعت سابقا خرافاته و فضايحه و كان يقول: إنّ جماعة من أولياء اللّه يرون الرّفضة على صورة الخنزير، و يقول:

رأيت فى المعراج درجة علىّ أسفل من درجة أبى بكر و عمر و عثمان، و رأيت أبا بكر فى العرش، فلمّا رجعت قلت لعلىّ كيف كنت تدّعى فى الدّنيا أنّک أفضل من

هؤلاء و قد رايت انّک أسفل درجة منهم؟ و هذا الملعون و غيره كم لهم من هذه الكلمات الزّيفة ذكرها موجب للاطناب، فلو خدعت من دعاويهم العظيمة فلم لا تفكّر فى أنّ منشاتها لعلّه حبّ الدنيا الدّنيّة.

و إن شئت اختبار من ادّعى أنّه يعلم جميع الأسرار الغيبيّة بالكشف و أنّه يعرج كلّ ليلة عشر مرّات إلى العرش فاسأل عنه مسألة من شكوک الصلاة أو من المواريث أو حديثا مشكلا من الأحاديث فان كان صادقا فيما ادّعاه فيجيبک عن هذه المسائل أيضا.

و قد روى عن الصّادق عليه السّلام بسند صحيح أنّه قال: علامة الكذّاب أنّه يخبرک بأخبار السّماء و الأرض و المشرق و المغرب، و لئن سألته عن الحلال و الحرام لا يعلم.

و العجب أنّ هذا الرّجل الّذى يدّعى أنّه يعرف وحدة الوجود على غموضها مع قصور عقول جميع الفضلاء الأذكياء من فهمها كيف لا يعرف معنى سهلا و لو لقن عليه خمسين مرّة، و كيف لا يفهم أولو الأفهام الثّاقبة ما ادّعى ذلک الرّجل فهمه.

و أيضا فانّهم مع اعترافهم باجتماع الكشف مع الكفر كما فى كفّار الهند فعلى فرض صحّة ما ادّعوه من الكشف و أنّ له حقيقة فأىّ منقبة فى هذا الكشف و أىّ دلالة فيه على فضل صاحبه و كماله.

و لمّا كان مجال الكلام فى هذا المرام واسعا اقتصرت فى هذا المقام على ذلک و اوردت فى أوّل الكتاب و فى مواضع عديدة منه ما فيه كفاية لطالب الهداية.

ثمّ ختم المقام «قد» بذكر أحاديث متضمّنة للطّعن و الازراء عليهم و سنشير إلى بعضها إنشاء اللّه فى المقام الاتى فانتظر.

و ذكر قدّس اللّه روحه أيضا فى هذا الكتاب فى شرح قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا با ذر جعل اللّه جلّ ثناؤه قرّة عينى فى الصلاة آه لمعات عشر متضمّنة للطعن و الملام على هذه الطائفة، و قال فى اللّمعة العاشرة المتضمّنة لبيان معنى الذكر بعد جملة من الكلام ما ترجمته:

و اعلم أنه قد شاع بين الصّوفيّة نوعان من الذّكر و كلاهما بدعة و هم يزعمون أنّهما من أفضل العبادات و يصرفون أوقاتهم فيهما و يضلّون النّاس بالمداومة عليهما الاول الذّكر الجلىّ و هو مشتمل على امور.

الأوّل أنّ هذا النوع من العبادة لم يتلقّ من الشّارع بل الأدلّة من الايات و الأخبار فى كيفيّة الذّكر الجلىّ قائمة على خلافه قال سبحانه: «اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » و قال: «وَ اذْكُرْ رَبَّکَ فِى نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ » و نقل جملة من الأخبار ثمّ قال:

الثانى أنّهم يتغنّون فيه و يترنّمون فى خلاله بالأشعار و الغزليّات العشقيّة بالنغمات الموسيقيّة و هو حرام باجماعنا فضلا عن أعمالهم الشّنيعة الّتى يظهرونها فى أثناء الذّكر من التّصفيق و الرّقص و نحوهما، و قد ذمّ اللّه كفار المشركين على ذلک.

الثالث أنّهم يأتون بذلک فى المساجد مع أنّ إنشاد الأشعار فى المساجد مذموم شرعا و قد روى بسند معتبر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: من سمعتموه ينشد الشعر فى المساجد فقولوا له فضّ اللّه فاک إنّما نصبت المساجد للقرآن و قد ورد النّهى أيضا من رفع الصّوت فيها و هم يعملون غالب تلک الأعمال فى ليلة الجمعة و يومها مع أنّ إنشاد الشّعر فيهما مكروهة.

و لو قيل لهم: إنّ هذه الأعمال تشريع و بدعة يقولون: يحصل لنا منها قرب معنوى و يسمّونه بالحال، و ساق الكلام فيه إلى أن قال:

و لا دليل أعظم و أحكم على كون ذلک كلّه بدعة أنّه لم ينقل أحد من الشيعى و السّنى و الصّوفى و غير الصّوفى أنّ رسول اللّه و الأئمّة عليهم السّلام أو أصحابهم أو روات أخبارهم و علماء ملّتهم كان لهم مطرب يطربهم و يترنّم لهم أو كان لهم حلق الذّكر عقدوها، أو أمروا أصحابهم بعقدها، و لو كانت هذه عبادة لها وقع فلم لم يأمروا أصحابهم بها.

ص:380

نعم البدعات أحلى و ألذّ و العبادات ثقيلة على النّفس.

ألا ترى أنّه لو قال لهم خمسون من العلماء العدول: إنّه قد تواتر عن الصادق عليه السّلام أنّه قال: من صلّى ليلة الجمعة صلاة جعفر غفر اللّه له ذنوبه مضافا إلى ما فيها من الفضايل الغير المتناهية لم يرغب إليها واحد من عشرة آلاف من النّاس؟ و أمّا إذا مرّوا ببقعة اجتمع فيها جماعة من الأجلاف و يصيحون يا ربّى يا ربّى، فيدخلون فى حلقتهم بتمام الميل و الرّغبة و يثبون و ثوبهم من أوّل الليل إلى الصباح.

فهلا تفكّر فى أنّه أىّ يوم كانت لک هذه الرّغبة و الاقبال على الخيرات؟ و لم لا تهتمّ بساير الخيرات مثل اهتمامک بها؟ فعليک بالانصاف إذا كان قد ورد من أهل بيت النّبوة عليهم السّلام زهاء ألف حديث فى أعمال ليلة الجمعة و يومها و علّموک فيها الوفا من طرق العبوديّة و القربى فلا تعبأ بشىء منها أصلا بل تصرّف تمام تلک الليلة و اليوم فى عمل يحكمون جميع علماء زمانک بحرمته مضافا إلى اعترافک بأنّه لم يرد به نصّ.

فأىّ عذر لک فى ذلک عند اللّه تعالى؟ و بأىّ جهة ترجو الثواب من اللّه؟ و أنت إذا أردت تعقيب صلاة مندوب شرعا تضمّ إليه بدعات عديدة أ بهذا تستحقّ الثواب أم بترکک الأوراد و الأذكار و الأدعيات و المناجاة المأثورة من أهل بيت الرّسالة سلام اللّه عليهم البالغة إلى مأئة ألف بيت؟ و باقبالک على قراءة الأوراد الفتحية الّتى جمعها جماعة من أهل السنة على معان غير مرتّبة و ألفاظ مغلوطة خالية من قواعد الأدبيّة.

أفهولاء الجهّال من العامّة العمياء كانوا أعرف بمناجاة الرّب المتعال و ذكره من قادة الدّين و أصفياء ربّ العالمين و أفصح فصحاء أهل الأرضين.؟ و قد كان الأنبياء و الرّسل يتمنّون متابعتهم و الدّخول فى زمرة شيعتهم و أنت تستنكف عن اتباعهم و تقبل على تلک الأذكار المخترعة و تترنّم بقراءتها، و تضيف معصية الغناء إلى معصية البدعة.

و قد روى انّه جاء رجل إلى الصادق عليه السّلام فقال له: اخترعت دعاء، فقال عليه السّلام

دع ما اخترعت و اقرء ما نقول.

الثانی الذّکر الخفی، و هو بالمعنی الّذی قدّمناه سابقا من أفضل العبادات، و هو أن یکون متذکر اللّه سبحانه دائما فی مقام المصیبة فیصبر عنها، و فی مقام الطاعة فیقوی علی مشاقها، و فی مقام المعصیة فیکفّ نفسه عنها.

و أمّا بالوجه الّذی اخترعه هذه الطائفة علی هیئة مخصوصة فممّا لم یثبت له سند صحیح من الشّارع، فالاتیان بهذه الهیئة بقصد العبادة بدعة محرّمة کما علمت فی تعریف البدعة، و لم یرد تلک الهیئة فی حدیث من أحادیث الشیعة بل لم أجده فی کتب أخبار العامّة أیضا.

و هؤلاء یقولون: رواه المعروف الکرخی عن الرّضا علیه السّلام، و هو باطل من وجوه:

الأوّل أنّه لم یثبت وصول المعروف الکرخی إلی خدمة الرّضا علیه السّلام و ما یقولون من أنّه کان بوّابا له علیه السّلام غلط البتّة لضبط أصحابنا علماء الرّجال فی کتبهم جمیع خدّامه علیه السّلام و ملازمی حضرته شیعیّا کان أم سنیّا حتّی ذکروا فی تلک الکتب المتردّدین إلی حضرته من متعصّبی العامّة الّذین رووا عنه الحدیث، فلو کان هذا الرّجل بوّابا له لنقلوه البتّة.

الثانی أنّ داود الطائی قد ذکر فی تذکراته مشایخ طریقته، و المعلوم من أحواله أنّه کان من متعصبة العامة و لم یکن له أصلا توسل بالأئمة علیهم السّلام.

الثالث أنّ السّند الّذی یسندون باعتقادهم إلیه فیه جماعة لا یعجبنی ذکر قبایح اعتقاداتهم و أعمالهم، مثل السّید محمّد نور بخش و هو کما فی الکتب الصوفیّة قال:

إنّی المهدیّ صاحب الزّمان، و قال: اتّفق اولو الألباب علی ذلک، و کغیره ممّن هو معروف بالعصبیّة و البدعة.

الرّابع أنا قد سمعنا من مشایخهم أنّ الذّکر الخفیّ أنواع مختلفة أخذه أهل کلّ طریقة بنحو مخصوص من مشایخهم یغایر ما أخذه أهل الطریقة الاخری من شیخهم، فلو کانت صحیحة النّقل عن الأئمة علیهم السّلام لکان المنقول واحدا لا متعدّدا.

الخامس أنّه إذا كان هـذه الاذكار من أفضل العبادات على ما يزعمون و يقولون إنّه يحصل بها مزيـد قرب ليس فى الصـلاة فكيف يمكن أن يضنّ بهـا الأئمـة عليهم السّلام و يخصّون المعروف الكرخى فقـط بها و لا يعلّمونها لغيره؟ فان قلتم: غيره لم يكن قابلا بـذلک و إنّما كان المعروف بين جميع أصحاب الرّضا عليه السّلام قابلا لذلک المقام لعلوّ درجته.

قلت: إذا كان كـذلک فلم تعلّمونها أنتم كلّ بليـد أحمق؟ السادس لو كان معروف قابلا لهذا السـرّ و لم يكن سـلمان و لا أبو ذر رضـى اللّه عنهما قابلين له، لزم أن يردّ من الأحاديث الكثيرة البالغة إلى خمسمائة بل إلى ألف حديث وارد فى شأن سلمان و أبى ذرّ حديث أو حديثان فى شأن ذلک الرّجل، و لزم أن يعده واحد من العلماء من خواصّ أصحاب الرّضا عليه السّلام و ليس فليس.

السابع أنّه على فرض تسـليم وروده فهو حديث مجهول، و ليس وظيفة الحزم و الاحتياط فى الدّين أن يرفع اليد من الأعمال المتواترة الثبوت من الأئمة عليهم السّلام و يواظب على عمل رواه رجال مجهولة الحال فنقتصر فى المقام على ذلک لأنّ التّطويل موجب للملال. انتهى ما أهمّنا نقله من كلامه زاد اللّه فى إكرامه و قد ذكر فى أوائل الكتاب المذكور أيضا فصلا وافيا فى هذا الباب طوينا عن نقله حذرا من الاطناب، و فيمـا نقلنـاه كفايـة لمن اهتـدى و ابتغى الرّشـد و الصواب، ثبّتنـا اللّه و إيّاكم على الصـلاح و السـداد، فى القول و الاعتقاد بمحمـد و آله الأمجاد.

و منهم وحيـد العصـر فى الزّهـد و الورع و الأمانـة، و فريـد الـدّهر فى الفضل و التقدّس و الدّيانة، صاحب الملكات القدسـيّة و الصّفات الملكيّة، و مظهر المقامات الزّاهرة و الكرامات الباهرة، الواصل إلى حضرة ولىّ الرّحمن سيّد الانس و الجان إمام العصر و الزّمان سلام اللّه عليه و على آبائه، العالم العلم الفقيه المتكلّم الأوحد مولينا أحمد بن محمّد المعروف بالمقدّس الأردبيلى أفاض اللّه على تربته أنوار رحمته فقد ذكر فصلا مفصّلا فى المجلّد الثانى من كتاب حديقة الشيعة عند ذكر أحوال

الصادق عليه السّلام فى مطاعن الصوفيّة و شرح أحوالهم و تفصيل فرقهم المختلفة من أراد الاطلاع عليها فليراجع إليه، و لا باس بالاشارة إلى بعض ما أورده «قد» هناک بغاية تلخيص و اختصار منّا فأقول:

إنّه ذكر أنّ أصل مذهب الصوفيّة من مخترعات العامّة و إنّ أوّل من تسمّى بهذا الاسم أى بالصوفى هو أبو هاشم الكوفى، من أجل لبسه بالصوف و كان قائلا بالحلول و الاتّحاد مثل النصارى لكن النصارى قالوا بالحلول فى عيسى عليه السّلام و هذا الملعون ادّعى الحلول فى حقّ نفسه، و كان فى الظاهر امويّا جبريّا و فى الباطن ملحدا دهريّا و كان غرضه من وضع هذا المذهب هدم مذهب الاسلام و قد ورد من الأئمة عليهم السّلام أحاديث عديدة فى الطعن عليه فنسب إليه التّابعون له و قيل لهم صوفية ثمّ ساق الكلام فى ساير اسمائهم حسبما حكينا عنه «ره» فى المقام الثانى إلى أن قال:

و أكثر هذه الطايفة فى الظاهر على مذهب أحمد بن حنبل و مالک يعملون فى الفروع بعملهم، و كان الشبلى مالكيا و ذو النون تلميذا لمالک و كثير منهم فى الباطن كافر ملحد إلى أن قال:

و قد ورد من الأئمة عليهم السّلام أحاديث كثيرة فى الردّ على هذه الطائفة المبتدعة.

و أكثرها من الصادق عليه السّلام، و قد ورد اللّعن عليهم فى أخبار كثيرة مرويّة عن الأئمة عليهم السّلام بل عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا، و قد أخبروا بأنّ اللّه سبحانه يلعنهم و الملائكة أيضا يلعنون ثمّ نقل بعض الأخبار ثمّ عقد بابا فى بيان مذاهبهم و قال فيه:

اعلم أنّ مذاهب الصوفيّة كثيرة فقيل: إنّ أصل تلک المذاهب أربعة و الباقية متفرّعة عليها اول تلک الأربعة مذهب الحلولية و الثانى مذهب الاتّحادية و الثالث مذهب الواصليّة و الرابع مذهب العشّاقيّة.

و قيل: إنّ اصول مذهبهم ستّة و أضافوا إلى الأربعة التلقية و الزراقية و قيل: سبعة و أضافوا إليها الوحدتية المأخوذة من القول بوحدة الوجود ثمّ قال:

و الحقّ أنّ أصل مذهبهم اثنان: القول بالحلول، و القول بالاتّحاد، و البواقى متفرّعة عليهما فالكلام فى فصلين الفصل الأوّل فى بيان المذهبين.

الأوّل فى مذهب الحلوليّة، فانّهم يقولون: إنّ اللّه سبحانه قد حلّ فينا و حلّ أيضا فى أبدان جميع العارفين، و بطلان مذهبهم ظاهر لأنّ كلّ عاقل يعلم علما قطعيّا بأنّ الحالّ محتاج إلى المحلّ، و الضّرورة قاضية بأنّ كلّ محتاج ممكن فلو كان سبحانه حالاّ فى غيره لزم أن يكون ممكنا لا واجبا نعوذ باللّه من هذا الاعتقاد.

الثانى مذهب الاتّحادية، و هم يقولون: إنّا قد اتّحدنا مع اللّه سبحانه و كذا اتّحد اللّه تعالى بنا، و العقل أيضا قاض ببطلان هذا المذهب، و هم يشبهون اللّه سبحانه بالنّار و أنفسهم بالحديدة المحماة بملاقاة النّار.

و هذا محض الكفر و الزّندقة إذ من له أدنى مسكة من العقل يعلم قطعا أنّ تبدّل طبيعة ممكن بممكن آخر أو صورته بصورته لا يستلزم تبدّل الوجوب بالامكان و الامكان بالوجوب و كون الواجب ممكنا و الممكن واجبا، و كيف يقاس الواجب بالممكن و الممكن بالواجب؟ و صاحب هذا الاعتقاد كالمعتقد بالحلول كافر خارج من الدّين، ملحد زنديق لعين، و على اعتقاد كلتا الطائفتين يلزم تعدّد الاله و تكثّره، لجواز أن يكون فى كلّ عصر ألف عارف و زيادة.

و قال صاحب كتاب بيان الأديان: إنّ القول بالحلول و الاتّحاد بعد الجرمانيّة من الصائبة قد نشأ من النصارى فأخذه منهم غلاة الشيعة يعنى الذين يقولون فى الأئمة الاثنى عشر بالالوهيّة، و غلاة أهل السنة يعنى الصوفيّة الّذين يقولون فى مشايخهم بالالوهيّة، و ليس مذهب من المذاهب أقرب إلى مذهب النصارى من هذين المذهبين، انتهى كلام صاحب بيان الأديان.

و اعلم أنّ متقدّمی الصوفیّة کأبی یزید البسطامی و حسین بن منصور الحلاج کانوا علی أحد هذین المذهبین، و لاعتقادهم هذا الاعتقاد الفاسد یعنی الغلوّ عدّهم أکثر علماء الشیعة کالمفید و ابن قولویه و ابن بابویه قدّس سرّهم من الغلاة، سواء قالوا بالحلول أو بالاتّحاد، و هم غلاة النّواصب و أکثر طوایف الغلاة.

و تجاوز بعض متأخّری الاتّحادیة کمحیی الدّین الأعرابی و الشیخ عزیز النسفی و عبد الرّزاق الکاشی عن الحدّ فی الکفر و الالحاد، و قالوا بوحدة الوجود و أنّ کلّ موجود هو اللّه، تعالی اللّه عمّا یقول الملحدون علوّا کبیرا.

و علة تمادی هذه الطایفة فی الکفر و الطغیان أنّهم لمّا طالعوا کتب الفلاسفة و اطلعوا علی قول أفلاطن القبطی و أتباعه فاختاروا بغایة الضّلال مقالهم، وکیلا یتفطّن أحد بأنّهم لصوص مقالات الفلاسفة و اعتقاداتهم الفاضحة الفاسدة غیّروا لباس ما قالوا، و لبّسوه بلباس آخر و سمّوه بوحدة الوجود، و لمّا سئلوا عن معنی هذه الکلمة قالوا تلبیسا و خدیعة إنّ هذا المعنی لا یمکن الافصاح عنه بالبیان، و لا یحوم حوم تقریره اللّسان، و إنّما یدرک بالرّیاضات و المجاهدات الکاملة و خدمة الکملین من مشایخ الطریقة، فحیّروا بذلک الحمقاء من النّاس، و ضیّع السفهاء منهم أوقاتهم فی فهمه و تأویله و أوّلوا هذا الکفر العظیم بتأویلات مختلفة.

ثمّ أشار إلی ساير سرقات الصّوفیّة من مزخرفات الفلاسفة إلی أن قال:

و أمّا ما قاله افلاطن القبطی و متابعوه و تصرّف فیه هذه الطّایفة و سمّوه بوحدة الوجود، فهو أنّهم قالوا إنّ العلة الأوّل خلق الخلق من نفسه فکلّ موجود خالق و مخلوق خذلهم اللّه تعالی.

الفصل الثّانی فی ذکر بعض فروع مذهبی الصّوفیّة یعنی مذهب الحلول و مذهب الاتحاد و بیان قلیل من عقایدهم.

فاعلم أنّ فروع المذهبین کثیرة فلنقتصر بذکر قلیل من عقاید فرقهم البالغة إلی إحدی و عشرین، ثمّ ساق الکلام فیها.

أقول: و لا حاجة بنا إلی نقل تمام ما قاله فیها و إنّما ینبغی نقل ما ذکره «قد» فی

عقايد الفرق الخمس الّتى تقدّمت إليه الاشارة.

الفرقة الاولى الوحدتيّة

و هم قالوا بوحدة الوجود و اعتقادهم أنّ كلّ إنسان بل كلّ شىء هو اللّه تعالى شأنه كما اشير اليه، و هم أشدّ كفرا و أعظم خزيا من نمرود و شدّاد و فرعون لاعتقادهم بالهية جميع الأشياء الغير الطاهرة فضلا عن غيرها، فلو سمّيت تلك الفرقة بالكثرتية كان أبلغ لمبالغتهم فى كثرة الطاهرة فضلا عن غيرها، فلو سميّت تلك الفرقة بالكثرتية كان أبلغ لمبالغتهم فى كثرة الاله بحيث لا يبقى شىء مما سوى اللّه تعالى إلاّ و يقولون إنه اللّه و ان زعموا أنّ الجميع واحد.

و قد ذكر محيى الدّين فى كتبه من ذلك كثيرا لا سيما فى الفصوص فقال فى الفصّ اللقمانى منه: إنّ الاختلاف بيننا و بين الأشاعرة فى العبارة، و قال فى الفصوص:

إنّ اللّه لطيف فمن لطافته و لطفه أنه فى الشىء المسمّى بكذا المحدود بكذا عين ذلك الشىء حتى لا يقال فيه إلاّ ما يدلّ عليه اسمه بالتواطوء و الاصطلاح فيقال هذا سماء و هذا أرض و صخرة و شجرة و حيوان و ملك و رزق و طعام و الحال أنّ العين واحدة من كلّ شىء كما تقول الأشاعرة إنّ العالم كلّه متماثل بالجوهر فهو جوهر واحد فهو عين قولنا العين واحدة، ثمّ قالت أى الاشاعرة و يختلف بالأعراض و هو قولنا و يختلف و يكثر بالصور و النسب، انتهى.

و قال فى الفصّ الموسوى: إنّ فرعون عين الحق قد ظهر بهذه الصورة و صريح عبارته هكذا: فصحّ قوله أنا ربّكم الأعلى و إن كان عين الحقّ فالصّورة لفرعون، و قد عرف العطّار فى كتاب الجوهر الذّات و قال أنت أيضا قل مثل أنا الحقّ و ادعى صريحا الالهيّة فى الكتاب المذكور.

و قال محيى الدّين فى أوّل الفتوحات: سبحان من أظهر الأشياء و هو عينها، و طعن عليه علاء الدّولة السّمنانى و هو من مشايخ هذه الطايفة بهذا القول.

أقول: أراد «قد» به ما كتبه علاء الدّولة فى حاشية الفتوحات فى قوله سبحان من أظهراه ما لفظه: انّ اللّه لا يستحى من الحقّ أيّها الشيخ لو سمعت من أحد أنّه يقول:

فضلة الشيخ هو عين وجود الشيخ لا تسامحه البتة بل تغضب عليه فكيف يسوغ لك أن تنسب هذا الهذيان إلى الملك الدّيان؟ تب إلى اللّه توبة نصوحا لتنجو من هذه

الورطة الوعرة التى يستنكف منها الدّهريون و الطبيعيون و اليونانيون، و السلام على من اتبع الهدى، انتهى.

قال ره: و استحسن محيى الدّين و الشيخ عزيز النسفى و عبد الرّزاق الكاشى و العطار و ملا الرّومى و جمع كثير من متأخرى الصوفية و صرّحوا به فى كلامهم نظما و نثرا، و قد شبه هؤلاء الحقّ سبحانه و تعالى بالبحر و الخلق بأمواجه و يقولون: إنّ موج البحر عين البحر، و هم يحبون كلّ من ادّعى الالوهية كناية كالقائلين بالحلول و الاتحاد و وحدة الوجود، أو صراحتا كفرعون و شدّاد و نمرود، و ما أدرى من الذى اشتبه من متأخرى الشيعة فى حقّ هولاء حتى اعتقد فيهم الخير و الصلاح فقلده غيره من متصوّفى الشيعة؟ نعم اعلم أنّ متقدّمى علماء الامامية قد ذموهم كثيرا و ألفوا كتبا فى مطاعنهم و رووا أحاديث كثيرة من الأئمة عليهم السّلام فى كفرهم و الحادهم و بطلان مذهبهم و الرّد عليهم مع أنه لم يكن فى زمانهم قائل بوحدة الوجود أصلا.

و العاقل المنصف إن راجع الكافى و لاحظ فيه باب دخول الصوفية على أبى عبد اللّه عليه السّلام و احتجاجهم عليه يعرف البتة أنّ هذه الطايفة من المخالفين.

و إن لاحظ كتاب الاعتقادات للصّدوق و قوله: إنّ تديّنهم بترك الصلاة و جميع الفرائض، و لاحظ قول المفيد دينهم ترك الفرائض و المستحبّات و ارتكاب المناهى و المحرّمات، يعلم أنّهم من الزّنادقة و الملحدين.

و الدّليل على أنّهم من المخالفين وجوه كثيرة.

الأوّل أنّ علماء الشيعة الّذين صنّفوا الكتب فى بيان الفرق الاسلاميّة عدّوهم من المخالفين.

و الثانى أنّ قدماء علماء الشيعة لم يوجد من أحدهم تصنيف فى التّصوف، بخلاف قدماء علماء العامّة فانّ لهم فيه تصانيف كثيرة إلى غير ذلک من الوجوه.

و مع الغضّ عنها نقول: إنّ المعصومين عليهم السّلام لمّا حكموا ببطلان مذهبهم كما يعلم ذلک بالرّجوع إلى رواياتهم المرويّة فى كتب الثقات، لزم أن يتبرّى

الشيعة من هذا القوم الزّائغين عن الحقّ و يتجنّب من عقايدهم.

فان قال قائل: إنى ما عثرت بعد على تلك الكتب و تلك الأخبار.

فالجواب إنّ شرط الاحتياط فى الدّين و وظيفة العبوديّة و التقوى هو التوقّف فى محبّة تلك الطائفة و التّسمية باسمهم و الامساك عن تأويل كلماتهم الكفريّة حتّى يظهر له الأمر الواضح.

و الظاهر أنّ جمعا من غفلة الشيعة لمّا رأوا مدح أمير المؤمنين عليه السّلام فى كلامهم انخدعوا من أجل ذلك و لم يعلموا أنّ مذهبهم لو لم يكن الالحاد هو الجبر.

و لازم القول به استحسان كلّشىء و إظهارهم لمحبّته عليه السّلام و مدحهم له من جهة أنّه لما قال: من عرف نفسه فقد عرف ربّه، و أدلة هؤلاء الملاحدة على وفق مدّعاهم كما قال محيى الدّين فى الفصّ الشعيبى: من عرف نفسه بهذه المعرفة فقد عرف ربّه فانّه على صورته خلقه بل هو عين هويّته و حقيقته فأحبّوه عليه السّلام لذلك و أكثروا من مدحه و ربّما يكون مدحهم من أجل تفتين الشيعة و قد ورد فى الحديث أن لا ـ تفتروا «لا ـ تغتروا ظ» بمدحهم كما هو ظاهر لمن تتبّع الأخبار، و لم يعلم الغافلون المفترون «المغترون ظ» أنّ شرايط محبته عليه السّلام كثيرة و ليس طايفة من النصارى و اليهود و ساير أهل الملل الباطلة إلاّ و لهم مع فساد مذهبهم كلمات حسنة، و لم يفهموا أنّ هذه الطائفة الضالة لهم مع الطايفة المحقة مخالفة كثيرة فى الاصول الخمسة كما هو غير خفىّ على المنصف البعيد عن الهوى و العصبية.

و لو فرضنا اعتقادهم بأنّ أمير المؤمنين عليه السّلام خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلا فصل و أنّه امام مفترض الطاعة، و لكن قولهم بالهيّة الحسين بن منصور الحلاج السّاحر الكافر، بل الهيّة جميع الموجودات له كمال المنافاة و المباينة بالايمان و الاسلام.

و أيضا فانّهم لمّا كانوا أهل مكر و خديعة يخدعون النّاس عن أديانهم و تقرّب جمع منهم إلى كلّ طائفة باظهار ما هوى تلك الطائفة فيه، كما أنّ الحلاج قبل الافتضاح كان يتقرّب إلى أهل السنّة باظهار السّنية، و إلى الشيعة باظهار النيابة من

صـاحب الزّمان عليه صـلوات اللّه الملک المنّان، و إلى السـفهاء من النّاس بادّعاء الالوهيّـة، و سـمّى بعض المفتونين به بأسـماء الأنبياء و فرّقهم فى البلدان يدعون النّاس إلى عبوديّته إلى أن قال:

و من جملـة مطـاعنهم تـأويلهم للأخبار و الايات مثل الملاحـدة على مـذاهبهم الباطلـة و قولهم بالجبر و التشبيه و التجسـيم و الرّؤيـة و الصّورة.

و من جملة مطاعنهم دعويهم علم الغيب و تسميتهم له بالكشف، و تمادى بعضهم و نسب العلم به إلى براهمة الهند أيضا إلى أن قال:

و ينبغى أن يعلم أنّ هـذه الملاحـدة و المعتقـدين بهم كما ورد فى الحـديث ثلاث طوايف: الضّالّون، و الخادعون، و الغافلون، و فى رواية بدل الغافلون: الأحمقون، و فى رواية اخرى بدله: الجاهلون.

و ذلک لأنّ من كان عارفا بعقايـدهم الباطلـة و كان مع ذلک معتقـدا أيضا بعقيدتهم فهو ضالّ كافر بالأدلة العقليّة و النقليّة، و من كان عارفا ببطلان عقايدهم غير معتقد به باطنا إلاّ أنّه يتجاهل ظاهرا و يتسـمّى بسـمتهم صورة و يسلک مسلكهم تزويرا فهو الخادع المحتال، و غرضه أن يخـدع السّـفهاء و الجهّال فيخـدعوا به و يكونوا مريدا لهم، و من سـلک مسـلكهم و أخذ بطريقتهم و مال اليهم سـفها و حمقا و غفلة و جهالة فهو الجاهل الأحمق الغافل فغير العارف ببطلان عقايدهم و المعترف بحقيّة مذهبهم وقع بسـبب جهالته فى الضّـلالة، فلو ادّعى مع وجود هذا الجهل للعلم كان جاهلا مركبّا تاه فى متاه الضّلال، و ربّما يغترّ به العوام و يزيغ عن طريق الحقّ و يتيه فى وادى الخذلان.

و العارف بسوء اعتقادهم، و المعتقـد على بطلان مذهبهم، و المطلع على سوء سـريرتهم، و المذعن بفساده باطنا إن مدح مشايخهم ظاهرا لخداع الخلق و باطنا و وصـفهم بالزّهد و الصّلاح و المعرفة و الكمال توسّلا بذلک إلى ملاذ الدّنيا، فقد باع دينه بدنياه، و باء بسخط من اللّه حيث أضلّ الخلق بالدّنيا الدّنيّة و فوّت على نفسه السعادات الأبديّة.

ص:390

و ان كان العارف بسوء اعتقاداتهم مظهرا لحقيّة مذهبهم و طريقتهم فقد زاغ عن طريق الحق و أعرض عن دين الاماميّة و هو أسوء حالا من السابقين.

فلو ادّعى الصوفى التشيع مع التصوّف لا بدّ أن لا تقبله الشيعة منه و أن لا يعدّوه منهم، لأنّه مضطرّ بسبب القول بالحلول و الاتّحاد و وحدة الوجود من القول بالجبر و الحبّ لليهود و النصارى و المجوس و التّولى لأبى بكر و عمر و عثمان و ليزيد و معاوية و أبى سفيان لعنهم اللّه جميعا، بل حبّ جميع الفساق و الفجار و المشركين و الكفار لأنهم جميعا مجالى الحقّ، بل إن أعلن بعداوة هؤلاء فلا بدّ أن لا يغترّ به الشيعة، بل إن لعنهم أيضا، لأنّ اللعنة عندهم عين الرّحمة، فلعنة اللّه عليهم و على مشايخهم الزّنديقين.

الفرقة الثانية الواصلية

و هم يقولون: إنا وصلنا إلى اللّه تعالى و اتّصلنا به، قيل إنّ هذا المذهب أيضا من اصول مذاهب الصوفية كما تقدّمت إليه الاشارة، و الحقّ أنه من فروع مذهب الاتحادية لكنهم اختصّوا بأقوال شنيعة و أفعال قبيحة امتازوا بها عن ساير الاتحادية.

فمن جملتها أنهم يقولون: إنّ الصوم و الصلاة و الحجّ و ساير التكاليف إنما وضعها الشارع لتهذيب الأخلاق و تكميل النفوس، و الوصول إلى الحقّ، و نحن قد هذّبنا الأخلاق و حصل لنا العلم بالأشياء و المعرفة بالحقّ و الوصول اليه فسقط عنا التكاليف الشرعية، فليس شىء بواجب علينا، و جميع المحرّمات حلال فى حقنا.

و منها قولهم: بأنّ من وصل إلى هذا المقام العالى فكلّ ما يصدر منه من شرب الخمر و الزّنا و اللواط و السرقة و غيرها فليس لأحد الاعتراض عليه، و لا يجوز ردعه عن شىء من ذلک، لأنه مستحسن منه، و لو أراد الزّنا بامه و اخته و بنته و اللواط بابنه كان حلالا له، و لو وطى بنات غيره و أبنائهم و أزواجهم وصل منه الفيض إليهم، و لو كان ملوطا لغيره كان جائزا.

نعم إذا كان المفتى لهم ملا ميرزا جان الشيرازى القائل بأنّ ذلک لا يضرّ

بالنفس الناطقة يصدر عنهم هذه الأقوال و الأفعال الشنيعة.

قال ملاّ الرّومى فى خطبة من خطب المثنوى: إذا حصلت الحقيقة بطلت الشريعة، و قصة ملاقاته للشمس التبريزى و عرضه لابنه و بنته عليه و شرائه للشراب له و حمله الشراب على عاتقه كما ذكره الجامى فى كتاب نفحات الانس من القصص المشهورة.

و أورد الخواجه نصير الدّين عبد اللّه بن حمزة الطوسى ره فى كتاب نهج الحق ما رآه بعينه و سمعه باذنه فى باب تركهم للصلاة و اعتذارهم منه من أراد الاطلاع فليراجع اليه و ينبغى أن يعلم أنّ ترك الصلاة و ساير الفرائض و استحلال جميع المعاصى مذهب جميع فرق الصوفية كما صرّح به المفيد و غيره من علماء الشيعة و ورد به النصّ أيضا إلاّ أنّ بعض الفرق يظهرون ذلک و بعضها يخفونه و أكثرهم يخدعون السفهاء و الجهال باقامة الصلاة و مواظبة الفرائض و السنن و اظهار العبادة و الزّهادة، و بعضهم يستحسنون التظاهر بالمحرّمات و بعضهم يستقبحونه.

و منها قولهم: بانه إذا غلب الشهوة على واحد منا و أراد المجامعة بالغير فامتنع هو منه فلم يبلغ الممتنع بعد إلى مقام الوصول بل هو كافر، و من مكّن المجامع له من نفسه و أجابه إلى ما يريد سواء كان ذكرا أو انثى فاز بدرجة الولاية و صار من الأولياء الكمّلين.

قالوا: إنّ رابعة و جمع من النسوة وصلن إلى مرتبة الولاية لقضاء أوطار النّاس، و مزخرفات هذه الفرقة كثيرة و دلائل كفرهم و الحادهم خارجة عن حدّ الاحصاء، و ذكرها موجب للملال و تطويل المقال.

الفرقة الثالثة العشاقية

و هم جماعة يسمّون أنفسهم بالعشاق و محبّة اللّه سبحانه عشقا و فى هذا المعنى قال بعضهم:

العشق نور الّذى بالفقر يفتخر و كلّ نور بتلک الشمس ينسفر

العشق شدّة حبّ اللّه ليس سوى معناه مقصدنا و القصد معتبر

و شدّة الحبّ فى القرآن واردة و فى الحديث بلفظ العشق تذّكر

طاعات أعداء أهل العشق احتبطت و لو بزمزم بل بالكوثر اطّهروا

لأنّها من لباب الحبّ خاوية و هى القشور له و اللّب يدّخروا

طوبى لقوم علت فى الكون همّتهم فأولجوا فى طريق العشق و ابتكروا

أما تغيّر حالات يهيّجهم عند السماع فلسنا عنه نعتذر

لأنّ احوال أهل العشق عارضة بلا اختياراتهم و العشق يعتذر

و هم غافلون من أنّ العشق اسم مرض من الامراض الدّماغيّة، و يقولون:

إنّ الاشتغال بغير الحقّ قصور فى معرفته تعالى و مع هذا الحال و تلك الدّعوى يتعشقون أبناء النّاس و بناتهم و يقولون: إنّ المجاز قنطرة الحقيقة، و أكثرهم من غاية عدم المبالات فى الدّين و الخوف من ربّ العالمين يتعمّدون الكذب على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يأفكون و يقولون: إنّ ذلک حديث مأثور عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نعوذ باللّه من ذلک.

و لأكثرهم مبالغة عظيمة فى تكلّف العشق بالمرد الحسان و ذوات الحسن من النّسوان زعما منهم أنّ ذلک عشق مجازىّ و العشق المجازى موصل إلى الحقيقة الّتى هو حبّ اللّه تعالى.

و هذه الفرقة لهم عداوة عظيمة مع الأنبياء يقولون: إنّ الأنبياء قد قيّدونا بقيد التكاليف الشرعيّة فحجبونا من الوصول إلى الحقّ فلا ينبغى للمرء أن يعبأ بقولهم عليهم السّلام، و مع هذا الحال يظهرون المحبّة لأبى بكر و عمر و عثمان، و يمدحونهم تطيبا لنفوس أهل السنة و ترضية لخواطرهم، و إذا لقوا الشيعة يظهرون ولاية الأئمة و محبّتهم و لا يبرزون عداوة الأنبياء و الأوصياء عند العموم ملاحظة للتقيّة، و مزخرفاتهم كثيرة و نقلها موجب للاطناب.

الفرقة الرّابعة التلقيّة

و يقال لهم النظريّة أيضا، و مذهبهم أنّ النظر فى الكتب العلميّة حرام إلاّ الكتب المدوّنة فى علم التّصوف بشرط قراءتها عند الشيخ الكامل، و زعموا أنّ المعرفة لا تحصل إلاّ بتلقين الشيخ و أنّ قراءة العلوم الشرعيّة مطلقا حرام

و أنّ ما يحصل للعلماء بالتعلم و التحصيل و المطالعة و التدريس فى مدّة سبعين سنة و أزيد يحصل بارشاد المرشد و تلقينه فى ساعة واحدة، و أنّ ما وجده السالكون للطريقة الكاملون فى المعرفة فانّما وجدوه بارشاد الشيخ الكامل الّذى هو من علماء الباطن لا بالتعلّم من العلماء الظاهرية.

و زعموا أيضا أنّ ما اشتغل به علماء الشريعة علم رسمىّ ظاهرى و ليس لهم حظّ من علم الباطن، و إنّما العلم فى الحقيقة هو علم الباطن و أمّا علم الظاهر فلا خير فيه و لا منفعة و العارف الكامل المحقّق من علم علم الباطن.

ثمّ انّهم يزعمون أنّ الايمان ليس بمخلوق و أنّ الولاية أمر كسبىّ يحصل بالرّياضة و أكثرهم يزعمون أنّ النّبوة أيضا كسبيّة، و عادة هذا الفرقة كأكثر فرقهم على إعطاء الشيخ الخرقة و البرنس للمريد و أمره له بالجلوس فى الخلوة أربعين يوما و بترک أكل الحيوانى و يسمّونه بالچلّة، و هؤلاء أعداء الدّين قد وضعوا ذلک فى قبال الاعتكاف خرّب اللّه بنيانهم و دفع شرّهم و طغيانهم.

الفرقة الخامسة الزّراقيّة

و هم طايفة متّصفة بالخسة و الدّناءة يعاشرون النّاس بالمكر و الحيلة، و يأتونهم من باب الخديعة لتحصيل الدّنيا و امتلاء البطون من الغذاء، و يميلون إلى السّماع و الرّقص، و أكثرهم يخلطون مذاهب أكثر فرق الصوفيّة و يجعلونه مذهبا واحدا و يدينون به.

و من عادتهم ترويج مشايخهم و تشهيرهم بين الناس تحبيبا للجهال إليهم و انكار العلماء و السادات و معاداتهم لا سيما من كان منهم غير مداهن للصوفيّة.

نعم من كان له حظّ من العلم و داهنهم و مدح مشايخهم إمّا حبّا للدّنيا أو غفلة و جهلا عن إلحادهم و انحرافهم عن نهج الهدى فهم يهدون اليه و يحبونه و يبالغون فى تعظيمه و يسطرون مدحه و كما أنه يثنى عليهم و يروّج مذهبهم الفاسد فهم أيضا يثنون عليه و يروجون متاعه الكاسد.

و قد شاهدت مرارا جلاليس له نصيب من العلوم الشرعية بل من مطلق العلم

إلاّ أنه يترجم معانى أشعار كتاب گلشن راز لشيخهم الشبسترى و هم يقولون: إنه أعلم العلماء و أفضلهم إلى أن قال:

فاللازم على من تابع النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و آله عليهم السّلام أنه إذا رأى أحدا يدّعى التصوّف سواء كان عالما أو جاهلا أن يعرض عنه و لا يعتقد عليه، و إذا رأى من سلك مسلك الزّراقية فيجب عليه انكاره، و إن ظهر منه القول بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود فهو خارج من دائرة الاسلام و الحال أنه لا يخلو أحد من الصوفية من القول بأحدها و من القول بالجبر إلاّ أن ينتحل التصوّف و يسمّى نفسه بهذا الاسم من أجل الحمق و الجهالة أو من باب المكر و الخديعة انتهى ما أهمنا نقله من كلامه زاد اللّه فى اكرامه بغاية تلخيص منا.

و طوينا عن نقل باقى ما أورده فى هذا الباب حذرا من الاطناب، و ربّما كان ما طوينا عنه يزيد على ما حكيناه أضعافا مضاعفة كما يظهر على من راجع إليه، و مع ذلک فما اقتصرنا بنقله أيضا غير خال من الاطناب.

كما أنّ ما نقلنا قبله من كلام المحدّث العلامة المجلسى روح اللّه روحه أيضا كذلک، و إنّما أطنبت بنقل كلاميهما تنبيها لسفهاء الشّيعة من نومة الغفلة و الجهالة و انفاذا لهم من ورطة الضلالة.

فانّ شهادة مثل هذين الوحيدين الفريدين العادلين الأعدلين العالمين العلمين الأعلمين الخبيرين بالأخبار و آثار الأئمة الأطهار مع كونهما من أساطين الشيعة و أركان الشّريعة على فساد هذه الطريقة طريقة الصّوفيّة و كشفهما عن سوآتها و فضايحها و قبايحها و شنايعها كافية فى رداءتها و شناعتها، و كفى بهما شهيدا فضلا عن غيرهما ممّن تقدّم حكاية كلامه و نذكره بعد ذلک إنشاء اللّه.

فهلكا لمن دان بمذهب و سلک مسلكا يكون مروّجه ماحى الدّين الاندلسى و مزيفه العلامة المجلسى، و مادحه الرّجس الغزالى و قادحه المقدّس الأردبيلى، و مزكّيه أبو يزيد و جارحه الشيخ المفيد، و المتدّينون به الملاحدة اللئام و أتباعهم من سفهاء الأحلام، و الطاعنون عليه أئمّة الأنام و حجج الملک العلام.

ص:395

و بعـد ذلـک فلاـ يجوز للعاقل أن يشـتبه و يغترّ بما يـذكرونه فى مطاوى مقالاتهم من الكلمات المزخرفـة و الأقوال المسـتطرفة و المواعظ الحسنة و النّصايح المستحسنة و الكمالات المرغوبة الغير المخالفة للاصول الشّرعيّة بل الموافقة لموظّفات الشّريعة.

لأنّ هذه كلّها من حبائلهم و حيلهم و فخوخهم و مصائدهم إنّما نصـبوها لتصـيد العوام و صـيد الجهلة كالأنعام و أكثر كلامهم الّذى من هـذا النّمط فانّما هو مقتبس من كلام الأنبياء و الحجـج عليهم السّلام انتحلوه و نسـبوه إلى أنفسـهم و على فرض كونه منهم أيضا فلا يجوز الاغترار و الافتتان به، لأنّ جميع الفرق من الكفار و المشـركين الملاحـدة و المعاندين مع ما هم عليه من الكفر و الالحاد و الزّيغ عن نهج الرّشاد ترى فى ضـمن كلماتهم الكفريّة كلامات مقبولـة عند ذوى العقول من مدح العدل و الاحسان و الصدق و الامانة و قلّة الأكل و قلّة النّوم و ذمّ الحرص و الحسد و البخل و الخيانة إلى غير ذلک.

و الحاصل انّهم قد خلطوا الجيّد بالرّدى و الطيب بالخبيث و مزجوا الحقّ بالباطل لاصطياد العوام.

و الى ذلـک ينظر كلاـم أمير المؤمنين عليه السّلام و هو الخمسون من المختـار فى بـاب الخطب: إنّما بـدء وقوع الفتن أهواء تتّبع و أحكام تبتـدع يخـالف فيها كتاب اللّه و يتولى عليها رجال رجالا على غير دين، فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم يخف على المرتادين، و لو أنّ الحقّ خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعانـدين، و لكن يؤخـذ من هذا ضـغث و من هذا ضـغث فيمزجان فهنالک يسـتولى الشيطان على أوليائه و ينجو الّذين سبقت لهم من اللّه الحسنى.

و منهم السّيد السّند و المتبحّر المعتمد السّيد نعمة اللّه المحدّث الجزائرى قدّس سرّه، فقد أورد فى الأنوار النّعمانيّة فصلا مبسوطا فى ذكر عقايدهم الفاسدة و أعمالهم الباطلة و قال فى جملة كلامه هنا ما نقلناه سابقا فى المقام الثانى و هو قوله:

ص:396

و أمّا الدّواعى لهم على اختراع هذا المذهب و شهرته فامور:

الأوّل أنّ خلفاء بنى اميّة و بنى العباس لعنهم اللّه كانوا يحبّون أن يحصّلوا رجالا من أهل العبادة و الزّهادة و التّكلّم ببعض المغيبات و ان لم يقع لأجل معارضات الأئمة الطاهرين عليهم السّلام و علمهم و زهدهم و كمالاتهم حتّى يصغر فى أعين الناس أهل البيت و أطوارهم، فلم يجدوا أحدا يقدم على هذا سوى هذه الفرقة الضّالة، فمن هذا مال إليهم سلاطين الجور لعنهم اللّه و بنوا لهم البقاع و حملوا إليهم الأموال و طلبوا منهم الدّعاء فى مطالب دنياهم و قاسوهم بأهل البيت عليهم صلوات اللّه الملك الحىّ المتعال و أين الثريّا من يد المتناول.

الثانى سهولة هذا المسلك و صعوبة طريقة العلم، فانّ العامى منهم قد يجلس فى بيت ضيق مظلم أربعين يوما و ربّما ترائى له إخوانه من الجنّ و الشياطين، فاذا خرج صار من رؤسائهم و حصّل درجة العالم الّذى يحصّلها فى خمسين سنة و أكثر، بل ربّما كان اعتبار هذا بين رعاع الناس أزيد من اعتبار ذلك العالم الثالث أنّ هذا المذهب شرك لصيد الأولاد و جمع الأموال و الجاه و الاعتبار و نحو ذلك.

و قال أيضا: و العجب من بعض الشيعة كيف مال إلى هذه الطريقة مع اطلاعه على أنّها مخالفة لطريقة أهل البيت عليهم السّلام اعتقادا و عملا.

أمّا الاعتقاد فقد قالوا بالحلول و هو أنّ اللّه سبحانه قد حلّ بكلّ مخلوقاته حتّى بالقاذورات، تعالى اللّه عمّا يقول الكافرون علوّا كبيرا، و قد مثّلوا حلول اللّه بهذه المخلوقات بالبحر وقت اضطراب أمواجه، فانّ الأمواج و إن كان متعدّدا إلاّ أنّ كلّه ماء واحد فى بحر واحد قد كثره التّموّج، فهى واحدة بالحقيقة متعدّدة بالاعتبار، و المخلوقات كلّها عين اللّه سبحانه و هو عينها و التّعدّد إنّما جاء من هذه العوارض الخارجيّة و التشخصات العارضة للمادّة.

و كان من أعظم مشايخهم عندهم الشيخ العطار، لمّا سمع سلطان ذلك الزّمان بكفره و إغوائه المسلمين أرسل إليه جلادا يأخذ رأسه، فلمّا أتى إليه

الجلاد و أخبره بما أتى به فقال له الشيخ العطار: أنت ربّى بأىّ صورة شئت فتصوّر فان أردت قتلى فأنا هذا ثمّ قتله.

و قال: و من اعتقاداتهم الباطلة و أعمالهم الفاسدة أنّهم تركوا العبادات المأثورة عن أهل البيت عليهم السّلام و دوّنها الشيعة فى كتبهم، و أقبلوا على اختراع عبادات و أذكار لم تذكر فى الشريعة، و ليس هذا إلاّ لقصد الخلاف على علماء أهل البيت حتّى يكونوا فى طرف النّقيض فلا يقال لهم إنّهم مقلّدو العلماء فيزدا دون بذلک اعتبارا من عوام النّاس و غثائهم.

و ما علموا أنّ اللّه سبحانه لا يقبل من العبادات إلاّ ما أرسل حججه و قاله على ألسنتهم، و إلاّ فقد مرّ سابقا أنّ الشيطان لم يتكبّر على السّجود للّه تعالى لكنّه قال: أنا أسجد لک يا ربّ و لا أسجد لادم و ذلک أنّ اللّه سبحانه يجب أن يطاع من حيث أمركما قال: و أتوا البيوت من أبوابها و قد كان فى زماننا رجل من الصّوفيّة و يزعم أنّه من علماء الشيعة و كان يخطب أصحابه يوما فقال و هو على المنبر: إنى كتبت الاصول الأربعة يعنى الكافى و التهذيب و الاستبصار و الفقيه و قرأتها و صحّحتها، و لمّا رأيتها عديم الفايدة بعتها بدرهم واحد و رميت ذلک الدّرهم بالماء.

فانظر إلى إيمان ذلک الرّجل عليه لعنة اللّه و الملائكة و الناس أجمعين، و قد كان مع أصحابه فى حضرة مولينا الرّضا عليه السّلام مشغولين بذكرهم الجلى و هو ما اشتمل على الغناء و الرّقص و الترنّم و الوجد، فهوى بعضهم على محجر القبر الشريف فشجّ رأسه و سال دمه و بلغ إلى المحجر، فاحتال الخدمة إلى إزالة تلک الدّم فقال شيخ الصوفيّة: لا تحتالوا بهذه الحيل لازالة هذا الدّم لأنّ هذا من دم العشّاق و دم العشّاق طاهر.

ثمّ لمّا لم يسمع الناس هذا منه موّه على الناس كلاما آخر و قال: إنّ الشمس ذكروا أنّها من المطهرات فكيف لا يكون شمس الرّضا مطهرة لهذا الدّم، فقبل منه هذا الكلام بعض البهايم من أتباعه ثمّ بعد زمان قليل خذله اللّه سبحانه

و سقط عن درجة و اعتبار و سيعلم الّذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون.

و رأيت فى شيراز رجلا صوفيّا عليه لعنة اللّه، و كان صاحب ذكر و حلقة و أتباع، و كان كلّ ليلة جمعة يأتى إلى قبّة السّيد الأجلّ السّيد أحمد بن الامام موسى الكاظم عليه السّلام فيصنع الذّكر المعهود و قد كان عزبا لم يتزوّج نعم كان عنده ولد مقبول من أولاد شيراز و كان ذلك الرّجل صاحب تحصيل لحطام الدنيا، و كلّما يحصل فى نهاره يعطيه لذلك الولد و يبقى لنفسه شيئا يسع قوت الشّعير، و كان إذا خرج من البلاد ثمّ دخل إليها يسأله بعض خواصّه أين كنت؟ فيقول: كنت أذرع الادميين.

و قد استمرّ على هذا الحال برهة من الزّمان فظهر عليه و على أصحابه أنّهم أرادوا الخروج و ادّعى واحد منهم أنّه الرّب، و آخر أنّه النّبى، و ثالث أنّه الامام إلى غير ذلك، فأخذهم حاكم تلك البلاد و أمر بقتلهم و كنت مع الحاضرين فى ذلك الوقت.

فلمّا أتوا لشيخهم إلى الميدان ليقتلوه كانت اخته فوق سطح جدار تنتظر إلى ما يصنع بأخيها و تضحك، فقيل لها: لم تضحكين؟ فقالت: إنّ أخى هذا رجل شائب فاذا قتلوه يجىء بعد أربعين يوما بصورة شاب حسن الوجه قوىّ البدن، فظهر أنّهم كانوا قائلين بالتّناسخ أيضا، و قد رأينا منهم فى شيراز وقايع غريبة و أطوار عجيبة لا توافق إلاّ مذهب الملاحدة و الزّنادقة.

و منهم المحدّث الفاضل ملا محسن الفيض القاسانى فى محكى كلامه من المجلّد الخامس من الوافى فى صدر أبواب صفة الصّلاة و أذكارها و تعقيبها و آدابها و عللها بعد ذكر الايات الواردة فيها من قوله تعالى: «وَ أَنَّ الْمَساجِدَ » الاية، و قوله: «اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً » إلى آخره، و قوله: «وَ اذْكُرْ رَبَّکَ فِى نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ » الاية قال:

المساجد فسّرت تارة بالأعضاء السّبعة، و أخرى بالمساجد المعروفة، و أخرى ببقاع الأرض كلّها، و على التقديرات أنّها خلقت لأن يعبد اللّه بها أو فيها، فلا تشركوا معه غيره فى سجودكم و عبادتكم، و الأمر بالدّعاء و الذّكر

تضـرّعا و خفيـة و خيفـة يشـمل سـاير أذكـار الصّـلاة و غير الصـلاة، و دون الجهر من القول يـدلّ على لزوم الاقتصاد فيها جميعا و كراهة الاعتـداء، فما يفعله المتصوّفـة فى حلقهم من الجهر بالـذكر و الاعتداء بالنداء ممنوع منه بمقتضـى هذه الايات، و يأتى تمام الكلام فيه فى صدر أبواب الذّكر إنشاء اللّه تعالى.

و قال فى أبواب الذّكر و الدّعاء و فضايلهما من المجلد المذكور بعد ذكر الايات الّتى وردت فيها كقوله تعالى: «اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَ لا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ».

فى هذه الاية دلالة على كراهة ما يفعله المتصوّفة من رفعهم الأصوات بكلمة التوحيد و إظهارهم المواجيد، فانّه اعتداء و مجاوزة عن حدّ ما و سمه الشرع فى الذّكر و العبادة، هذا إن اقتصروا على الاجهار بالذّكر، و أمّا ساير ما يفعلونه من التّغنّى بالأشعار فى أثناء الأذكار و التواجد بالسّماع و استمالة الأبصار و الأسماع بالشهيق و النهيق و الرّقص و التصفيق و الهبوط و السقوط فلا شكّ أنّه بدع فى الدّين، بل كاد يكون استهزاء بالشرع المبين، أعاذنا اللّه من شرّ الشياطين.

و قال فى كتابه المسـمّى بمنهاج النّجاة: لا تحضـر فى الجامع الحلق و لا مجالس القصّاص، بل مجلس العلم النافع، و هو الّذى يزيد فى خوفک من اللّه و ينقص من رغبتک فى الدّنيا.

و قال فى المقالة الرابعة و السّتين من الكلمات الطريفة:

«داهية» و من الناس من يدّعى علم المعرفة و مشاهدة المعبود، و مجاوزة المقام المحمود، و الملازمة فى عين الشهود، و لا يعرف من هذه الامور إلاّ الأسماء و لكنّه تلقّف من المطامات كلّما يردّدها لدى الأغنياء كأنّه يتكلّم عن الوحى و يخبر عن السّماء، ينظر إلى أصناف العباد و العلماء بعين الازدراء يقول فى العباد:

إنّهم اجراء متعبون، و فى العلماء: إنّهم بالحديث عن اللّه محجوبون، و يدّعى

لنفسه من الكرامـات مـا لا يـدّعيه نبىّ مقرّب، و لا علما أحكم و لا عملا هـذّب، يأتى إليه الرّعاع الهمـج من كلّ فـجّ أكثر من إتيانهم مكّة للحجّ، يزدحم عليه الجمع و يلقون إليه السّمع و ربّما يخرّون له سجدا كأنّهم اتّخذوه معبودا، يقبلون يديه و يتهافتون على قدميه، يأذن لهم فى الشـهوات، و يرخّص لهم فى الشبهات، يأكل و يأكلون كما تأكل الأنعام، و لا يبالون أمن حلال أصابوا أم حرام، و هو لحلوائهم هاضم و لدينه و أديانهم حاطم «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ ». «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمّا كانُوا يَفْتَرُونَ ». «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ وَ أَتْبَعْناهُمْ فِى هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » «أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ ».

و قال فى المقالة الخامسة و الستّين منها:

و من هؤلاء من طوى بساط الأحكام، و رفض الفضل بين الحلال و الحرام، و حلّ قيود الشرع من عنقه و أطلق، لا يحرّمون ما حرّم اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يدينون دين الحقّ، متعلّلين تارة بأنّ اللّه غنىّ عن الأعمال، و اخرى بأنّ التكليف إنّما هو لتطهير القلب من الشهوات و هو أمر محال، و اخرى بأنّ أعمال الجوارح لا وزن لها عند اللّه و إنّما النظر إلى القلوب و قلوبنا والهة إلى حبّ اللّه، واصلة إلى معرفة اللّه، و إنّما نخوض فى الدنيا بأبداننا، فلا يصدّنا عن سبيل اللّه عصياننا، كلاّ سيعلمون ثمّ كلاّ سيعلمون، إنّ أعمالك لنفسك احتسبت، لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت، و ليس التكليف بقلع الشهوات، بل بانقيادها لحكم العقل و الشرع بالرّياضات، و الأبدان تابعة للقلوب، و الشهادات شايعة للغيوب، أيّها المغرور.

ف «اِذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شارِكْهُمْ فِى الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاّ غُرُوراً ».

و قال فى المقالة الثانية و السّتين:

و من الناس من يزعم أنّه بلغ فى التصوّف و التأله حدّا يقدر معه أن يفعل ما يريد بالتوجّه، و أنّه يسمع دعاؤه فى الملكوت، و يستجاب نداؤه فى الجبروت تسمّى بالشيخ و الدرويش، و أوقع الناس بذلک فى التشويش، فيفرطون فيه أو يفرّطون فمنهم من يتجاوز به حدّ البشر، و آخر يقع فيه بالسوء و الشرّ، يحكى من وقايعه و مناماته ما يوقع الناس فى الرّيب، و يأتى فى اخباره بما ينزل منزلة الغيب، و ربّما تسمعه يقول: قتلت البارحة ملک الروم، و نصرت فئة العراق، و هزمت سلطان الهند، و قلبت عسكر النّفاق، أو صرعت فلانا يعنى به شيخا آخر نظيره، أو أفنيت بهمانا يريد به من لا يعتقد فيه إنّه لكبيره، و ربّما تراه يقعد فى بيت مظلم يسرج فيه أربعين يوما، يزعم أنّه يصوم صوما، و لا يأكل فيه حيوانا و لا ينام نوما، و قد يلازم مقاما، يردّد فيه تلاوة سورة أيّاما، يحسب أنّه يؤدّى بذلک دين أحد من معتقديه، أو يقضى حاجة من حوائج أخيه، و ربّما يدّعى أنه سخر طايفة من الجنّة، و وقى نفسه أو غيره بهذه الجنّة «أَفْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ » انتهى كلامه.

أقول: هذه الكلمات كما ترى تنادى بأعلا صوتها على طهارة ذيل هذا الفاضل البارع من دنس التصنّع و التصوّف، و براءة ساحته من الانحراف و التصلّف، و مثلها كلمات له اخرى تركنا حكايتها حذرا من الاطناب.

إلاّ أنّه فى أكثر كتبه سلک مسلک الصوفية و جرى على قواعدهم لا سيّما فى كتابه المسمّى باللّئالى، و ذكر فيه تفصيل الحضرات الخمسة الّتى هى من مصطلحات الصوفيّة و مخترعاتهم، و أوّل بعض الأخبار و الأدعية إلى ما أوردها هناک، و لا حاجة بنا إلى ايرادها.

و من أجل كون كلامه و حديثه ذا فنون و شجون اختلف العلماء المعاصرون له و المتأخّرون عنه فى مدحه و قدحه و تعديله و جرحه، حتّى أفرط بعضهم فنسبه إلى الكفر أو ما يشارف الكفر.

منهم الشيخ علىّ المعاصر له سبط الشهيد الثانى «قد» فقد نسب إليه فى ذيل

رسالته فی تحریم الغناء کثیرا من الأقاویل الفاسدة و الاراء الباطلة الّتی تفوح منها رائحة الکفر المضادّة بضروریات الدّین.

قال فی روضات الجنات: و لو أردنا تأویل جملـة منها بمحامل وجیهة صـحیحة لما أمکننا ذلک بالنسـبة إلی ما یدّل علیه ألفاظه الظاهرة بل الصریحة من منافیات اصول هذه الشریعة و فروع مذهب الشیعة، مثل قوله بوحدة الوجود، و بعدم خلود الکفار فی عذاب النار، و عدم نجاة أهل الاجتهاد من النار و إن کانوا من أجلائنا الکبار، و قوله بعـدم منجّسـیة المتنجّس لغیره مثل الجنس، و بعدم انفعال الماء القلیل بمحض ملاقاته للنجس، و ان وافقه فی هذه المسألة العمانی.

و منهم صاحب لؤلؤة البحرین الشیخ یوسف البحرانی قال فی ترجمته:

و هذا الشـیخ کان فاضـلا محدّثا أخباریّا صلبا کثیر الطعن علی المجتهدین و لا سیّما فی رسالته سفینة النجاة حتّی أنه یفهم منه نسبة جملة من العلماء إلی الکفر فضلا عن الفسق، مثل ایراده الایة: «یا بُنَیَّ ارْکَبْ مَعَنا »، أی و لا تکن مع الکافرین و هو تفریط و غلوّ بحت، مع أنّ له من المقالات التی جری فیها علی مـذهب الصوفیّة و الفلاسـفة ما یکاد یوجب الکفر و العیاذ باللّه، مثل ما یدلّ فی کلامه علی القول بوحدة الوجود.

و قد وقفت له علی رسالة قبیحة صریحة فی القول بذلک، و قد جری فیها علی عقاید ابن عربی الزّندیق و أکثر فیها من النقل عنه و إن عبّر عنه ببعض العارفین و قـد نقلنا جملـة من کلامه فی تلک الرّسالـة و غیرها فی رسالتنا الّتی فی الرّد علی الصوفیـة المسـمّاة بالنفحات الملکوتیّة، نعوذ باللّه من طغیان الأفهام و زلل الأقدام.

و قـد تلمـذ فی الحدیث علی السّـید ماجد البحرانی فی بلاد شـیراز، و فی الحکمة و الاصول علی صدر الدین محمّد بن إبراهیم الشـیرازی الشـهیر بصدرا، و کان صـهره علی ابنته و لذا تری أنّ کتبه فی الاصول کلّها علی قواعد الصوفیّة و الفلاسـفة، و لاشتهار مذهب التصوّف فی دیار العجم و میلهم إلیه بل غلوّهم فیه صارت له المرتبة العلیا فی

زمانه، و الغاية القصوى فى أوانه، وفاق عند الناس جملة أقرانه، حتى جاء على أثره شيخنا المجلسى «قد» فسعى غاية السعى فى سدّ تلك الشقاشق الفاغرة، و إطفاء نائرة تلك البدع البائرة انتهى.

و العجب من صاحب روضات الجنات حيث أراد تزكية الرّجل فجرحه، و تطهيره فدّنسه، و تبرئته فلوّثه، قال بعد تفصيل كلام له فيه:

ثمّ ليعلم أنّ ظنّى فى نسبة التصوّف الباطل إليه أنّها فرية بلا مرية، و الباعث عليه اقتداؤه بهذه الطريقة فى الموالاة مع الغلاة و الملحدين، و إظهار البراءة من أجلائنا المجتهدين، و عدم اعتنائه بالمخالفة لاجماع المسلمين، و الانكار لبعض ضروريات هذا الدين المبين، و إلاّ فبين ما يقوله و يقولونه مع قطع النظر عن هذا القدر المشترک بون بعيد، و إنكاره على أطوار هذه الطايفة فى حدود ذواتها انكار بليغ شديد، ثمّ نقل عنه ما قدّمنا نقله من المقالات.

و أنت خبير بأنّه إذا كان موافقا للصوفية فى أصل مذهبهم الفاسد و هو القول بوحدة الوجود على ما عزّاه إليه غير واحد من العلماء، فكلّ الصّيد فى جوف الفراء، فضلا عما نسب إليه من انكاره لبعض ضروريات الدين و خلافاته لاجماع المسلمين، و احتذائه حذو الغلاة و الملحدين، و هذا مقام ما قيل و يقال:

عن المرء لا تسأل و سل عن قرينه و كلّ قرين بالمقارن يقتدى

و اللّه العالم بالسّرائر و الخبير بالضّماير من كلّ برّ و فاجر.

و منهم محمود بن عمر بن محمّد بن أحمد الزّمخشرى المعروف بجار اللّه المجاور فى حرم اللّه، قال فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِى » ما لفظه:

و عن الحسن زعم أقوام على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّهم يحبّون اللّه فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل، فمن ادّعى محبّته و خالف سنّة رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو كذّاب، و كتاب اللّه يكذّبه، و إذا رأيت من يذكر محبّة اللّه و يصفق بيديه مع ذكرها و يطرب و ينعر و يصعق فلا شكّ فى أنّه لا يعرف اللّه و لا يدرى ما محبّة اللّه

و ما تصـفيقه و نعرته و صـعقته إلاّ أنّه تصوّر فى نفسه الخبيثة صورة مسـتملحة معشقة، فسمّيها اللّه بجهله و ذعارته ثمّ صفق و طرب و نعر و صعق على تصوّرها و ربّما رأيت المنى قـد ملاء إزار ذلک المحبّ عند صـعقته، و حمقى العامّة حواليه قد ملاؤا أردانهم بالدّموع لما رقّقهم من حاله.

و قال فى كتابه المسمّى بأطواق الذهب:

يا رافع اليـد بالـدّعاء، و يا داعى الحقّ بالنّداء، إنّه لا يسـمع بالصّـماخ فاقصـر من الصـراخ، أتنادى باعدا، أم توقظ راقدا تعالى اللّه الملک لا تأخـذه السّـنة و لا تغلّطه الألسـنة، يعلم رموز البكم و الخرس، كما يعرف لغـة التّرک و الفرس، يسـمع دبيب النملة الخرساء على الصّـخرة الملساء، كما يسمع بغام الظبية(1) الجيداء على صحن البيداء، ألا إنّ رفع اليد بالدّعاء سمعة، و رفع الصّوت بالشكاية شنعة، ما هذه الشهقة و النّداء، و ما هذه الصّـيحة الشنعاء، أمن الضرب تتألّم؟ أم مع أكفائک تتكلّم؟ أ تحسبه قسّاما نسى قسمک؟ أم رزّاقا جهل اسمک؟ أنام من خلق الأنام؟ أرقـد من أنشأ الذئب و النقد(2) معاشـر الضـعفة أتظنّون أن لا تأكلوا أقواتكم دون أن ترفعوا أصواتكم لا تدعوا اليوم ثبورا لقد ظننتم باللّه ظنّ السوء و كنتم قوما بورا.

و منهم الفاضل البارع المحقّق السـيد علىّ بن محمّد الحسـينى الجرجانىّ المشـتهر بالسـيد الشريف شارح المواقف، قال فى حاشيته على شرح التجريد للاصفهانى فى المسألة الثالثة فى أنّ الوجود زايد على المهيّة و ليس نفسها عند ما يعنون قول الشّارح: فيلزم أن يكون المهيّات متّحدة و ليس كذلک قيل عليه ذهب جماعة من الصوفيّة إلى أن ليس فى الواقع إلاّ ذات واحدة لا تركيب فيها أصلا بل لها صفات هى عينها و حقيقـة الوجود المنتزعـة فى حـدّ ذاتهـا عن شوائب العـدم و سـمات نقصان الامكان، و لها تقيّـدات بقيود اعتباريّـة بحسب ذلک يتراءى موجودات متمايزة فيتوهّم من ذلک تعدّد حقيقىّ، فما لـم يقـم برهان على بطلان ذلک لـم

1- (1) - اى صوتها، م.

2- (2) - النقد من الغنم قصار الأرجل، كذا فى الصحاح.

يتمّ ما ذكروه من عدم اتّحاد المهيّات، و لا يتمّ أيضا اشتراک الوجود بل لا يثبت وجود ممکن أصلا:

أقول: هـذا خروج عن طور العقل، فانّ بـداهته شاهـدة بتعدّد الموجودات تعدّدا حقيقيا و أنّها ذوات و حقايق مختلفة بالحقيقة دون الاعتبار فقط و الـذّاهبون إلى تلک المقالة يدّعون اسـتنادها إلى مکاشـفاتهم و مشاهداتهم و أنّه لا يمکن الوصول إليها بمباحث العقل و دلالته، بل هو معزول هناک کالحسّ فى إدراک المعقولات.

و أمّـا المتقيّـدون بـدرجات العقـل و القـائلون بأنّ ما يشـهد به العقل فمقبول و ما شـهد عليه فمردود و أنّه لا طور وراءه، فيزعمون أنّ تلک المکاشـفات و المشاهدات على تقدير صحّتها مؤوّلة بما يوافق العقل، فهم بشهادة بديهته عندهم مستغنون من إقامة برهان على إبطال أمثال ذلک، و يعدّون تجويزها مکابرة لا يلتفت إليها.

و قال فى شرح المواقف فى المقصد الخامس من المرصد الثانى من الموقف الخامس منه:

اعلم أنّ المخالف فى هذين الأصلين يعنى عدم الاتّحاد و عدم الحلول طوايف ثلاثة: الاولى النّصارى، الطايفة الثّانية النصيرية و الاسحاقيّة من غلاة الشّيعة الطايفة الثالثة بعض المتصوّفة، و کلامهم مخبط بين الحلول و الاتّحاد و الضـبط ما ذکرناه فى قول النصارى، و الکلّ باطل سوى أنّه تعالى خصّ أولياءه بخوارق عادات کرامة لهم.

و رأيت من الصوفيّة الوجوديّة من ينکره و يقول لا حلول و لا اتّحاد إذ کلّ ذلک يشـعر بالغيريّة و نحن لا نقول بها بل نقول: ليس فى الـدّار الوجود غيره ديّار، و هذا العذر أشدّ قبحا و بطلانا من ذلک الجرم. إذ يلزم تلک المخالطة التى لا يجترى على القول بها عاقل و لا مميّز أدنى تمييز و قال فى المقصد الثالث من المرصد الأوّل من الموقف السادس:

لبعض الصوفيّة من أهل الاباحة أنّ التّكليف بالأفعال الشاقّة البدنيّة يشغل الباطن عن التفكر فى معرفة اللّه و ما يجب له من الصفات و يجوز و يمتنع عليه من الأفعال، و لا شكّ أنّ المصلحة المتوّقعة من هذا الغايب و هو النظر فيما ذكر تربى أى تزيد و تفضل على ما يتوّقع ممّا كلّف به فكان ممتنعا عقلا.

و الجواب أنّ ذلک أى التفكر فى معرفة اللّه و صفاته و أفعاله أحد أغراض التّكليف بل هو العمدة الكبرى منها و ساير التّكاليف معينة عليه داعية إليه و وسيلة إلى اصلاح المعاش المعين على صفاء الأوقات عن المشوّشات الّتى تربى شغلها عن شغل التكاليف و قال فى المقصد السادس من المرصد الخامس من الموقف الأوّل منه:

ان قلت: لا نسلّم أنّ المعرفة لا تتمّ إلاّ بالنظر كما ادّعيتم بل قد تحصل بالتصفية فانّ رياضة النفس بالمجاهدات و تجريدها عن الكدورات البشريّة و العوائق الجسدية و التوجّه إلى الحضرة الصّمدية و التزام الخلوة و المواظبة على الذّكر و الطاعة تفيد العقائد الحقّة الّتى لا يحوم حولها شائبة رائبة، و أما أصحاب النظر فيعرض لهم فى عقايدهم الشّكوک و الشّبهات النّاشئة من أدلّة الخصم.

قلنا: هى يحتاج إلى معونة النظر ألا ترى أنّ رياضة المبطلين من اليهود و النصارى يؤدّيهم إلى عقايد باطلة، فلابدّ من الاستعانة بالنظر أو قلنا المراد أنّه لا مقدور لنا من طرق المعرفة إلاّ النظر فانّ التّصفية كما هو حقّها تحتاج إلى مجاهدات شاقّة و مخاطرات كثيرة قلّما يفى من المزاج فهى فى حكم ما لا يكون مقدورا.

و منهم الفخر الرازى فى المسألة الحادية و الثلاثين فى النّبوّة من كتابه المسمّى بالأربعين قال:

اعلم أنّ الّذين ينكرون نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم طوايف، ثمّ تعرّض لذكرها إلى أن قال: الطايفة السادسة جمع من الصوفيّة يقولون: الاشتغال بغير اللّه حجاب عن

معرفة اللّه تعالى، و الأنبياء يدعون الخلق إلى الطاعات و التكاليف، فهم يشتغلون الخلق بغير اللّه و يمنعونهم عن الاشتغال باللّه فوجب أن لا يكون حقا و صدقا.

و منهم الدّميرى فى كتاب حياة الحيوان فى باب العين المهملة عند ذكر العجل قال:

«فايدة» نقل القرطبى عن أبى بكر الطرطوشى أنّه سئل عن قوم يجتمعون فى مكان يقرءون شيئا من القرآن ثمّ ينشد لهم منشد شيئا من الشعر فيرقصون و يطربون و يضربون بالدّف و الشبابة هل الحضور معهم حلال أم لا؟ فقال: مذهب الصوفية بطالة و جهالة و ضلالة، و ما الاسلام إلاّ كتاب اللّه و سنّة رسول اللّه، و أما الرّقص و التواجد فأوّل من أحدثه أصحاب السامرى لما اتّخذ لهم عجلا جسدا له خوار، قاموا يرقصون حوله و يتواجدون، فهو دين الكفار و عبّاد العجل، و إنما كان مجلس النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار فينبغى للسلطان و نوّابه أن يمنعوهم من الحضور فى المساجد و غيرها و لا يحلّ لأحد يؤمن باللّه و اليوم الاخر أن يحضر معهم و لا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالک و الشافعى و أبى حنيفة و أحمد و غيرهم من أئمة المسلمين.

و منهم محمّد بن محمّد بن محمّد المحدّث البخارى المعروف فى كتابه الذى سماه فاضحة الملحدين و ناصحة الموحّدين، قال:

ثمّ إن اولئک الملحدين الّذين هم إخوان الشياطين يخدعون الجاهلين بتمسّکهم فى ذلک الضلال المبين بقوله تعالى: «وَ لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ »، و بقوله تعالى: «وَ قَضى رَبُّکَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ».

و يلحدون فى الاية الأولى بتفسيرهم وجه اللّه ههنا بذات اللّه موافقا لرأيهم لا بالجهة الّتى امر بها و رضيها على ما هو الحقّ المبين و المطابق لقواعد الدّين و لاجماع علماء الاسلام و المسلمين، و لما يدلّ صدر هذه الاية أيضا و هو قوله تعالى:

«وَ لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ » فانّه يدلّ على أنّ جهات المشرق و المغرب للّه تعالى، لا أنّها هو اللّه تعالى و إلاّ يوجب أن يكون النظم و اللّه المشرق و المغرب لا و للّه المشرق و المغرب

و أنت خبير بـأنّ ثمـة للمكان و أنّ اللّه تعالى منزّه عن الجهـة و المكان و أنّ كون الشـىء الواحـد فى آن واحـد فى أمكنـة مختلفـة بـديهىّ البطلان. و أنّ تفسـير هـذه الايـة بما فسّـره الملاحـدة مسـتلزم لكون اللّه تعالى فى مكان و جهـة بل كونه فى آن واحـد فى أمكنـة الجهات المختلفة عند اختلاف أماكن المتوجهين و ذلک محال على محال و مع ذلک كفر صريح و ضلال.

و يلحدون فى الاية الثانية حيث يفسّـرون قضـى بحكم و قدّر مخالفا لقواعد الدّين و لاجماع المفسّـرين لا بأوجب و أمر على ما هو مطابق لقواعد الاسـلام و لاجماع الرّسل و الأنبياء عليهم السّـلام و منهم الشيخ المتبحرّ البصير و المتتبّع الخبير الشيخ علىّ ابن الشيخ محمّد ابن الشـيخ حسن ابن الشـيخ زين الدّين الشـهيد الثانى «قد»، فقد ألف رسالة مستقلّة فى الرّد على الصّوفيّة و سمّاها: السّهام المارقة من أغراض الزّنادقـة، و قـد حكينـا عنه فى المقـام الثالث من كتابه المسـمّى بالـدّر المنثور من المأثور و غير المأثور كلاما مبسوطا متضـمّنا لمطاعنهم فليراجع هناک.

و منهم الشـيخ المحـدّث محمّد بن الحسن بن علىّ بن محمّد الحرّ العاملى صاحب كتاب وسايل الشّـيعة، فقد ألّف فى الرّد عليهم رسالة كما صرّح به فى خاتمة الكتاب المذكور عند تعداد كتبه.

و منهم السّـيد الأعظم قدوة اولى الألباب أبو تراب مرتضى ابن الدّاعى الحسن الرّازى «قد» فقد جمع فى بيان مذاهب الصّوفيّة و ما يتضمّن من مطاعنهم كتابا بالعجميّة و سمّاه: تبصرة العوام، و آخر بالعربيّة و سمّاه: الفصول التّامّة فى هداية العامّة.

و منهم الشّـيخ نصير الدّين علىّ بن حمزة بن الحسن الطوسى، فقد ألف كتاب ايجاز المطالب فى ابراز المذاهب و ضمّنه جملة من مطاعن الصوفيّة حسبما نقل عنه مولينا المقدّس الأردبيلى «قد» فى كتاب حديقة الشّيعة.

إلى غير ذلک ممّا صدر من علماء الاسلام من الخاصّة و العامّة من مطاعن

هذه الطايفة تصـريحا و تعريضا إجمالا و تفصـيلا، و لنقتصر فى المقام بذلک و لنعقّبه بما يجب التّنبيه عليه دفعا لبعض تلبيسات هؤلاء، و ابطالا لتمويهاتهم، فأقول مستعينا باللّه و متوكلا عليه:

تنبيه و هداية

قـد رأيت فى بعض كتب المتصوّفة ممّن يدّعى التشـيّع نسـبة التّصوف إلى جماعة من علماء الاماميّة مثل السـيّد علىّ بن طاوس، و ابن فهد الحلّى، و الشـهيد الثانى، و المجلسـىّ الأوّل بل الثانى أيضا، و شـيخنا البهائى و نظرائهم، و هى فرية بيّنة و بهتان عظيم، و غرضهم من هذا الاختلاق تكثير السواد و اصـلاح ما ذهبوا اليه من مذهب الفساد، و لعا بترويج متاعهم الكاسد، و شـعفا بتلفيق سلعتهم الفاسد، فانّ العادة جارية و الطبيعة مايلة إلى أنّ كلّ من عمل عملا حقّا أو باطلا يطلب له فيه مشاركا، و كلّ من سـلک سبيلا برّا أو فاجرا يشعف بمن كان معه فيه سالكا، لا سيّما إذا كان من أهل البدعة و الضلالة يكون سعيه فى تحصيل الموافق له أشدّ و آكد، و فرحه و انبساطه اليها بوجدانه أعظم و أكثر.

و هؤلاء لزيغهم عن قصـد السبيل، و شـعفهم بكلام بدعـة و دعاء ضـلالة، و كونهم فتنـة لمن افتتن بهم، ضالّين عن هـدى من كان قبلهم، مضـلّين لمن اقتدى بهم فى حياتهم و بعد وفاتهم، نسـبوا تلک الطريقة الفاسدة إلى أساطين العلماء تفتينا للهمج الرّعاع، و خداعا للجاهليّة الجهلاء، و العوام الّذين هم كالأنعام.

و قد علمت تفصـيلا عند نقل كلام الشهيدين و المجلسيين طهارة لوح خواطرهم من هذا الدّنس و الرّين، و ظهر لک هناک أنّ تلک النسبة اليهم افک فاحش و بين.

و منه يعلم أيضا نزاهة ساحة ابنى فهد و طاوس من ذلک الرّجس و قد أشار إليه المحدّث العلامة المجلسى «قد» أيضا فى كتاب عين الحياة حيث قال ما ترجمته:

قـد كان بين أهل الحقّ دائما عبّاد و زهّاد ثابتـة على الصّراط المسـتقيم، مواظبة على سـلوک طريق القرب و الزّلفى و المباحات و العبادة و العبودية خارجة،

من سلسلة الصوفيّة لم يعدهم أحد منهم مثل سلطان العلماء و المحقّقين الشيخ صفى الدّين، و سيّد الافاضل ابن طاوس، و زبدة المتعبّدين ابن فهد الحلّى، و الشهيد السعيد الشيخ زين الدّين رضوان اللّه عليهم أجمعين و غيرهم من الزّهاد الّذين أخذوا طريقة الرّياضة و العبادة و العبودية بقانون الشريعة المقدّسة.

و بعد فراغهم من العلوم الشرعية توجّهوا إلى العبادة و الرّياضة، و هداية الخلق و تدريس العلوم الحقّة، و لم يؤثر عن أحد منهم بدعة و ضلالة.

و لأجل ذلک لم يعدّ المتصوّف الجامى فى النّفحات أحدا منهم من الصّوفية، و لم يدخلهم فى زمرتهم مع غاية اشتهارهم و صيتهم شهرة الشمس فى رابعة النهار.

و قد أشرق وجه الأرض بأنوارهم و تصانيفهم و آثارهم، و صارت الدّنيا معمورة بميامن بركاتهم، و راج دين الاماميّة و الشيعة الاثنى عشرية بمساعيهم الجميلة حتى بذلوا فى طريق الشريعة مهجهم الزّكية و أنفسهم القدسية.

بخلاف أهل الباطل من الصوفية، فقد بالغوا فى تخريب الدّين و هدم أساس الشّرع المبين، و قد سمعت معارضات السفيان الثورى و عباد البصرى و أضرابهما من الصوفية مع أئمة اليقين و تعارضهم دائما مع علماء الشيعة بعد زمن الأئمة عليهم السّلام، هدانا اللّه و اياكم إلى الحقّ المبين بمحمد و آله الطاهرين سلام اللّه عليهم أجمعين، انتهى كلامه رفع مقامه.

و قد ظهر منه و مما قدّمنا نقله عنه من اعتقاداته أنّ نسبة تلک الطريقة الباطلة إلى هؤلاء العلماء العظام و الأساطين الأعيان بيّنة الفساد و البطلان.

و أما الشيخ البهائى فربما عزى إليه القول بالتصوّف و طعن عليه بذلک لما يتراءى من بعض كلماته و أشعاره، إلاّ أنّ الظاهر أنّ صدور تلک الكلمات منه مداراة للخلق، و منازلة إلى أذواقهم، و معاشرة معهم.

كما أفاده السّيد المحدّث نعمة اللّه الجزائرى حيث قال فى ما حكى عنه فى لؤلؤة البحرين: إنّ الشّيخ المذكور كان يعاشر كلّ فرقة و ملّة بمقتضى طريقتهم و دينهم و ملتهم و ما هم عليه، حتّى أنّ بعض علماء العامّة ادّعى أنّه منهم،

قال السّيد: فأظهرت له كتاب مفتاح الفلاح و كان معى فتعجّب من ذلک و ذكر جملة من المؤيّدات لما ذكره، ثمّ استدلّ بقوله قدّس سرّه فى قصيدته الّتى فى مدح القائم عليه السّلام:

و إنّى امرء لا يدرک الدهر غايتى و لا تصل الأيدى إلى سير أغوارى

اخالط أبناء الزّمان بمقتضى عقولهم كيلا تفوهوا بانكارى

و اظهر أنّى مثلهم يستفزّنى صروف الليالى باختلاء و امرار

. انتهى و قال السّيد أيضا فى محكى كلامه فى روضات الجنّات: كانت كلّ طائفة من طوائف المسلمين ينسبه إليها، و سمعت الشّيخ الفاضل الشّيخ عمر من علماء البصرة يقول: إنّ بهاء الدّين محمّدا من أهل السّنة و الجماعة إلاّ انّه كان يتّقى من سلطان الرّافضة، و كذلک الملاحدة و الصّوفيّة و العشّاق سمعت كلّ هؤلاء يقولون:

إنّه من أهل نحلتنا، و من هذا كان شيخنا المعاصر يعنى به العلامة المجلسى يزدرى عليه بهذا و أمثاله، و فيض اللّه التفريشى لم يوثقه فى كتاب الرّجال و إن أثنى عليه فى العلم و الحفظ و غير ذلک، و الحقّ أنّه ثقة معتمد عليه فى النقل و الفتوى انتهى.

فقد ظهر بذلک عدم ثبوت تصوّف هذا العالم البارع النحرير، كثبوت عدم تصوّف من تقدّم ذكره من العلماء.

و بعد الغضّ عن ذلک و تسليم اتّصافهم به و قبول أنّهم من الصوفية فأقول:

إنّ التصوّف الذى لهم ليس على حذو ما عليه ساير الصوفية على ما توهّمه هؤلاء الجهلة الذين نسبوه اليهم ابتهاجا بمشاركتهم معهم فى المذاق و موافقتهم لهم فى المذهب.

و ذلک لأنّ تصوّف هؤلاء الأجلّة عبارة عن العمل بالأوامر و النواهى الشرعية، و ترک الشبهات و الزهد و القشف و الرّياضة، و التحلّى بالفضائل و التخلّى عن الرذائل و ملازمة المروّة و التقوى، و الاعراض عن ملاذ الدّنيا و اخلاص العبادات و مواظبة التضرّع و الابتهال و المناجاة و إقامة الصلوات المكتوبات و التعقيبات المأثورات و الاذكار و الأدعيات الموظفات فى الأوقات المرسومات، و الاشتغال بالتعليم

و التدريس و تأليف كتب الفقه و الأخبار و الروايات و ساير العلوم الشرعية.

و تصوّف تلک الجهلـة عبارة عن المداومـة على العبادات المبتدعـة و الأذكار المخترعة، و دعوى الكرامات الكاذبة و الصّلائف الباطلة، و ترک أحكـام الشـريعة و أخـذ مراسم الطريقـة على زعمهم، و الوصول إلى معـارج الحقيقـة على حسـبانهم و إن لم يقع، و ادّعاء الكشف و الشهود و القول بالحلول و الاتحاد و وحدة الوجود إلى غير هذه من أطوار الفريقين الّتى بينهما بعد المشرقين.

نعم قد وجدت من علماء الشـيعة رجلا واحدا لا ريب فى تصوّفه و موافقته للصّوفيّة فى أكثر أقوالهم الفاسدة، و لذلک اهبط قدره عن درجة الاعتبار، و اسـقط قوله عن نظر علمائنا الأبرار، و هـذا الرّجل هو محمّد بن الحسن بن علىّ بن أبى جمهور الاحسائى صاحب كتاب غوالى اللّئالى.

قال الشـيخ يوسف البحرانى فى لؤلؤة البحرين: و الشـيخ محمّد بن أبى جمهور كان فاضـلا مجتهدا متكلّما له كتاب غوالى اللئالى جمع فيه جملـة من الأحاديث إلاّ أنّه خلط الغثّ فيه بالسّمين و أكثر فيه من أحاديث العامّة، و لهـذا أنّ بعض مشايخنا لم يعتمـد عليه، و له كتاب شرح زاد المسافرين و كتاب المجلى على مذاق الصّوفيّة.

و قال المحـدّث النّيسابورى فى ترجمته: متكلّم فقيه صوفىّ له كتب: منها كتاب المجلى جمع فيه بين الكلام و التصوّف، و نقل فى روضات الجنات من أواخر كتاب وسائل الشـيعة كون كتابى حـديثه و هو كتاب غوالى اللئالى و نثر اللئالى خارجين عن درجـة الاعتماد و الاعتبار، مع أنّ صاحب الوسائل من جملة مشاهير الأخبارية و الأخبارية لا يعتنون بشىء من التصحيحات الاجتهادية و التنويعات الاصطلاحية.

و قال المحدّث العلامة المجلسىّ فى مقدّمات البحار: كتاب غوالى اللئالى و ان كان مشهورا و مؤلفه فى الفضل معروفا لكنه لم يميّز القشر من اللباب و أدخل أخبار متعصّبى المخالفين فى روايات الأصحاب، فلذا اقتصرنا على نقل بعضها، و مثله كتاب نثر اللئالى، انتهى.

ص:413

أقول: و من جملة الأخبار العامية التى رواها فى الغوالى ما رواه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: صلّوا خلف كلّ برّ و فاجر، و من جملة أحاديث الصوفية التى نقلها فيه ما رواه فيه عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قيل له: يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ قال: كان فى عماء ما فوقه هواء و لا تحته هواء.

و هذا الحديث من موضوعات الصوفية حسبما أشرنا اليه فيما تقدّم، و قد رواه أكثر الصوفية فى كتبهم حتى محيى الدّين فى الفصوص و أكثر شرّاح الفصوص أيضا.

و من جملة ما رواه أيضا فيه ما نقله عن علىّ عليه السّلام قال: و روى عنه و قد سئل عن معنى التصوّف و التصوّف مشتقّ من الصوف و هو ثلاثة أحرف: ص، و، ف. فالصاد صبر و صدق و صفاء، و الواو ودّ و ردّو و وفاء، و الفاء فقر و فرد و فناء.

و آثار الوضع على هذا الحديث غير خفية كما يعرف ذلک مما ذكرناه فى المقام الثانى، فانّ بدو ظهور الصوفية و استعمال هذا الاسم فيهم و تسميتهم بها كان فى زمان أبى هاشم الكوفى فى عصر الصادق عليه السّلام و لم يكن فى عصر أمير المؤمنين عليه السّلام أحد يسمّى بهذا الاسم.

و كم له فى كتبه من أخبار الصوفية و أحاديثهم الموضوعة و أقوالهم الردية حسبما نقلها عنه أصحابنا فى كتبهم إزراء عليه بذلک.

قال بعض تلامذة العلامة المجلسى فى كتابه الذى ألفه فى الرّد على الصوفية فى تفصيل خرقة هذه الطايفة ما هذه عبارته:

فمرّة قال شيخ شيوخ الصوفى اعنى ابن أبى جمهور الاحسائى فى كتاب مجلى مرآت المنجى أنّ شيخ طائفتهم الشيخ الجنيد لبس الخرقة من يد خاله الشيخ السرى السقطى، و السّرى لبسها من معروف الكرخى، و المعروف الكرخى لبسها من الامام علىّ بن موسى الرّضا عليه السّلام.

و مرّة قال: إنّ معروف لبس من داود الطائى و أخذ هذه الطريقة منه، و هو من حبيب الأعجمى، و هو من الحسن البصرى، و هو من أمير المؤمنين عليه السّلام.

و تارة اخرى ذكر أنّ الامام أبا علىّ شقيق البلخى أخذها عن الامام أبى عمرو

موسى بن زهد الفراعى عن اويس القرنى ره عن أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام.

و كتب فى الحاشية أنّ سلسلتهم تنتهى إلى ذى النون المصرى، و شيخ ذو النون كان من تلامذة مولينا و سيدنا الحسن الأخير العسكرى عليه و على ابنه الحجّة و آبائه السلام، انتهى.

أقول: فانظروا إلى هذا الاحسائى الشيعى باعتقاده كيف هبت به ريح الهوى إلى قبّة هذه الفئة، فضلّ و جار عن قصد السبيل، و قال غير الجميل، و سار بغير دليل، و تاه متاه بنى اسرائيل، و لم يفهم مضادّة الحسن البصرى السامرى مع أئمّتنا لا سيّما مولانا أمير المؤمنين عليه الصلاة و السلام، و لم يعلم أنّ هذه الاختلافات فى الرّوايات العامية الملاحدة من أعظم القوادح فيها كيف و لم يذكر ما دونه هذا الرّجل فى كتابه شيخ الطايفة المحقّة فمن دونه، و لو كان له أصل لذكروه و ليس فليس إلى أن قال:

نعم ذكر الجامى فى ترجمة الشيخ محيى الدين المغربى من كتاب النفحات أنّ نسبة خرقته فى التصوّف تصل إلى الشيخ محيى الدّين عبد القادر الجيلانى بواسطة واحدة.

و بالجملة للجامى فى الكتاب المذكور، و السهروردى فى كتاب العوارف، و هبة اللّه الاصفهانى فى كتاب الخمسين، و شمس الدين محمّد بن محمّد ابن الجزرى الشافعى فى خاتمة عواليه، و غيرهم من علماء العامّة المتصوّفة هذيان طويل فى أمر الخرقة و أحكامها.

و الفاضل الاحسائى سرقه منها و أسرف فى تزيينه و تشهيره و لا جناح عليهم فى هذا الاجماع منهم، فانّ من الأمثال المشتهرة: عند الخنازير تنفق العذرة.

قال ذكر السيّد نظام أحمد فى خاتمة أربعينه عند ذكره الأسانيد الّتى كانت له فى المصافحة و المصاحبة و لبس الخرقة ما هذه عبارته:

لبس الشيخ حاتم الأصم من الشيخ شقيق البلخى، و هو من الشيخ ابراهيم بن أدهم، و هو من موسى بن يزيد الرّاعى، و هو من مقدم التابعين اويس القرنى، و هو

من أمير المؤمنين أبى حفص عمرو أبى الحسن رضى اللّه عنهما، و هما من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قال فى موضع آخر منه: قال الشيخ العارف الربّانى أبو بكر الهوارا: رأيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام و طلبت لبس الخرقة منه، فأشار صلوات اللّه و سلامه عليه إلى أبى بكر الصديق، فألبسنيها.

و فى موضع آخر منه قال شيخ الاسلام أبو البيان الدّمشقى القرشى الشافعى لبستها من سيدنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من الخضر المعمّر عليه السّلام و ذلک فى اليقظة الّتى لا شكّ فيها و لا ريب عند أهل الايمان بالغيب.

قال: أقول: و لكن ليس هذا بأعجب من ساير ما يقوله فى ذلک الكتاب بلا شک و لا ارتياب مثل أنّه كتب فى مبحث السّلوک منه أنه قال أمير المؤمنين عليه السّلام إنّ للّه تعالى شرابا إذا شربوا سكروا، و إذا سكروا طابوا، و إذا طابوا ذابوا، و إذا ذابوا خلصوا، و إذا خلصوا طلبوا، و إذا طلبوا وجدوا، و إذا وجدوا وصلوا، و إذا وصلوا اتّصلوا، و إذا اتّصلوا لا فرق بينهم و بين حبيبهم انتهى.

قال: أقول: جاء هذا الخبر من طريقنا معاشر الشيعة الاماميّة الموحّدة هكذا و فى شرح مختصر العضدى للحاجبى قال علىّ عليه السّلام: إذا شرب سكر، و إذا سكر هذى، و إذا هذى افترى، فارى عليه حدّ المفترى، انتهى.

و ممّا يضحک منه العبوس القمطرير أنّ الطبيب الجيلانى المدعوّ بالمؤمن ذكر فى رسالة الملعونة أنّ هذا الحديث مذكور فى كتاب صحيفة الرّضا عليه السّلام و كتب فى مبحث الكشف منه أنه نقل أنّه عليه السّلام قال: رأيت ربّى ليلة المعراج فى أحسن صورة فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثديى فعلمت علوم الأولين و الاخرين(1) انتهى كلامه رفع مقامه.

1- (1) هذا الحديث من مجعولات العامة كما يشعر به ما نقله القيصرى فى الفصل السابع من ديباجة شرح الفصوص هكذا، عبد الرحمن بن عوف عن عايشة قالت قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله): رأيت ربّى تبارک و تعالى فى أحسن صورة، فقال: فيما يختصم الملاء الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم أى ربّى مرّتين قال: فوضع اللّه كفّه بين كتفى فوجدت بردها بين ثدبى فعلمت ما فى السماوات و ما فى الأرض، ثمّ تلى هذه الاية: «وَ كَذلِکَ نُرِى إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ»، انتهى، منه.

و قـد أطنبت بنقله تنبيهـا لـک على اعتمـاد الاحسائى على أحاديث المخالفين و ركونه إلى أخبار الناصبين، و ليته قنع بـذلک و لـم يسع فى تخريب قواعـد الـدّين حيث انحرف عن مناهـج المتشـرّعين، و ولع بترويـج طريقـة المتصوّفين، و تشـهير مزخرفات المبتدعين جزاه اللّه ما يستحقّه يوم حشر الأولين و الاخرين.

هنا آخر المجلد الثالث عشر من هذه الطبعة النفيسة و تمّ تصحيحه و تهذيبه بيد العبد - السيد ابراهيم الميانجى - عفى عنه و عن والديه فى - 22 - من شهر محرم الحرام - 1383 - و يليه انشاء اللّه المجلد الرابع عشـر و أوله: «المقام الثامن فى الاخبار الواردة فى ذمّ الصوفية» و الحمد للّه رب العالمين.

استدراک تقدم حديث شريف فى ص 32 نقلا عن عقاب الأعمال مضطرب الألفاظ غير مستقيم المعنى و لـم يحضرنى العقاب عند الطبع حتى اراجعه فأثبتنـاه بعينه على ما فى الطبعـة الاولى حفظا للأمانـة فى النقل، و بعـد الطبع راجعنا العقاب فوجـدنا الحـديث فيه ص 207 هكـذا: محوت المحكم من كتاب اللّه. و فيه: محيط لو طلع منه. و فيه: أهل ذلک الوادى من حرّ ذلک الوادى و نتنه و قذره و ما أعدّ اللّه فيه لأهله، و انّ فى ذلک الوادى لجبلا يتعوّذون أهل ذلک الوادى من حرّ ذلک الجبل.

و فيه: لقليبا يتعوّذ أهل ذلک الشعب. و فيه: بولس.

أيضا ص 291 س 9 و من مواعظ عيسـى عليه السّلام «إلخ» هذا الحديث مذكور فى تحف العقول إلاّ أنّه زاد فيه بعد قوله: فى حيرة كلمة: لفعل. و ذكر بدل قوله:

تنفع و لا يؤكل: ينفع و يؤكل.

أيضا ص 306 س 4 قول المصـنف: و أمّا الأخبار فمنها «إلخ» هذا الحديث مذكور فى الكافى إلاّ أنّ فيه: وليّ الضلالة، بدل اولى الضلالة و سأل، بدل سئل.

فليكن على ذكر منک المصحح.

ص:417

درباره مرکز

بسمه تعالی

جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

با اموال و جان های خود، در راه خدا جهاد نمایید، این برای شما بهتر است اگر بدانید.

(توبه : 41)

چند سالی است که مرکز تحقیقات رایانه‌ای قائمیه موفق به تولید نرم‌افزارهای تلفن همراه، کتاب‌خانه‌های دیجیتالی و عرضه آن به صورت رایگان شده است. این مرکز کاملا مردمی بوده و با هدایا و نذورات و موقوفات و تخصیص سهم مبارك امام علیه السلام پشتیباني مي‌شود.

براي خدمت رسانی بیشتر شما هم می توانید در هر کجا که هستید به جمع افراد خیراندیش مرکز بپیوندید.

آیا می‌دانید هر پولی لایق خرج شدن در راه اهلبیت علیهم السلام نیست؟

و هر شخصی این توفیق را نخواهد داشت؟

به شما تبریک میگوییم.

شماره کارت :

6104-3388-0008-7732

شماره حساب بانک ملت :

9586839652

شماره حساب شبا :

IR390120020000009586839652

به نام : (موسسه تحقیقات رایانه ای قائمیه)

مبالغ هدیه خود را واریز نمایید.

آدرس دفتر مرکزی:

اصفهان -خیابان عبدالرزاق - بازارچه حاج محمد جعفر آباده ای - کوچه شهید محمد حسن توکلی -پلاک 129/34- طبقه اول

وب سایت: www.ghbook.ir

ایمیل: Info@ghbook.ir

تلفن دفتر مرکزی: 03134490125

دفتر تهران: 88318722 ـ 021

بازرگانی و فروش: 09132000109

امور کاربران: 09132000109

مرکز تحقیقات رایانه‌ای
قائمیه
اصفهان
www
برای داشتن کتابخانه های تخصصی
دیگر به سایت این مرکز به نشانی
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
مراجعه و برای سفارش با ما تماس بگیرید.
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹